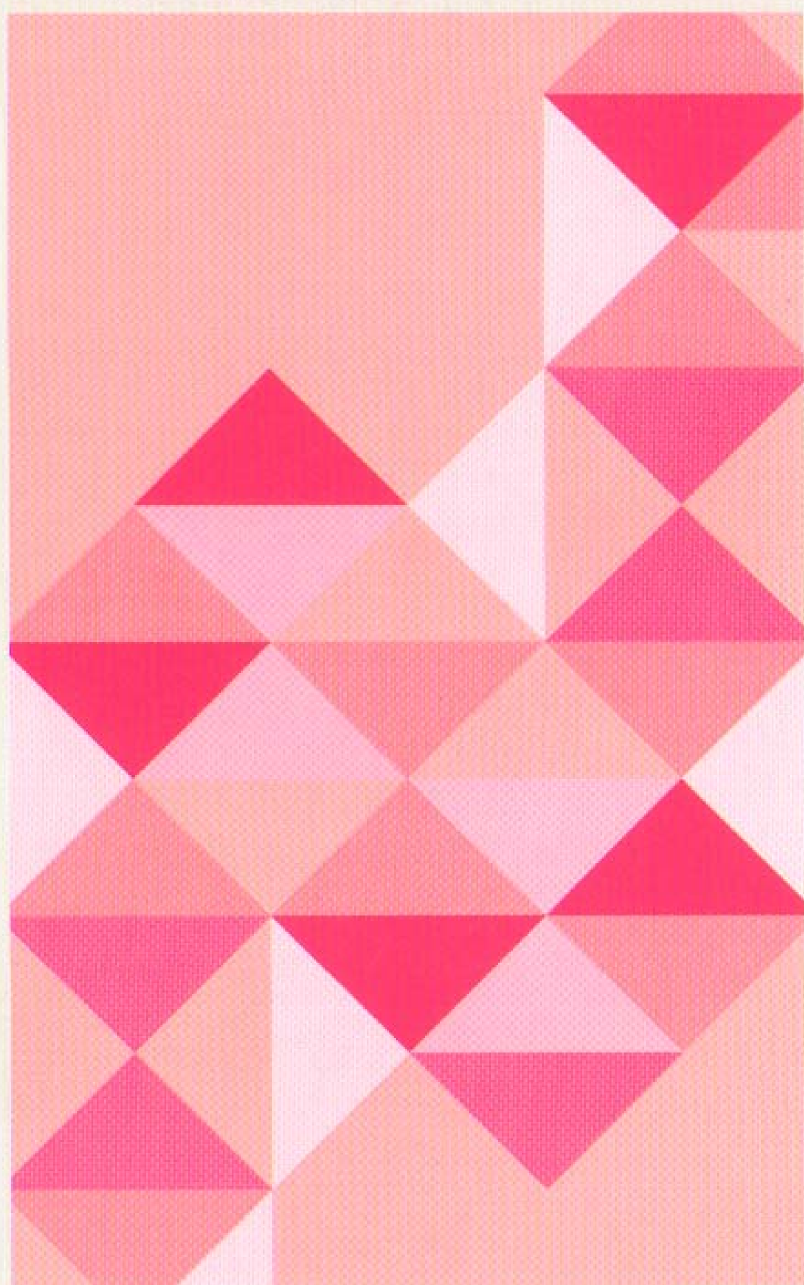
عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



مدار الفوضى

تغير المناخ والجغرافيا الجديدة للعنف

تأليف: كريستيان بارينتي

ترجمة: د. سعد الدين خرفان

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

VISIT…

LANZAROTE Caliente.com

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود فؤاد زكريا (1927-2010)

مدار الفوضى

تغير المناخ والجغرافيا الجديدة للعنف

تأليف: كريستيان بارينتي
ترجمة: د. سعد الدين خرفان



أبريل 2014
411

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون: 22431704 (965)
فاكس: 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 418 - 4

رقم الإيداع (2014/135)

العنوان الأصلي للكتاب

Tropic of Chaos
Climate Change and the New Geography of Violence

By

Christian Parenti

Nation Books, NY 2011

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

جمادى الآخرة 1435 هـ - أبريل 2014

المحتوى

مقدمة المترجم

«نرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب ما يفيده ويثير فضوله لمعرفة المزيد حول تغير المناخ والقضايا الاجتماعية والسياسية الأخرى المرتبطة به والتي تؤثر فينا وفي الأجيال المقبلة»

المترجم

يأتي هذا الكتاب بعنوان «مدار الفوضى: الجغرافيا السياسية لتغير المناخ»، كمحاولة لربط موضوع تغير المناخ بالصراع الاجتماعي والعنف السياسي اللذين يتميز بهما العالم اليوم. يقصد الكاتب بـ«مدار الفوضى» جغرافيا ذلك الحزام على طرفي خط الاستواء بين مدار السرطان ومدار الجدي، والذي تشهد دوله صراعات عنيفة وحروبا أهلية وجريمة منظمة. وهو المنطقة نفسها التي يضرب فيها تغير المناخ بقوة من خلال دورات الجفاف، وتكرر الفيضانات. لا يعزو الكاتب هذه المشاكل كلها إلى تغير المناخ وحده، لكنه يرى أنه أصبح عاملا رئيسا إضافة إلى العوامل الأخرى الموجودة مسبقا مثل إرث الحرب الباردة، وتبني الاقتصاد الليبرالي الجديد، فيما دعاه ثلاثية التجمع الكارثي للفقر والعنف وتغير المناخ.

لحظ العلماء تغيرا في المناخ خلال العقود الأخيرة نجم عن ارتفاع في متوسط درجة حرارة الأرض. ارتبط هذا بازدياد تركيز غازات الدفيئة التي تحبس الإشعاع الحـــراري المرتد من ســـطح الأرض. ويـــأتي في مقدمة هذه الغازات ثاني أكســـيد الكربون الذي يأتي معظمه من اســـتعمال الوقود الحفري كالفحم والنفط والغاز في الطاقـــة والتدفئة والنقل. ازداد تركيز هذا الغاز من 280 جزءا في المليون (ج. ف. م) قبل الثورة الصناعية إلى 390 (ج. ف. م) الآن. لقد تسبب هذا مسبقا في رفـــع درجة حرارة الأرض بحدود 0.6° م خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وســـيؤدي في حال اســـتمراره إلى زيادة درجة حرارة الأرض بـــــ 2 إلى 4 درجات مئوية بحلول منتصف هذا القرن. ســـينتج عن هـــذا ذوبان الجليديات والثلوج، وغمر المناطق الساحلية نتيجة ارتفاع سطح البحر، وازدياد تكرار حوادث الطقس العنيفة وشدتها، كالجفاف والفيضانات والأعاصير.

يبـــدأ المؤلف بـــشرح تأثير تغير المناخ بعرض حادث مقتـــل راعٍ من التوركانا في شـــمال كينيا اسمه لوكارنو. ولفهم خلفية هذا الحادث يسافر إلى شمال كينيا حيـــث يدور الصراع بين قبيلتين على الماشـــية. قبيلة التوركانا الكبيرة التي تعتمد عـــلى الرعي، وقبيلة البوكوت الأصغر لكن الأكـــثر عنفا، والتي تقوم بالإغارة على القطيـــع وسرقته. لقد أدى تغـــير المناخ في منطقة الســـاحل الأفريقي إلى ازدياد دورات الجفاف، وتأخر هطول الأمطار، ومجيئها على شـــكل فيضانات عارمة، في بلد يعتمد سكانه على الزراعة والرعي. لكن تغير المناخ لم يكن العامل الوحيد، إذ ساعده على ذلك انتشار الأسلحة الخفيفة من الدول المجاورة كأوغندا والصومال. ففي أوغندا اســـتولى عيدي أمين على السلطة، وقادت سياساته الفاسدة وتدخله في تنزانيا إلى انهيار الدولة وانتشـــار الأســـلحة والفوضى فيها. وفي الصومال أدت الحـــرب الباردة إلى نشـــوء حرب بالوكالـــة بين الصومال وأثيوبيـــا على أوغادين، انتهت بالانقلاب على سياد بري، وتفكك الصومال وتحوله إلى دولة فاشلة.

ينتقـــل الكاتب بنـــا بعد ذلك من شرق أفريقيا إلى أواســـط آســـيا، حيث تدور صراعات عنيفة منذ عقود. يرى الكاتب أن الأزمة بدأت في أفغانستان قبل الاجتياح الأمريكي، وحتى قبل تدخل الاتحاد الســـوفييتي. يعود بالأحداث إلى موجة الجفاف الشديد التي ضربت مقاطعة غور أيام الملك ظاهر شاه عام 1969. أدت هذه الأزمة

إلى انقلاب داود خان في العام 1973، ومن ثم إلى الحكم الشيوعي وتدخل الاتحاد السوفييتي في العام 1979. تضرب أزمة الجفاف اليوم أفغانستان كلها، وهذا يفسر تحول المزارعين إلى زراعة المخدرات. فالمعروف أن نبات الخشخاش يستهلك سدس كمية المياه التي تتطلبها زراعة المساحة نفسها بالقمح. أضف إلى ذلك الفارق بين سعر القمح وسعر المخدرات. أدى هذا كله إلى انتشار هذه الزراعة هناك خاصة مع عدم وجود دعم من الدولة للمزارعين، أو حماية لهم ضد الجفاف. وقد أدى هذا إلى تأييد طالبان التي تحمي هذه الزراعة وتستفيد منها أيضا، ومقاومة الحكومة ومعها الولايات المتحدة التي تحاول القضاء عليها.

كما يتجلى تأثير تغير المناخ في الصراع بين القوتين النوويتين الهند وباكستان بموضوع كشمير. كانت اتفاقية تقسيم الهند تقضي بأن تنضم المناطق ذات الأغلبية المسلمة إلى باكستان. غير أن كشمير التي يمثل المسلمون أكثر من70 في المائة من سكانها كانت تحكم من مهراجا هندوسي. وعند الاستقلال تذرع بدخول مقاتلين من باكستان وطلب تدخل الهند. احتلت الهند كشمير، وعلى الرغم من أنها وافقت على إجراء استفتاء فيها، فإنها لم تنفذ ذلك قط. تنبع أهمية كشمير من موقعها الإستراتيجي في وسط آسيا، ومن أنها تسيطر على جليديات جبال الهمالايا. تتحكم هذه الجليديات بتدفق مياه الأنهار التي تنبع من هناك، ومنها نهر السند الذي يروي أراضي البنجاب في باكستان، ويعتبر شريان الحياة الرئيس فيها. وقعت الهند وباكستان برعاية البنك الدولي في الخمسينيات على اتفاقية نهر السند بحيث تكون لباكستان حقوق حصرية على كمية المياه، وألا تقوم الهند إلا ببناء سدود لتوليد الطاقة الكهربائية، وبموافقة باكستان. لكن تغير المناخ أدى إلى تقلص هذه الجليديات بشكل كبير، كما أن الهند أقامت عدة سدود على روافد النهر مما أنقص من تدفقه، وخفض مستوى المياه الجوفية في باكستان. ليس لدى باكستان ما ترد به سوى التمسك بحقها في كشمير، وتأييد المعارضة فيها ضد الهند. وما لم يتم تأمين حقوق الباكستان على المياه، فسوف يستمر الصراع هناك.

وفي الهند أكبر دولة ديموقراطية في العالم يدور أقدم صراع مسلح في آسيا بين الثوار الماويين والسلطات في الولايات الجنوبية الشرقية، ومنها أندرا

براديــش. وهنا نلمس التجمع الكارثي على شــكل تغــير مناخي أدى إلى جفاف وفيضانـــات وهجرات جماعية، تضاف إليها سياســات ليبراليــة جديدة خفَضت الدعم للمزارعين، وقلصت الإنفاق على مشـــاريع الري. يستعرض الكاتب هنا ما ســمي بالثوة الخضراء في الستينيات التي جاءت على شكل زراعة محصول واحد معدل جينيا كالقطن، واستخدام مكثف للأسمدة الصناعية والمبيدات الحشرية. لقــد أدى هـــذا إلى رفع المردود لعدة ســنوات، لكنه تســبب بنتائج كارثية على المدى الطويل. فبينما زاد المحصول تناقصت أســعار القطن وقل دخل المزارعين. وبينــما تخلت الدولة عن إقراض المزارعين ودعمهم وترميم أنظمة الري القديمة، لجــأ المزارعون للاقتراض من مرابين خاصين بفوائد كبيرة لشراء مســتلزمات هذه الزراعة وحفر الآبار الجوفية. تناقص مردود الأرض أيضا نظرا إلى زراعة محصول واحد وإزالة الغابات والاعتماد على الأســمدة والمبيــدات الذي أدى إلى تدهور التربة. وعند فشل المحصول أو انخفاضه لم يكن أمام المزارعين سوى الانتحار، أو الانضمام إلى صفوف العصابات المسلحة.

يقفــز المؤلف بعد ذلك فوق المحيــط الهادئ إلى أمريــكا اللاتينية. وهناك يطلعنا على مشــهد البؤس المتمثل في ضواحي السكن العشوائي أو الفافيلات(*) التــي تطل مــن الأعلى على أحياء الطبقة الغنية الممتدة على طول شــاطئ ريو. تكتــظ هذه الفافيلات بمهاجريــن قدموا من منطقة الشــمال الشرقي الزراعية والمكتظة بالســكان، والتي تشهد منذ عقود دورات من الجفاف الشديد. تكيف بعض السكان هناك مع الوضع باحتلال الأراضي، وزراعتها بطرق الزراعة الغابية التي تعتمد على تنويع المحصول، واستخدام تقنيات مبتكرة في الري. أما الكثيرون فقد هاجروا إلى المدن الكبرى ليعيشــوا في حزام البؤس المحيط بها. أدت الحرب الباردة والديكتاتورية العســكرية إلى اعتقال النشطاء في المعارضة. وفي السجون تشــكلت العصابات التي استفادت من تجربة المنظمات السياسية، وتحولت إلى الجريمة المنظمة وفرض الضرائب وتجارة المخدرات. شجعت السياسة الاقتصادية الليبرالية الجديدة التي فرضت من المؤسســات الدولية على الحكومة البرازيلية لتســديد ديونها إلى انتشار هذه العشــوائيات. ومع صعود دي سيلفا إلى الحكم

(*) Favelas، هي الكلمة البرتغالية للأحياء العشوائية ذات العشش القصديرية.

استطاعت البرازيل، عن طريق إعادة توزيع الثروة ودعم برامج التعليم والرعاية الصحية، أن تسـدد ديونها وأن تتكيف مع تغير المناخ، وإن لم تقم بشكل مباشر بعمليتي التخفيف والتكيف اللازمتين.

في المكسـيك، كما في البرازيـل، أدى تغير المنـاخ المتمثل بالجفـاف والازدهار الطحلبي في خليج المكسـيك إلى هجرة المزارعين والعاطلين عن العمل إلى الشـمال بقصد الهجرة إلى أمريكا الشمالية. ساعد على هذا أيضا توجهات الدولة التي تخلت عن سياسـة التعاونيات بعد الثورة المكسـيكية، وعمدت إلى الاقتراض من المصارف العالمية واسـتثمارها في التنمية على أمل تسـديدها من عوائدها النفطية المتزايدة. لكن أسعار النفط انهارت ووقعت الدولة في قبضة مديونية ضخمة. فرض الدائنون السياسـة الليبراليـة الجديدة المتمثلة في التقشـف وتقليص الإنفـاق على الزراعة والخدمـات العامة. أدى هذا كله إلى انتشـار العنف وجـاءت اتفاقية النافتا لدول أمريكا الشـمالية لتيسر عملية تهريب المخدرات من المكسيك، مما استدعى اتخاذ إجراءات وقائية شديدة في منطقة الحدود.

يسـتخلص المؤلف أن تغير المناخ أمر واقع، حتى لـو توقفنا عن إصدار غازات الدفيئة الآن. ويبقى السؤال: كيف يحصل التكيف مع تغير المناخ. في عالم الجنوب، كما شـهدنا، يحصل ذلك عن طريق هجرة السـكان إلى المـدن، ومن هذه البلدان إلى عالم الشـمال. تنتشر الصراعات العرقية والطائفية، وتقوم مكافحة التمرد هناك باستخدام العنف الشـديد، وتخريب النسيج الاجتماعي. وبالتالي تتحول الكثير من هذه الدول إلى دول فاشـلة أو شـبه فاشلة. وفي عالم الشـمال يتخذ التكيف شكل قارب نجاة مسلح. يتمثل هذا في تحصين الحدود وزيادة الإنفاق على الأمن وانتشار ثقافة كـره الأجانب وتقليص الحريـات المدنية وتطوير إسـتراتيجية مكافحة تمرد تستخدم العنف والاستخبارات والوكلاء المحليين.

يقدم المؤلف الكثير من المعلومـات الجديدة والمفيدة والمهمة. وهو يربط بين الأحداث ببراعة مكنته منهـا مهمته بوصفه صحافيا، وزياراته للعديد من الدول في القـارات كلها. ونتفق معه في ضرورة التخفيف الفوري لغازات الدفيئة باسـتخدام التقنيـات النظيفة. ويقع هذا عـلى عاتق الدول الكبرى، خاصـة الولايات المتحدة والصـين. ولأجـل ذلك يجب أن توظف هـذه الحكومـات في شراء الطاقة النظيفة

وتشـجيعها. كـما نتفـق معه في نظرتـه إلى التكيف عـن طريق تحقيـق العدالة الاجتماعيـة وإعـادة توزيع الثروة ضمـن كل دولة، وبين دول الشـمال والجنوب، وضرورة إعطاء الدول دورا فعالا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. غير أننا نختلف معه في بعض النقاط حول تصوره للعوامل الثقافية والحضارية والتقليل من أهميتها بالمقارنة مع العوامل الاقتصادية والتقنية والاجتماعية.

نرجـو أن يجد القارئ في هذا الكتاب ما يفيده ويثير فضوله لمعرفة المزيد حول تغير المناخ والقضايا الاجتماعية والسياسـية الأخرى المرتبطة به والتي تؤثر فينا وفي الأجيال المقبلة.

المترجم

د. سعد الدين خرفان

الجزء الأول

آخر دعوة للأوهام

I

من قتل إيكارو لورومان؟

ما هذه الجذور المتشبثة؟
أي غصون تنمو من هذه النفايات
المتحجرة؟
يا ابن آدم،
لا يمكنك القول، ولا التخمين، لأنك تعرف
فقط كومة من الصور المحطَمة،
حيث تضرب الشمس،
والشجرة الميتة لا توفر ملاذا، ولا يعطي
الجندب راحة،
ولا تصدرالصخرة الجافة خرير ماء.

ت. س. إليوت، الأرض اليباب

«لا أعني بالتجمع الكارثي مجرد حدوث عدة كوارث في الوقت ذاته، واحدة فوق الأخرى. بل أحاجج بأن المشاكل تتشابك ويضخم بعضها بعضا، بحيث تعبر كل واحدة عن نفسها من خلال حادثة أخرى»

المؤلف

رقد إيكارو لورومان ميتا تحت شجرة أكاسيا مسطحة القمة، تلقي أغصانها المتشابكة ظلا ناعما فوق جثته. كان يضع حلقا فضيا في أذنه، ويلبس بنطالا قصيرا

مـن الخاكي، ويرقد على جنبه ويده محنية بصعوبة تحته. اختفى الجانب الأيسر من جبهة إيكارو، التي تفجرت أثناء خروج رصاصة منها. شكل دمه بقعة سوداء دهنية على الأرض الصحراوية. سرق حذاؤه وشاله وبندقيته.

كان إيـكارو راعيا من قبيلـة توركانا التي تقطن في شـمال غرب كينيا على البراري العشـبية القاحلة لوادي ريفت. قتل في اليوم السابق عندما شنت قبيلة البوكـوت المجاورة غارة ضخمة على القطيع. رقدت جثة إيكارو هنا على الأرض معرضـة لعناصر الطبيعة، حيـث ترعى المعز والأغنام بالقـرب منها، لأن قبيلة التوركانا لا تدفن الناس الذين يقتلون في الغارات. إنهم يعتقدون أن هذا يجلب لهم الحظ السـيئ، وأنه سيسـتدعي مزيدا من الغارات فقـط. لذا فهم يتركون موتاهـم ليتحللوا حيث يسـقطون. لكن هذه الاحتياطـات الخرافية لن توقف أعداءهم، لأن قوى اجتماعية ومناخية تدفعهم إلى المضي في ذلك.

دفعـت مجموعة التوركانا التي كنت أزورهـا نحو الجنوب من جراء جفاف شديد، وكانوا في ذلك الوقت يرعون قطعانهم على حافة حقلهم التقليدي بالقرب جـدا من أعدائهم من قبيلة البوكـوت. في ممر الرعاة في شرق أفريقيا هناك نمط أسـاسي واضح: خـلال أوقات الجفاف يندر الماء والـكلأ، ويمرض القطيع، ويموت الكثير منه. ولتعويض الخسارة يغير الشباب على جيرانهم. يعني بدء التغير المناخي الناجم عن الإنسـان أن كينيا ستشهد درجات متزايدة من الحرارة، وموجات أكثر من الجفاف. ومع ذلك فهي تتلقى كميات أكبر من الهطول إجمالا. لكن المشكلة هي أن المطر يسـقط الآن بشـكل فوضوي، وبهطولات عنيفـة ومفاجئة ودفعة واحـدة، بدلا من أن يحدث ذلك تدريجيا خلال فصل واحد. وهذا يعني تشـكل فيضانات جارفة يتبعها جفاف[1]. لقد أصبحت الساعة المطرية التي تعتمد عليها الزراعة والمجتمع في كينيا غير منتظمة بصورة متزايدة.

دلائل حروب المناخ

لماذا مات إيكارو لورومان؟ مـا القوى التي دفعت إلى اغتياله؟ كان لإيكارو البالغ من العمر خمسـة وثلاثين عاما تقريبا - العمـر عند التوركانا يقدر فقط عادة - ثلاث زوجات وثمانية أطفال وخمسون رأسا من القطيع تقريبا. كان رجلا

مهما وقويا في مجتمعه: محاربا في عز شبابه، كبيرا بما يكفي ليمتلك الكثير من الخبرة والحكمة، لكنه مازال شابا وقويا بما يكفي للجري والقتال لأيام بقليل من الغذاء والماء. والآن يرقد ميتا.

يمكننا القول إن التقاليد هي التي قتلت إيكارو، وهي العادة القديمة في «سرقة المخزون»، الإغارة على القطيع بين القبائل النيلية (Nilotic)(*) في شرق أفريقيا. أو يمكننا القول إنه اغتيل من قبل رجل معين من البوكوت من جماعة الكاراسوك. أو أنه قتل بسبب الجفاف. فعندما يشتد الجفاف، ترتفع وتيرة الغارات.

أو ربما قتل إيكارو بسبب قوى أكبر من ذلك، وهي قوى تتخطى خصائص هذا الجفاف المحلي، وهذه الغارة، وهذه الجغرافيا، وتقاليد القطيع النيلية. خطر لي بينما كنت أعبر الصحراء مع محاربي التوركانا لنفتش عن هضاب الكاراسوك من أجل العثور على مجموعة محاربي البوكوت، أن من الواضح أن مقتل إيكارو نجم عن مجموعة من أخطر الحوادث في التاريخ البشري: التجمع الكارثي للفقر والعنف وتغير المناخ. وهذا الكتاب هو محاولة لفهم سبب مقتل إيكارو لورومان وآخرين كثيرين جدا مثله من خلال عدسات هذا التجمع الكارثي.

الحقائق

يتخذ الإجماع العلمي حول حالة المناخ أشكالا مؤسساتية في هيئة اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC. لا تجري الـ IPCC بحوثا مستقلة، لكنها تعمل بدلا من ذلك مركزا عالميا لتبادل المعلومات، مدعوما من قبل الحكومات والأمم المتحدة. فهي تجمَع كل الأدبيات العلمية المنشورة حول المناخ والقضايا المتعلقة به في علوم الأحياء ودورة المياه والمحيطات والغابات والجليديات والعلوم الأخرى وتلخصها، بحيث يمكن للحكومات أن تتفاعل مع قضايا المناخ بناء على بحث علمي موثق.

(*) القبائل النيلية Nilotic هي التي تعيش في وادي النيل. [المترجم].

هوجمت الـ IPCC من قبل ناكرين للتغير المناخي على أنها مخطئة ومثيرة للرعب بسبب عدد من الأخطاء الصغيرة التي ارتكبتها في تقريرها التقويمي الرابع لعام 2007. لكن معالجة هذه الأخطاء لا تغير من الاستنتاجات العامة للتقرير. في الحقيقة، ولأن الـ IPCC تعمل على مبدأ التوافق فإن استنتاجاتها محافظة جدا، وتتخلف تقاريرها سنوات عن التطورات العلمية الأحدث. تمثل الـ IPCC القاسم المشترك الأدنى لاستنتاجات مقبولة كليا من التيار العلمي الرئيس.

استنتجت الـ IPCC أن اعتماد الحضارة على حرق الوقود الأحفوري رفع تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو من نحو 280 جزءا في المليون (ج. ف. م) قبل الثورة الصناعية إلى 390 (ج. ف. م) اليوم. وتظهر تحاليل لب الجليد القديم أن 390 ج.ف.م، هو أعلى تركيز لغاز ثاني أكسيد الكربون في الجو خلال الـ 10000 سنة الأخيرة[2].

يعمل غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو كعمل ألواح الزجاج في دفيئة زراعية، حيث يسمح لحرارة الشمس بالدخول، لكنه يمنع الكثير منها من الارتداد بالإشعاع إلى الفضاء. نحن بحاجة لغاز ثاني أكسيد الكربون - فلولاه لكانت الأرض صخرة متجلدة باردة لا حياة فيها. لكننا خلال الأعوام المائة والخمسين الأخيرة شحنا السماء بالكثير جدا من غاز ثاني أكسيد الكربون بحيث أصبح الكوكب يزداد سخونة.

وكما يشرح مركز بيو للتغير المناخي العالمي(*) «ارتفع متوسط درجة حرارة سطح الأرض بـ 1.4°ف (0.8°م) منذ السنوات الأولى للقرن العشرين». وحدثت أشد 11 سنة بحرارة مسجلة (منذ العام 1850) كلها خلال السنوات الـ 13 السابقة. وكانت أشد خمس سنوات حرارة حتى تاريخه هي أعوام 2005 و1998 و2002 و2003 و2007[3].

ربما لا يبدو أن ارتفاعا أقل من 1°م في درجة الحرارة خلال مائة عام أمر خطير، لكن العلماء يعتقدون أنه كاف ليبدأ في الإخلال بتوازن النظام المناخي. تخلي حلقات التغذية الراجعة السلبية التي تحافظ على استقرار مناخ الأرض الطريق بازدياد لحلقات التغذية الراجعة الايجابية المخلَّة بالاستقرار، حيث

(*) Pew center on Global Climate Change.

تراكم الانحرافات عن المعدل بعضها فوق بعضا، بدلا من أن تتلاشى مع الوقت. تـذوب صفائح الجليد في غرينلاند والقطب الشـمالي - والتـي تعكس كميات ضخمة من الإشعاع الشمسي إلى الفضاء، وتنظَم تدفق تيارات المحيط - بمعدلات أسرع بكثـير مـما تنبأ به علماء المناخ منذ سـنوات قليلة. ويعنـي فقد الجليد العاكس امتصاص كمية أكبر من الإشـعاع الشمسي، وتسخين الأرض بسرعة أكبر. تذوب جليديات القطب بسرعة ملقية بمليارات الغالونات من الماء العذب الذي يغيّر من كيمياء المحيطات وتياراتها ويضيف حجما يهدد برفع مسـتوى سـطح البحر حتى 1 متر خلال هذا القرن[4].

التحدي الاجتماعي

يجـري التغـير المناخي بسرعة أكبر مـما كان متوقعا في البداية، وقد لمسـنا تأثيراته علينا مسـبقا على شكل حوادث من الطقس العنيف، وتصحر المحيطات وتحمّضها وذوبان الجليد، وارتفاع مسـتوى سـطح البحر. يعتقد العلماء الذين يبنون النماذج الحاسوبية التي تحلل بيانات المناخ أنه حتى لو توقفنا عن إطلاق غازات الدفيئة في الجو فإن مسـتويات غاز ثاني أكسيد الكربون أصبحت مسبقا عاليـة جدا بحيث إننا حوصرنا ضمن ازديـاد مهم في درجات حرارة الأرض. لقد أصبـح التغير المناخي المخرب حقيقة مؤكـدة، حتى لو أنجزنا التغيير الاقتصادي بعيدا عن الوقود الأحفوري.

بدأ تغير المناخ يعبّر عن نفسـه مسـبقا في مجال السياسـة. تسبب حوادث الطقـس العنيف وأنماط المناخ السـيئة أزمات انسـانية أكـثر، وتغذّي الحروب الأهليـة. قدرت الأمم المتحدة أن مناشـداتها للمسـاعدات الانسـانية لحالات الطـوارئ في العام 2007 جميعها عدا واحـدة منها كانت متعلقة بالمناخ. ويؤثر تغير المناخ مسبقا بشكل سلبي على 300 مليون من البشر في العام، مسببا مقتل 300 ألف منهم. وبحلـول العام 2030 - مع تحول الفيضانات وحالات الجفاف وحرائق الغابات والأوبئة الجديدة للأسـوأ - يمكن أن يقتل 500 ألف من البشر كل عام بسبب التغير المناخي، ويمكن أن تصل الكلفة الاقتصادية لهذه الكوارث إلى 600 مليار دولار كل عام[5].

سيكون ارتفاع مستوى سطح البحر أعظم هذه المشاكل. تنبأت الـ IPCC في العام 2007 أن يرتفع مستوى سطح البحر بمتوسط 7 إلى 23 بوصة خلال هذا القرن. عدلت هذه الأرقام بسرعة، إذ يعتقد العلماء الآن أن مستوى سطح البحر سيرتفع بمعدل 5 أقدام خلال الـ 90 عاما المقبلة[6]. ستؤدي مثل هذه الارتفاعات إلى انزياحات ضخمة للسكان. تنبأت دراسة حديثة من مركز شبكة معلومات علوم الأرض الدولية في جامعة كولومبيا أن 700 مليون لاجئ مناخي سيهجرون بحلول العام 2050[7].

ربما كان أوائل لاجئي المناخ في العصر الحديث هم الـ 500 ألف مواطن من بنغلاديش الذين أصبحوا بلا مأوى عندما غمرت نصف جزيرة بولا بالماء في العام 2005. وفي بنغلاديش سيجبر 22 مليونا من البشر على إخلاء منازلهم بحلول العام 2050 بسبب تغير المناخ. تبني الهند مسبقا سياجا مسلحا على طول حدودها البالغ طولها 2500 ميل مع بنغلاديش، ويضغط الطلاب الناشطون في اليمين الهندوسي في الهند بقوة لترحيل المهاجرين البنغاليين (المسلمين) بشكل جماعي[8].

وفي أثناء ذلك تخطط 22 دولة من جزر المحيط الهادئ، والتي تؤوي 7 ملايين شخص، لأن تعيد توطين سكانها مع تهديد ارتفاع مستوى سطح البحر لها بالزوال. ما الذي سيحدث عندما ستغمر المياه المدن الصينية؟ وعندما تبدأ المياه بغمر الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة، كيف سيكون رد فعل الناس والمؤسسات؟

التجمع الكارثي

يأتي التغير المناخي إلى عالم مهيأ للأزمة. تتقاطع الاختلالات الحالية والمتوقعة الناجمة عن تغير المناخ مع أزمات الفقر والعنف الموجودة مسبقا. أدعو هذا التلاقح بين الكوارث السياسية والاقتصادية والبيئية بالتجمع الكارثي. لا أعني بالتجمع الكارثي مجرد حدوث عدة كوارث في الوقت ذاته، واحدة فوق الأخرى. بل أحاجج بأن المشاكل تتشابك وتضخم بعضها بعضا، بحيث تعبر كل واحدة عن نفسها من خلال حادثة أخرى.

تتعامل المجتمعات، مثل الناس، مع التحديات الجديدة بطرق تتشكل من خبراتها المؤلمة الماضية. لذا فالمجتمعات المتضررة كالناس المتضررين تستجيب غالبا لأزمة جديدة بطرق غير عقلانية وقصيرة النظر ومدمرة. في حالة التغير المناخي، الصدمة المسبقة التي هيأت الطريق لتكيف سيئ واستجابة اجتماعية مخربة، هي العسكرة في مرحلة الحرب الباردة، والمسارات الاقتصادية الليبرالية الجديدة للرأسمالية. خلال السنوات الأربعين السابقة شوهت كل من القوتين علاقة الدولة بالمجتمع - مزيحة وظائف الدولة الجمعية والتنظيمية وتلك المتعلقة بإعادة توزيع الثروة وناسفة اياها، بينما طورت أكثر قدراتها القمعية والعسكرية. هذا، كما أدعي، يثبط من قدرة المجتمع على تجنب الاختلالات العنيفة مع بدء تأثير التغير المناخي.

في هذا الكتاب أتفحص السوابق التاريخية للكارثة المناخية من أجل تفسير كيف وصل العالم إلى مثل هذا التخبط، وبالتالي كيف أصبح مهيأ للاستجابة للتغير المناخي بطرق تفاقم التداعيات الاجتماعية للطقس العنيف الجديد. في معظم العالم يبدو أن التضامن الوحيد القادم استجابة لتغير المناخ هو القبلية الحصرية، وأن سياسة الدولة الوحيدة المتوافرة تجاهها هي القمع البوليسي. هذا ليس «طبيعيا» وحتميا لكنه نتيجة تاريخ - وبخاصة تاريخ استغلال عالم الشمال لعالم الجنوب - من تحطيم المؤسسات والتدابير الاجتماعية التي كانت ستسمح باستجابة مختلفة أكثر إنتاجية.

زرعت الحرب الباردة بذورعدم الاستقرار في العالم الثالث، وتركت حروبها العديدة بالوكالة في الدول النامية تراثا مكونا من مجموعات مسلحة وأسلحة رخيصة وشبكات تهريب. ودفعت السياسات الاقتصادية لليبرالية الجديدة - الخصخصة المتطرفة ورفع التحكم الاقتصادي - التي فرضت من قبل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي على اقتصادات عديدة في العالم الثالث - أو إذا شئت عالم الجنوب - نحو أزمة دائمة، وعدم مساواة شديدة. في هذه المجتمعات تحولت الدولة إلى صدفة فارغة خالية من أي قدرة مؤسساتية هي بحاجة إليها لتوجيه التطور الاقتصادي أو معالجة الأزمات الاجتماعية.

عملت هذه القوى أحيانا مع بعضها بعضا في الوقت ذاته، وكانت في أحيان أخرى مستقلة تماما. على سبيل المثال، حطمت الصومال بالتدخلات العسكرية أثناء الحرب الباردة. أصبحت ساحة معركة كلاسيكية بالوكالة. وعلى الرغم من أنها خضعت لبعض التحرير الاقتصادي المحدود، فإن استخدامها كبيدق على رقعة شطرنج الصراع السياسي العالمي تسبب في انهيارها. ويصدق الشيء نفسه على أفغانستان التي كانت ولا تزال دولة فاشلة. لم تخضع أبدا لتعديل بنيوي، لكنها كانت ساحة حرب بالوكالة. من جهة أخرى لم تكن المكسيك - التي يشهد شمالها الآن أزمة عنف عميقة - دولة مواجهة خلال الحرب الباردة، لكنها خضعت لتحرير اقتصادي جذري.

ينضم تغير المناخ الآن إلى هذه الأزمات، ويعمل كمسرع لها، ويدعوه البنتاغون بـ «مضاعف التهديد». على مدى الكوكب بأكمله يثير الطقس العنيف وشح المياه صراعات اجتماعية قائمة مسبقا ويسرعها. وجد معهد الأرض في جامعة كولومبيا ومجموعة الأزمات الدولية(*)، بضم قواعد البيانات حول الحروب الأهلية وتوافر المياه، أنه «عندما يكون هطول الأمطار أقل من المعدل بفارق كبير فإن خطر تطور نزاع بمستوى منخفض إلى حرب أهلية شاملة يعادل ضعفه في السنة التالية تقريبا»(9). يستشهد التقرير بمثال نيبال حيث كانت الانتفاضة الماوية قوية جدا بعد حالات الجفاف، ولم تكن موجودة تقريبا في مناطق تتمتع بهطول مطري عادي. وفي بعض الحالات عندما يكون الهطول متأخرا أو قليلا أو عندما يأتي كله دفعة واحدة أو في وقت غير مناسب تعود مجموعات مسلحة «شبه متقاعدة» للظهور لبدء القتال من جديد.

بين مدار الجدي ومدار السرطان يقع ما أدعوه مدار الفوضى، وهو عبارة عن حزام من دول مستقلة حديثا متأزمة اقتصاديا وسياسيا تطوق خطوط عرض الأرض الوسطى. في هذا الشريط بين المدارين، بدأ تغير المناخ يضرب بقسوة. تعتمد المجتمعات ضمن هذا الشريط بقوة على الزراعة وصيد الأسماك، وبالتالي فهي مهددة جدا بالانزياحات في أنماط الطقس. كانت هذه المنطقة أيضا على الخطوط الأمامية أثناء الحرب الباردة، وإعادة الهيكلة الاقتصادية على الطريقة

(*) International Crisis Group.

الليبرالية الجديدة. ونتيجة لذلك نجد في هذا الحزام تجمعا لمعظم الدول الفاشلة أو شبه الفاشلة في العالم النامي.

وبحسب دراسة حكومية سويدية فإن «هناك 46 دولة - موطنا لـ 2.7 مليار إنسان - مهددة بنشوب صراعات عنيفة فيها نتيجة تأثيرات تغير المناخ وتفاعلها مع المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية»(10). تغطي القائمة في هذه الدراسة المنطقة ذاتها - خطوط العرض المتوسطة التي يتأثر معظمها الآن ببدء تغير المناخ الناجم عن البشر.

يدرك مخططون عسكريون غربيون، إن لم يكن زعماء سياسيون، أخطار تجمع الاضطراب السياسي مع تغير المناخ. وبدلا من القلق حول حروب تقليدية على الغذاء والماء، فهم يرون بروز جغرافيا مكونة من حروب أهلية وتدفق لاجئين ومذابح جماعية وانهيار اجتماعي مدفوعة كلها مناخيا. واستجابة لذلك يتصورون مشروعا مفتوحا لمكافحة التمرد يطبق على المستوى العالمي(11).

التخفيف والتكيف

كلمتا السر في النقاش حول المناخ هما التخفيف والتكيف - أي أن علينا أن نخفف من مسببات التغير المناخي وأن نتكيف مع تأثيراته. يعني التخفيف تخفيض إنتاجنا بشكل كبير من غاز ثاني أكسيد الكربون وغازات الدفيئة الأخرى كالميثان والكلوروفلوركربون التي تمنع حرارة الشمس من الارتداد بالإشعاع إلى الفضاء. ويعني التخفيف التحول إلى مصادر الطاقة النظيفة مثل طاقة الرياح والطاقة الشمسية والطاقة الحرارية الجوفية والطاقة الحركية للمد والجزر. وهو يعني إغلاق محطات الطاقة العاملة بالفحم الحجري، وتحويل اقتصادنا من الاعتماد على النفط، وبناء شبكة كهربائية ذكية، والاستثمار الضخم في تقانات التقاط الكربون وتخزينه.

أما التكيف فيعني التهيؤ للعيش مع التأثيرات الناجمة عن التغير المناخي، التي بدأ بعضها فعلا، بينما سيأتي البعض الآخر حتما. إن التكيف هو تحد تقني وسياسي أيضا.

يعنـــي التكيف التقني تحويـــل علاقتنا بالطبيعة مع تغير الطبيعة نفســـها: تعلـــم العيش مع الضرر الذي جلبناه على أنفســـنا عن طريـــق بناء جدران صد بحرية حول المدن الساحلية المهددة، وإعادة تهيئة الأرض لنمو أشجار المنغروف والنباتـــات المائية بحيث تعمل على كسر اندفاعـــات المد خلال عاصفة ضخمة، وفتـــح ممـــرات لهجرة الأحياء البرية لتنتقل شـــمالا مع ســـخونة المناخ، وتطوير أشـــكال مستدامة من الزراعة، بحيث تعمل على مستو صناعي حتى مع تذبذب واسع لأنماط الطقس.

مـــن جهة أخرى يعنـــي التكيف الســـياسي تحويل علاقة البشرية بنفســـها، وتحويل العلاقات الاجتماعية بين الناس. يعني التكيف السياسي الناجح مع تغير المناخ تطوير أساليب جديدة لاحتواء العنف الذي يتغذى على تغير المناخ وتجنبه وتخفيفه. ويتطلب هذا تنمية اقتصادية وإعادة توزيع للثروة، كما يتطلب أيضا دبلوماسية جديدة لبناء السلام.

مـــع ذلـــك، يجري بالفعل نوع آخـــر من التكيف الســـياسي، يمكن أن يدعى «سياسة زورق النجاة المســـلح»، حيث يجري الاستجابة للتغير المناخي بالتسلح والاســـتبعاد والإهـــمال والقمع والســـيطرة والقتل. يمكن للمـــرء أن يتصور بروز ســـلطوية خضراء في الدول الغنية، بينما تدفـــع الأزمة المناخية العالم الثالث نحو الفوضى. ومســـبقا، بينـــما يغذي التغير المناخي العنف على شـــكل جريمة وقمع وعصيان مدني وحرب، وحتى انهيار الدولة في عالم الجنوب، يســـتجيب الشـــمال بســـلطوية جديدة. يخطط البنتاغون مع حلفائه الغربيين بشـــكل نشط لتكيف مسلح، يؤكد على احتواء بعيد الأمد ومفتوح لدول فاشلة أو في سبيلها إلى الفشل - أي مكافحة تمرد مستمرة للأبد.

هذا النوع من «الفاشية المناخية»، وهي سياسة مبنية على الاستبعاد والفصل والقمع، سياسة بشعة جدا، ومصيرها الفشل. لا بد من وجود مسار آخر. لا يمكن للـــدول المتعبة في عالم الجنوب أن تنهار من دون أن تأخذ في النهاية الاقتصادات الغنية معها. وإذا سمح لتغير المناخ بأن يحطم اقتصادات ودولا بأكملها، فلا يمكن لأي كمية من الجدران والمدافع والأســـلاك الشائكة وطائرات الدرون المسلحة أو استخدام المرتزقة أن تنقذ بشكل دائم نصف العالم من نصفه الآخر.

الحجة

تقــوم الفصول اللاحقة بزيارة إلى مدار الفوضى، وهو ذلك الحزام الفقير من الأرض بين خطوط العرض المتوســطة من الكوكب. لــو كنت تتوقع منذ الوهلة الأولى كتابا حول المســتقبل، فإنك في الحقيقة تمســك بكتاب حول الماضي. فمن فهم الماضي يمكننا أن نحلل بشكل أفضل كلا من الماضي والمستقبل الخطير الممتد أمامنــا. أبدأ بعرض كيف تتحرك قوى الأمن في عالم الشــمال نحو اعتناق تكيف مسلح. ثم انظر في تاريخ مكافحة التمرد كأحد التيارات التاريخية التي تقود نحو التجمع الكارثي، وكخاصة مركزية للتكيف المسلح.

ثم أعود إلى مســألة من قتل إيكارو لورومان في سلســلة من الفصول حول تاريــخ التغير المناخــي وسياســته في شرق أفريقيا. تنتقل القصــة بعد ذلك إلى آســيا الوسطى لاستكشــاف العناصر المناخية للحرب الأفغانية، والنزاع الهندي - الباكستاني. وبينما نحن في هذه المنطقة نقوم بزيارة فرعية إلى قرغيزستان، لأنها تمثــل حالة متطرفة من الانهيار الاجتماعي المدفوع مناخيا. وبالتحرك شرقا نزور أندرا براديش لاستكشــاف الروابط بين الليبرالية الجديدة وتغير المناخ، وانتشــار رجال العصابات الماويين في شرق الهند. ثم نقفز فوق المحيط الهادئ لنســتأنف القصــة في البرازيل حيــث أربط بين تغير المناخ في الشــمال الشرقي Nordeste بالعنــف المفرط في فافيلات favelas ريو دي جانيرو. في هذا القســم نرى كيف عمل القمع خلال حقبة الحرب الباردة بالتناغم مع الليبرالية الجديدة. ثم ننتقل شــمالا إلى الحدود بين المكســيك والولايات المتحدة، ونغوص بعمق أكبر في تأثير الليبراليــة الاقتصادية الجديدة والتــي هي - أكثر بكثير من عنف الحرب الباردة - الســبب الرئيس في عدم الاســتقرار في المكسيك. ثم نعود إلى الولايات المتحدة ونرى كيف تتشكل عسكرة الحدود والخوف من الأجانب بصورة متزايدة نتيجة الانهيار الحاصل شمال المكسيك.

أخيرا، أســتعرض ما الذي يجب عمله. أحاجــج بأن الطريقة الأفضل لمعالجة تأثيرات التغير المناخي هي معالجة الأزمات الاقتصادية والسياســية التي جعلتنا معرضــين لفوضى محرضة مناخيا في المقام الأول. لكــن يبقى التخفيف في نهاية المطاف أهم اســتراتيجية. التأثيرات الفيزيائية للتغير المناخي - ارتفاع مســتوى

سـطح البحر والتصحر والعواصف الاستثنائية والفيضانات - مخيفة حقا، لكنها كذلك هي نواحي التكيف الاجتماعي والسـياسي الناشـئة، التـي غالبا ما تتخذ أشكالا مدمرة وقمعية. علينا أن نغير ذلك.

في النهاية، فإن أهم شيء هو التخفيف: علينا أن نزيل كربنة اقتصادنا.

2

المتنبئون العسكريون

التعامل مع مثل هذه الدول الفاشلة والمقسمة هو، من نواح عدة، التحدي الأمني الرئيس في عصرنا.

روبرت غيتس،

وزير الدفاع الأمريكي(*) 2010

«يبدو أن سياسة قارب النجاة المسلح هي الرابحة»

المؤلف

يخطط البنتاغون لعالم يعاد تشكيله بسبب تغير المناخ. يمكنك حتى أن تقول إن البنتاغون يخطط لمعركة(**) أرمغدون. في صيف العام 2008 أعطى الدكتور توماس فينغار نائب مدير المخابرات الوطنية للتحليل الكونغرس الأمريكي موجزا موثقا عن التأثيرات العسكرية لتغير المناخ. «سيشكل تهديد الأمن

(*) الأسبق.

(**) أرمغدون Armageddon (نسبة إلى تل مجيدو) هي المعركة التي يقول العهد القديم إنها ستجري عند نهاية العالم وظهور المسيح المنتظر، وهي اسم موقع في منطقة الجليل في فلسطين. [المترجم].

الغذائي لأسباب تتعلق بالندرة وعدم القدرة على الشراء قلقا متزايدا في أفريقيا وأنحاء أخرى من العالم. ومن دون المساعدات الغذائية من المحتمل أن تواجه المنطقة مستويات أعلى من عدم الاستقرار - خصوصا على شكل صدامات عرقية على ملكية الأرض».

ويتابع فينغار «وفيما يخصنا، على الولايات المتحدة أن تتوقع ضغوطا أكبر من جراء الهجرة، وأن تخطط لها... ستحرض حوادث الطقس العنيفة والدلائل المتزايدة على الغمر والغرق الكثيرين على الانتقال عاجلا وليس آجلا.. ومع حفز التغير المناخي إسداء معونات إنسانية أكثر، ستتعرض قدرة المجتمع الدولي على الاستجابة إلى المزيد من الضغوط»[1].

التخطيط العسكري الذي يفكر فيه كاستجابة للأحداث يشكل هذه الأحداث أيضا. فالتخطيط الجاد جدا للحرب يمكن له أن يعيق السلم. خلقت القدرة الحربية المتطورة جدا للولايات المتحدة وصناعتها الحربية الضخمة مصالح قوية هنا، تعتمد على الحرب وبالتالي تشجعها. لقد انضم إلى المجمع الصناعي العسكري القديم - شركات كجنرال الكتريك ولوكهيد وريثيون بأنظمة أسلحتها الغالية جدا - سرب كبير من شركات الأمن الصغيرة التي تقدم خدمات هجينة. ويخطر على الذهن شركات مثل بلاك ووتر ودين كورب وغلوبال، لكن شركات السجون الخاصة مثل شركة الإصلاحات الأمريكية، وشركة الادارة والتدريب، ومجموعة جيو(*) مشاركة أيضا في هذا المجال. هذا المجمَع الأمني الجديد يقدم طيفا من الخدمات داخل البلد وخارجه: مراقبة ومعلومات وأمن حدود واعتقال وبناء تجهيزات وقواعد واستشارات ضد الإرهاب وخدمات لوجستية عسكرية وبوليسية وتحليل بيانات وتخطيط وتدريب وبالطبع الأمن الشخصي.

يمكن مشاهدة خدماته في كل مكان تعرض فيه الولايات المتحدة قوتها: في أفغانستان حيث تدير قوافل الإمداد، وتقدم الطعام، وتزود بالمترجمين؛ وفي كولومبيا حيث ترش حقول الكوكا وتدرب الجيش؛ وفي الفلبين حيث تدرب الشرطة؛ وفي المكسيك حيث تحرس رجال الأعمال؛ وعلى طول الحدود المكسيكية - الأمريكية حيث تتعامل مع المهاجرين المحتجزين. يساعد اقتصاد القمع الجديد هذا على نشر عقيدة العدوان وكره الأجانب. وعلى سبيل المثال ضغطت شركات السجون الخاصة بقوة من أجل إصدار القانون القاسي ضد الهجرة في العام 2010[2].

(*) Correction Corporation of America, Management and Training Corporation, and The Geo Graup.

ومع تطور سياسة التغير المناخي بدأت هذه الشبكة من المصالح الطفيلية تشكل التكيف على شكل إدارة عسكرية للتفكك الحضاري العنيف.

الرؤية الكارثية على الورق

ناقش عدد كبير من التقارير الحكومية المشاكل الاجتماعية والعسكرية التي يحملها التغير المناخي. في العام 2008 أوجب الكونغرس أن تأخذ مراجعة الدفاع الرباعية (كل 4 سنوات) القادمة في العام 2010 - وهي الوثيقة السياسية التي تعرض المبادئ الموجهة للاستراتيجية والعقيدة العسكرية الأمريكية - بعين الاعتبار تأثيرات تغير المناخ على الأمن القومي. ألف أول هذه التحريات التي خرجت للعلن دراسة بعنوان «سيناريو تغير مناخي مفاجئ، وتأثيراته على الأمن القومي الأمريكي»، أعدها بيتر شفارتز وهو مستشار للمخابرات المركزية الأمريكية CIA، ورئيس سابق للتخطيط في شركة رويال دتش/ شل، ودوغ راندول من منظومة غلوبال للأعمال ومقرها كاليفورنيا، وذلك بتكليف من البنتاغون في العام 2004[3]. أعد التقرير بناء على توصية من منظر عسكري ثمانيني، ومتنبئ امبراطوري يدعى اندرو مارشال. حصل مارشال المعروف لتابعيه باسم يودا، على اسم شخصية القزم المتجعد في مسلسل حرب النجوم الشهير، على فرصته الأولى في شركة راند[*] في العام 1949 كمتخصص في أرمغدون نووية خلال رئاسة ريتشارد نيكسون، وعمل مع كل رئيس أمريكي منذ ذلك الوقت[4]. (من المثير للاهتمام ملاحظة وجود فيزيائيين من محاربي الحرب الباردة في حقبة القنبلة الذرية بين منكري تغير المناخ والمتكيفين عسكريا معه معا. يعلق جيف غوديل في كتابه «كيف نبرد الكوكب» على إعجاب المجموعة ذاتها بالحلول التقنية العالية التي تعد بها الهندسة الجيولوجية، وبخاصة لويل وود من مختبر لورانس ليفرمور، وهو مريد لإدوارد تيللر)[**][5].

يعالج تقرير شفارتز وراندول الاحترار العالمي بشكل صحيح على أنه عملية يمكن أن تكون لا خطية[6]. ويتنبآن بعصور مظلمة جديدة:

> قد تبني الدول التي تمتلك الموارد قلاعا افتراضية حولها، للحفاظ على هذه الموارد لمصلحتها.. ومع اندلاع المجاعات والأوبئة والكوارث المرتبطة بالطقس والناجمة عن التغير المناخي المفاجئ ستتجاوز حاجات العديد من الدول قدرتها

(*) RAND Corporation.

(**) إدوارد تيللر (1908 - 2003)، هو عالم الفيزياء الأمريكي الملقب بأبي القنبلة الهيدروجينية. [المحررة].

على التحمل. سيخلق هذا شعورا باليأس يمكنه أن يقود إلى هجوم عدواني لإعادة التوازن.. ستعاني أوروبا داخليا، حيث تقتحم أعداد كبيرة من اللاجئين شواطئها، وستعاني آسيا من أزمة خطيرة في الغذاء والماء. سيشكل الصراع والقلاقل خصائص مستوطنة للحياة. مرة أخرى ستحدد الحرب حياة البشر(7).

في العام 2007 صدرت تقارير أكثر حول المناخ والأمن. أجرى واحد منها - من مجموعة بحث شركة CNA المرتبطة بالبنتاغون - اجتماعا لمجلس استشاري من ضباط عسكريين سابقين برتب عالية لفحص القضايا - كان بينهم الجنرال غوردون سوليفان رئيس الأركان السابق للجيش الأمريكي والأدميرال دونالد بيللنغ نائب رئيس العمليات البحرية سابقا، والأدميرال جوزف بروهير قائد الأركان السابق للبحرية الأمريكية في المحيط الهادي، والجنرال أنتوني زيني وهو متقاعد من القوات البحرية وقائد أركان سابق للقيادة الأمريكية المركزية. يتنبأ التقرير بثورة مضادة مستمرة على المستوى العالمي. وهذا مقتطف بارز منه:

يعمل تغير المناخ كمضاعف للتهديد بعدم الاستقرار في بعض أكثر المناطق اضطرابا في العالم. وصلت العديد من الحكومات في آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط مسبقا إلى نهاية قدرتها على تقديم الحاجات الأساسية: الطعام والماء والمأوى والاستقرار. سيفاقم تغير المناخ المتوقع المشاكل في هذه المناطق، ويضيف إلى مشاكل الحكم الفعال. وعلى خلاف معظم التهديدات التقليدية للأمن التي ترتبط بكيان واحد يتصرف بطريقة معينة في أزمنة مختلفة، يمتلك التغير المناخي الإمكانية لإنتاج ظروف عديدة مزمنة تحدث على المستوى العالمي ضمن الإطار الزمني ذاته. ستتدهور الظروف الاقتصادية والبيئية أكثر في هذه المناطق الهشة مسبقا مع تراجع الإنتاج وانتشار الأمراض وازدياد شح المياه وهجرة السكان بحثا عن الموارد. وستتبنى الحكومات الفاشلة والضعيفة، ذات القابلية المحدودة أصلا للبقاء - هذه الظروف من أجل الصراع الداخلي والتطرف والانتقال إلى سلطوية متزايدة وعقائد أصولية. وربما ستنجر الولايات المتحدة بصورة أكثر إلى هذه الظروف للمساعدة في تقديم العون والإنقاذ والخدمات، أو لتأمين استقرار هذه الظروف قبل نشوب الصراع(8).

ويلاحظ مقطع آخر:

لا تمتلك الكثير من الدول النامية الحكومات والبنى التحتية الاجتماعية للتعامل مع أنواع الضغوط التي يمكن أن يجلبها تغير المناخ. وعندما لا تستطيع حكومة ما تقديم الخدمات لمواطنيها، وحماية الأمن الداخلي، والدفاع عن حدود

> البلـد من الغزو، تصبح الظروف ناضجـة كي يملأ العنف والتطرف والإرهاب هذا الفراغ.. وسيصبح الهم الأكبر هو انتقال طالبي اللجوء واللاجئين الذين سيصبحون بسبب الدمار البيئي مستوطنين[9].

في الختـام يلاحظ التقرير أن «التغير المناخـي المفاجئ يمكنه أن يجعل التكيف في المستقبل صعبا جدا، حتى بالنسبة إلى أكثر الدول تطورا»[10].

صـدر تقرير آخـر في العام 2007، يعتبر الأكـثر علمية منها كلهـا، بعنوان «عصر العواقـب: تأثيرات التغير المناخي العالمي على السياسـة الخارجية للأمن القومي» من مركز الدراسـات الاسـتراتيجية والدوليـة ومركز الأمن الأمريكي الجديد. شـملت قائمة المؤلفين البارزين كيرت كامبل نائب مساعد وزير الدفاع سابقا؛ وليون فيورث مستشار أمن قومي سـابق لنائب الرئيس آل غور؛ وجون بوديسـتا رئيس موظفي الرئيس بيل كلنتون سابقا؛ وجيمس ووسلي مدير سابق لوكالة الاستخبارات المركزية.

يقدم تقرير «عصر العواقب» ثلاثة سيناريوهات معقولة لتغير المناخ، يتعلق كل منها بتغيرات مختلفة لمتوسـط درجة الحرارة في العالم. اعتمـد المؤلفون على التقرير التقويمي الرابـع للجنة الدوليـة للتغيرات المناخية IPCC، لكنهم لاحظـوا أن: «الملاحظات الحديثة تشير إلى أن تنبؤات النماذج المناخية كانت محافظة جدا، وأن تأثيرات التغير المناخي تتجلى بشـكل أسرع وأكثر مأسـاوية مما كان متوقعا»[11]. يتنبأ التقرير بمشاكل في المستقبل ليس على شكل حروب على الموارد بين دول، لكن على شكل انهيار دول بسبب «المرض والهجرة المنفلتة وفشـل المحصـول، والتي.. تهيمن على الأدوات التقليديـة للأمن القومي (الجيش بصـورة خاصة)، وعلى عناصر أخرى من قوة الدولة وسـلطتها»[12]. ألف جيمس ووسـلي الشبح الأخضر السابق المقطع الأخير من التقرير واضعا سيناريو أسوأ حالة. فكتب ما يلي:

> في عالم يشهد ارتفاع مستوى سطح البحر بمقدار مترين، وفيضانات مستمرة في المسـتقبل، سـتحتاج الولايات المتحدة وفي الحقيقة أي دولـة أخرى، إلى بذل جهـد غير عـادي كي تنظر أبعد من مجـرد خلاصها. يمكن أن تجتمع الأسـاليب جميعهـا التي عالج بها البـشر الكوارث الطبيعية في المـاضي... في بوتقة واحدة: الغضب من عدم قدرة الحكومة على التعامل مع أزمات مفاجئة وطارئة، والهوس الدينـي، وربما زيادة كبيرة في الطقوس الألفية لنهاية العالم، والعداء والعنف ضد المهاجرين والأقليات، في عصر يشهد تحولا ديموغرافيا، وارتفاعا في وتيرة الهجرة في

العالم، وصراعا بين الدول وضمنها على الموارد، وبخاصة الماء والغذاء. من المحتمل أن يغيب الإيثار والكرم[13].

الحلفاء

أجـرت دول متطورة أخرى دراسـات مماثلة معظمها سريـة. أنتجت قوى الدفاع الأسـترالية ADF تقريرا حول الصراع المناخي في العـام 2007، تسرب ملخص عنه بعد عامين: «سـتعمل الضغوط البيئية الناجمة عن تغـير المناخ وعدد من العوامل الأخرى عـلى مضاعفة الأخطار في دول هشـة حول العالم، مما يزيد من احتمال فشـلها. ومن المحتمـل أن يزيد هذا من الطلب على اسـتخدام الـ ADF من أجل تأمين الاسـتقرار وإعادة البناء بعد الصراع وتخفيف الكوارث في المستقبل»[14].

تخطـط القوى الأوروبية أيضا للتعامل مع التهديـدات الأمنية في عالم يتحول بفعل التغير المناخي. أصدرت اللجنة الأوروبية تقرير الأمن المناخي في العام 2008، ملاحظة أنه «مـن الصعب تجنب ارتفاع درجة الحرارة حتى 2^{o}م فوق معدلها قبل الثورة الصناعية.. يجب أن يستثمر في التخفيف لتجنب مثل هذه السيناريوهات وفي أساليب التكيف مع العواقـب التي لا يمكن تجنبها في الوقت نفسـه، مع معالجـة التهديدات للأمن العالمي الناجمة عن التغير المناخي والتي يجب النظر إليها كجزء من سياسة الأمن الوقائي».

وبلغـة معهودة يلاحـظ التقرير أن: « التغـير المناخي يهـدد بمفاقمة وضع دول ومناطق هشـة ومعرضة للنزاع مسـبقا»، مما يؤدي إلى «مخاطر سياسية وأمنية تؤثر مباشرة على المصالح الأوروبية»[15]، «ويشير أيضا إلى احتمال الصراع على الموارد بسبب نقص الأراضي الصالحـة للزراعة، وندرة المياه والتخريب الاقتصادي للمدن السـاحلية والبنى التحتية الحرجة، بخاصة في المدن العظمى بدول العالم الثالث، والهجرة المدفوعة بيئيا والأصوليات السياسية والدينية والتوتر حول إمدادات الطاقة[16].

جغرافيا التغير المناخي

للحرب جغرافيا غير مسـتوية تتبع تاريخ الامبريالية والتطور المتفاوت للرأسـمالية على المسـتوى العالمي. بدأ مفكـرو الأمن القومي داخل الحكومـة وخارجها في تصور الجغرافيـا العسـكرية للانهيار الاجتماعي على المسـتوى العالمـي؛ واتفقوا حول فكرة

الحــرب ومكافحــة التمرد المســتمرة كإدارة عالميــة للأزمة. ويأتي احتواء دول فاشــلة والتحكم فيها في صلب هذا المشروع.

بــين مجموعة مفكري الأمن نجد توماس بارنيت، وهو فيلســوف حربي كما يصف نفســه، الذي يتركز بحثه في الجغرافيا العالمية للعنف الســياسي. ويقدم بارنيت خارطة جديدة للصراع في العالم:

> أرني أين تكون العولمة كثيفة باتصالات شبكية وتحويلات مالية وتدفق إعلام حر وأمن جماعي، وسأريك مناطق تظهر فيها حكومات مستقرة ومستويات عالية من المعيشة ووفيات بالانتحار أكثر من القتل. هذه الأجزاء من العالم أدعوها النواة العاملة أو النواة.. لكن أرني أين تكون العولمة منخفضة أو ببساطة غائبة، وسأريك مناطــق موبوءة بأنظمة سياســية اســتبدادية وفقر وأمراض منتــشرة واغتيالات روتينيــة بالجملــة، والأكثر أهمية، بالنزاعــات المزمنة التي تحتضــن الجيل التالي من الإرهابيين الدوليين. هذه الأجــزاء من العالم أدعوها بالفجوة غير المتكاملة أو بالفجوة... لذا أين ســنبرمج الجولة الثانية من ألعاب الحرب الأمريكية في الخارج؟ يقترح النمط الذي ظهر منذ نهاية الحرب الباردة إجابة بسيطة: في الفجوة[17].

في الواقــع هــذه الخارطــة الجديدة هــي الخارطــة القديمة نفســها - جغرافيا الامبراطورية. ويبدو بارنيت مشابها إلى حد ما للمؤرخ الاقتصادي ايمانويل والرشتاين باستخدامه مصطلحي «المركز» و«الأطراف»[18]. أو انظر كيف وصف جون ستيوارت ميل بصورة مشــهورة الجغرافيا الاســتعمارية في فجر الرأســمالية التجارية: «لا يمكن اعتبار مســتعمراتنا في الهند الغربية كدول لها رأســمال منتــج خاص بها... (بدلا من ذلك فإنها) أماكن تجد انجلترا أنها ملائمة لاســتمرار إنتاج الســكر والبن وعدة بضائع استوائية أخرى»[19].

عملت الرأسمالية دوما على شكل نظام عالمي. ظهرت بدايات هذا الاقتصاد العالمي القوي من روابط امتدت عبر العالم، وشملت تجارة التوابل في الهند الشرقية الهولندية، وتجارة الرقيق عبر الأطلسي، وتدفق الحبوب والعســل والأخشــاب من روسيا وبولندا. وربما بدأ الاقتصاد الرأســمالي العالمي في الظهور على غرار هذه الأســاليب. لم تســتبعد فجوة بارنيت (أو كما يقول «لم تدمج») لأنها اســتغلت تاريخيا وأخضعت سياسيا. لذا فإن دولها غالبا ضعيفة وفاســدة. إذا أضفت الآن التغير المناخي فإن هذه الجغرافيا -

التي كانت تحقق بعض التقدم بحسب مؤشر الأمم المتحدة للتنمية البشرية من الثروة المقاسة أساسا بالدخل ومتوسط العمر المتوقع والتعليم - فسوف تغرق في مزيد من البؤس والفوضى العنيفين[20].

دولة قوية مقابل دولة فاشلة

يقدم التكيف السياسي خيارات واضحة. هناك خطر حقيقي من خضوع دول قوية ذات اقتصادات متطورة لسياسة تقوم على كره الأجانب والعنصرية والقمع البوليسي والمراقبة والعسكرة، وبالتالي تحول نفسها إلى مجتمعات محصنة بينما ينزلق باقي العالم نحو الانهيار. بهذه الطريقة ستتحول الاقتصادات المتطورة إلى جزر للفاشية الجديدة، تتمتع باستقرار نسبي وسط بحر من الفوضى. لكن عالما في حالة انهيار مناخي - يتميز بالجوع والمرض والجريمة والتعصب والانهيار الاجتماعي العنيف - سوف يقهر قارب نجاة مسلحا. وأخيرا سيغرق الجميع في المستنقع نفسه.

مع ذلك توجد إمكانية لطريق آخر. يمكن أن يشمل التكيف السياسي التقدمي - المرتبط بتخفيف فوري وقوي - التحرك نحو تعاون أكبر، وإعادة توزيع اقتصادية ضمن الدول، وبين الشمال والجنوب. سوف ألامس هذه الأفكار في نهاية هذا الكتاب. لسوء الحظ لا توحي المراحل الأولى من التكيف السياسي بالكثير من الثقة. ويبدو أن سياسة قارب النجاة المسلح هي الرابحة.

3

حرب من أجل كوكب صغير: التكيف كوسيلة لمكافحة التمرد

تمتلك الولايات المتحدة تفوقا عسكريا تقليديا هائلا. دفعت هذه المقدرة أعداءها إلى محاربتها بطرق غير تقليدية مزجت بين التقنية الحديثة والأساليب القديمة في التمرد والإرهاب... تشكل هزيمة مثل هؤلاء الأعداء تحدياً كبيراً للجيش والقوات البحرية.

ف.م 3-24 الكتيب الحقلي للجيش الأمريكي حول مكافحة التمرد.

ديسمبر 2006

«مثل الثورات التي تحاول قمعها، تهاجم مكافحة التمرد عن قصد العلاقات الاجتماعية في مكان ما، وتحاول إعادة صياغتها. لكنها في أثناء العملية، تساعد في إطلاق عمليات ذاتية التغذية من التفكك الاجتماعي»

المؤلف

كانت حرباً صغيرة رائعة في بلد صغير بائس - حالة كلاسيكية من قديم يواجه الجديد، جمهورية موز تقابل دولة فاشلة. لم يكن أحد متأكدا من السبب، لكن المجموعتين العرقيتين الرئيستين كانتا في حرب إحداهما مع الأخرى. احتاج اللاجئون إلى المساعدة الإنسانية، وكان

من الضروري السيطرة على الجماهير الخائفة. المنظمات غير الحكومية NGO وضجيج الصحافيين المزعجين لم يساعد. ولإعادة النظام نزلت القوات البحرية الأمريكية إلى اليابسة.

«ارجعوا إلى الخلف» صاح جندي البحرية الأمريكية الشاب وهو يحاول احتواء المدنيين الذين اندفعوا نحو مركز إطعام أو احتجاز.

«ما الذي يجري؟» قلت سائلاً.

«هؤلاء المدنيون بحاجة إلى مساعدة إنسانية، وعلينا أن نفتشهم، ونتأكد من أنه لا أحد منهم يحمل سلاحاً» أجاب الجندي. حامت مروحية بشكل منخفض فوق الرؤوس. ومن بناء مرتفع بالقرب منا جاء صوت البنادق المتقطع المكبوت.

عندما انتهى جنود البحرية الشباب من تأمين المكان المرتفع، كانوا يلبسون زياً غريباً جديداً، مصنوعاً من قميص مغبر بلون رمادي مزرق على شكل حرف T على هيئة مربعات ومستطيلات وخطوط متقاطعة - كأنه مشهد مدينة مجرد ومخلط. ذكَرت الألوان الرمادية بالملابس النازية، والأشكال بشبكة شوارع فوضوية وخطيرة في مدينة ضخمة من مدن العالم الثالث. ربما دعي البلد الصغير المنهار الذي حصل فيه هذا، المقاطعة المنفصلة للامكان الأدنى»، أو جمهورية الفوضى الديموقراطية، لكنه كان في الحقيقة أوكلاند في كاليفورنيا. كانت السنة 1999، وكنت أشهد المستقبل كما تخيلته القوات البحرية الأمريكية، وهي لعبة حربية دعيت بالمحارب المديني جرت على أرض مستشفى مهجور للقوات البحرية الأمريكية.

كان من المتوقع أن تقوم القوات البحرية بالتحرك بسلاسة من تأمين اللاجئين إلى حفظ الأمن بين الفصائل المتحاربة، إلى الهجوم على الميليشيات المتمردة. في العام 1999 دعي هذا المزيج من المهمات بـ «حرب المقاطع الثلاثة». وفي أوقات أخرى دعي بـ«عمليات عسكرية غير الحرب» وهي تعرف الآن بالاسم القديم «مكافحة التمرد» «COIN»(*) التي وصفها نقيب في القوات الأمريكية الخاصة مرة على

(*) COIN مختصر counterinsurgency وتعني مكافحة التمرد. [المترجم].

أنها «حرب شـامـلة على مستوى القواعد»[1]. ادعها ما تشاء - حروباً صغيرة أو حرباً محدودة، أو صراعاً منخفض الشـدة - هذا النوع من القتال ينتقل إلى قلب جدول أعمال الجيش الأمريكي في الوقت نفسه الذي يبدأ فيه جدول الأعمال هذا بمعالجة تغير المناخ.

يسـاعد التجمع الكارثي للفقـر والعنف وتغير المنـاخ في تغذية التركيز من جديـد على أسـلوب الحرب غير النظاميـة. ضمن كتابات مفكـري الأمن حول القضايـا المتعلقة بالمناخ هناك دور محوري لمكافحـة التمرد. وخلال تقاريرهم هناك سـطور مثل «عطلة نهاية الأسـبوع والحكومات الفاشـلة، بهامش ضيق مسـبقاً للبقاء، يتم تبني الظروف للصراع داخلي والتطرف والانتقال إلى سلطوية متزايـدة وعقائد أصولية. ربمـا تجر الولايات المتحدة بصـورة متزايدة إلى هذه الأوضاع من أجل المساعدة في تقديم العون والإنقاذ والخدمات، أو لتهدئة الأمور قبل نشـوب الصراع»[2]. «يصف الكتيب الحقـلي للعمليات التكتيكية الجديدة في مكافحـة التمرد للجيش الأمريكي (24.2-FM 3) الحقائق في البيئة العملياتية اليوم «على أنها» عدلت بانفجار سكاني وتمدين وعولمة وتقنية وانتشار الأصولية الدينيـة والطلب على الموارد وتغير المناخ والكوارث الطبيعية وانتشـار أسـلحة الدمار الشامل»[3].

عدم التناظر من الأعلى

في لب الموضوع هناك حقيقة غريبة: السـلاح الحربي الأمريكي متطور أكثر من اللزوم. يمكن للولايات المتحدة أن تبيد أي عدو تقليدي، وتحطم كوكب الأرض عدة مرات، فهي تتصرف على السـلاح أكثر من أكبر أربعة عشر جيشـاً تأتي بعد جيشـها. لكن القوة الكارثية للسـلاح النووي الأمريكي فعّالة سياسـياً فقط إذا لم تسـتخدم بالفعل... إنها تعمل كتهديد فقط.

ليكـون عنف الجيش الأمريكي فعّـالاً في عالم من الدول الفاشـلة والثورات والانقلابات والحروب الأهليـة والصدامات القبلية والمذابح واللصوصية، وعنف المخدرات وقطع الطرق والإرهاب والتدفقات اليائسـة للاجئين، يجب أن يطبق بتحفـظ - تحفظ كبـير بالنظر إلى قدراتـه - وبدقة. لا يمكـن لإمبراطورية أن

تصطاد الذباب بمطرقة. يتطلب تطبيق الولايات المتحدة للعنف الحقيقي أسلحة أصغر، وحركة أكبر، وتكتيكات أذكى قادرة على تحقيق انتصارات سياسية غير تقليدية مثل تحييد سكان ثائرين وهزيمة قوى غير نظامية واحتواء تدفق لاجئين واستبعادهم وقمع جماهير جائعة في المدن. وبالتالي فإن مكافحة التمرد COIN هي الموضة السائدة.

لسوء الحظ فإن الولع الحالي بمكافحة التمرد هو جزء من المشكلة، وليس الحل. فأساليبها مخربة ومفتتة اجتماعياً. وكعقيدة، فإن مكافحة التمرد هي نظرية الحرب الداخلية؛ إنها استراتيجية كبح التمرد والثورة. هدفها هو المجتمع المدني ككل، والنسيج الاجتماعي للحياة اليومية. وبينما يستهدف القصف الجوي التقليدي (المعروف بأنه غير فعّال) الجسور والمصانع ومراكز القيادة، تستهدف مكافحة التمرد - ونستخدم مصطلح فوكو(*) - المستوى «الشعري الدقيق» من العلاقات الاجتماعية. فهي تصدع وتمزق (لكنها نادراً ما ترمم) العلاقات الاجتماعية الحميمة بين الناس، وقدرتهم على التعاون، ونسيج التضامن المعيش - بعبارة أخرى الروابط التي تشكل أواصر المجتمع[4].

تحاول الحرب التقليدية أن تتحكم بالأرض، وتحطم الجيش المعارض، لكن مكافحة التمرد تحاول أن تتحكم في المجتمع. لذا فهي «تتمركز حول السكان». في تمرد ما تمتلك القوة العسكرية - الدولة أو القوة المحتلة - (اسمياً على الأقل) التحكم بفضاء المعركة، لكنها لا تمتلك التحكم بالسكان. رجال العصابات والقوات غير النظامية وحتى المجموعات الإرهابية الصغيرة غير المحبوبة، كلها تعتمد على السكان أو على جزء منهم للحصول على المجندين والمأوى والعناية الطبية والمعلومات، وإذا لم يوجد شيء آخر، على غطاء بسيط لعملياتها. لخَص ماو تسي تونغ ذلك بقوله: «يجب على مقاتلي حرب العصابات أن يتحركوا بين السكان كما تسبح السمكة في الماء». لذا فإن مهمة مكافحة المتمردين هي عزل رجال العصابات وتحطيمهم عن طريق كسب التحكم بالسكان من خلال العنف والوسائل النفسية والعقائدية الأخرى.

(*) الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو Michel Foucault.

تحت هذه الظروف، تتمحور الاستراتيجية والتكتيكات الآن حول النفسية والدين والبنى العمرية والطقوس والتقاليد والروابط العائلية والأنشطة الاقتصادية والإحساس بالمكان - باختصار، كل المؤسسات الرسمية وغير الرسمية للحياة العادية. المجتمع هو الهدف وهو لذلك محطم. مكافحة التمرد مدمرة بشكل خاص لأنها تهاجم النسيج الاجتماعي. ومثل الثورات التي تحاول قمعها، تهاجم مكافحة التمرد عن قصد العلاقات الاجتماعية في مكان ما، وتحاول إعادة صياغتها. لكنها اثناء العملية تساعد في إطلاق عمليات ذاتية التغذية من التفكك الاجتماعي.

الفاتورة

في فيتنام أطلق عليها «كسب العقول والقلوب»، أو في اللهجة العسكرية العامية الخبيثة في ذلك الوقت «ربح عقول الفلاحين وقلوبهم». واليوم كما في الماضي، يمكن لمثل هذا «العمل الاجتماعي» العسكري أن يشمل تنمية اقتصادية حقيقية، وإصلاحات سياسية تقدمية، مصممة لتلبية المطالب المشروعة للناس - أي لكسب تأييدهم الفعلي، وجعل الوعود الثورية للمتمردين أقل جاذبية. أو يمكن أن تعني حرب إبادة شاملة تدمّر المجتمع من جذوره، كما في «تصفية البحر للقبض على السمكة». في غواتيمالا خلال الثمانينيات سمح ذلك المنحى للقوات الحكومية بأن تحرق أكثر من 400 قرية هندية. محيت هذه القرى عن الوجود ببساطة، وقتل سكانها واغتصبوا واعتقلوا وشردوا.

سواء أكانت قاسية أم ناعمة، تحاول مكافحة التمرد دوماً إعادة صياغة العلاقات الاجتماعية. وأثناء العملية غالباً ما تلهدم من دون أن تعيد البناء، مسببة انهيار العادات والقيم الاجتماعية، وممزقة روابط التكافل والتحكم الاجتماعي الطوعي. وبشكل نموذجي، يكون الشذوذ والانحراف والأذى والفوضى من آثارها[5].

قارن بين تأثيرات مكافحة التمرد وتلك الناجمة عن قصف جوي خلال حرب تقليدية. على الرغم من أن القصف الجوي أكثر قتلاً وأشد تخريباً اقتصادياً، فإنه لا يميل إلى تخريب المجتمع والعلاقات الاجتماعية. وإذا كان هناك أي تأثير له فقد وجد أنه يزيد التضامن بين ضحاياه. تعطي بريطانيا خلال الحرب العالمية

الثانية المثال القوي البارز على ذلك: قوبل القصف النازي بالإخلاء والتقنين والتجنيد وتسوية غير مسبوقة للفوارق الطبقية. اتَحدت بريطانيا كلها تحت القنابل، وقاتلت بشراسة أكبر. وكما شرح وزير العمل ارنست بيفين عندما «تنخرط أمة في أزمة كبيرة. مــن المحتّم أن تصبح تشــاركية»[6]. ظهرت تأثيرات مماثلة في ألمانيــا واليابان أثناء الحرب، وكذلك في فيتنام الشــمالية تحت القصف الأمريــكي الكثيف، ويتوقع المرء ظهور ثقافة مماثلة من المعارضة المتحدة في المناطق القبلية من باكستان الآن التي تتعرض لهجمات طائرات الدرون»(*)[7].

لــذا كانت مكافحة التمــرد مركزية في تركيبة التجمع الــكارثي للفقر والعنف والتغير المناخي. حددت صراعــات بالوكالة غير نظامية - التمرد ومكافحة التمرد في العالم الثالث - الأســاليب الأمريكية والسوفييتية خلال الحرب الباردة. شحنت هذه الأســاليب مناطق عدة من العالم بعدم استقرار خطير. وثّقت الأمم المتحدة نحــو 150 نزاعاً مســلحاً في العالم الثالث بــين 1945 و1990. في هذه الحروب في العــالم الثالث والتي تدعى حروباً صغيرة قتل 20 مليوناً وجرح 60 مليوناً، ونزعت هوية 15 مليوناً صنفوا لاجئين بحلول العام 1991. وصف ديريك ســامرفيلد، وهو عــالم نفس وأكاديمــي متخصص بتأثيرات الحــرب الحديثة على الصحــة العقلية، الوضع بما يلي:

> كان 5% من مجموع المصابين في الحرب العالمية الأولى من المدنيين، وكان الرقم بالنســبة إلى الحرب العالمية الثانية 50%، وبالنسبة إلى حرب فيتنام أكثر من 80%. في الصراعات المسلحة الحالية فإن أكثر من 90% من الإصابات كلها هــي من المدنيين، وعادة من العائلات الريفية الفقيرة. يأتي هذا نتيجة العنف المتعمد والممنهج الذي يستخدم لإرهاب السكان... فالسكان، وليست الأرض، هم الهدف، ومن خلال الترويع يكون الهدف التغلغل داخل البيوت والعائلات ونســيج العلاقات الاجتماعية من جذورها منتجاً الشلل والاحباط. لهذا يزرع الرعب ليس بطريقة عشــوائية فقط، وإنمــا أيضاً من خلال هجمات مخططة عــلى العاملين في الصحة والمعلمين ورؤســاء التعاونيات، وهم الذين يجســد عملهم قيماً وآمالاً مشــتركة. أصبح التعذيب والتشــويه والإعدام الفوري أمام أفراد العائلة أمراً روتينياً»[8].

(*) الدرون drone (الدبور): طائرة من دون طيار تقاد من مركز تحكم. [المترجم].

بعبارة أخـرى، فإن مكافحة التمرد COIN أو نظريـة الحروب الصغيرة تعني التشـويه الاجتماعي. إذا كان التكيف العسكري يعنى بالصراعات الأقل شدة، وإذا كان متنبئـو البنتاغون يرون الحرب غير النظامية بدلا من الصراع التقليدي كمحور لعالم يعاد تشـكيله بسـبب التغير المناخي، فعلينا أن نراجع تاريخ هذه الطرق من حيث النظرية والتطبيق.

تاريخ الحروب الصغيرة

بمراجعة تاريخ الحروب الأمريكية الصغيرة تبرز ثلاث مراحل متميزة. من بداية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين شـكلت الحروب اللامتناظرة جزءاً من الغزو الامبراطوري الأوروبي لعالم الجنوب، والتحكم الاسـتعماري الذي تبع ذلك. في هذا الطور قاتلت المجتمعات التقليدية من أجل الحفاظ على نمط حياتها التقليدي. كانت الحرب اللامتناظرة بالنسـبة إلى هذه المجتمعات عملاً دفاعياً بالدرجة الأولى ضد الغزاة. شـن محاربو الزولو فيما يسمى الآن جنوب أفريقيا، وهنود السهول في الغرب الأمريكي، وطوابير قبائل الباشتون التي هاجمت البريطانيين في القرن التاسع عـشر كلها، حرب العصابات للدفاع عن النظام الاجتماعي القديم، وليس لتشـجيع أنماط جديدة.

ثـم من عشرينيات القرن الماضي حتى التسـعينيات أصبحت الحروب الصغيرة بشـكل متزايد (وليـس دوماً) تتميـز بثورات مدفوعـة ايديولوجيـاً. نعم، حارب الفلاحـون الفقراء لأن لهم مطالب - اسـتغلال زائد - ولكن النواحي الايديولوجية والسياسية للحروب كانت مهمة في صياغة هذه المطالب. حاربت القوى الاستعمارية والاستعمارية سابقاً، بشكل أساسي حروباً دفاعية لمكافحة التمرد ضد حركات التحرر الشـيوعية أو الوطنية التي كانـت لها مطامح تحديثية، وزعـماء مدفوعين بأفكار جديدة، أناس مثل أوغسـتو ساندينو وماو تسي تونغ وفيديل كاسترو وهوتشي منه. كان لهـذه الحركات جميعها نظريات متطورة، وإن كانت في بعض الأحيان مخطئة حول المجتمع.

ومع نهاية الحرب الباردة أصبح الصراع اللامتناظر ومكافحة التمرد أقل عقائدية وبالتالي أدنى فكرياً. أصبحت حركات التمرد الآن تحرض بازدياد لمجرد النهب والبقاء

أو بسـبب أفكار أصولية محافظـة ومتخلفة تعكس دوماً عند تفحصها فلسـفات أخلاقية سـاذجة بـدلاً من نظريات اجتماعيـة[9]. أو أنها لا تمتلـك أي مبادئ على الإطلاق. حركـة طالبان مثال على ذلك، وكذلك جيوش حرب العصابات المختلفة في غرب أفريقيا ووسـطها. مثل الجبهة الثورية المتحدة المجنونة التي أصبحت منحلة الآن والتي شوهت واغتصبت ونهبت عبر سيراليون لمدة 11 عاماً بدءاً من 1991؛ أو جيش الرب المقاوم، وهو ميليشيا نشطة تؤمن بالمذابح، مؤلفة من الجنود الأطفال الذيـن يزرعون الخراب خلال أجزاء من أوغنـدا؛ أو بقايا العصابات بعد العقائدية من رجال القوات المسلحة الثورية لكولومبيا.

أدرك أحـد المفكريـن العسـكريين في كتابتـه في مجلة كلية الجيـش الحربية (باراميتارز) هذا الطور الثالث بعد العقائدي على أنه جزء من تحول تاريخي يبتعد عن الاسـتقرار المتنامي باتجاه الفوضى المتزايدة: «منذ معاهدة ويسـتفاليا في العام 1648 سـارت العملية باتجاه تعزيز القانون والنظام، مـما أدى إلى ازدهار العديد من الدول الغربية ومؤسسـاتها العامة وسـكانها. ربما تنزاح الدورة الآن بعيداً عن الاسـتقرار وباتجـاه الفوضى، مقترحـة أن الدولة - الأمة ربما تدخـل مرحلة يجري فيها تحدي فائدتها كأسـاس لتنظيـم المجتمعات... ربما نتوقع فوضى متزايدة خلال الانتقال مما دعي بالحقبة «الحديثة» إلى الحقبة التي تليها»[10].

الحقبـة «التالية» - إن لم يعتنق مبدأ التخفيـف والتكيف التدريجيين في تغير المناخ - سـتكون تلك التي وصفها جيمس ووسـلي: حضارة تنحسر، ومكافحة تمرد مفتوحة، ومد يرتفع من العنف.

الأصول الاستعمارية

أخضع سـكان أمريكا الأصليون سابقاً لمشروع من الوحشية البسيطة على يد المستوطنين، لكن الحكومة الأمريكية صاغت بعد ذلك مشروعاً للدمج والتهدئة كان شبه علمي وشبه إنساني في خطابه. خدم برنامج «الحضارة» الذي فرض على هنود التشـيروكي كمثال مبكر على ذلك. «عليهم إمـا أن يغيروا نمط حياتهم، أو الموت» قال عضو مجلس الشـيوخ الأمريكي ضد التشـيروكي[11]. اختار التشيروكي الخيار الأول.

شيء يشـبه عملية مكافحة التمرد الحديثة ميز الحروب ضد هنود السـهول خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر. هزم الجيش الأمريكي السايوكس Sioux جزئياً عن طريق تقليدهم: حلّت وحدات صغيرة وسريعة وخفيفة من الفرسان محل تشـكيلات المشـاة الكبيرة، مخفضـة اعتماد الجيش على قطـارات إمداد طويلة مهددة. عملت فرق الخيالة عن قرب مع الكشـافين والمرتزقة الهنود من قبائل الكراو والأريكارس. وفي بعض الحالات هزمت تلك الوحدات العسكرية الصغيرة والسريعة، أو كما في حالة الجنرال جورج كاستر، قضي عليها.

دعم تقليـد الطرق الهندية بالطبـع بتفوق القوة الناريـة والنقل والاتصالات للجيـش الأمريـكي - أي بقوة الصناعـة الأمريكية. كان الاقتصاد مجالاً حاسـماً في الحرب. تقلَص صيـد الأمريكيين الأصليين مع إبادة الجاموس جزئياً من أجل فرائها، وجزئيـاً لعدم توفير الغذاء لعصابات المتمرديـن الذين رفضوا العيش في المحميات. جاء النصر النهائي على السايوكس عندما استغل نيلسون مايلز، انتقاماً لمقتل كاستر، قـدوم فصل الشـتاء الذي قيد حركة الهنود، وحصولهم عـلى الغذاء لإرغامهم على اللجوء إلى المحميات. وما إن حصروا هناك حتى أخضعوا لأساليب السياسة الحديثة كلهـا: التعرف عـلى الهوية والتنظيم في فـرق والمراقبة والتلقـين الديني والعمالة المأجورة والنقود ودفاتر الحسابات والغرامات والمحاكم العسكرية والسجون. كانت المحميات كما عرّفها عالم الاجتماع ارفنغ غوفمان «مؤسسـات شاملة». ولذلك فقد حطَمت أو أعادت تشكيل ثقافة الهنود وهويتهم.

في نيو مكسـيكو، مع ريادة الجـنرال جورج كروك اسـتعمال دوريات صغيرة ضد العصابات لمضايقة محاربي الأباتشي من أتباع جيرونيمو(*)، أنشـأ ايضاً نظاماً من المرايا الموضوعة في أعالي الجبال تتواصل بالإشـارات، ومد هـذا من تحكمه بالمعلومات على مساحة شاسعة من أراض وعرة جداً[12]. أعطت القطارات والتلغراف والأسلاك الشائكة والدعايـة والتلقـين العقائدي والتصوير والشـعوذة القانونية والبنـادق ذات الإطلاق السريـع المتكرر ومدفعية الميدان الخفيفة هوتشـكيس كلها تلك الحملات الوحشـية للإخضاع نمطاً حديثاً. ولنسمها التاريخ المسبق لطائرة الدرون الحديثة القاتلة.

(*) جيرونيمو Geronimo (1829 - 1909) هو أحد قادة سـكان أمريكا الأصليين ممن حاربوا ضد المسـتوطنين في أراضيهم. [المحررة].

بالتالي، استهدف الجيش في الحروب الهندية المدنيين كما في الحملات الحديثة ضد العصابات: مهاجمة القرى وحرق المحاصيل وأخذ الأطفال والنساء رهائن وتركيز اللاجئين في حصون عسكرية بحيث يمكن مراقبتهم بسهولة أكبر. استخدم مبدأ «فرق تسد» القبلي أيضاً لتسهيل الاقتتال الداخلي، وخلق تابعين محليين من الهنود. تذكر أن الزعيم الهندي سيتينغ بول (الثور الجالس) قتل من قبل محاربيه السابقين الذين تحولوا إلى شرطة في المحمية[13].

ظهور عقيدة

لم تنتج حروب السهول عقيدة مكتوبة أو نظرية للتهدئة، لكن الضباط البريطانيين وهم يواجهون مهمات مماثلة نهاية القرن التاسع عشر في مستعمرات التاج البريطاني بأفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا وثقوا أساليبهم. وكما بين جون نيغل في كتابه الكلاسيكي: «تعلم أكل الحساء بسكين: دروس لمكافحة التمرد من ملايو وفيتنام»، كان الضباط البريطانيون البعيدون جداً عن حكومتهم غير قادرين غالباً على تلقي التعليمات. لذا كان عليهم أن يقوموا بأنفسهم بدراسة تكتيكات جديدة وتطويرها.

كان أول كتاب في هذا المجال « انجراف الأغبياء الدفاعي» الجنرال سير ايرنست سوينتون. يصف هذا الكتاب الصغير الغريب «انجراف الأغبياء» خبرة سوينتون كضابط صغير يقود فرقة بريطانية في حرب البوير. رتب الكتاب على شكل خمسة أجزاء من الكوابيس المترابطة والمتكررة. في كل منها يخدع البوير سوينتون، ويهاجمونه بطرق جديدة أكثر دهاء. كل كابوس تتبعه قائمة من الدروس التي تصبح أكثر قسوة مع كل تكرار للحلقة[14]. مع إدراكه أنه لا يحارب مجموعة عصابات، بل السكان بأكملهم، يستنتج سوينتون أنه «ليست هناك أجنحة ولا مؤخرة، أو بعبارة أخرى إنها جبهة من كل الجهات[15]». من هذا يستنتج أن عليك ألا تثق بالسكان المحليين بل تحتجزهم وتحرق مزارعهم وتجوعهم بمن فيهم النساء والأطفال. عليك أن تهاجم نسيجهم الاجتماعي لأن هذا ما يعتمد عليه رجال حرب العصابات.

تشمل أعمال لاحقة كتاب تشارلز كالدويل «حروب صغيرة: مبادئها وتطبيقاتها»، وكتاب تشـارلز غوين « التحكم الامبراطوري». كلاهما سـاعد في تأسـيس خصائص مركزيـة في عقيـدة مكافحة التمرد - اسـتخدام أدنى للقوة، وتنسـيق بين المدنيين والعسـكريين، وتطوير لقوى متعاونة - لكنهما يفتقران إلى الأسلوب الرائع والمخدر الموجود في كتاب «انجراف الأغبياء».

حروب الموز

بالنسـبة إلى القوات الأمريكية نضجت تكتيكات الحرب الصغيرة بشـكل كبير بنشـوء مـا يدعى بحروب المـوز. بين نهايـة 1890 ونهايـة 1930 تدخلت القوى الحربية الأمريكية في تشيلي وهايتي وهاواي ونيكاراغوا والصين وبنما والفلبين وكوبا وبورتوريكو وجمهوريـة الدومينيكان وأماكن أخرى كثـيرة. كانت هذه الصراعات جميعهـا غير نظامية، وغير متناظرة بصورة أو أخرى، وشـملت التحكم بالسـكان المدنيين أكثر من إبادة قوة تقليدية.

كان النظـام السـائد في تلك الأيام هـو العنف المحسـوب، وتكتيك الوحدات الصغيرة، والحركة، والحرب النفسية والثقافية، والطرق الحديثة في الإدارة والتنظيم والمراقبة. حشـد المعتقلون وهم غالباً من المدنيين في معسـكرات، وتحكمت وثائق الهويـة الرسـمية ونقاط التفتيـش في تحركاتهم. في أوقات شـملت هذه الحملات تحطيم وسائل معيشة العدو، وكان حرق قرى بأكملها إجراء عادياً. أصبح المدنيون الجائعون بعد ذلك، معتمدين على مسـاعدات الغذاء، أو برامج التنمية الاقتصادية «الحديثة» للمحتلين، وأفرغت مناطق عمليات حرب العصابات من السكان[16].

كان أسـاس الانتصار هو إنشاء قوات متعاونة محلية وتدريبها. عندما انسحبت القـوات البحرية الأمريكية أرادوا الاعتماد عـلى الشرطة المحلية أو الدرك لقمع أي سـياسي أو نقابي أو وطني أو اشـتراكي إصلاحي ربما يبحث عن قلب النظام القائم بفرض الضرائب على الشركات الأجنبية وإعادة توزيع الثروة[17].

أطلق على هذا الاسـتخدام للأقليات العرقية عن طريق سياسـة فرق - تسـد بـ«انتهازية التحرير العرقي» من قبل عالم الإنسـانيات فيليب بورجوا. وهي تحدث مـرة بعد أخـرى في الحروب الصغيرة - تشـمل الأمثلة اسـتخدام وكالة المخابرات

المركزية CIA لقبائل الجبال في لاوس خلال حرب فيتنام، وتسليح مرتزقة المجاهدين ضد الاتحاد السوفييتي خلال فترة الجهاد الأفغاني في الثمانينيات، وتطوير فرق الموت الشيعية، وميليشيات الصحوة السنية(*) في العراق [18]. رعاية هؤلاء العملاء تعني دوما تقريبا رعاية المجرمين والمتعصبين. تشمل أسماؤهم من الحرب الباردة بروكلين ريفيرا في نيكاراغوا وجوزيف سافيمبي في أنغولا وقلب الدين حكمتيار في أفغانستان. ليس من السهل أبدا التحكم بهؤلاء المهووسين النافعين، وعندما ينتهي الغرض منهم كعملاء يتركون ليتجولوا بعنف عبر أراضي مجتمعاتهم.

الكتيب

من حروب الموز إلى القوات البحرية الأمريكية في الكاريبي وأمريكا اللاتينية، جاء كتاب « كتيب الحروب الصغيرة» الذي نشر في العام 1940. عند تلك المرحلة كان لدى القوات البحرية الأمريكية بعض الخبرة للاستفادة منها. وكما لاحظت الطبعة الأولى من الكتيب «أنزلت القوات البحرية جنودا 180 مرة في 37 دولة من العام 1800 إلى العام 1934. وفي كل عام خلال الـ 36 عاما السابقة منذ الحرب الإسبانية - الأمريكية اشتبكت القوات البحرية في عمليات نشطة بالحقل[19]. كانت الحروب الصغيرة ثابتة ومستمرة.

مالت أساليب الحرب الصغيرة للقوات البحرية إلى الجمع بين الجزرة والعصا، والترويع والصلح. طبق العنف من أجل إزاحة سلطة المتمردين أو الحكومة المسيئة. حرقت القوات البحرية المحاصيل والبيوت، وأخذت سجناء، وأرهبت السكان العاديين. قال سميدلي بتلر إن قواته حرقت معظم شمال هايتي. استخدمت التقارير الرسمية لغة أذكى لوصف الشيء نفسه: «أعلنت القوات على الأرض ونفذت ما عرف بشكل شائع بـ (الموسم المفتوح) حيث لا يتخذ الحذر لتقرير فيما إذا كان السكان المحليون المصادفون هم من رجال العصابات أو (مواطنين صالحين)، وحرقت مستودعات بلا شفقة فقط لأنها لم تكن مشغولة، وأتلفت ممتلكات السكان المحليين»[20]. لكن ما إن يخضع السكان حتى يسمح لهم بالعودة إلى حياتهم العادية وأنشطتهم الاقتصادية[21].

(*) وردت في النص الإنجليزي خطأ safwa وقد ترجمناها «صحوة» كما هي بالعربية. [المترجم].

وصفتها صحيفة الأمة The nation بشـكل أكثر صراحـة: «نزلت القوات البحرية الأمريكية في هايتي، واستولت على الذهب في المصرف الوطني، واحتلت أبنية الجمارك، وأغلقت المجلس التشريعي، ورفضت دفع رواتب الموظفين الهايتيين الذين رفضوا تنفيذ رغبات الرجل الأبيض»[22]. عبر بتلر وهو محارب قديم في العديد من الحروب الصغيرة، عن ذلك بشـكل أكثر مبـاشرة: «قضيت معظم وقتي أعمل حارسـا من الصنف الأول للشركات الكبرى لشارع وول ستريت وللمصرفيين. باختصار كنت أقوم بالابتزاز لمصلحة الرأسـمالية». قال بتلر إنه: «سـاعد في اغتصاب نصف دزينة مـن جمهوريات أمريكا الوسطى لمصلحة وول ستريت»[23].

وكلاء الحرب الباردة

في العام 1952 أنشـأ الجيش الأمريكي القـوات الخاصة. وبهذا التطور أصبحت مكافحة التمرد عملية أكثر مؤسسـاتية ومرتبطة عن قرب بعقيدة سياسـية للدفاع عن الرأسمالية. بعد بضع سنوات نشر ارنستو تشي غيفارا كتابه «حرب العصابات» المماثـل لكتيب «الحـروب الصغيرة» من حيث إنه مليء بنصائـح عملية وبديهية: «الانتقال في الليل خاصة مهمة أخرى للعصابات، تمكنها من التقدم للهجوم، وللحشد في مـكان جديد وحيث يوجـد خطر الخيانة» [24]. لكن كتـاب «حرب العصابات» يؤكد أيضا على دور الأفكار والسياسـات. فبالنسـبة إلى غيفارا، العقيدة هي وسيلة وغاية. أما بالنسـبة إليه، فإن التمرد السـياسي الواعي ذاتيـا هو وحده القادر على الانتصـار: «يحتاج مقاتل العصابات إلى مسـاعدة كاملة من سـكان المنطقة. هذا شرط ضروري. ويتضـح هذا بالنظر إلى جماعات اللصـوص التي تعمل في المنطقة. لديها كلها خصائص جيش العصابات كالسـيطرة واحترام القائد والشجاعة ومعرفة الأرض، وغالبـا فهـم يتقنـون التكتيكات التي يجب اسـتخدامها. الـشيء المفقود الوحيـد هو دعم الناس لهم؛ ومـن المحتم أن يجري القبض على هذه العصابات في النهاية وتصفيتها من قبل القوات الحكومية»[25]. أما بالنسـبة إلى غيفارا، فإن تفوق العصابات العسكري ناجم عن ارتباطها بالمثل السياسية. «لابد أن نأتي إلى الاستنتاج المحتم بأن محارب العصابات هو أيضا مصلح اجتماعي، وأنه يحمل السلاح استجابة للاحتجاجـات الغاضبة للناس ضد من يقمعهم، وأنه يقاتـل من أجل تغيير النظام الاجتماعي الذي يبقي إخوانه من غير المسلحين في البؤس والعار»[26].

من هنا يأتي الصراع على القلــوب والعقول. وبالفعل كان جون كينيدي أول من طلــب ترجمة كتاب تشي إلى الانجليزية. كان كينيدي مهتما بشــكل حميم بمكافحــة التمرد: بناء عــلى طلبه قام رجــال القوات الخاصة بارتــداء قبعاتهم المســماة بالخضراء. كان تقديرا غريباً وغير مناســب لتــشي، الذي عرف بصورته الأيقونية مرتديا هذه القبعة.

وبعــد فترة قصيرة كانت القوات الخاصة تعمل في لاوس وفيتنام. تميزت الحرب في الهنــد الصينيــة بعنف هائل: قصف جوي مســتمر بطائــرات B-52 وبالنابالم، واشــتباكات كبيرة وتقليدية بين جيش فيتنام الشــمالية والقــوات الأمريكية. لكنها شــملت أيضا مكافحة تمرد واســعة النطاق كان في لبها برنامج القرية الإســتراتيجي الذي تضمن تدمير المجتمعات المدنية المؤيدة للفيت كونغ(*)، ثم إعادة بنائها.

لم تشهد أي دولة حملة مكافحة تمرد أشد تدميرا من غواتيمالا. بدءا من 1981 جمعــت الحكومة العســكرية للجنرال ريــوس مونت بين حمــلات الإبادة والأرض المحروقة ضد المدنيين واســتراتيجية تطوير كلاســيكية (أمِّــن - و- احتفظ) دعيت «فاصولياء ورصاص». بعد هدم القرى الهندية وذبح معظم ســكانها، حشد الجيش المدنيــين المتبقين على قيــد الحياة في «قرى نموذجية». أجــبروا الذكور الناجين على الاشــتراك في دوريات مدنية، وقوات حراسة بأسلحة خفيفة خدمت على شكل آذان الجيش وعيونه - وفي كثير من الأحيان استخدمت كدروع بشرية له. قتل نحو مائة ألف مدني خلال الحرب الأهلية في غواتيمالا معظمهم من القوات الحكومية.

ســنحت لي الفرصة لرؤية هذه الحرب عن كثب عام 1988 عندما مشــيت عبر مثلث ايكســل في جبهــة الحرب بالمرتفعات. كانت الطرقــات مليئة بالدعايات من قبــل الحكومة والعصابــات - قوائم يدوية صغيرة تحض الناس على المشــاركة مع هــذا الفريــق أو ذاك. كانت المنطقة لا تزال في حالة حــرب، لكن العصابات كانت تتراجع. في كل مكان شــهدنا أســاليب مكافحة التمرد: طرق قطعت الأشــجار فيها مــن الجانبين، ودوريات طــيران، ونقاط تفتيش لميليشــيات مدنية، وقرى محروقة وأخــرى تحت النفــوذ الحكومي الصارم. في قرية نموذجيــة تخندقت مجموعة من الجنــود الغواتيماليين حول مكان هبــوط المروحيات في أعلى مكان من الجبل. بعد

(*) Viet Cong: الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام.

ذلك في العام 1991 سافرت مع المقاومة الوطنية، وهي جزء من جبهة التحرير الوطنية فارابوندو مارتي أو FMLN، وأرسلت تقارير عنها. حملت هضاب كاباناس والسلفادور الندوب الفيزيائية والاجتماعية نفسها.

اليوم يستمر العنف في مرتفعات غواتيمالا والمدن الصغيرة في السلفادور، لكن بدلا من حرب العصابات ومكافحة التمرد، فإن المصيبة هي الجريمة. يبلغ المتوسط العالمي للقتل أقل من ثمانية لكل مائة ألف من السكان، لكن مكتب الأمم المتحدة حول المخدرات والجريمة أشار إلى أن معدل القتل في أمريكا الوسطى بين عامي 2003 و2008 بلغ في المتوسط واحدا وستين في هندوراس؛ واثنين وخمسين في السلفادور؛ وتسعة وأربعين في غواتيمالا لكل مائة ألف من السكان[27]. كتب عالم من أمريكا اللاتينية عام 2006 أن «معدلات الجريمة ارتفعت عالميا بمعدل 50في المائة خلال الـ 25 سنة الماضية، ويعتقد على نطاق واسع أن هذه الظاهرة تساهم بشكل كبير في معاناة الناس في كل أنحاء العالم. وتنطبق هذه الحالة بشكل خاص على أمريكا اللاتينية، حيث وصل العنف فيها إلى مستويات غير مسبوقة نتيجة ازدياد الجريمة والجنوح»[28].

كانت هذه الدول الثلاث جميعها مراكز لمكافحة تمرد عنيفة منذ أواخر السبعينيات حتى أوائل التسعينيات، وكانت النتيجة هي الانحراف وإضعاف المجتمع وتخريب النسيج الاجتماعي، مما تسبب في انتشار ثقافة البندقية بين عدد كبير من السكان العاطلين عن العمل والمعتادين على العنف والقمع والسرية والولاء للعصابة والوحشية والتدرب على فنون التهريب والابتزاز واللصوصية والاغتيال. بعبارة أخرى احتل جيش غير مرئي من المجرمين المجتمع. انغمست الطبقة السياسية في العنف ومعظمها نظر إلى المجتمع كساحة حرب يجب تحطيم الأعداء فيها، والتخلص من المشاكل الاجتماعية بالعنف. هيمنت الجدران والحراس المسلحون على الأحياء. وتعودت الشرطة على سلوكيات كالتعذيب والخطف وتجارة المخدرات[29].

في هذه الأثناء، كان الفقر النسبي يحدد معالم الوضع النفساني: هذه المجتمعات أكثر لا مساواة من أي وقت مضى، وبرفعها الوعي الطبقي للجماهير قامت الحركات الثورية والاجتماعية التقدمية بتنوير المجتمعات حول عدم

المساواة الكامنة في هذا الوضع[30]. وتجعل مشاهد الإعلام الحديث عن طريق عرضها للغنى والشهرة الناس العاديين يشعرون بما يفتقرون إليه. ويغذي هذا كله الفقر النسبي المولد للجريمة.

ما بعد الحرب الباردة

من المعروف أن هزيمة أمريكا في فيتنام صرفت الجيش الأمريكي عن دراسة مكافحة التمرد، رغم أن أساليب الحرب غير النظامية بقيت جزءا من التعليمات للقوات المتعاونة مع الولايات المتحدة في السلفادور والفلبين وكولومبيا وأمكنة أخرى. لكن عقيدة مكافحة التمرد عادت مرة أخرى بعد وقوع مغاوير الجيش الأمريكي بمشكلة في مقديشو بالصومال عام 1993 خلال غارة فاشلة على مجمَع أمير الحرب في الصومال محمد فرح عيديد. بعد إصابة مروحية بلاك هوك في المدينة، دخلت بعثة إنقاذ المدينة في النهاية، ثم خرجت منها، لكن ليس من دون خسارة كبيرة في الأرواح - خاصة بالنسبة إلى الميليشيات الصومالية، حيث قتل من ثمانمائة إلى ألف وثلاثمائة منهم - وإذلال مدو للجيش الأمريكي[31].

بدأ البنتاغون بعد ذلك بالتفكير بجدية أكبر حول كيفية محاربة جنود غير نظاميين في المدن وفي دول فاشلة. بعد ذلك بوقت قصير وضعت مؤسسة راند RAND دراسة دعيت «تمدين التمرد»، وفي ديسمبر عام 1997 انتقدت هيئة الدفاع الوطني في تقرير لها «الجيش الأمريكي بأنه غير مهيأ لقتال معقد في الشوارع المتعرجة والمستحيلة السلوك تقريبا في مدن العالم الثالث الفقيرة. نتيجة لذلك أطلقت القوات المسلحة الأربعة جميعها، بالتنسيق من قبل مجموعة العمل المديني للأركان المشتركة برامج سريعة لإتقان فن قتال الشوارع تحت ظروف تماثل واقع العالم الثالث»[32].

في العراق رأيت هذا المبدأ الجديد يطبق في شوارع بغداد والفلوجة وسامراء وبعقوبة. وخلال معركة بالنيران عادت بي الذاكرة، وأنا مختبئ خلف سيارة متوقفة، إلى لعبة الحرب تلك في أوكلاند. اختصر إطلاق النار ذاك في بغداد الحرب بأكملها: مشوشة وكثيفة العمالة، ومفرطة في التقنية، وغير فعالة، ومدينية بشكل غريب. كان لدى القوات الأمريكية قوة نارية أكبر مما كان بإمكانها أن تستخدمه، ولم تكن

تعلـــم بالضبط مكان العـــدو ولا هويته. اختبأ المواطنـــون في كل زاوية بينما كانت طلقات الرصاص تئز بالقرب منهم.

يوضح غريـغ غراندين في كتابه «ورشـــة عمل الامبراطورية: أمريـــكا اللاتينية، والولايـــات المتحدة، وصعـــود الامبريالية الجديدة» الروابط بـــين مكافحة التمرد في العراق وسابقاتها في أمريكا الوسطى. يقتبس غراندين قول خبير أمريكي في مكافحة التمـــرد يصف قوة القوات الممولـــة والمدربة أمريكيا في أمريكا الوســـطى على أنها «تصبح متوحشة». وكما يشرح غراندين «مع فشل الولايات المتحدة في هزيمة الثوار [العراقيين] وحدها بدأ البنتاغون في مناقشـــة «الخيار الســـلفادوري»، أي استخدام قـــوات ميليشـــيا محلية عرفت بكتائب المـــوت للقيام بالعمل القـــذر الذي لم تكن ترغـــب فيـــه، أو غير قادرة عليه. تحولت إلى رجال مثل جيمس ســـتيل الذي قاد في الثمانينيـــات مهمة القوات الخاصة في الســـلفادور، وعمل مع أوليفر نورث لتهريب السلاح والإمدادات إلى ثوار الكونترا في نيكاراغوا [33].

كانت النتيجة تشـــكيل كتائب الموت. التحق بيتر ماس من مجلة نيويورك تايمز بستيل ووصف الوضع كما يلي:

> بالنظـــر من خلال الأبـــواب، رأيت نحو مائة معتقل يجلســـون على الأرض وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم، ومعظمهم معصوب العينين. عن يميني خارج الأبواب كان هناك موظف أمن يلبس ســـترة جلدية يصفع معتقلا جالســـا على الأرض ويركلـــه.. بعد بضع دقائق من بدء المقابلة، بدأ شـــخص يصيح في القاعة الرئيســـة مغطيا على الصـــوت. «الله » صرخ: «الله، اللـــه». لم تكن صرخة فرح بل كانت صرخة رعب كصيحات رجل مجنون، أو شـــخص يعذب حتى الجنون. «الله» صرخ مرة بعد مرة. كانت الصرخات عالية جدا بحيث لا يمكن تجاهلها. غادر ســـتيل الغرفة ليعرف ما يحدث. في الوقت الذي عاد فيه كانت الصرخات قد توقفـــت. بيد أنه حالا من خلال النافذة ورائي أمكنني ســـماع أصوات رجل يتقيأ جاءت من منطقة احتجز فيها معتقلون آخرون على جانب البناء» [34].

ختم ماس مقاله بتلخيص جوهري: «في الســـلفادور والهندوراس والبيرو وتركيا والجزائر وأماكن اشتعال التمرد ومكافحة التمرد، استمرت المعارك من دون توقف. كانت بلا استثناء حروبا قذرة».

هذا هو فحوى التكيف المسلح للتغير المناخي: حرب قذرة للأبد. في الفصول اللاحقة سيتضح الخراب الاجتماعي الناجم عن مكافحة التمرد في الماضي، على شكل جريمة وتهريب وميليشيا مدنية وفرق موت ومناطق مليئة بالأسلحة الخفيفة واستخدام روتيني للاعتقال والتعذيب. ولأن مكافحة التمرد بالتصميم هي حرب تهاجم النسيج الاجتماعي فقد بذرت الفوضى وهيأت المسرح لتجمع كارثي. بترك الفساد والجهل والجريمة والانحراف خلفها، خلقت الحروب الصغيرة والقذرة مجتمعات غير قادرة كليا على التعامل مع التغير المناخي. والآن يضاعف التكيف المسلح الرهان السيئ بتطبيق مكافحة تمرد أكبر على المستوى العالمي للأزمة.

الجزء الثاني

أفريقيا

4

الجغرافيا السياسية لغارة على قطيع

هناك ظل تحت هذه الصخرة الحمراء،
(تعال إلى ظل هذه الصخرة الحمراء)،
سأريك شيئا مختلفا عن ظلك، وهو يسير
خلفك في الصباح،
أو عن ظلك، وهو يقف للقائك في المساء؛
سأريك الخوف في حفنة من تراب.

ت. س. اليوت، الأرض اليباب

«إن لم تكن هذه حربا فهي شيء قريب جدا منها»
المؤلف

إذا كان المركز الإمبريالي للنظام العالمي يستعد للتكيف مع تغير المناخ عبر اللجوء إلى أساليب عسكرية، فما الذي سيبدو عليه انهيار ناجم عن تغير مدفوع مناخيا في عالم الجنوب؟ كيف يتكيف الفقراء؟ وكيف يعمل التجمع الكارثي على أرض الواقع؟ ما بنيته وما تاريخه؟ للحصول على أجوبة على هذه الأسئلة، سافرت إلى شرق أفريقيا. وهناك في

صباح يوم قائظ وجدت نفسي أنظر إلى الرجل المقتول إيكارو لورومان الذي قتل من نواح عدة بسبب تغير المناخ.

كـما ذكرت في الفصل الأول، دفعت هذه المجموعة من التوركانا نحو الجنوب من جـراء موجة جفاف قوية، وكانوا يرعون ماشـيتهم قريبا جدا مـن أعدائهم البوكوت. ولنـدرة المـاء والكلأ مرض القطيـع. ولتعويض النقـص في القطيع أغار الشـباب على جيرانهـم[1]. هذا العنف المتزايد يتعلق بوضوح بتغير المناخ. ترتفع درجة حرارة الأرض وتصبح الأمطار المنتظمة في نطاق التقارب بين المدارين ITCZ غير منتظمة. في الوقت نفسـه، فإن الميـاه التي تتدفق من الجليد المتموضع على جبل كينيا في مشـكلة أيضا: منـذ قرن مضى كانت القمة تحوي 18 كتلة جليديـة بقي منها اليوم 11 فقط وتقلص 4 منها بشـكل كبير[2]. والشيء نفسـه صحيح بالنسـبة إلى تنزانيا المجاورة، حيث تشير اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC إلى أن «المدى الحقيقي لحقول جليديات جبل كليمنجارو تقلص بنحو 80 في المائة خلال القرن العشرين[3]».

وكـما شرح طبيب بيطري كيني يعمـل مع رعاة قبيلة الماسـاي لجون فيدال من صحيفـة الغارديـان: في الماضي كنا نحصل عـلى دورة مناخية كل 10 سـنوات، يتبعها دومـا جفاف كبير. في السـبعينيات بدأنا نحصل على موجـات جفاف كل 7 أعوام؛ وفي الثمانينيات جاء الجفاف مرة كل 5 سنوات، وفي التسعينيات حصلنا على دورات جفاف وفترات من الجفاف كل عامين إلى ثلاثة أعوام تقريبا. وفي العام 2000 حصلنا على ثلاث فـترات جفاف كبيرة وعدد من فترات الجفـاف. والآن أصبحت تأتي كل عام تقريبا عبر البلد كله[4]».

يدفـع الطقس المتطرف شـمال كينيا نحو التصحر، وهـذا يعني أن على الرعاة أن يتنافسوا على الماء والكلأ. الوضع سيئ جدا في بعض الأماكن بحيث يقتل الناس بعضهم بعضا من أجل الماء - إطلاق النار للتحكم في الآبار والمراعي. ربما كان هذا المثال الأكثر مباشرة عن إثارة تغير المناخ للعنف.

الغارة

التوركانـا موجـودون هنا - في مكان دعـي كوتاروك جنوب غـرب قرية نيبا، أو «موقعهـا الفرعـي» - ليكونـوا بالقرب من بئر حفرت منذ سـنوات مضت من

قبــل منظمة غير حكوميــة NGO. وغير بعيد عن المكان ترتفع هضاب كاراســوك - وهــي جبال حادة قاحلــة تبرز فجأة من صحراء منبســطة. عندما يتوافر لرجال القبائل الديزل لتدوير المضخة، تسحب هذه البئر الضيقة القليل من المياه الجوفية القديمــة. في تلك الأوقات الجافة التي يبدو أنها تدوم وتدوم، يكفي ماء البئر وحده لإبقاء القطيع على قيد الحياة. ومن دون القطيع ســيختفي التوركانا، ســيموتون أو ســيهاجرون إلى المدن، وســتبقى ثقافتهم فقط في ذكريات سكان أحياء عشوائية لا جذور لها في المدن.

في الوقت الحاضر تســحب البئر الحياة إلى الســطح. لكن البئر تسبب المشاكل أيضا. إما بسبب المنطق الجاهل لمشروع مساعدات عمره 40 عاما، أو بسبب ضرورة جيولوجية أو هيدرولوجية بســيطة، حفرت البئر قريبا بشــكل خطير من مقاطعة البوكــوت - على الحدود التي تلتقي عندهــا كلتا القبيلتين. هنا تنحدر الجبال نحو واد عميق ينفتح على الســهول. يمكنك في الحقيقة رؤية المكان إذا نظرت في خرائط غوغل. إنه في منتصف الطريق صعودا إلى الحافة الغربية من ســهول توركانا، حيث يقــترب نهر تركويل الموحل والسريع التدفق من الجبال. انظر عن قرب ويمكنك أن ترى موضع تقاطع واد عميق مع هضاب كاراســوك. يســتخدم البوكوت ذلك الممر للقيام بغاراتهم.

تعــود العداوة بين البوكــوت والتوركانــا إلى عهد طويل. يحــد البوكوت التوركانــا من الجنوب، وهم مثــل التوركانا ينحدرون من ســلالة نيلية. لكن البوكوت يتكلمون لغة مختلفة، وينتمون إلى المجموعة الكبيرة الفضفاضة من القبائل التي تدعى كالينجين - وهي تجمع ثقافي مخترع حديثا نســبيا، وذات تجانس داخلي مشكوك فيه. إنها اختراع سياسي من فترة ما بعد الحرب العالمية الثانيــة، وتجميع لقبائــل أدنى تحاول التــوازن مع قبيلــة الكيكويو المهيمنة اقتصاديا واجتماعيا[5].

أجبر البوكوت على الصعود إلى المناطق الجبلية الصخرية غير الخصبة، بســبب قلــة عددهــم وضعفهم التاريخــي، ونتيجة للضغوط عليهم مــن كل جانب. لكن ضعفهم وتعرضهم للأذى جعلاهم خشنين وعنيفين وجريئين. يحترم الجيران جميعهم البوكوت ويخشونهم، لأنهم خلال الجيل الأخير أو نحو ذلك على الأقل بقوا على قيد

الحياة بنقل الحرب إلى أعدائهم، بالإغارة والقتل من مناطق بعيدة، وتبني تكتيكات شبه عسكرية، واستخدام الحدود الأوغندية - الكينية كملاذ آمن لهم يعبرونها جيئة وذهابا كما يشاؤون. وكرد على أولئك الذين اضطهدوهم وضغطوا عليهم لفترة طويلة، بدأ البوكوت في تحويل غارات القطيع التقليدية والطقسية إلى مزيج حديث من الحرب غير النظامية والجريمة المنظمة.

تغير جماعات الحرب من البوكوت على الماشية، وتنصب الكمائن للعربات على أحد طرفي الحدود، فقط لتهريب ما سرقته وبيعه على الطرف الآخر. يهجمون على مسافات طويلة في عمق شمال كينيا، ثم يتراجعون بسرعة إلى الهضاب الوعرة في أوغندا. يشترون الأسلحة والذخيرة في أوغندا لاستخدامها في كينيا، ويعقدون الصفقات مع ضباط الجيش الأوغندي والسياسيين الكينيين لبيع ماشيتهم المسروقة. البوكوت لاشك أنهم خشنون ومشهورون بالقسوة. لقد مني الجيش الكيني بأكبر الخسائر منذ الاستقلال خلال حملته الفاشلة لقمع البوكوت.

ملتهب من جديد

لعدة أشهر كان البوكوت يغيرون بشدة على الموقع الفرعي نيبا. أصيب قوم نيكارو قبلها بأسبوع واحد فقط. في ذلك الهجوم قتل رجل بالغ وطفلان. وخلال غارات حديثة أخرى سرق البوكوت بعض الأطفال ليحتفظوا بهم، ويربوهم كأطفال لهم، وأخذوا بالغين وزعوهم وألقوهم في طريق قطعان الماشية المسروقة لتدوس عليهم. وكما شرح زعيم في الموقع الفرعي نيبا كان هذا تقاطعا بين لعنة تقليدية للحماية، وإرهاب حديث.

ولأنهم مضغوطون على حافة أراضي البوكوت، كان التوركانا الذين عاش إيكارو بينهم يشعرون بالتعاسة. أرسلت العديد من العائلات نساءها وأطفالها إلى التجمع في بلدة صغيرة وانتظار منح المساعدة، بينما ذهبت طواقم من الشباب لحماية القطيع. هؤلاء الشباب المعروفون باسم موران أو المحاربين تراوحت أعمارهم بين السابعة عشرة والخامسة والأربعين، وعرضوا طيفا من الأزياء الشخصية: صنادل مصنوعة منزليا من عجلات قديمة، وتنانير من الطرطان، وعقود من البلاستيك،

ومجموعـة من القمصـان المفتوحة، ومعاطـف حقلية تتراوح بـين الخاكي المبرقع ورمادي الفرق الموسيقية، والأسود الباهت، وأثواب لها جيوب لشركة أمن خاصة في نـيروبي. لبس بعض الموران قبعات صغيرة ذات حافة على نمط قبعات جبال الألب. وضـع آخرون صفوفا من الجـروح التزيينية على وجوههم. حمل الجميع السـلاح: بنادق كلاشنكوف لها مقابض خشبية ملونة ومحفورة، أو بنادق G-3 ألمانية الصنع، وبنادق قوية ذات مدى بعيد، صالحة للقتال والصيد في الأماكن الفسيحة المفتوحة من توركانا.

شهد الموقع الفرعي عنفا سابقا. خارج الطريق الترابي اصطفت جدران محروقة لما كان في السابق مدرسة ومستوصفا، دمرتا في مرحلة أسبق من الحرب بين التوركانا والبوكوت. ومن خلال مترجم شرح الموران ما الذي حدث في اليوم السابق.

بدأت الغارة منتصف الصباح، واستمرت 6 ساعات. هجم نحو 90 من البوكوت من الجانبين، متوغلين في عمق السافانا المنبسطة بين الهضاب ونهر تركويل. تحركوا شرقـا ثم عـادوا فاجتاحوا غربا نحو الهضاب مثل شـبكة بشرية مسـلحة، دافعين آلاف الحيوانـات أمامهم، في محاولة منهم لدفع القطيع خلال الممر وصعودا داخل الكاراسوك.

لو اسـتطاعوا الوصـول إلى الممر وارتقوا الهضاب لأمكنهـم التصدي للمحاربين المطاردين مـن التوركانا أو حتى تمزيقهم. في الهضاب، عنـد فوهة الجرف الضيق، استكشـف البوكوت مسـبقا أماكن لوضع البنادق يمكنهم منها الانقضاض على أي شخص يطاردهم. قبل ذلك بنحو شهرين، خلفت غارة مماثلة للبوكوت تبعها كمين لهم 26 قتيلا و14 جريحا من التوركانا المطاردين[6].

لو تمكن القطيع من الوصول إلى الهضاب لقسمه المغيرون إلى قطعان أصغر، ووزعوهـا في عمق مقاطعة البوكوت الغربية، ثم ربما عبر الحدود إلى أوغندا، أو لأمكنهم بيع الأبقار من القطيع لعملاء مسـالخ في نـيروبي، والإبقاء على الأغنام والماعز لأنفسهم.

مع هجوم البوكوت بدأ إطلاق النار. سـمع رجال آخـرون من التوركانا قرقعة طلقة واحدة من الـ AK-47، ثم صيحات الحرب المرتفعة للبوكوت. ولتنبههم إلى التهديد، ولأنهم مصابون وعلى حافة أعصابهم من جراء صيف من العنف المستمر،

وشـعورهم بأنهم يمكن أن يصلوا إلى الفقر المدقـع في يوم واحد لو نجحت الغارة، اندفع الموران نحو صوت البنادق.

مـع هجومهم رقـص البوكـوت ملوحين ببنادقهـم وقارعين عليهـا، مزغردين ومنادين بأسـماء جوائز قطيعهم، قبـل أن يطلقوا طلقات منفردة أو ثلاثية رشـا. وبذخيرة محـدودة رد التوركانا على البوكوت مطلقين طلقات مفردة مصوبة جيدا، وصائحين بوعودهم بالشـجاعة وبأيمانهم القاتلة، وأوصـاف ثيرانهم المميزة. «هذا للثور الرمادي ذي الوجه الأبيض». لو قتل محارب رجلا يمكنه بعد ذلك أن يقسـم الأذنين المتدليتين لثوره المميز، بحيث يعلم الناس ما فعل.

اسـتعرت المعركة على مدى 6 كيلومترات، واسـتمرت لعدة ساعات من الركض والاختبـاء وإطلاق النار ومطاردة القطيع. كان البوكوت يدفعون الأبقار و«القصار» - الأغنـام والماعز - غربـا نحو الفجوة في الكاراسـوك. وبالامتداد على مدى بضعة كيلومترات كان للبوكوت محاربون على رأس القطيع يحرسون الجانبين، وفي الخلف كان هناك اثنان يحرسان المؤخرة.

ركض التوركانا الذين كانوا أقل عددا وقوة نارية بيأس ليتقدموا على المغيرين، ويطبقوا عليهـم ويفصلوهم ويمنعوا تقهقرهم نحو الجبال، ويفرقوا الحيوانات قبل أن تدخل ممر الـوادي الضيق. هذه المرة نجحت الخطـة. دب الذعر في الكثير من الأغنام والماعز، لكنها بـدلا من أن تعدو تجمعت حول بعضها بعضا، وحاول كل منها أن يختبئ داخل القطيع، وضغطت كلها في تكتل كثيف غير متحرك. حوصرت حيوانات أخرى في أجمة.

علـق مغـيرو البوكوت في السـافانا وهم يحاولـون جعل الحيوانـات الصغيرة المذعـورة تتحرك غربا. لكن الأغنام والماعـز كانت خائفة ومضطربة جدا، ولم تفهم المأسـاة البشرية التي تـدور حولها، وحاولـت فقط أن تختبئ. انحشرت الماشـية الصغيرة البنية والبيضاء والذهبية أقرب فأقرب مع بعضها بعضا، وتصاعد الغبار من بينهـا، بينما بدأ محاربو البوكوت - الذين ازداد خوفهم من خطورة التأخير - بركل الحيوانات ودفعها والصراخ فيها كي تتحرك. ومن الأجمة شـن محاربو التوركانا من حين إلى آخر جولات للمضايقة. لكن معظمهم عدوا متجاوزين القطيع راكضين غربا نحو الهضاب في محاولة منهم لمباغتة المغيرين. كان عليهم أن يسـبقوا البوكوت إلى فوهة الممر، ويغلقوا طرق نجاتهم، ويشتتوا القطيع ويعيدوه إلى السافانا.

عندمـــا فك البوكـــوت أخيرا القطعان المسروقة ووصلـــوا إلى الممر، كان التوركانا هنـــاك بانتظارهم. اصطدمت القوتان حيث قام التوركانا بإطلاق النار على البوكوت المتقدمين. بإصرارهم على قيادة القطيـــع إلى الممر، قام لصوص البوكوت الغاضبون والمحصورون بالرد على النار بالمثل.

كان معظم المغيرين شـــبانا يقودهم محاربون قدماء أكبر ســـنا وأشـــد مراســـا. بالنســـبة إلى الطرفين كان كل شيء موضـــع رهان. كانوا يقاتلون من أجل كل ما هو مهم في الحياة: الشرف والمكانة والثراء والحب والبقاء، متمثلة كلها في القطيع الذي أصبح بدوره مالا، وكل ما يمكن شراؤه بالمال.

هنا، لا شيء يتم من دون قطيع. من أجل أن يتزوج الشـــاب عليه أن يقدم مهر العروس على شـــكل قطيع. وإذا كان القطيع قليلا أو هزيلا أو ليســـت هناك ثيران مميزة فيه فستشعر المرأة الشابة بالإهانة. لجمع الثورة يربي المرء قطيعا. الحيوانات عملـــة: لـــو احتاج الطفل إلى دواء أو تعليم يباع القطيع أو يتاجر به. يشـــترى التبغ والصابون والمجوهرات والثياب والأسلحة كلها بالقطيع أو بثمنه من النقود.

يحلـــم العرافون أو «الإيمـــورون» بالقطيـــع، ويلطخونه بالطين في طقوســـهم، ويقرأون أحشـــاء الماعز، ويتلقون الأجرة لقاء خدماتهم بالقطيع. الرجل الذي يمتك الكثير من الماشية محترم، بينما لا يحترم من يملك القليل منها. المرأة الصالحة ترعى القطيع جيدا، وتصد المرض عنه، وتمرض الحيوانات المرضى، وتتبع الحيوانات الضالة. الأبنـــاء يصبحون رجالا ويشرفون آباءهم بأخذ القطيع إلى مســـافة بعيدة بحثا عن الماء والكلأ، والعودة بالحيوانات كلها سليمة وآمنة. لذا فالمعركة – التي جاءت جزئيا بســـبب الجفاف الذي أنقص القطيع، والمتعلق جدا بتغير المناخ – كانت قتالا حول كل ما له قيمة في الحياة.

مـــع تعبـــير أزيز طلقات بنـــادق التوركانا عـــن هذه الحاجات كلهـــا، امتزجت المخـــاوف والعواطف مع رغبة عارمـــة في البقاء أحياء، وتقـــدم البوكوت إلى الأمام مبـــاشرة نحو خط إطلاق نار قنـــاصي التوركانا، الذين تقع خلفهم فســـحة هضاب كاراســـوك وأمانهـــا. كان الأمر مماثلا بالنســـبة إلى التوركانا: اعتمـــد كل ما هو غال لديهم على هذا القطيع الذي يسرق الآن أمام أعينهم من قبل أعداء ولصوص وقتلة محترفين يشوهون جثث الموتى.

صرعت طلقات الرصاص الثقيلة والمنهمرة من بنادق التوركانا ستة من المغيرين البوكوت. مات واحد أو اثنان منهم بسرعة، ونزف دم واحد منهم ببطء، وجرح عدد قليل منهم، وبلا شك فقد أعدموا عن قرب مثل إيكارو. مات ثلاثة أيضا من التوركانا بمن فيهم إيكارو. لكن معظم القطيع شـتت وأعيد إلى السـهول القاحلة على طول نهر تركويل. كانت الغارة مرة أخرى عملية فاشـلة تقريبـا، وكارثة جرى تجنبها في أرض دفع فيها الجفاف ونماذج الطقس العنيف نمط الحياة القديم إلى حافة الإبادة.

مـع تراجعهم إلى التلال، توعد البوكوت بالعودة الفورية والمميتة. فقدت بعض الماشـية القصيرة، مع أن راعيا غاضبا قال إنه ربما سرقها بعض التوركانا خلال فوضى المعركـة. في اليوم التالي بقي المـوران متحفزين للقتال ومسـتعدين للغارة التالية. وبقيت مجموعة القتال من البوكوت قريبة من المكان.

قـال البوكـوت «لم نحصل على ما يكفي، كونوا على حذر، سـنعود» شرح أحد الرجال. «انظر، ليسـت لدينا طلقات. كل طلقة تكلف خمسين شلنا. كل واحد منا لديه طلقة أو طلقتان فقط» شرح آخر. يريني الرجال الآن مخازن بنادقهم الفارغة. «نحن بحاجة إلى طلقات».

تمنيـت للحظة تقريبا وأنا أنظر إلى جثة إيكارو لو أنني جلبت لهم بعضها. كل ما كان بوسـعي تقديمه هو كيلوغرام من التبغ الطازج الذي يمزجه التوركانا بالملح ويمضغونه ويلفونه على شـكل سـيجارة من ورق الجرائـد، أو يدخنونه في غلايين صغيرة من النحاس.

غيوم الأمطار والكلاشنكوف

حدثت تلك الغـارة التي قتلت إيكارو لورومان في قلـب «ممر الرعاة»، وهي منطقة من الجبال والسـافانا والمسـتنقعات والصحراء على طول الحدود بين كينيا وأوغندا والسـودان وإثيوبيا والصومـال. تعود ملكية هذه المنطقـة التي أصيبت بجفـاف يتكرر بانتظـام وفيضانات عارمـة إلى قبائل رحل ونصف رحل مسـلحة جيـدا تعيش في توازن هش مـع بعضها بعضا ومع بيئتها. وبسـبب تجاهلهم من السلطات الاستعمارية والدول الأفريقية الحديثة على السواء، يعيش الناس في هذه المنطقة كما كانوا دوما بحيث يشـكل القطيع محور حياتهم الاقتصادية والثقافية.

الأرض عموما جافة جدا للزراعة، لكن يمكن اســتخدامها للرعي. الوحدة الاقتصادية الاجتماعية الأساسية هنا هي الرجل وزوجاته وأطفالهم وقطعانهم.

لكن ممر الرعاة يعاني الآن من طقس عنيف يتميز بالجفاف والفيضان المفاجئ، وهذا يضعه في الجبهة الأمامية للتجمع الكارثي حيث يجتمع الفقر مع العنف والتغير المناخي ويصدم بعضها بعضا. أدت هذه العملية هنا إلى فشــل الدولة الجزئي، وإلى العنف الميليشــيوي[7]. تعبر هذه الفوضى الطاحنة عن «نظام للصراع» وهو اقتصاد ســياسي معزز ذاتيا من العنف يربط بين الرعاة والميليشيات غير الشرعية وعصابات الإجرام والسياسيين والدول والجيوش والأسواق وصناعة المساعدات والمناخ[8].

تتنبأ معظم نماذج المناخ التي جمعت من قبل اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC بأن هذه المنطقة من أفريقيا ستواجه تصحرا شديدا مع بدء تسارع الاحترار العالمــي. ربما تصبح الصحارى في الشــمال الغربي أكثر خــضرة، لكن يبدو أن أحزمة الطقــس إلى الجنوب تــزداد جفافا. في العقــود الحديثة الســابقة تكثفت دورات الجفاف، على الرغم من أن معــدلات الهطول الإجمالي ازدادت، لأن الغلاف الجوي الأدفأ يحتوي على كمية أكبر من بخار الماء والطاقة. يهطل المطر الآن دفعة واحدة وبتدفقات شــديدة. في الوقت نفسه يعبر فشل الدولة الجديد عن نفسه في انعدام القانون والتخلف والفســاد وعدم توافر الخدمات الأساســية. ويتجسد هذا كله في انتشار ثقافة البندقية شمال كينيا.

خــلال العقود القليلة الماضية أصبحت موجات الجفاف والفيضانات العارمة أكثر شــيوعا شــمال كينيا. يعتقد معظم العلماء أن هذا يعكس ســيطرة التغير المناخــي. التأثــيرات الأكبر والأبعد مــدى لهذا النمط الجديــد مفزعة. انظر إلى معلومات مكتب رصد المناخ الحكومي البريطاني للعام 2006. اســتنادا إلى كمية واســعة من البيانات والملاحظات، والمنتجة حســب تقليد مؤسساتي عمره 150 ســنة حول علم المناخ، اكتشف نموذج مكتب رصد المناخ هذا أن الميول الحالية تشــير إلى تصحر نحو ثلث مســاحة الكوكب بكامله بحلول 2100، بينما سيعاني نصف مســاحة الأرض من الجفاف. تتنبأ الدراســة أيضا أنه خلال الفترة نفســها ستزداد نسبة الأرض التي في حالة «جفاف شديد» من النسبة الحالية 3 في المائة إلى 30 في المائة [9].

في العام 2006 كلفت منظمة المعونة المسيحية (كريستيان ايد) الدكتور ديفيد كيمني المختص بالماشية بدراسة كيفية تعامل مربي الماشية في كينيا مع بيئة تزداد جفافا. تحدّث كيمني إلى رعاة في خمس مناطق عبر مقاطعة مانديرا شمال شرق كينيا (شرق التوركانا) وهي مأوى لـ 1.5 مليون من الناس. وجد الآتي:

- زاد حدوث الجفاف أربع مرات في منطقة مانديرا خلال الخمسة والعشرين عاما السابقة.
- أجبرت ظروف مناخية سلبية مسبقا ثلث الرعاة الذين كانوا يسكنون هناك - نحو نصف مليون نسمة - على التخلي عن طريقة حياتهم المعتمدة على رعي الماشية.
- خلال موجة الجفاف الأخيرة نفق الكثير من الأبقار والأغنام والماعز بحيث إن 60 في المائة من العائلات التي بقيت معتمدة على الرعي احتاجت إلى مساعدات خارجية لتتعافى، إذ إن قطيعهم المتبقي أقل من تكاليف معيشتهم[10].

منذ 1997 وقعت أجزاء من الاقتصاد الكيني في ركود طويل بسبب هطولات مضطربة وغير كافية. في الحقيقة تتبع معدلات النمو في الاقتصاد الكيني المعتمد بشدة على الزراعة هطول الأمطار تماما تقريبا: يعني المطر العادي نموا عاديا أو قويا. لكن الأمطار تجلب مشاكل اقتصادية أيضا[11]. يقول تقرير نموذجي لوكالة أمريكية للتنمية العالمية يعود إلى ديسمبر من العام 2007، إن «المناطق الرعوية في شمال كينيا شهدت فصلا أقل من المعتاد من حيث قصر فترة الهطول. إضافة إلى ذلك، بينما كانت تجري عمليات التحكم، هددت أسراب الجراد شمال كينيا قدرة الرعاة على الرعي والتجول خلال فصل الجفاف التالي أيضا. يستمر تأثير فصل الحصاد في مارس - مايو بالتأثير على المنطقة. ويستمر الطقس الجاف في إعاقة إنتاج المحصول على طول الساحل الكيني. مر معظم الفصل مسبقا، وكانت كمية الهطول الإجمالية أقل من المعتاد[12].

كينيا من الطريق

لأفهم بشكل أفضل كيف يؤثر تغير المناخ والتاريخ السياسي للمنطقة على الحروب المحلية من أجل الماء والقطيع، استأجرت سيارة دفع رباعي، وسافرت

شـمالا من نيروبي إلى ممر الرعاة. شاركني في الرحلة على مدى 700 كيلومتر صحافي شاب يدعى كاسبار ويثاكا. لم يتحدث كاسبار لغة التوركانا لأنه ينحدر من الكيكويو خارج نيروبي لكنه تكلم السـواحيلية واللغة الفرنسية وعاش في التوركانا ستة أشهر في بداية حياته المهنية.

«لا أحـد يود الذهاب إلى هنـاك، هناك دوما الكثير من القصص الجيدة عن الاغتصاب والقتل والسرقة. الكثير من القصص الجيدة. فقط اختر ما تريد»، قال كاسـبار داغما حرف الراء لزيادة التأثير. وافق كاسبار على أن يريني الطريق إلى لودوار إحدى مدن التوركانا الرئيسـة. قدمـت لنا الرحلة - يومان من الالتفاف المتعرج الخطر على طرق جبلية ضيقة تهيمن عليها الشاحنات والباصات القادمة -درسا متتاليا في الجغرافيا الفيزيائية والاجتماعية والاقتصادية لكينيا.

بعـد 40 دقيقة خارج نيروبي صعدنا جرف إلغييـو، وهو الجدار الغربي للوادي المتصـدع الكبير(*). هو ليس واديا حقيقيا بل منطقة ممتدة - حوضا بطول 3900 ميـل وعرض 100 ميل نجم عن انفصال صفيحتـين تكتونيتين أو انفلاقهما. يحتوي الجـزء الكيني من الحوض، المحدود بسلاسـل جبلية وخطوط صدع متوازية، جبالا أصغـر وهضابا ووديانا وبحيرات وأنهارا، وفي الشـمال تمتد الصحراء. تذهب معظم مياه الفالق جنوبا لتصب في بحيرة فيكتوريا[13]. بعد النزول من الجرف تابعنا السير إلى الهضبـة الباردة الرطبة للمرتفعات الغربية. أفضى الطريق الإسـفلتي إلى دروب ترابية مجروفة ووعرة ومحفرة.

على الطرف الشـمالي الغربي من المرتفعات أمضينـا الليل في كيتالي، وهي بلدة زراعية يسـيطر عليهـا اللوهيا(**)، محاطـة بمخيمات للنازحـين مغلفة بالدخان وممتلئـة بضحايا الكيكويو من المذابح التي تلت الانتخابات الأخيرة. الكيكويو هي القبيلة المسـيطرة سياسـيا واقتصاديا في كينيا، وبعد الانتخابـات المتنازع حولها في ديسـمبر 2008 هاجمتهـم القبائل الأخرى. ملأت آثار تلـك الاضطرابات - الأكواخ القماشـية الزرقاء لمخيمات النازحين، والمزارع وواجهات المخازن المحروقة - المظهر الهادئ للمشهد الكيني.

(*) Great Rift Valley، ويطلق عليه كذلك الأخدود الأفريقي العظيم.

(**) إحدى الجماعات الإثنية الكينية. لغتهم هي البانتو. ويعيش بعضهم في أوغندا وتنزانيا. [المحررة].

في اليوم التالي صعدنا تلال تشيرانغاني الغائمة، وهي مقاطعة البوكوت، والكتف الشرقي لجبل إلغـون بقبعته الجليدية على الحدود الكينية - الأوغندية. هناك بدأ انحدارنا الأخير إلى شـبه صحراء التوركانا، وهي الأراضي المنخفضة للوادي المتصدع، وسرنا مباشرة شـمالا لمسـافة 300 كيلومتر أخرى على طرقات ترابية مخربة للكلى، تمضي أكثر فأكثر إلى عمق السافانا الهادئة ومركز حروب القطيع.

توركانا

«هذه منطقـة عمليات»، قالها ضابط شـاب وهو يتكئ على نافذة السـيارة، ويمسـح بعينيه ما بداخلها، ثم يقلب ببطء جواز سـفري. كانـت هذه آخر نقطة تفتيش قبل دخول الأراضي السيئة.

«ليست لديك أي حماية. ربما عليك أن تأخذ مرافقا معك».

قتل العشرات من المسـافرين على هذا الطريق في السـنوات السابقة. وتحمل صحف نيروبي كل أسبوع قصصا مثيرة عن باصات وشاحنات تهاجم وتسرق. شملت قائمة القتلى من المسـافرين كهنة وسياسـيين وحتى نسـاء وأطفالا. ونتيجة لذلك يفضل الآن السفر مع حماية مسلحة. تحمل الحافلات العامة كلها شرطيين مسلحين جيدا. ويقدم ضباط الشرطـة الوطنية الكينية هذه الخدمة مقابل أجرة تتراوح بين 5 و10 دولارات. ولأن رواتبهـم قليلـة ومصادرهم شـحيحة فهم بحاجة إلى النقود بشـدة. ربما لا يسـتطيع شرطيان جالسـان في المقعد الخلفي إيقاف قطاع الطرق، لكنك إذا رفضت المساعدة فربما يستدعي أحد الشرطة العصابة نفسها.

«أعتقد أنه من الأفضل أن نستأجر حماية» قال كاسبار.

لـذا قبلت العرض، أو بالأحرى لم أرفضه، وصعد شرطي شـاب يدعى إريك إلى المقعـد الخلفي. لمدة عشرين دقيقة ونحن نصعـد الطريق، لقم إريك بصوت عال مشطا من الذخيرة في بندقيته الـ G3، وصوب فوهتها خارج النافذة.

كان لإريك الاحسـاس القاتم نفسـه لجنود احتلال في أي مكان. كان ينظر إلى السـكان المحليين وإلى الصحراء بمزيج من الاحتقار والإعجاب. «الصحراء قبيحة. في المنطقة التي انحدر منها يمكنك زراعة أي شيء» قال.

لكن ماذا عن الناس هنا؟

«ليس لديهم أي احترام للحياة. سـيقتلونك بالسـهولة نفسـها التي يقتلون بها معزة. وجميعهم يصيبون الهدف جيدا». شرح أن ثلاثة ضباط من مركزه، بمن فيهم قائد، قتلوا في الشهور الأخيرة وهم يقاتلون المغيرين على قطيع التوركانا. «استدعينا المروحيات والتعزيزات».

لماذا الأوضاع عنيفة جدا هنا؟

«الجفـاف» أجاب إريك. «التقاليد والافتقـار إلى التعليم والجفاف. وأوغندا لا تستطيع التحكم بحدودها».

كانت تفسـيراته معقولة: من دون مطر يتناقص الرعي والعشب، وتضعف الماشية وتموت. لتعويض الفقد في الماشـية يقوم الشـبان بالغزو. في كل مكان انتصبت هياكل رمادية لأشـجار الأكاسيا الميتة. في مقاطع على الطريق مررنا بامرأة طويلة بملامح قوية مـن التوركانا، تبيع حقائب طويلة ونحيفة من الخيش مملـوءة بالفحم. إثر إصابتهم بالمجاعة، يقومون الآن بحرق الأشـجار التي أصابها الجفاف ليصنعوا منها الفحم. أنزلنا إريك في بلدة لوكيشار المحترقة بالشمس على جانب الطريق. كان مرافقنا التالي شرطيا احتياطيا من التوركانا أكبر سنا وبوجه لفحه الطقس والكحول. كان يحمل بندقية AK-47 ومشطين مليئين بالذخيرة، أراد الركوب إلى الغابة ليطمئن على قطيعه.

قال إنه كلف بحماية الحافلات إلى الحدود السودانية. منذ وقت ليس بالطويل كان على متن حافلة هوجمت. نزل اللصوص إلى الطريق وأطلقوا النار على العجلات وزجاج السيارة الأمامي. انبطح المسافرون جميعهم على الأرض، بينما أطلق الشرطي الاحتياطي ورفيقه النار على قطاع الطريق من خلال زجاج السيارة الأمامي المحطم. «قتلنا واحدا وطردنا الاثنين الآخرين» قال الاحتياطي المسـن. «كان القتيل سودانيا. يمكنك معرفة ذلك من العلامات على وجهه».

ثم في مكان مقفر طلب الرجل المسـن منا أن نتوقف. «سـأنزل هنا» قال ذلك وانطلق نحو الغابة.

بلدة الرحل

أخـيرا وصلنا لودوار في قلب منطقـة التوركانا. تقع المدينة على تقاطع الطريق A-1 مـع نهر تركويـل. على الرغم من أنهـا صغيرة ومتراصة فإنهـا تتمتع بحيوية

غريبة. ليست البلدة شيئا كبيرا، لكنها كانت المدينة الكبرى ذات الأضواء المتلألئة في هذه المنطقة. يعج شارعها الرئيس وجسرها الفولاذي ذو الاتجاه الوحيد على نهر تركويل الموحل بالرعاة وقطعانهم الكثيفة من الماعز والأغنام. تتوقف شاحنات عتيقة وحافلات ديزل ممتلئة بالناس ومحملة إلى الأعلى بالمتاع، في لودوار وهي في طريقها من جنوب السودان وإليه. تغص المدينة بمحلات تبيع الدلاء والسكاكين والفؤوس والمجارف والحبال وقدور الألمنيوم وأكواب الماء البلاستيكية المخططة بلمعان والقماش ومطاعم صغيرة وضيعة وبارات مفتوحة الأبواب تنبعث منها رائحة كريهة حيث يختبئ أصحابها من الشمس خلف مشبكات غليظة. تطل أشجار قليلة كثيفة قديمة فوق الشوارع غير المعبدة. في الليل تثير السيارات التي تتحرك ببطء الغبار، وتعوم في وهج أضوائها، معطية لودوار جوا غائما مخدرا وقاتما.

في لودوار قابلت لوكاس آريونغ، رئيس منظمة ريام ريام غير الحكومية لبناء السلام. كان لوكاس رجلا وسيما طويلا ونحيفا وله ملامح ناعمة لكن وجهه ممتلئ بالندوب كما لو أن زجاجة حطمت مرة عليه.

«هذه حروب على الموارد»، قال لوكاس، مشيرا إلى حروب الماشية. «والآن يتغير المناخ، المطر يتأخر وتتحول الأرض إلى صحراء. يحرق الناس أشجار الأكاسيا من أجل الفحم، ويقتلون بعضهم بعضا للتحكم في آبار المياه».

كان اهتمام لوكاس بدورات الغارات شخصيا: قتل والده في غارة عندما كان يافعا. وقتل الكثيرون من أصدقائه في الغارات. يمتلك لوكاس نحو 50 بقرة والكثير من الماشية القصيرة، كلها تحت مراقبة رجال مسلحين من أولاده ورجال مستأجرين.

لشرح الأزمة يخرج لوكاس حزمة من خرائط من الأمم المتحدة تظهر مواقع الكلأ وحفر المياه والبرك المالحة والأنهار والطرقات والأراضي الجافة والبلدات الصغيرة والمدارس والعيادات والأعداد المنخفضة جدا من المدرسين والعاملين الصحيين نسبة إلى السكان. تشير الخرائط أيضا إلى ممرات الإغارة والحدود القبلية التي تتقاطع أحيانا مع موارد المياه والمراعي، وبالتالي تحدد خطوط المواجهة لحروب التوركانا الصغيرة حول الموارد المدفوعة مناخيا.

أشار لوكاس إلى مواقع معارك حديثة عدة: إلى الأعلى في الشمال الغربي عبر الجيش الأوغندي الحدود إلى كينيا، وقصف مخيما صغيرا للتوركانا، ربما في أثناء

مطاردته للصوص ماشية من التوركانا كانوا يسرقون كالينجيين من أوغندا. في صيف العـام 2007 أجـبرت الغارات عبر الحـدود حكومتي أوغندا وكينيـا على التفاوض لمبادلة الماشية. إلى الجنوب كان البوكوت يسرقون القطيع، ويكمنون للمركبات. من الشـمال والشمال الغربي تهرب البنادق من جنوب السودان والصومال بينما تتوافر الذخيرة مسبقا من شرق أوغندا. اتخذ نظام الصراع شكلا منظورا.

ما الذي على الدولة أن تفعله ؟

«حفر المزيد من الآبار. نحتاج إلى آبار» قال لوكاس. «القضية هي الجفاف»

أرض الغارات

تنمو حوليات العنف المدفوع بالجفاف شمال كينيا - حروبها المناخية الصغيرة - كل يوم. هذه تقارير مأخوذة من شهر واحد فقط أواخر صيف العام 2008:

> 5 أغسـطس: قتل 74 شـخصا في عطلة نهاية الأسبوع من الهجمات على ثلاث قرى بقسـم لوكوري في مقاطعة جنوب توركانـا، وسرق أكثر من 2200 من الماشية.
>
> 12 أغسـطس: قتل الغزاة من البوكوت أكثر من 30 من رعاة التوركانا في قسـم لوكوري بمقاطعة توركانا الجنوبية، وجرح عشرات آخرون وسرقت 700 رأس من الماشية.
>
> 20 أغسـطس: هاجم المغيرون من التوركانا قطعان الماشية في تجمع مياه غالاسـا، وسرقوا أكثر من 20000 حيوان. طاردتهم قوات الأمن وقتل ثمانية من الشرطة الاحتياط المحليين وعدد من المغيرين.
>
> 22 أغسطس: قتل الجيش الأوغندي 10 وجرح 4 من رعاة التوركانا الذين عبروا الحدود للبحث عن الماء والكلأ. سرق الجنود الأوغنديون 400 حيوان.
>
> 24 - 30 أغسطس: عبرت مجموعة من المغيرين مؤلفة من أكثر من ألف شخص من قبيلة توبوسـا السودانية إلى كينيا خلال الأسبوع التالي، وهاجمت قريتين وقتلت ثمانية أشخاص وخطفت ثلاثة أطفال وسرقت ما يقدر بخمسة آلاف حيوان في لوكيتشوغيو شمال غرب توركانا.
>
> 2 سـبتمبر: قتل اثنان من الشرطة الاحتياط وهم يصدون مغيرين آخرين من التوبوسا الذين عبروا الحدود من جنوب السودان.

4 سبتمبر: قتل مغيرون من البوكوت شخصين في كوتاروك وسرقوا أكثر من ستمائة حيوان[14].

في منتصف العام 2007، أجرى إحصاء الأسلحة الصغيرة، وهو مشروع لمعهد الخريجين للدراسات الدولية في جنيف، بحثا بين الأسر على طول الحدود الكينية - السودانية. حاول الإحصاء قياس التأثيرات الاجتماعية لانتشار الأسلحة الصغيرة. وجد أن وباء اللعب بالأسلحة «بمستويات حقيقية، ومتخيلة عن عدم الأمان... أسوأ بكثير على الطرف الكيني من الحدود مما هو في جنوب السودان، الذي يتعافى من حرب أهلية دامت 21 سنة». شهد 60 في المائة من المستجيبين للإحصاء غارة على الماشية، وقال أكثر من 60 في المائة منهم إن نزع السلاح سيقلل الأمان[15].

إن لم تكن هذه حربا فهي شيء قريب جدا منها.

5

الأمطار الموسمية (المونسون) ونقاط التحول

الآن، أصبحتُ الموت محطم العوالم.

فيشنو في البهاغافاد غيتا(*)،

كما اقتبس من قبل روبرت جي أوبنهايمر

«يبدو أن تجليات نظام المناخ الحالي تحدث بصورة أسرع مما توقع العلماء»

المؤلف

تتميز منطقة شرق أفريقيا وخاصة كينيا بطقس معقد. وحتى أفهمه، قمت بزيارة إلى مركز مكتب الأرصاد الجوية هناك. المكان هادئ بشكل خادع - يهتمون هنا بالغيوم. ففي كينيا المعتمدة على الزراعة تتحكم الغيوم في حياة الناس وأحيانا بعواقب مخربة. عند نهاية قاعة طويلة في غرفة للتنبؤ بالطقس تصطف على جانبيها حواسب شخصية قديمة تقرقع، قابلت جيمس موهندي رئيس الرصد المناخي. وكسترة موهندي الصارخة وسوالفه العتيقة، تبدو الآلات خارج الموضة لعقد

(*) البهاغافاد غيتا هو الكتاب المقدس في الديانة الهندوسية، وفيشنو هو الههم الأعلى. [المحررة].

أو أكثر. بعد أكثر من ثلاثين عاماً في الوظيفة، يعلم موهندي التفاصيل الملتوية للطقس الكيني كما يعرف عائلته. «لدينا الكثير جداً من المناخات الصغيرة» قال هذا بمزيج من السـخط والفخر الوطني. «يلعب المناخ دوراً رئيسـاً في النشاط الاقتصادي الاجتماعي - يعتمـد اقتصادنا جـداً على الطقس. يعتمـد معظم المزارعـين الكينيين على فصلين ممطرين. أحدهما في الربيع، والآخر في الخريف».

يعمـل أكـثر من 70في المائة من السـكان العاملـين في كينيا بالزراعـة أو القطاعات المرتبطـة بها. المحاصيل الرئيسـة هي الشـاي والقهـوة والذرة والقمح وقصب السـكر والفواكه والخضروات ومنتجات الحليب ولحم البقر والخنازير والدواجن والبيض والأزهار المقطوعـة التي يجلب تصديرها الكثير من النقد. تسـقى معظم هـذه المزروعات بمياه الأمطـار بدل الري، وكما عـبّر موهندي عنها في « أطلس هطول الأمطار في كينيا»، «يؤدي فشـل الأمطار وحـدوث الجفاف خلال أي فصل زراعي غالبـاً إلى نقص كبير في إمدادات الغذاء، وموت الحيوانات، خاصة في غياب التخطيط الاستراتيجي»[1]. على الرغم من وجود نقـص حاد في التخطيط الاقتصادي الاجتماعي بعيد المدى في كينيا، فإن البلد يمتلك نظاماً جيداً للاستجابة إلى المجاعة يصل الحكومة بقطاع الأعمال وصناعة المعونات الدولية.

يمكن لعملية تقديم الغذاء في الحالات الطارئة أن تسـتمر حتى سـتة أشهر. لو لم تُتوقع المجاعة مقدماً، فسـتكون حتى الاسـتجابة السريعة والقوية متأخرة جداً، وربمـا يموت الكثيرون. إن أهم مهمة لمكتب الأرصاد الجوية هي اكتشـاف علامات تحذير مبكرة، بحيث يمكن تهيئة نظام الاسـتجابة إلى المجاعة - بمن فيهم المديرون المحليون ووكالات العون وشركات النقل. حتى العلامات المعقدة على أمطار متأخرة أو فيضانـات مفاجئة يمكنهـا أن تطلق اجراءات التخفيـف والتحذير المبكر للأمن الغذائي. وسـتبدأ محركات صناعة المعونـات الدولية الضخمة بالدوران - بأسرع ما يمكن، لكنها تبقى مع ذلك بطيئة.

الحياة والموت والغيوم

عندما يتبـع مناخ كينيا النمط العادي يمتلك معظـم البلد فصلين ممطرين أو هطولاً على نسقين. يعرف الفصل الأول الذي يستمر من مارس إلى مايو بـ «الأمطار الطويلة»؛ ثم يأتي من أكتوبر إلى ديسمبر فصل «الأمطار القصيرة».

نظـام المناخ في العـالم معقد ومترابط جـداً، لكن لو أمكن القـول إن قوة وحيدة تتحكم بنماذج الطقس في أفريقيا الشرقية، فسيكون نطاق التقارب بين المدارين ITCZ. وبمصطلحات بسـيطة فإن الـ ITCZ هو عبارة عن حزام من الرطوبة العالية، والضغط المنخفض، والرياح الهادئة، يلف خطوط العرض الاستوائية للأرض. وهو ينتج عن تصادم الرياح التجارية الشـمالية الشرقية مع الجنوبية الشرقية - كتل من هواء استوائي رطب ودافئ - تتحركان كلتاهما نحو خط الاستواء. وعندما تصطدمان، تتخلى تدفقات الهواء الأفقية للهواء الشاقولي الصاعد[2]. يرتفع الهواء الرطب الدافئ ليشكل حزاماً من الغيوم يتراوح عرضه بين 20 و200 ميل: تميل الغيوم إلى التحرك أكثر فوق الكتلة البرية لأفريقيا، لتضيق في الأمريكيتين وعبر المحيط الهادئ. هذه الغيوم تنتج الأمطار[3].

تتبع نقطتا التكاثف والهطول الأعظميتان ضمن نطاق التقارب ITCZ - قلب حزام الغيوم في المنطقة - مسـار الشـمس في الأعلى. عندما تكون الشمس في الأعلى مباشرة، تنتـج الكمية العظمى من الحـرارة في الأرض تحتها: وهذا يعنـي كمية أكبر من الهواء الدافئ الصاعد، حاملاً كمية أكبر من الماء المتبخر، ومنتجاً بالتالي تكاثفاً وهطولاً أكبر.

يتنقـل لـب حزام الغيوم هذا شـمالاً وجنوبـاً عبر خط الاسـتواء متبعاً تحول الشـمس السـنوي من مدار السرطان - الذي يقع على بعد 23.5 درجة أعلى خط الاستواء وهو أقصى خط عرض في الشمال تبدو الشمس عنده كأنها في الأعلى مباشرة - جنوباً عبر خط الاستواء إلى مدار الجدي - الذي يقع على بعد 23.5 درجة جنوباً والذي هو بالعكس أدنى خط عرض تبدو الشمس عنده مباشرة في الأعلى. مع تحرك الشـمس تسـحب معها مركز هطول نطاق التقارب ICTZ[4]. ينتج هذا التذبذب على الأرض في كينيا الفصلين الممطرين. لكن مع ارتفاع متوسـط درجة حرارة سطح الأرض يخرج نظام نطاق التقارب ITCZ عن المألوف.

«المفتاح لهذا كله»، شرح موهندي منحنياً فوق أحد الحاسبات الشخصية الكبيرة القديمـة، هو المحيط الهادئ. المحيط الهادئ هو أم المحيطات جميعها، والمحيطات الأخرى كلها هي أطفاله تطيع إشـاراته. عندمـا تزداد درجة حرارة المحيط الهادئ، ويكون هناك تأثير النينو(*) مقابل البيرو، تزداد رياح المونسون والرياح التجارية في

(*) النينـو El Nino من الاسـبانية وتعني الطفل الصغير هي حزمة من ميـاه المحيط الحارة تتطور من حين لآخر مقابل الشاطئ الغربي من أمريكا الجنوبية، ويمكن أن تتسبب في تغيرات مناخية عبر المحيط الهادئ [المترجم].

المحيــط الهندي، وتحدث رياح قوية، وأمطــار أكثر وفيضانات هنا في شرق أفريقيا. ومع اللانينيا(*) يبرد المحيط مقابل البيرو، وتضعف الرياح وتصل كمية أقل من الماء إلى شرق أفريقيا، وعيل المناخ إلى فترة جفاف».

على الرغم من أن كينيا عانت من فترات أكثر من الجفاف خلال العقود السابقة، فإنها في الحقيقة تتلقى بالإجمال كميات أكبر من الأمطار. لكن المطر أصبح يأتي على شــكل دفقات مفاجئة، وعواصف شديدة حيث يهطل بشــدة، ودفعة واحدة بدلاً من أن يهطل تدريجياً خلال فصل. يجلب هذا الفيضانات التي تجرف التربة، تتبعها فترة جفاف. «نراها هنا من تقارير محطة رصد الطقس»، شرح موهندي. «حوادث الطقــس العنيف كالفيضانــات العارمة في 1997 - 1998، وجفــاف 1999 - 2000 أصبحت أكثر تكراراً»[5]. باختصار فإن الأمطار التي تهطل بانتظام كالســاعة، والتي يعتمد عليها المجتمع الكيني أصبحت في حالة خلل.

تؤثــر مجموعــة من العوامل المحليــة أيضاً على الطقس في كينيا ومــن بينها إزالة الغابــات. يقلل قطع الغابات في حــوض الكونغو وعبر أفريقيا الشرقية من تخزين الماء والتبخــر والتكاثف والهطــولات المولّدة محلياً. وتعني درجــات الحرارة المحلية الأعلى كميــة أقل من الثلوج على جبال كيليمنجــارو وكينيا وإلغون، وبالتالي تدفقات مفاجئة أكبر، وفيضانات أشــد، تعقبها مستويات أدنى للأنهار في الفصل الجاف. يختم موهندي حديثه بالقول «أفضل ما يمكننا عمله للتكيف مع تغير المناخ هو الحفاظ على غاباتنا».

حلقات التغذية الراجعة ونقاط تحول

كنت في كينيــا في العام 2008، وعندما وصلت في النهاية الأمطار القصيرة لذلك العام ضربت بقوة شــديدة: تركت الفيضانات المفاجئة 300 ألف من الناس بحاجة إلى مســاعدات. أزاحت الانهيارات والفيضانات المئات من السكان. لوثت المراحيض المفتوحــة المغمــورة بالماء العديد من الآبــار الضحلة، وبدأ التيفوئيــد يقتل الناس بسرعــة. جمع ذلــك ضربة مزدوجة: جفاف، طارده فيضان عــارم. بحلول يناير من العام 2009 احتاج 10 ملايين إنسان إلى مساعدات غذائية لدفع المجاعة[6]. بحسب

(*) لا نينــا La Nina من الاســبانية وتعني الفتاة الصغيرة ظاهرة محيطية - جوية معاكســة لظاهرة النينو حيث تكون درجة حرارة المنطقة الاستوائية من شرق المحيط الأطلسي أبرد ب 3-5°م [المترجم].

قســم الأرصــاد الجوية الكينية ســببت «درجة حرارة أعلى مــن المعدل في المحيط الهندي» هذه الأمطار العنيفة[7].

هل كانت كوارث كينيا في تلك السنة مرتبطة بشكل أكيد بتغير المناخ؟ لا، فالنظام المناخي معقد جداً حتى يلقى باللوم نتيجة حادثة طقس معينة على تغير المناخ الناجم عن الإنســان. لكن خطوط الميل تشــير كلها إلى الاتجاه نفسه: مع ارتفاع تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون يرتفع متوسط درجة الحرارة، وتصبح نماذج المناخ أقل استقراراً.

عاشــت الكثير من الحضارات في ظل قصص زوالهــا، ومن المغري وصف التغير المناخي على أنه يشبه تلك الرؤى، سوى أنه يتم في جو من الجمالية العلمانية. لكن تغــير المناخ حقيقة، وفهمنا لكيفية حدوثه مبني على علم موثّق وجدي. ويبدو أن تجليات نظام المناخ الحالي تحدث بصورة أسرع مما توقع العلماء.

مــن المفيد مراجعة الحقائق مرة أخرى. يتوصل الباحثون من اختصاصات مختلفة - علماء رصد المناخ والمحيطات والحفريات والأحياء... الخ - جميعهم إلى اســتنتاجات مؤكدة جداً حول كيفية عمل مناخنا، وتاريخه، وإلى أين من المحتمل أن يذهب، نتيجة لإصداراتنا الضخمة من غازات الدفيئة. يلاحظون أن مناخ الأرض يزداد حرارة، وستكون لهذا عواقب قريباً جداً - وبالنسبة إلى معظمنا ستحدث خلال حياتنا.

تمضي الخطوط العريضة للإجماع العلمي على الشكل التالي: للـ 650 ألف سنة الماضية تراوحت تراكيز ثاني أكســيد الكربون في الجو - وهو الغاز الممتص الرئيس للحــرارة في بيئــة الأرض - بين 180 و300 ج.ف.م (جــزء في المليون). في أي مرحلة قبــل الثورة الصناعية لم يرتفع تركيز ثاني أكســيد الكربون عن 300 ج.ف.م. بحلول 1959 وصل التركيز إلى 316 ج.ف.م، وهو الآن عند 390 ج.ف.م. بالمعدلات الحالية ستتضاعف مستويات ثاني أكسيد الكربون بحلول منتصف القرن الحالي.

يعتقد علماء المناخ أن أي زيادة في متوســط درجة حرارة الأرض أكثر من 2 °م فوق مستوى ما قبل الثورة الصناعية ستؤدي إلى تغير مناخي خطير، مسببة تصحراً على مســتوى واسع، وفشل المحاصيل وغرق المدن الساحلية وإبادة واسعة النطاق، وانتشار الأمراض، وربما انهياراً اجتماعياً. ويخشون من أن تجاوز حد الـ 2 °م يمكنه أن يجعل تغير المناخ ذاتي التغذية بسبب حلقات التغذية الراجعة الإيجابية.

يــدرك العلماء الآن أن الأنظمة البيئية ومنــاخ الأرض ككل، لا تعمل دوماً وفق منطــق خطي ناعــم. بدلاً من ذلــك تتعرض الأنظمــة البيئيــة لانزياحات سريعة

ومفاجئــة. يمكن لأعداد صنف معين أن تتناقص ببطء أو تنهار بسرعة دفعة واحدة تقريبــاً. لاحظ الاختفاء التام تقريباً لمســتعمرات الخفاش في شــمال شرق الولايات المتحدة بسبب فطر الأنف الأبيض، أو الانخفاض المفاجئ لنحل العسل في السنوات القليلــة الماضية. يمكن بتفاؤل عكس كلتا المشــكلتين، لكنهما توضحان كيف يمكن للأنظمة الطبيعية أن تنهار.

خلال النظام المناخي هناك حلقات تغذية راجعة ايجابية، ونقاط تحول خطرة. حلقــة التغذيــة الراجعة الايجابيــة هي عمليــة ديناميكية تندمج فيهــا التأثيرات وتتســارع أو تضخم السبب الرئيس. تعكس نقاط التحول في النظام المناخي حقيقة أن الأسباب يمكن أن تتراكم، بينما تتأخر التأثيرات. ثم عندما تبدأ التاثيرات بالعمل، فإنها تفعل ذلك كلها دفعة واحدة، مسببة الانزياح المفاجئ نسبياً من نظام مناخي إلى آخر. في الســيناريو الأســوأ على الرغم من أنه ليس الأقل احتمالاً، تسرّع حلقة التغذيــة الراجعــة الإيجابيــة تغير المناخ إلى نقطــة تحول، تصبــح العملية بعدها مدفوعة ذاتياً، ومن المستحيل عكسها مهما فعلنا[8].

درجتا حرارة مئويتان

منذ حوالي 125 ألف سنة كان متوسط درجة حرارة الأرض أعلى بـــ 1 °م تقريباً مما هو عليه الآن، لكن مســتوى سطح البحر كان أعلى بـــ 4 إلى 6 أمتار عن وضعه الحالي. ومن المحتمل أن يؤدي أي تســخين فــوق 2°م إلى تغييرات كارثيــة، وتحولات جذرية ومفاجئــة جداً، بحيث يكون من الصعب عــلى الحضارة أن تتعامل معها. تنص معظم التقارير الحديثة للجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC على حد الـــ 2°م، وهو الهدف الرسمي للاستقرار للعديد من الحكومات وللاتحاد الأوروبي[9].

يصبح الســؤال بعد ذلك، ما حدود تركيز ثاني أكسيد الكربون المماثل في الجو؟ لســنوات افترض أنه بحدود 450 ج.ف.م. ولتحقيــق هذا الهدف توصي الـــ IPCC بــأن تخفَض الدول المتقدمة إصداراتها من غازات الدفيئة بنحو 40 إلى 90 في المائة أقــل مــما كانت عليه عام 1990 بحلول عام 2050. ســيتطلب هــذا أهدافاً عالمية لتخفيض غازات الدفيئة بـ 10 في المائة على الأقل كل عقد من الزمن- بدءاً من الآن. هذه الأنواع من تخفيضات الاصدارات ارتبطت فقط بحصول ركود اقتصادي. شــهد

انهيار روسيا الكلي تقريباً في أوائل التسعينيات تناقصاً بمقدار 5 في المائة سنوياً في إصدار ثاني أكسيد الكربون[10].

توضح حسابات أجريت من قبل مركز تيندال لبحوث تغير المناخ في المملكة المتحدة أنه من دون محاولات جذرية للتخفيف، فإننا حتماً على الطريق للوصول إلى تركيز 450 ج.ف.م لثاني أكسيد الكربون. حتى مع تخفيضات جذرية في الإصدارات خلال الـ 20 سنة المقبلة، يمكن لثاني أكسيد الكربون المتراكم في الجو أن يتجاوز الـ 450 ج. ف. م بسهولة[11]. إذا لم يكن هذا سيئاً بما فيه الكفاية، يعتقد جيمس هانسون من معهد غودارد لدراسات الفضاء التابع لناسا في جامعة كولومبيا، فإن نقطة التحول التي يصبح بعدها تغير المناخ منفلتاً، وعملية ذاتية التغذية هي أقرب إلى 350 ج.ف.م. لقد أصبحنا بالفعل عند الـ 390 ج.ف.م.[12]. من حيث التكيف يعني هذا أن علينا أن نتهيأ لمعالجة ارتفاع بمقدار 4°م في متوسط درجة حرارة الأرض، والانزياحات الاجتماعية الهائلة الناجمة عن ذلك.

لقالق تأكل العظام

عبر شمال كينيا هناك استجابات مختلفة للجفاف والفيضانات - بعضها أكثر عنفاً من الأخرى. في توركانا يعيش الناس وسط ثقافة البندقية، ودورة الإغارة. لكن أبعد إلى الشرق، بالقرب من المركز الصحراوي غاريسا، فإن العنف غير شائع نسبياً على الرغم من القطعان الهالكة، والجفاف القاسي[13]. للتحري أكثر حول هذه العلاقة قطعت الـ 375 كيلومتراً نحو غاريسا مع مصور صحافي أمريكي اسمه دان ماكيب، وصديقه الكيني تيم. وصلنا إلى غاريسا مع غروب الشمس. تبدأ البلدة عند نقطة تفتيش وجسر ضيق فوق نهر تانا العريض الضحل. تنبع مياهه من على بعد مئات الأميال بين ثلوج جبل كينيا وأمطاره وضبابه. وبوصوله إلى غاريسا يصبح شريان الحياة في الصحراء.

كانت هناك مخلوقات ضخمة زرقاء وبيضاء تشبه الصقور تدعى لقالق ابي سعن تحرس الجسر، قطعان ضخمة منها جاثمة في كل مكان. تبدو مثل طيور البجع ولها أجنحة بعرض 10 أقدام، ولا تغرد أو تزعق. الصوت الوحيد الذي يخرج منها يأتي أحياناً من النقر بمناقيرها الضخمة.

تتكاثر هذه الطيور «في مستعمرات» وتحب أن تعيش بالقرب من الناس. هذه اللقالق تنهش الجيف من القطيع الميت بسـبب الجفاف، ويعرف عنها أنها تحمل العظام إلى السماء ثم تسقطها على الصخر لتفتحها ثم تخرج منها النخاع. وفي البلدة يبدو أن هذه الطيور الجاثمة على أشجار الأكاسيا الجرداء الجافة هي رمز للجفاف. للإشـارة أكثر إلى الندرة، كان الوقت شـهر رمضان، وهو شـهر الصوم والامتناع عن التدخين في غاريسا حيث ينتمي معظم السكان الى العرق الصومالي المسلم. لم يكن من الصعب العثور على بيرة فقط، لكن لم يكن هناك طعام أو قهوة طيلة اليوم.

في الصباح التالي خرجنا متجاوزين البلدة إلى الصحراء. تحوّل الطريق سريعاً إلى طريق رملي ناعم. مرة أخرى كانت أعالي اشـجار الأكاسـيا المسطحة ميتة ومصفرة، مثل أخشـاب طافية واقفة، ترسـل لمعاناً أزرق غريباً لانعكاس السماء الفارغة على الخشب الشاحب. لوّح لنا صبيان من الرعاة بأكوابهم البلاستيكية الفارغة لنتوقف، آملين أن نكون من منظمة مساعدات غير حكومية، وأن يكون لدينا ماء.

حوالي 50 كيلومتراً إلى الشـمال من غاريسـا على الطريـق إلى الحدود المنفلتة مع الصومال وصلنا إلى شـامباري، وهي قرية صومالية - أو في الواقع مخيم للرعاة الرحل كان في طريقه للتحول إلى قرية لولا موت القطيع واسـتبداله بالمسـاعدات. تألفت القريـة من مجموعة من الأكواخ المصنوعة مـن العصي والخيش، متجمعة حول شـجرة ضخمة وبناءيـن صغيرين من الطـوب اللبن: مدرسـة بغرفة واحدة ومسـتوصف كلاهما فارغ لعدم وجود موظفين. ليس بعيداً كان هناك خزان المياه، وهو حفرة من الغبار بحجم ملعب كرة قدم يفترض أنها تلتقط مياه الأمطار. الشيء الوحيد الذي يبقي هؤلاء الناس على قيد الحياة كان المساعدات من حين لآخر، وبئر تعمل بالكاد. في الحرارة اللاهبة يشعر المرء كأن الشمس نفسها تكره بلدة شامباري.

قـال الزعيـم إن الأمطار لم تهطل منذ عامين. انخفـض قطيعه من 50 بقرة إلى ثلاث. عشرون رجلاً كما قال «أصابهم الجنون وهاجروا» متخلين عن عائلاتهم. بعض الرجال الذين كانوا يستمعون إلى المقابلة ضحكوا بعصبية عندما قال ذلك.

مـن المثـير للاهتمام أنه لا يوجد عنف هنا. عندما اسـتفسرت عـن ذلك عزا الناس السلام النسبي إلى الإسلام. لكن مزيجا من العوامل الأخرى كانت كما اعتقد أكثر أهمية: سمح القرب من طريق معبّد يصل نيروبي بميناء مومباسا للمعونات بالوصول إليهم، ووفّر

ممرات لهرب الرجال الذين يبحثون عن عمل بالأجرة. القرب من نهر تانا وضفته الضيقة من السهول الناتجة عن الفيضانات سمح للبعض بالزراعة. أيضا نظمت القرية لجنة للمياه لإدارة بئر الماء، وتحديد من يحصل على الماء ومتى وبأي كميات، وجمع المال لشراء وقود الديزل للمضخة. ربما ساعد هذا التنظيم الجماعي على منع العنف بالإبقاء على المجتمع موحداً، بدلاً من ترك الشباب ينحرفون في مجموعات صغيرة بقصد الإغارة.

لكن أقوى العوامل التي حدت من العنف كما أظن هو ببساطة العائق الفيزيائي المتمثل بالصحراء. السافانا الميتة حول شامباري واسعة وجافة جداً بحيث إن نقل القطيع المسروق عبرها صعب جداً. محاطين بالحرارة الضاربة والصحارى الرملية، حصرت العشائر المتنافسة حول البئر، وضفاف نهر تانا، و«مخيمات المعونة» على الطريق التي تشكلت حول نقاط توزيع المعونات الغذائية. كان هؤلاء الرعاة مسالمين لأنهم في الأساس همّشوا، في عملية تخليهم عن حياة الرحل المتمركزة حول القطيع، عن الغارات وكل شيء آخر.

يوجد الدليل على أن السلام منتج ثانوي للانهيار الاقتصادي والبيئي (أكثر من تعاليم السلام في الإسلام) على بعد 700 كيلومتر إلى الشمال في مدينة مانديرا الصغيرة على الحدود الصومالية - الكينية. هناك ينهمك الرعاة الصوماليون - الكينيون (مسلمون ايضاً) في غارات شاملة على القطعان، وفي حرب دموية صغيرة على الموارد. تأتي تقارير جديدة كل يوم عن معارك قبلية طاحنة وحرق للقرى: عشيرة الغار ضد المورول. يحاول كلاهما التحكم بسد لوليس المترامي. كان العنف شديداً منذ العام 2005، وتقطّع فقط نتيجة عمليات عسكرية عقابية من حين لآخر، ومحادثات سلام فاشلة. هرب أكثر من ألف عائلة من تلك المنطقة[14].

غربلة للضحايا

أحد الأسئلة المحورية لفهم تغير المناخ والصراع هو فيما إذا كان العنف استجابة للندرة أو لتوفر الفرصة. هل يغير التوركانا لأنهم يفتقرون إلى القطيع أو لأن لدى جيرانهم قطيع لسرقته؟

وجد عالما إنسانيات درسا مقاطعة مارسابيت في الشمال الأوسط لكينيا أن الجفاف والندرة ارتبطا فعلاً بانخفاض وتيرة الغارات. وجد المؤلفان آدانو روبا وكارين

ويتسنبرغ «عدم وجود دليل على زيادة العنف نسبياً، وعدم ارتباط العنف العرقي بالندرة البيئة»[15]. بدلاً من أن تؤدي الندرة إلى العنف بين رعاة السامبورو فإنها أدت إلى تعاون أوثق مع تقارب المجتمعات فيزيائياً بالتجمع حول آبار الماء، وسياسياً في التنظيمات المطلوبة لإدارة رسمية للمياه. يؤكد روبا وويتسنبرغ على التاريخ، والتعاون البشري، والتعقيد والخصوصية، وهما حذران من عدم التعميم على أبعد من المقاطعة التي أجريا فيها بحثهما. وبهذا فإن قرية شامباري تؤيد نظريتهما.

ولا حتى توماس هومر ديكسون، العالم الأكثر ارتباطاً بفكرة دفع الندرة للعنف، يحاجج بوجود علاقة عرضية بسيطة من واحد - لواحد بينهما. بدلاً من ذلك يحاول استخلاص الروابط الضعيفة بين المناخ والندرة الاقتصادية وسياسة الدولة والصراع الاجتماعي العنيف. هنا تلخيص جيد لطريقة تفكيره: «الإنتاج الزراعي المتناقص والهجرة إلى المدن والانكماش الاقتصادي في مناطق متأثرة بالندرة تولد غالباً المعاناة، وتزيد هذه المعاناة من مطالب الناس على الدولة. في الوقت نفسه يمكن للندرة أن تؤثر على تدفق عائدات الدولة، بخفض الإنتاجية الاقتصادية وبالتالي الضرائب، ويمكنها أيضاً زيادة قوة «الباحثين عن الأجار» ونشاطهم بحيث يصبحون أكثر قدرة على وقف العوائد الضريبية على ثروتهم المتنامية، والتأثير على سياسة الدولة لمصلحتهم. لذا فالندرة البيئية تزيد طلبات المجتمع على الدولة، بينما تخفَض قدرة الدولة على تلبية هذه المتطلبات في الوقت نفسه»[16]. لذا، في صياغة هومر - ديكسون، تزاح الأزمة البيئية خلال الزمن والمكان: أزمات الموارد الريفية يعبر عنها غالباً على شكل صراعات عرقية ودينية وسياسية في المدن على عوائد الدولة وخدماتها.

بالنظر بشكل أكثر تحديداً إلى عنف الرعاة في كينيا، يركز كينيدي أغاد موكوتو في كتابه الرائع « بنادق وحكم» على دور توافر الأسلحة الصغيرة في الدفع إلى العنف، ويضع في الوقت نفسه العوامل البيئية في الأمام والمركز. يناقش موكوتو أنه «عندما يخفض الجفاف والمجاعة والمرض أعداد القطيع، يضطر الناس إلى الحصول على مزيد منه بالإغارة»[17].

يستخلص مؤرخو كينيا النتيجة ذاتها. لاحظ ديفيد اندرسون، أحد أشهر علماء أفريقيا الشرقية المستعمرة، زيادة في سرقة القطيع خلال موجات الجفاف. يبدو أن نمط العنف يدفع بمزيج من الندرة وتوافر الفرصة معاً. خلال الجفاف، في عقود ماضية

كـما هو اليوم، تتركز القطعان أكثر حـول آبار المياه القليلة المتوافرة. وبهذا تزداد فرص سرقـة قطعان الجيران. «لا تتطلب السرقة الانتهازية مـن أفريقيين آخرين تخطيطاً أو تنظيماً أبعد من قدرة أعضاء عائلة أو مجموعة من الرعاة على الإمساك بقطيع لآخرين يرعى من دون حذر قرب قطيعهم. كانت مثل هذه السرقات أكثر شـيوعاً بالقرب من أماكـن المياه ولعق الملح ومناطق الرعي المشـتركة مع رعـاة آخرين في الفصل الجاف. يوفر الجفاف فرصاً أكثر لمثل هذا النوع من السرقة، عندما تكون موارد الرعي شحيحة، وتميل الماشية التي تعود ملكيتها إلى أناس مختلفين إلى أن تتجمع مؤقتاً بعضها بالقرب من البعض»[18].

عصابات

لا تتـم غـارات القطيع «التقليديـة» في الوادي المتصدع الكبـير من فراغ. منذ العشرينيـات ارتبطت الغـارات بالاقتصاد النقدي، والحيـاة الاقتصادية في البلدات والمـدن والأسـواق الوطنية، وحتـى التجارة الدوليـة. غالباً ما تكـون المجموعات المسـهلة شبكات من الجريمة المنظمة، أو زعماء سياسيين. يكتب اندرسون: «بحلول الثلاثينيات ارتكبت سرقات الماشـية ليس لمراكمة ثراء الأفراد المشـاركين فيها فقط، لكن كجزء من نظام أوسـع من التجارة، بتزويد الماشـية لأنحاء من أفريقيا الشرقية حيث يرتفع الطلب عليها هناك»[19]. وهذا هو الوضع اليوم.

في بلـدة كابينغوريـا عاصمـة غـرب البوكوت التـي تقع في الجبـال المرتفعة الغائمـة، قابلت الصحافي إدوارد كوتـش الذي يعمل في الصحيفـة اليومية الكينية نيشن (الأمة). تناولنا غداء من مرق اللحم الغليظ المدعم بقطع من معجون الذرة الطري الثقيل الذي يشكل وجبة الغذاء المعتادة في شرق أفريقيا. كان المطعم مليئاً بالبوكوت الهادئين ذوي المظهر الخشـن. بعد الغداء انتقلنا بسـيارتي الصغيرة ذات الدفع الرباعي وتوقفنا عند طريق فرعي للحديث.

على الرغم من أنه من قبيلة ناندي فإن لكوتش روابط عميقة في بنية السلطة لدى البوكوت، ويعرف الاقتصاد السـياسي لغرب بوكوت. أكد أن رجال الأعمال والسياسـيين الأقوياء يموّلون غارات القطيع، ويدفعون عمولات لمحاربين فصليين لتنظيم مجموعات من الشباب في الريف، وتدريبهم ليقوموا بعد ذلك بمهمات طويلة لأسبوعين أو ثلاثة في توركانا أو أوغندا. يعاد بيع القطيع المسروق في كامبالا أو نيروبي.

قال كوتش إن السنوات الخمس السابقة كانت جافة جداً في مقاطعة البوكوت. (تذكر أن لكينيا نماذج طقس محلية معروفة يمكن أن تختلف من مقاطعة لأخرى) بالمقارنـــة مع الأوقات العادية فإن بوكوت الغربيـــة أصبحت أخيرا إما جافة أو أنها اصيبت بأمطار شـــديدة وفيضانـــات. يجعل هذا الطقس الشـــاذ الزراعة التي هي صعبة مســـبقاً على هذه التربة النحيفة أكثر تحدياً. ولذا فالغارة بالنسبة إلى بوكوت الغربية عمل اقتصادي مربح.

أخـــبرني رجال الشرطة وعنـــاصر المنظمات غير الحكومية والرعـــاة من التوركانا أنفســـهم جميعاً أنهم حين تتبعوا قطيعاً مسروقاً إلى تلال كاراســـوك لم يكن من غير الشـــائع أن تجد آثار الحيوانات تنتهي عند حظائر غير رســـمية بعيدة عن تلك التي تقود إليها آثار دواليب شـــاحنات النقـــل الكبيرة. المعنى من هذا أن بعض المغيرين من البوكوت ســـلموا القطيع المعد مسبقاً إلى تجار محترفين لبيعه من جديد. يقترح دليل شـــفهي أيضاً أن ضباط الجيش الأوغندي يحتفظون بثـــيران التوركانا المميزة، ويصادرونها على شكل ضريبة من لصوص البوكوت الذين يعبرون بشكل غير شرعي إلى أوغندا.

بالتـــالي تربط دوائـــر تجارية وشـــبكات اجتماعية النزاعات المحليـــة المختلفة عبر ممر الرعاة مع هياكل الجريمة المنظمة، والزعماء السياســـيين، والمجموعات العسكرية المحلية، والأســـواق الشرعية. يظهر تأثير الاقتصاديات المدنية السرية على الغارات ليس على شـــكل انزياح باتجاه واحد (وفقا لهومر - ديكســـون) من الريف إلى المدينة فقط، لكن على شـــكل تبادل مســـتمر للخلف والأمام للأزمات من اقتصاد الريف إلى اقتصاد المدينـــة، ثم العودة إلى اقتصـــاد الريف. ضمن هذا النظام من النـــزاع يبدأ تغير المناخ بالعمل كمسرّع جذري، مثل صب غازولين على نار تتقد.

6

صعود دول أفريقيا الشرقية وهبوطها

كنت سأضم الكواكب لو استطعت؛ أفكر
كثيرا في ذلك.
يحزنني أن أراها بهذا الوضوح، لكن
بهذا البعد.

سيسيل رودوس(*)،

الوصية والشهادة الأخيرة 1902

«في سبع سنوات قصيرة جسدت أوغندا عيدي أمين الحكم الفاسد الذي أساء إلى سمعة معظم دول أفريقيا جنوب الصحراء وتفوقت عليها كلها»

المؤلف

نظام الصراع في أفريقيا الشرقية هو اقتصاد سياسي محدد ومتطور من العنف الذي يربط بين الرعاة والميليشيات والجريمة المنظمة والنخب السياسية والأسواق والنماذج المناخية المتغيرة. يوضح تطوره التاريخي عناصر من التجمع الكارثي - اصطدام الفقر والعنف وتغير المناخ - والذي يعني تأثير إعادة البناء الاقتصادي على

(*) Cecil Rhodes (1902-1953)، رجل أعمال وسياسي إنجليزي كان من أشد الدعاة لتوسع الإمبراطورية البريطانية. [المحررة].

النمط الليبرالي الجديد، وعسكرة الحرب الباردة، مع تأثيرات الاحترار العالمي. الاضطراب الحديث في نطاق التقارب بين المدارين على سبيل المثال يلعب على مسرح أعد من قبل التاريخ البشري. لذا لا يمكن أن يكون هناك فهم حقيقي للتأثيرات الاجتماعية للتغير المناخي من دون بعض الإلمام بالتاريخ الواقعي للمناطق التي تحدث فيها هذه التغيرات. ولا يمكن لأي خطة من التكيف أو التخفيف أن تطور أو تنفذ بنجاح من دون مثل هذا التاريخ.

بالعودة إلى السؤال عن المسؤول عن مقتل إيكارو لورومان، يمكننا أن نسأل لماذا تمتلئ منطقة التوركانا في كينيا بالأسلحة النارية ؟ الجواب المختصر هو: أوغندا وجنوب السودان والصومال كلها كانت أو مازالت دولا فاشلة. ساهمت كلها في دخول الأسلحة الصغيرة إلى كينيا.

السؤال التالي: كيف تشكلت هذه الدول وتحولت ثم انهارت ؟ يعمل هذا التاريخ على تشكيل الظروف الحالية للمجتمعات في أفريقيا الشرقية، ويشرح بالتالي قدرتها على التكيف مع التغير المناخي.

إنشاء كينيا

بدأ ضم البريطانيين لأفريقيا الشرقية منذ أوائل العام 1890. أطلق مؤتمر برلين في العام 1885 «التدافع على أفريقيا». وكجزء من هذا، استأجرت حكومة الملكة فيكتوريا شركة أفريقيا الشرقية الإمبراطورية بقيادة قطب النقل البحري الأسكتلندي السير وليام ماكينون، الذي كان في ذلك الوقت يسيطر على حمولات نقل أكبر من أي شخص آخر في العالم. كانت مهمة الشركة فتح ما يعرف الآن بكينيا وأوغندا للاستغلال، وربما الاستيطان[1]. بدءا من العام 1888 حاولت شركة أفريقيا الشرقية الإمساك بأجزاء مما يدعى اليوم أوغندا، لكنها أغضبت بسرعة قبائل الكيكويو المحلية في أثناء ذلك. عنما مر السير جيرالد بورتال بالمنطقة ألقى باللوم على الشركة لتحريضها على العنف «برفضها الدفع مقابل أشياء تأخذها»، كما كتب، وبالإغارة والسلب وإطلاق النار على السكان المحليين والاحتيال، حولت الشركة البلد بأكمله ضد الرجل الأبيض»[2].

فشلت الشركة وواجهت انهيارا ماليا. بدأ الاستعمار بشكل جدي عام 1895 فقط، عندما تولت وزارة الخارجية البريطانية (ثم مكتب الاستعمار عام 1905) المهمة. كان الاهتمام الرئيس للندن استراتيجيا: التحكم في منابع النيل، وبالتالي نظريا دعم المصالح البريطانية أسفل النهر في السودان ومصر. لهذا الغرض بنيت سكة حديد من مومباسا الساحلية إلى كوسومو على بحيرة فيكتوريا، وبإنهائها في العام 1901 فتح البلد بسرعة أمام استيطان الرجل الأبيض والاستغلال التجاري والتحييد السياسي. شرح مقال معاصر في ذلك الوقت، «يجب أن يكون لسكة حديد أوغندا إضافة إلى التأثيرات السياسية لبنائها، تأثير تجاري، وقد أثرت مسبقا على عادات السكان المحليين وأسلوب حياتهم. لقد وصلتهم مباشرة بالحضارة، وفتحت لهم إمكانيات للتجارة. لقد هدأت العداوات بين القبائل، وأوقفت الغارات الثأرية للأعراق العدوانية. لقد فتحت البلدان التي تقع بالقرب من شواطئ بحيرة نيانزا (*) فيكتوريا بكاملها، لاتصالات سهلة نسبيا مع البحر ومع أوروبا»[3].

في هذا الخصوص، عملت سكة الحديد، على الرغم من أنها مكونة من خط وحيد، كسياج اجتماعي - اقتصادي، حاصرة المناطق حولها ومحولة إياها: دمرت الأشكال المحلية من الإنتاج الاقتصادي، وأزيحت، أو ضمت كفروع للاقتصاد الراسمالي العالمي المتنامي[4]. بحلول العام 1907، بدأ تدفق المستوطنين البيض. بسلطة القانون والضرائب والقوة الاقتصادية، استولى هؤلاء المستوطنون على مرتفعات كينيا الوسطى. ومن العام 1895 إلى 1903 قامت القوات البريطانية بـ «حملات عقابية منتظمة». كان استخدام القوة عاملا رئيسا في سرقة الأرض من أيدي الأفريقيين، على الرغم من أنه لم يكن بالضرورة من النمط المباشر كحملات السرقة البلجيكية العنيفة في الكونغو. اشتمل انتقال الأرض الفعلي من الأفريقيين إلى المستوطنين في أغلب الأحيان على مساومات واحتيال وتعاون واختيار أجريت كلها على خلفية من العنف. في هذه العملية، حتى بعض النخب الأفريقية استفادت من ذلك.

وصف جون لونسديل، عميد آخر في تاريخ أفريقيا الشرقية، الفارق كما يلي: «ما تبين على ساحة المعركة في ذلك الوقت، عندما اجتمع الهوتشكيس أو الماكسيم أو دخلت حملة الحراب، وعندما أحرقت بيوت القش، أو قبض على القطيع – أن

(*) نيانزا هو اسم بحيرة فكتوريا بلغات البانتو. [المحررة].

هذا كله ذو أهمية رئيسة في تشكيل شعور بالتفوق أو الخضوع. لكن القوة ليست سلطة. لا تأتي السلطة من عمل واحد من المواجهة، لكن بعمليات انتقالية متكررة ضمن مجموعة منتظمة من العلاقات الاجتماعية، ويجب أن تحمل كلفها وفوائدها على الأقل إمكانية الحساب والتنبؤ»[5]. بكلمات أخرى تبنى الدول من العنف، لكن لا يمكن إنشاؤها بالعنف فقط.

مع الإدارة الاستعمارية من بريطانيا أسس المستوطنون البيض حكومتهم المحلية، كاللجنة التشريعية التي عملت مع لندن، لكن ضدها أحيانا. في ذروة تلك الفترة عاش نحو 350 ألف شخص أبيض في كينيا. كانوا هم الذين أغضبوا السكان الأصليين، واستغلوهم مباشرة[6]. تجادلت لندن ونيروبي باستمرار حول نفقات الدفاع، والإنتاج الاقتصادي المنخفض للمزارعين البيض. «في السنوات التسع الأولى ابتلعت النفقات العسكرية نحو ثلث ميزانية المحمية، وتجاوزت العوائد المحلية، وكانت السبب في مضاعفة المعونة الإمبراطورية السنوية ثلاثة أضعاف في السنوات الخمس منذ العام 1896»[7].

استغلال أزمة وزرع أزمة

مما ساعد على التثبيت السياسي البريطاني - أي تشكيل نظام دولة حديث أخيرا في شرق أفريقيا - كانت الأزمة البيئية في تسعينيات القرن التاسع عشر. عندما قتل الجفاف وأمراض الماشية والجدري نحو ربع السكان الأصليين وسط كينيا. كان الناجون يسعون بإلحاح إلى الحصول على حماة للدفاع عنهم ضد الغارات، وللحصول على الموارد. «وفي المناطق المخربة من كينيا تصادق أن كان البريطانيون أفضل حماة موجودين.... لكنهم أتوا أيضا كغزاة»[8].

ومع دخول أنماط الإنتاج المحلية في أزمة، استخدمت طبقة المستوطنين أموالها لشراء الأراضي. لكن مزارع البيض كانت غالبا تدار بكفاءة منخفضة وغير رابحة. ولحماية أنفسهم من المنافسة الاقتصادية، فرضت اللجنة التشريعية التي يسيطر عليها المستوطنون عوائق اقتصادية قاسية على المزارعين المحليين. على سبيل المثال، منع الأفريقيون كليا من زراعة البن. وفوق ذلك، طالب المستوطنون بمساعدات من لندن، وبالتالي من الاقتصاد البريطاني ككل، وحصلوا عليها.

كان تأثير هذه القيود والمساعدات العنصرية المدللة إعاقة تطور اقتصاد رأسمالي كفء ضمن المستعمرة. أزيحت شبكة الحماية التي أسسها المستوطنون لمصلحتهم في ثلاثينيات القرن العشرين فقط عندما أطلق التصعيد للحرب العالمية الثانية ازدهارا اقتصاديا على المواد الأولية. احتاجت بريطانيا إلى استيراد المواد الخام والغذاء أكثر من حاجتها إلى أرستقراطية أفريقية بيضاء ترعى البقر. وكما أوضح كولن ليز، عندما سمح للمزارعين الأفريقيين في النهاية بالمنافسة في حصتهم من الصادرات والمشاركة فيها، انطلق نمو الاقتصاد الكيني[9].

نكسة الكيكويو

بحلول الخمسينيات، خلق الكيكويو الذين استؤصلوا من المرتفعات من قبل المستوطنين البيض، شيئا من زعامة مثقفة تجارية وزراعية وحضرية. وبدأوا في التحرك من أجل الحصول على حقوق سياسية أكبر. قوبل هذا التحرك بالقمع، وسريعا ما تحول العديد من الكيكويو إلى حرب العصابات.

حرض عصيان الماو ماو، كما دعيت هذه الانتفاضة، حركة مقاومة تمرد عنيفة ومتطورة. دعاها البيض «الطوارئ»، وامتلأ الحصار الداخلي بالاجتياحات المسلحة وفرق الترويع والاعتقالات الجماعية والتعذيب وإعادة التأهيل واستخدام وحدات صغيرة ونخبوية لمكافحة العصابات. كان الرقم الرسمي للإصابات 11503 قتلى، ومع ذلك يرى الباحثون الآن أن الرقم أعلى من ذلك بكثير[10]. يقدر ديفيد أندرسون الرقم بـ 20 ألفا، وتقدر كارولاين إيليكن، الفائزة بجائزة بوليتزر على كتابها « تصفية الإمبراطورية: القصة غير المروية للغولاغ البريطاني في كينيا»، القتلى بـ 70 ألفا أو أكثر[11]. حطمت حركة الماو ماو، لكنهم وضعوا كينيا على مسار الاستقلال الكامل، ونهاية حكم الأقلية البيضاء في شرق أفريقيا.

مع اقتراب فترة إزالة الاستعمار بدأت السلطات في التفاوض مع عدوها السابق جومو كينياتا. خلال فترة الطوارئ وصف الموظفون البيض كينياتا بأنه رجل مجنون وأنه من الماو ماو وشيوعي ووضعوه تحت الإقامة الجبرية. في الواقع كان كينياتا وطنيا متحررا، ما إن أطلق سراحه حتى تصرف كمحاور محلي عقلاني لبريطانيا. حمت الترتيبات النهائية للاستقلال ثروة المستوطنين، وأعطت الراغبين منهم في

المغادرة الخيار لبيع ممتلكاتهم حسب أسعار السوق. ومن أجل الدفع لهؤلاء المالكين المغادرين استدانت الحكومة الكينية الجديدة المال من المملكة المتحدة. وزَعت الممتلكات - الأراضي والأعمال الاقتصادية - في معظمها على طبقة جديدة من الكيكويو الحاكمة الذين كانوا أيضا ممثلين بشكل أكبر في حكومة كينياتا الجديدة، وفي الاتحاد الوطني الأفريقي، الحزب الحاكم في كينيا حتى العام 2002. يفسر هذا الوضع المهيمن جزئيا للكيكويو - لكنه لا يبرر أبدا - المذابح ضدهم عام 2007؛ ومرة أخرى اتخذ الصراع الطبقي شكلا عرقيا.

انحسار الغارات القديمة

بحلول العام 1909 أسست الإدارة الاستعمارية نظام العقوبات الجماعية الذي حاول إيقاف الغارات بفرض غرامات عقابية على مجتمعات بأكملها[12]. تمتلئ الملفات الاستعمارية في الأرشيفات الوطنية في نيروبي بتقارير من موظفي المقاطعات، تفصل فيها تدفقا لا نهاية له من الهجمات على شكل فعل ورد فعل بين القبائل. عقد الموظفون البريطانيون بشكل روتيني جلسات استماع، وأصدروا تقارير، واحتجزوا مشتبهين، وفرضوا غرامات، وطاردوا ملاحقين، وحذروا بشدة زعماء محليين فرعيين كانوا عادة رؤساء عينوا من قبل البريطانيين.

من الصعب قياس الاتجاه التاريخي لعنف القطيع في أفريقيا الشرقية بدقة كاملة – فالسجلات ناقصة ومنحازة ومحرفة – لكن هناك دليلا على انحسار نسبي في الغارات منذ أواخر العشرينيات حتى أوائل السبعينيات. يبدو أن النمو المستمر لقدرة الدولة الإدارية وامتصاص أعداد متزايدة من الناس في سوق العمل الرسمي، قد أنقص من العنف. أنشأ البريطانيون «مزارع جماعية» محددة قانونيا صممت للفصل بين القبائل المتحاربة ودمج الرعاة في الاقتصاد. وبعد أن أصبح الكثير منهم عمالا مأجورين، ومنتجي بضائع، هبطت أهمية سرقة القطيع.

قلصت الزيادة في الشرطة والمحاكم والضرائب والعمالة المأجورة وبطاقات الهوية والتجنيد والسجون والرعاية الصحية وإدارة المياه والتعليم الابتدائي وخدمات الطب البيطري وبرامج العناية بالماشية – باختصار شبكة الحكم –الغارات التقليدية، على الرغم من أنها في بعض الأحيان أدت إلى أشكال جديدة ومختلفة من العنف. حوصر

الريـف إداريا وبالتالي جرى التحكم فيه. اسـتوعب التوركانـا ورعاة آخرون جزئيا في المجتمـع الكيني، وانخرطـت أنماطهم الثقافية التقليديـة بالعلاقات الاقتصادية الرأسمالية، وبتنظيم الدولة العام للمجتمع[13].

مع ذلك بقي الرعاة في شمال كينيا بعد الحقبة الاستعمارية مهمشين - للأفضل أو الأسوأ - ومهملين بشكل عام، على الرغم من أنهم عملوا ضمن الحدود القانونية والاجتماعيـة شـبه الفاعلة، لدولة حديثة مجهـزة بالمدارس والقوانـين والعيادات والطرقـات وحدائق الألعاب واقتصاد نقدي. لكن القبضة الإدارية للدولة على هذه الأراضي والسـكان بدأت تضعف بشـكل كبير بدءا من السـبعينيات، عندما بدأت سلسـلة من دورات الجفـاف المرتبطة بالتذبذبات الجنوبيـة للنينو. وبذلك بدأت غارات القطيع في الزيادة مرة أخرى.

بنادق أوغندا

تحكـم البريطانيـون في أوغنـدا أيضا حتـى أوائل السـتينيات. خـلال أواخر السـبعينيات، دخـل من أوغندا المسـتقلة التدفـق الأول من البنـادق إلى منطقة التوركانا ومعظم شـمال كينيا. كانت أوغندا الحالية تضم المملكة السـابقة بوغندا مـع بعض الإمارات والولايات الإقطاعية الأفريقيـة الأخرى، التي وقعت كلها تحت حكم البريطانيين من خلال مزيج من الإكراه والتعاون والقوة الاقتصادية.

في منتصف الخمسينيات كانت نخبة أوغندا الوطنية القديمة والطبقات الوسطى المتعلمة فيها تراقب تطور حركة الماو ماو في كينيا والحملة الوحشية ضدها باهتمام بالغ. خدم ثوار كينيا كقصة تحذيرية للأفريقيين، وسـلطة البيض كليهما. عندما بدأ الأوغنديون في الاحتجاجات من أجل مشاركة سياسية أوسع، واستقلال كامل، أجرت السـلطات البريطانية بحكمة تحضيراتها لعملية إزالة استعمار خطط لها منذ نهاية الخمسينيات. بقيت أوغندا محمية بريطانية حتى العام 1962، لكنها أصبحت بعد ذلك دولة مستقلة.

كان الرئيس الأول لأوغندا ارستقراطيا أفريقيا مسنا هو السير ادوارد موتيزا الذي كان فيما مضى ملكا محليا، بينما كان رئيس وزرائه الوطني المتحيز إلى اليسـار هو ميلتون أوبيتي الذي أمم أجزاء كبيرة من الاقتصاد، واشـتهر بالفساد أيضا. في العام

1971 استولى الضابط سيئ السمعة عيدي أمين دادا على السلطة، ومن ثم بدأت عملية الانحدار نحو الفوضى[14].

ولد أمين في شمال أوغندا عام 1925، والتحق وهو صبي بالمدرسة الابتدائية، وكان يعتني بماعز عائلته. في العام 1944 تطوع في البنادق الملكية الأفريقية، وهي فرقة استعمارية بريطانية كانت تخدم في شرق أفريقيا، وفي أمكنة أخرى خلال الحروب العالمية. شارك أمين في القتال في بورما، وعاد منها برتبة عريف. أصبح بعدها بطل الملاكمة للوزن الثقيل في الجيش المحلي، وشارك في حملات تأديبية ضد القبائل الثائرة في شمال أوغندا، وفي العام 1953 قاتل الماو ماو. بعد عودته من كينيا عام 1957 كانت التحضيرات للاستقلال تتم في أوغندا، وكضابط مشهور غير مكلف، أعد أمين لرتبة عالية في الجيش الأوغندي. بحلول العام 1964 كان القائد الأعلى للجيش، وقام بحملات سرية إلى الكونغو / زائير لدعم السيمبا، ومعه مجموعة من المتمردين المؤيدين للوومبا كانت تقاتل ضد الحكومة الفاسدة الصاعدة تحت رئاسة موبوتو سيسي سيكو. لكن يبدو أن أمين استثمر معظم وقته في الكونغو في تهريب العاج والذهب[15].

حالما حصل أمين على التحكم السياسي في أوغندا بدأ في تهديد دولة تنزانيا المجاورة[16]. داخليا، تميَز نظام أمين بوحشية القرون الوسطى، وبالتسليح الحديث. في البداية كان لاضهاده منطق سياسي: توجيه العنف نحو أهداف اجتماعية اقتصادية محددة، وخدمة المصالح الاقتصادية المسيطرة. لكن أمين كان في نهاية المطاف مجنونا: رجل ضخم بدين بابتسامة ملائكية يرتدي الخاكي ويقود ما أصبح أحد أضخم الجيوش في أفريقيا جنوب الصحراء. أصبحت دولة أوغندا بسرعة شخصانية ومصابة بالعصابات ومختلسة ومرتشية وشريرة. في سبع سنوات قصيرة جسدت أوغندا عيدي أمين الحكم الفاسد الذي أساء إلى سمعة معظم دول أفريقيا جنوب الصحراء وتفوقت عليها كلها. كان النظام الأسوأ من نمط سياسة الرجل العظيم لموبوتو، حيث تكون التزامات الزعيم «أولا وأخيرا نحو الأهل والأقارب وعملائهم ومجتمعاتهم ومناطقهم أو حتى ديانتهم» - لكن ليس نحو الأمة كلها[17].

قبل العام 1971 صدرت أوغندا كميات لا بأس بها من القطن والنحاس والسكر ومنتجات زراعية مختلفة أخرى. بدأ ذلك كله في الانحسار بسبب الإدارة الغبية

للحكومة العسكرية ونهب القطاع العام. وسرعان ما خرج قمع الدولة عن السيطرة. في العام 1972 هاجم أمين الآسيويين الجنوبيين في كينيا، وطردهم منها في مذبحة سحق واستيلاء دعيت «عملية مافوتا مينغي». أصبح الجنود في قلب الدولة الآن يمتلكون أعمال الآسيويين المصادرة، لكنهم لم يتمكنوا من إدارتها بأي طريقة رسمية.

كان الهدف الصلب الوحيد للنظام، إضافة إلى الإثراء الشخصي لزمرة الضباط، هو بناء الجيش بشكل ضخم. منح السوفييت أمين مساعدات سخية لهذه الغاية، كما استفادت الشركات الغربية من بيعه الأسلحة ومن التدريب. كان نوعا غريبا في الظاهر، لكنه غير نادر، من المنافسة في الحرب الباردة، حيث غازل كلا المعسكرين العميل نفسه. وكما سنرى فقد تمتعت إثيوبيا والصومال وأفغانستان، على سبيل المثال لا الحصر، بالرعاية المختلطة نفسها من المعسكرين.

تحت قيادة أمين أصبحت طرقات أوغندا وموانئها ومخازنها ومزارعها ومصانعها في حالة إفلاس. وكما كتبت مجلة الإيكونوميست «خفض الانفاق على صيانة البنى الاجتماعية والاقتصادية التحتية بدلا من تطويرها إلى مقدار ضئيل جدا. كان الغلاء والندرة هما الحصاد الذي حصده النظام خلال فترة قصيرة»[18]. جاءت الإضرابات العمالية بعد ذلك، وقمعت بوحشية شديدة. أصبح النظام معزولا ومهددا بازدياد.

أخيرا تحرك مجلس الشيوخ الأمريكي المذعور لفرض عقوبات اقتصادية. عارضت إدارة كارتر على الرغم من التزامها المعلن بحقوق الإنسان الفكرة. لكن مجلس الشيوخ انتصر على الرغم من ذلك، وفي أكتوبر من العام 1978 فرضت الولايات المتحدة حظرا تجاريا على أوغندا. وكرد فعل على ذلك، أخبر أمين المغتربين الأمريكيين هناك بأنهم لا يستطيعون مغادرة أوغندا - مما يعني أخذهم رهائن[19]. ومع تقلص الاقتصاد الأوغندي أكثر من ذلك، بدأت مجموعة الضباط المتكالبة على الاقتصاد المنهك بالتنازع فيما بينها. ولإرضاء أتباعه أنشأ أمين عشرة مقاطعات تدار عسكريا، لكن هؤلاء الإقطاعيين العسكريين ساهموا في إضعاف الدولة بشكل أكبر. ومع تهريب حكام المقاطعات للبن وسرقة العوائد، فرغت خزانة الحكومة المركزية من النقود. وبحلول صيف العام 1978 لم يقبض حتى الجنود مرتباتهم. وحصلت محاولات انقلابية وتمردات صغيرة شارك فيها وزير الدفاع نفسه.

في أكتوبـر من العام 1978 لجأ أمين إلى أحط حيلة سياسـية: بدأ الحرب. لكن اجتياحه لتنزانيا صد بسرعة، وانهار جيشـه - الفوضـوي الحديث والمؤلل - حيث احتل التنزانيون وحلفاؤهم الأوغنديون في المنفى من مناوئي أمين كامبالا بسرعة[20]. وصف مراسل النيويورك تايمز الانتصار: «لم يطل الوقت حتى اكتشف محررو أوغندا أن الديكتاتور قد ترك القليل وراءه. كان هناك 200 ألف دولار بالعملة الأجنبية في البنك المركزي مـع 250 مليون دولار من الديون. كانت هناك مقابر جماعية خلال البلد ضمت ما يقدر بنصف مليون ميت معظمهم من الرجال الذين كان يشـك في معارضتهم لأمين. كانت دولة من الأرامل واليتامى من دون اقتصاد يسـتحق الذكر؛ مكانا من الخراب»[21].

أسلحة منهوبة

كانت العاصمة تحت الاحتلال، لكن في الريف الشـمالي الشرقي لم يكن هناك مسـؤول. ومع انهيار الجيش نهبت كتيبة موروتو المتروسـة جيدا بالأسلحة قرب الحدود الكينية، وأخرى أصغر منها في كوتيدو، من قبل رجال قبيلتي الكاراموجونغ والجـي الذين حصلوا «لأول مرة على تزويد مهم من الأسـلحة الآلية والذخيرة». تدفق العديد من هذه البنادق إلى كينيا، ومنها إلى أنحاء أخرى في ممر الرعاة[22]. وصف أحد التقارير محاربي الكاراموجونغ وهم ينهبون أسـلحة عسكرية في العام 1979، مسـتولين على 20 ألـف بندقية هجومية، و2 مليون مشـط من الذخيرة، وتركـت بنادق أكثر من قبل الجنود الفارين[23]. بعد سـنة مـن التحرير وصفت صحيفة التايمز الأزمة في كاراموجا: «اقتحم السكان المحليون معسكرات الجيش في بلدة موروتو خلال الثورة، وأخذوا 15 ألف سلاح آلي. لكن كان لكاراموجا مأساتها الخاصـة. لقرون مضـت حصل الرجال منهم على قوتهم بواسـطة الرماح، وسرقة أبقار بعضهم بعضا، لكن بالحصول على الأسـلحة تحولت الإغارة على القطيع من الرماح إلى البنادق»[24]. أطلق تقرير آخر على أنحاء من أوغندا اسم «مناطق حرب افتراضية». «تقوم زمر من المغيرين تعد أحيانا بالمئات، ومسلحة عادة ببنادق آلية، باجتيـاح القرى الأوغندية والتنزانية وقتل من يقاومهـم، وسرقة القطيع - وهي أثمن ما يمتلكه القرويون»[25].

هجـر الآلاف وقتـل المئـات قبـل أن يتمكن الرئيـس الجديد لأوغنـدا يوري موسـيفيني من البدء في إعادة نوع من النظام. تقدر إحصاءات الأسـلحة الصغيرة اليوم أن هناك 400 ألف سلاح غير مرخص في أوغندا وحدها. وتستمر الحرب هناك حتى اليوم، حيث تنفذ من قبل جيش الرب المقاوم المنحرف اجتماعيا[26].

دخول النينو

كما غرق شمال شرق أوغندا في البنادق، أصاب جفاف شديد المنطقة كلها. اجتاحت المجاعـة كاراموجا مهلكة النسـل والـضرع. بحلول صيف العـام 1980 وصفت مجلة الإيكونوميسـت الأزمة على أنها «كارثة ذات أبعاد ضخمة ضربت شـمال شرق أفريقيا كلها. يموت المئات من الناس والأطفال بشـكل رئيـس من الجوع كل يوم. في الصومال وإثيوبيا، وفي شـمال أوغندا وكينيا، وفي جيبوتي الصغيرة وفي السـودان الواسـعة هناك 10 ملايـين إنسـان مهددون بالموت. كلهم إلى درجة مـا ضحايا الجفاف، لكن 3 ملايين منهم لاجئون من الحروب والصراعات الأهلية»[27]. شـهد العقدان التاليان سلسلة من موجـات الجفاف عبر منطقة السـاحل والقرن الأفريقي، وحدثـت مجاعات في إثيوبيا والسـودان والصومال. وبحسب الخبراء فقد معظم الرعاة في المنطقة حتى 80 في المائة من مواشيهم الصغيرة، ونصف قطعانهم نتيجة المجاعة والأمراض[28].

من العام 1980 حتى 1982 أصبح الطقس أكثر عنفا مع حدوث أسـوأ حادثين للنينـو في القـرن. بنهايتيهـما كان قطيـع الكاراموجونغ قد انخفـض إلى نصف ما كان عليـه عـام 1962. ومع ذلك تضاعف عدد السـكان. وكما وصف أحد التقارير الصحافية «تبقى النسـاء في البيت لزرع الذرة قرب الجداول. لكن السنة الماضية لم يكـن هناك مطر وكانت الجداول جافة. انتـشرت المجاعة والكوليرا، وبأواخر يونيو في ذلك العام مات نحو 20 ألفا من الكاراموجونغ». توقف برنامج مساعدات الأمم المتحدة بعد عدة أشهر، بسبب الهجوم على إحدى قوافل الغذاء[29].

حلول زائفة

عـلى الحدود الأوغندية - الكينية زودت الأسـلحة المنهوبة الكاراموجونغ بحل اجتماعي لمشـاكلهم البيئية: غارات على نطاق واسـع ضد الايتسو الزراعيين. سلب

مسلحو الكاراموجونغ معظم قطعان الايتسو «كانت الغارات من حين لآخر عادية، لكن مداها وعواقبها كانا غير مســبوقين»[30]. وللانتقام، طرد الايتسو بعنف أولئك الكاراموجونــغ الذيــن اســتقروا في منطقتهم. حصلت حالات ســلب أخرى مماثلة لقبائــل أخرى، وبتوافر البنادق ورخصها بدأت الغارات على القطعان التي شــهدت انحسارا متزايدا من جديد. عبر نحو ألفين من الأوغنديين الجائعين، والمسلحين غالبا، إلى مناطق التوركانا في كينيا للبحث عن الطعام والقطيع[31]. وعلى الرغم من عودة الاستقرار النسبي إلى معظم أنحاء أوغندا، فإن البلد يبقى مصدرا للبنادق والذخيرة التي تهرب للقبائل الكينية. ومازال الضرر من الأحداث العنيفة أواخر الســبعينيات وأوائل الثمانينيات قائما.

مصــدر أكبر لعدم الاســتقرار في المنطقة بكاملها هو بالطبــع الصومال، نموذج الدولــة الفاشــلة. الصومال اليــوم منطقة حربيــة فوضوية تتدفق منها الأســلحة واللصوصية والتعصب العرقي والديني. فهي تزود عصابات القرن الأفريقي والغزاة والميليشــيات والمجرمين بالبنادق والملاذ والأسواق. لذا دعنا الآن نعالج تاريخ انهيار الصومال، لأنه عنصر محوري في التجمع الكارثي.

7

النبوءة الصومالية

على السياسي الذي يستسلم لحمى الحرب أن يدرك أنه ما إن تعطى الإشارة للحرب، فإنه لن يكون المسيطر على السياسة، لكنه سيكون عبد الحوادث غير المتنبأ بها، وغير الخاضعة للسيطرة؟

ونستون تشرشل

«تحكي قصة انفجار الصومال كيف أن الأفكار الكبيرة والتحالفات النبيلة خلال الحرب الباردة لم تخلف غالبا سوى المعاناة والفوضى»

المؤلف

في العام 1969 جلب انقلاب عسكري يساري نهاية تجربة جديدة لصومال مستقل حديثا يحكم بالديموقراطية الانتخابية. كان الرجل القوي الجديد هو محمد سياد بري الذي أعلن في السنة التالية أن «الاشتراكية العلمية» ستكون العقيدة الرسمية للبلد، مصرا على أنها «تتوافق تماما مع الإسلام وواقع المجتمع الرعوي». كانت المعارضة السياسية كلها وأي ذكر علني للقبلية ممنوعين بشدة.

مع ذلك جلب نظام سياد بري في البداية بعض الإصلاحات الاجتماعية المهمة. وكما شرح آي. م. لويس، العالم البارز في التاريخ الصومالي، فقد قدّم النظام الجديد برامج لصحة المجتمع، والتعليم في الريف، وحملات لمحو الأمية، وشجّع المجتمعات المحلية على بناء المدارس والمستشفيات والمستوصفات. شجعت التعاونيات وزراعة الأشجار، وعدلت الأحرف الرومانية لتناسب اللغة الصومالية[1].

لكن للأسف كان سياد بري وطنيا متحمسا ووحدويا. قسّم المستعمر الأوروبي والإثيوبي الفضاء الوطني الصومالي إلى خمسة أجزاء. أعاد استقلال الصومال عام 1960 توحيد أجزاء الصومال التي خضعت لإيطاليا (الجنوب) ولبريطانيا (الشمال) فقط. لكن هذا لم يكن كافيا بالنسبة إلى سياد بري. في مقديشو، امتلأ المثقفون الوطنيون والنخب السياسية بالغضب وهم يطالبون بالمناطق التي تتكلم الصومالية في كينيا وجيبوتي وإثيوبيا. أرادوا خصوصا الحصول على أوغادين، وهي عبارة عن نتوء فقير وجاف ووعر من إثيوبيا داخل في الصومال معطيا البلد شكله المعوج ويسكنه صوماليون. تعهد سياد بري بإعادة توحيد أجزاء الأمة الصومالية، وعندما دخلت إثيوبيا في منتصف السبعينيات بفترة من عدم الاستقرار السياسي، سنحت له الفرصة للبدء في هذا المشروع.

تحكي قصة انفجار الصومال كيف أن الأفكار الكبيرة والتحالفات النبيلة خلال الحرب الباردة لم تخلّف غالبا سوى المعاناة والفوضى. عموما، تشكل تلك الديناميكية عنصرا مؤسسا للتجمع الكارثي.

سقوط الأسد

كان الامبراطور الإثيوبي المنعّم والمستبد هيلاسي لاسي - على الرغم من احتفاء النخب الغربية به، وتأليهه الغريب من قبل الراستافاريين الفقراء والمدخنين للغانجا في جامايكا(*) - مكروها بازدياد في إثيوبيا. كانت أسوده المدللة تأكل اللحم، بينما كان شعبه جائعا. حظر أي تنظيم عمالي من أي نوع حتى عام 1962[2]. تمتع الإمبراطور بعلاقات دافئة مع واشنطن، حتى أنه أرسل فرقة من أفضل قواته

(*) Rastafarians الراستفاريون فرقة في جامايكا نشأت في الثلاثينيات وعبدت هيلاسي لاسي لأنه بنظرها بمنزلة المسيح المخلص الثاني. [المترجم].

لمساعدة الولايات المتحدة خلال الحرب الكورية. كان للجيش الأمريكي مركز اتصالات في كاغنيو وقام بتدريب القوات الإثيوبية. ومن العام 1953 حتى العام 1973 ذهبت نصف المساعدات العسكرية الأمريكية لأفريقيا جنوب الصحراء كلها إلى الامبراطورية الإثيوبية[3].

بحلول العام 1974 كان حكم الامبراطور في مشكلة. كان الجفاف الساحلي(*) يفتك بالمزارعين الإثيوبيين، وارتفعت أسعار النفط 4 أضعاف، وكان الاقتصاد العالمي في حالة ركود. أدى الغلاء وارتفاع أسعار الوقود إلى حدوث احتجاجات في أديس أبابا. أرسل الامبراطور قواته لإعادة النظام - لكن القوات تمردت. أمسكت الفوضى بالأمة، ووسط هذا برزت مجموعة ثورية من صغار الضباط اليساريين دعيت بالديرغ (Dergue). تحرك النظام الجديد بسرعة مطبّقا أوسع اصلاح زراعي في أفريقيا، ومؤمما الصناعة كلها، ومؤسسا لجانا عمالية حتى على المستوى المحلي. لكن مع كل تطرفها الفكري، عانت مجموعة الديرغ من صراعات عنيفة مميتة. خلال هذا كانت هناك مقاومة في الريف من قبل الإقطاعيين، وثورات رجعية عديدة[4].

عبر الحدود، رأى سياد بري الفوضى في إثيوبيا كفرصة لضم أوغادين. وعلى الرغم من أن إثيوبيا والصومال كانتا دولتين اشتراكيتين تدّعي كل منهما أنها تضع التنمية الاقتصادية والتضامن ورخاء الجماهير فوق كل اعتبار آخر، فإن الوطنية هي التي تغلبت في ذلك الوقت.

معبّدة بمساعدة خارجية

في نمط مألوف حول العالم، بدأ سياد بري حربه بشكل غير معلن بتدريب قبائل صومالية في إثيوبيا وتسليحها لتسمى فيما بعد جبهة تحرير غرب الصومال. ولكن كما تسير هذه الأمور غالبا، تطوّر العمل السري ليخرج عن نطاق السيطرة.

في الوقت الذي كان فيه هذا النزاع المحلي يزداد سخونة، كان التوتر الناجم عن الحرب الباردة يشتد عبر المنطقة. طبقت الاستراتيجية الكبرى للقوى العظمى بحيث نافست كل واحدة الأخرى على النفوذ في القرن الأفريقي بتقديم المساعدات العسكرية بسخاء لحلفائها المحليين بشكل رئيس. حاول الاتحاد السوفييتي خلق

(*) نسبة إلى منطقة حزام الساحل الأفريقي. [المحررة].

تحالف موالٍ له مؤلف من أربع دول اشتراكية - الصومال واليمن الجنوبي وإثيوبيا (التي كانت في ذلك الوقت تضم اريتريا)، وربما الدولة التي ستستقل بعد وقت قصير وهي جيبوتي. كان هذا التحالف مهما للمعسكر الاشتراكي، جزئيا لأن مصر طردت القوات السوفييتية، وتحولت بشكل رئيس إلى معسكر الحرب الباردة الذي تقوده الولايات المتحدة. من شأن تحالف اشتراكي في القرن الأفريقي أن يسمح للاتحاد السوفييتي بعرض قوته في الشرق الأوسط وخارجه على طرق التجارة البحرية للبحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي. اعتبر الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة: البحر الأحمر هو الممر لمعظم نفط الغرب، ويرتبط بالبحر الأبيض المتوسط بواسطة قناة السويس، واليمن التي تشترك بحدود طويلة مع المملكة العربية السعودية، والصومال التي تشير إلى فوهة الخليج[6].

تزعم فيدل كاسترو إلى حد كبير هذا «الحلف السوفييتي» في القرن الأفريقي كما دعاه المراقبون الغربيون بقلق. في الحقيقة كان كاسترو هو الذي جرّ الاتحاد السوفييتي إلى أفريقيا - ويجب الإضافة أن ذلك حدث من دون أن يسألهم - بإرسال قوات كوبية لمساعدة الحركة الشعبية لتحرير انغولا (MPLA) بعد غزو قوات أفريقيا الجنوبية والمرتزقة ومستشارين من الـ CIA لها في العام 1975. ظهرت الحقائق المذهلة لهذه الديناميكية الغريبة في كتاب المؤرخ بيرو غليجيسيس «مهمات متعارضة: هافانا وواشنطن وأفريقيا 1959 - 1976»[7]. بعد الانتصار في أنغولا دفعت كوبا الاتحاد السوفييتي إلى التعامل بشكل أكبر مع أفريقيا. اهتم كاسترو جدا بأفريقيا لأسباب عدة: أحدها كان نابعا من التزامه العقائدي. خلال وثائق الـ CIA ووزارة الخارجية المقتبسة من قبل غليجيسيس وصف كاسترو على أنه «ثوري أولا» وعلى أنه «ثوري بالضرورة» بـ «اخلاص متفانٍ لقضيته» مدفوع «بشعور رسولي للتبشير برسالته»، وأنه «منشغل بحملة صليبية كبرى». كانت هناك أيضا قضية العلاقات الثقافية العميقة بين كوبا وأفريقيا. وكما أخبر مبعوث الرئيس كارتر إلى الأمم المتحدة الناشط السابق في حقوق الانسان اندرو يونغ مجلة نيوزويك، «ليس هناك شك بأن كوبا تفكر في نفسها على أنها دولة أفرولاتينية... لا أعتقد أن كوبا في أفريقيا لأنها أمرت بأن تذهب إلى هناك من قبل الروس. أعتقد أن كوبا في أفريقيا لأن لها فعلا شعورا مشتركا بالقمع

والسيطرة الاستعماريتين». يجب التنويه إلى أن يونغ لم يتبنَّ الثورة الاشتراكية المسلحة في أفريقيا، وفي النهاية انتقد الحملة الكوبية المقدسة على أنها «أسهمت في تخريب أفريقيا»[8].

أخيرا كانت هناك قضية البقاء. كدولة من أولى الدول الماركسية اللينينية في العالم الثالث، احتاجت كوبا إلى أصدقاء. احتاجت إلى توازن قوى يضم مجموعة من الدول الصغيرة إلى العلم الأحمر. وكما فعل في أنغولا في القرن الأفريقي، لعب كاسترو دورا رئيسا في تصميم الاستراتيجية السوفييتية وديبلوماسيتها. تكلم عن «جبهة مشتركة ضد الامبريالية» على البحر الأحمر. وعندما اعتنقت الحكومة الجديدة للملازم كولونيل مينغستو هيلي ماريام رئيس الديرغ الاشتراكية، طردت المستشارين العسكريين الأمريكيين، وتحولت إلى دول حلف وارسو للمساعدة. وسرعان ما أصبح الاتحاد السوفييتي يساعد الصومال وإثيوبيا معا. أثار هذا غضب سياد بري ومؤيديه. حاول السوفييت والكوبيون حل مسألة أوغادين وبناء الوحدة بين الجيران في أفريقيا الشرقية. سافر كاسترو شخصيا مجيئا وذهابا بين الزعماء الصوماليين والإثيوبيين محاولا إصلاح الأمور بينهم.

لكن ذلك لم يتم. في مقديشو كانت الاشتراكية العالمية تعني أقل مما تعنيه الصومال الكبرى. أفشلت قضايا محلية الخطة الكبرى، وعندما انهارت الرؤية الاستراتيجية انهار معها معظم المنطقة.

حرب أوغادين للأبد

في صيف العام 1977 طفت الحرب السرية الصغيرة في أوغادين على السطح. في 13 يونيو عبر نحو خمسة آلاف جندي صومالي نظامي بعد إزاحة شاراتهم المميزة، وبالتعاون مع رجال العصابات في جبهة تحرير غرب الصومال، الحدود إلى إثيوبيا وشنوا الهجوم [9]. وبحلول يوليو استولوا على بلدات جيجيغا وهارار ودمروا عدة جسور مهمة، وخربوا سكة الحديد بين أديس أبابا وميناء جيبوتي على البحر الأحمر. وبذلك توقف أكثر من 40% من صادرات إثيوبيا، و50% من وارداتها[10]. وطوال ذلك الوقت كان المستشارون والضباط الكوبيون والسوفييتيون في الصومال وإثيوبيا معا.

بحلــول نوفمبر 1977 أكــدت الصومــال أن القوات المســلحة الكوبية لم تكن في إثيوبيــا فقــط، بل كانت تقاتل لمصلحتها. وبذلك طرد ســياد بري المستشــارين السوفييت الأربعة آلاف الذين كانوا يدربون قواته، ويصونون طائرته. ذهب معظم المستشــارين المغادريــن مباشرة إلى إثيوبيــا[11]. في فبراير من العام 1978 أســقط الجيــش الصومــالي أي ذريعة للابتعاد عن القتال، وشــارك جبهــة تحرير الصومال الغربية رسميا في «حرب مرة شاملة ضد إثيوبيا». استنفدت الهجمة الجديدة أعدادا غفيرة من الأوغادينيين[12].

في إثيوبيــا واجه الديرغ كارثة: هدد ضياع نحو ثلث البلاد التابع للجنة الديرغ بانهيــار البلاد. لوقف النزيف تدفق الدعم الســوفييتي والكوبي إلى إثيوبيا. أرســل السوفييت بالطائرات معدات حربية متطورة قدرت قيمتها بملايين الدولارات، بينما أرســلت كوبــا مزيدا من الجنود المشــاة والطيارين - أربعــا وعشرين ألف جندي بالكامــل[13]. حطّــم الهجوم الإثيوبي المعاكــس المدعوم خارجيــا الجيش الصومالي الغازي، ودفع بالحرب الجوية إلى شمال الصومال نفسها[14].

أصبح سياد بري الآن في وضع حرج. نظرا إلى حاجته للسلاح لصد القوات الكوبية والسوفييتية ذهب إلى شاه ايران المتأزم، ثم دعا الولايات المتحدة «لتنفيذ مسؤوليتها الأخلاقية» في مساعدة الصومال. كان الرئيس كارتر قد صرح بأنه «سيتحدى بقوة» الاتحاد الســوفييتي من أجــل النفوذ، ومنح القتال بين دولتين اشــتراكيتين الولايات المتحــدة الفرصة لفعــل ذلك. مع حلفائها المحليين، ســحبت الولايات المتحدة الآن الصومال الماركســية إلى ما دعي بالمعســكر العربي المعتدل، على الرغم من أن سياد بــري لم يكن من أي منهــما[15]. بلغت المعونة العســكرية الأمريكية خلال الحرب القصيرة أكــثر من 200 مليــون دولار، بينما تجاوزت المســاعدات الاقتصادية 500 مليون دولار[16]. بمعظم هذه المســاعدات اشــترت الصومال الأســلحة من المملكة العربية السعودية ومصر وإيران وباكستان.

بحلول العام 1980 تخلى ســياد بري عن الاشــتراكية العلميــة التي على الرغم من انهــا أدت إلى بعض من إعادة توزيع الثروة، فإنهــا لم تقدم التنمية الاقتصادية المتناسبة مع النمو السكاني. بحلول منتصف الثمانينيات كان نظام سياد بري يطبق سياســة التحرر الاقتصادي التي أوصى بها صندوق النقد الدولي. أدى هذا إلى ارتفاع

كبير في تصدير الموز الذي عادت معظم فوائده إلى المصدرين الرئيسـيين، ومن هم ضمن النظام. أصبحت زوجة سياد بري وابنته كلتاهما من مزارعي الموز[17].

على الرغم من أن الاستراتيجية العظمى للولايات المتحدة كانت في النهاية مهتمة بحماية اقتصادات السوق حول العالم، فإن الاهتمام الخاص بالصومال لم يكن اقتصاديا. لم تأت أهمية الصومال من الأرباح المتواضعة التي يمكن لبعض الشركات العالمية أن تجنيها هناك، لكن لأن الدولة قدمت نتوءا عسكريا وسياسيا بارزا يشرف على أفريقيا الشرقية والمحيط الهندي. إضافة إلى ذلك، كسر استقطاب الصومال، «الحلف السوفييتي» المتنامي في أفريقيا الشرقية. حصل التدخل الأمريكي من أجل توازن القوى مع الاتحاد السوفييتي عالميا عبر القتال بين وكلاء محليين.

سقوط

رسميا، انتهت حرب أوغادين عام 1978 بعشرات الآلاف من القتلى. مع ذلك استمرت الصومال وإثيوبيا خلال الثمانينيات في صراع على مستو منخفض، ولا تزال جبهة تحرير الصومال الغربي تقاتل حتى اليوم. حافظ الجيش الأمريكي على فريقي تدريب على الأقل في الصومال. وصرفت موسكو 5 مليارات دولار في إثيوبيا خلال الثمانينيات، منشئة أكبر جيش في أفريقيا جنوب الصحراء. بقي الكوبيون في إثيوبيا، وخلال الثمانينيات عبرت القوات الإثيوبية الحدود مرارا إلى الصومال، أو أرسلت طائراتها لقصف البلدات هناك[18].

لم يتعاف الصومال أبدا من هزيمته المنكرة في أوغادين. وساعدت هذه الكارثة في التفكك الوطني للدولة. لخّصت مجلة «فورين أفيرز» تأثير الحرب بما يلي: «مكّن الدعم السوفييتي منغستو (الإثيوبي) من قهر العدوان الصومالي، وإذلال سياد بري، وإرسال نصف مليون من الصوماليين، ورجال العصابات عبر الحدود الصومالية، ليحمل الكثير منهم الموجة التالية من الأسلحة الحديثة في مد متصاعد. أطلقت كارثة أوغادين سخطا محليا خطيرا ضد نظام سياد بري القمعي والمتحيز بازدياد، مؤدية إلى محاولة انقلابية للإطاحة به في العام 1978، وتشكيل الحركة الوطنية الصومالية عام 1981 بين عشائر اسحق في الشمال»[19].

حطّمت كلفة الحرب اقتصاد الصومال الزراعي الصغير. تضاعفت الديون الخارجية ثلاثة أضعاف من 95 مليون دولار في العام 1976 إلى 288 مليون دولار في العام 1979[20]. وصفت سياسة الدولة الاقتصادية على أنها «مضطربة وغير مستقرة» وغالبا ما تحركت من منظومة من الأهداف إلى منظومة أخرى، وبالتالي تسببت في إحداث الفوضى في السوق المحلية: بحلول العام 1990، مع بدء انحدار الدولة الصومالية النهائي نحو الفوضى، بلغت ديونها الخارجية للدول الغربية 1.9 مليار دولار أو 360% من إجمالي إنتاجها المحلي. نشأت هذه الأزمة من النفقات العسكرية لحرب أوغادين[21].

نحو الهاوية

احتفظ سياد بري بمقديشو حتى يناير من العام 1991، عندما أجبرته ثلاث مجموعات متمردة ذات تنسيق ضعيف على الفرار. انهار جيش الديكتاتور بحسب الانتماء القبلي، وأطلق مخزونه من السلاح الذي تخلى عنه موجة جديدة من البنادق في الصومال وشمال كينيا والقرن الأفريقي بأكمله. وكما عبر تيرانس ليونسي وأحمد ساماتار عن ذلك «يرتبط زوال الدولة ضمنيا بانهيار التجانس الاجتماعي على نطاق واسع، مع عدم قدرة المجتمع المدني على خلق الدعم والحاجات التي تشكل أسس المجتمع وتجميعها والتعبير عنها. ومن دون الدولة ينهار المجتمع، ومن دون بنية اجتماعية لا يمكن للدولة أن تبقى»[22]. تداعى هيكل متهالك منذ زمن ولم تمتلك الصومال حكومة فاعلة منذ ذلك الوقت. الأسوأ من ذلك أن وباء الحرب وعدم الاستقرار المستمر أصاب المنطقة بكاملها. خلق تدفق السلاح والذخيرة والتهريب والرجال المسلحين عبر الحدود منطقة ينعدم فيها القانون شملت بصورة متزايدة كينيا.

لم تشعل القوى الكبرى الحرب في أوغادين، واجتياح أوغندة لتنزانيا أيام الحرب الباردة، لكن اندفاع هذه القوى لتسليح وكلاء لها سعّر هذه الصراعات بشكل سيئ. ببساطة: جعلت الأسلحة المستوردة أفريقيا تركع على ركبتيها. وعلى الرغم من أن هذا ليس واضحا بشكل مباشر، فقد أثّر هذا التاريخ كله عندما قتل المغيرون من البوكوت الراعي ايكارو لورومان من التوركانا في قتال حول القطيع والماء، في المناطق السيئة المصابة بالجفاف في كينيا.

8

تنظير الدول الفاشلة

قمعت في النهاية الإجراءات القضائية المدنية والجنائية؛ وحكم الجمهور من النبلاء والعامة من دون تمييز وفق العادات التقليدية التي وضعت بشكل عريض لرعاة ألمانيا وقراصنتها. ضاعت لغة العلم والتجارة والحديث التي أدخلها الرومان في الخراب العام.

إدوارد غيبون، انحدار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها

«الانهيار كالتنمية يحدث تدريجيا، حيث تبنى كل مرحلة على التتالي فوق الظروف التي خلقتها المراحل السابقة»

المؤلف

كانت السماء فوق كيسنغاني منبسطة ورمادية، لكنها لم تمطر قط. بجانب النهر كانت نساء السوق يبعن أكواما صغيرة من البرقان الصالح للأكل، لكن لا يبدو أن أحدا كان يشتريها. الشوارع في هذه المدينة الصغيرة في وسط حوض الكونغو هادئة بشكل غريب،

وخالية تقريبا من السيارات التي سلب معظمها خلال اجتياحين قريبي العهد.

دخلت الأبنية القديمة من الحقبة الاستعمارية والمزخرفة فنيا في طور الخراب، خاضعة ببطء للأمطار والعفن والنباتات، كأنها كانت تتوارى أمام عيون الناظرين. لا طرقات تصل كيسنغاني ببقية جمهورية الكونغو الديموقراطية أو بأي جزء آخر من العالم؛ واستردت الغابة مدرجات المطار. على ضفة النهر يتدفق الماء الموحل كما كان منذ آلاف السنين، وعلى بعد 1300 ميل أخرى من هنا، فوق مجموعة ضخمة من الشلالات، يصب النهر البني المزبد العنيف في البحر جالبا الحطام والنباتات الطافية معه.

بدأت كيسنغاني على شكل محطة تجارية بلجيكية. أسسها الأمريكي هنري مورتون ستانلي للملك ليوبولد أثناء اجتياحه الدموي الثالث للكونغو في العام 1883[1]. استخدم جوزيف كونراد الموقع نموذجا لمحطته الداخلية في روايته « قلب الظلام». إنها النقطة الأخيرة التي يمكن الوصول إليها بواسطة النهر، لأن الـ 250 ميلا التالية أعلى النهر مقطعة بنتوءات متعاقبة، وشلالات مائية. كنت في كيسنغاني في طريقي إلى إسانغي لكتابة تقرير عن قطع الأشجار في ثانية أكبر غابة استوائية لم تمس في العالم. لكن الشرطة احتجزتني على الرغم من أنني كنت أحمل خمسة أشكال مختلفة من الوثائق الرسمية - بما فيها أمر مهمة وتصريح بالسماح بنقل الأخبار - مختومة وموقعة كلها من قبل وزارات عديدة مختلفة. أصرت الشرطة على أنني في حاجة إلى مزيد من الوثائق الورقية، وبينما كانوا يعدونها لي كان علي الانتظار.

في اليوم التالي زرت مكتب الإدارة المحلية الآيل للسقوط. سأل موظف مسن كئيب عما إذا كنت مستعدا لدفع 200 دولار من أجل الوثائق الإضافية. اقترحت عليه 50 دولارا. وافق على ذلك، لكنه في كل يوم أتى بتأخير أكثر. تجولت حول المدينة، وصاحبت رجلا لديه قرد مدلل يدعى جوني، وشربت البيرة في بار يملكه تاجر أخشاب إيطالي. وجلست على درجات الكنيسة أنظر إلى نهر الكونغو. لم تكن هناك مواصلات على الماء بسبب عدم هطول الأمطار - تمتد مشاكل نطاق التقارب بين المدارين إلى أواسط أفريقيا. أنقص الجفاف مستوى الماء في نهر الكونغو، وهو الآن ممتلئ بالمياه الضحلة الخطرة.

أخيرا، في اليوم الثالث من الانتظار، أخبرت الموظف العجوز في المكتب المحلي أنني سأغادر من دون ترخيص جديد. كان ذلك يعني بالطبع أنه ورئيسه لن ينالا الـ 50 دولارا «أجرة» التي طلباها. نظر الموظف بقلق. فجأة أصبحت الوثيقة جاهزة. كانت مكتوبة

بخط اليد على ورقة بنية عتيقة، لكنها كانت مختومة وموقعة. على الخلف كانت هناك وثيقة أقدم مختلفة، وهي عبارة عن ترخيص بالسفر مكتوبة بالآلة الكاتبة لشخص آخر كان في مهمة طبية بيطرية إلى إســانغي أيضا. كانــت تقول «الكونغو البلجيكي، مقاطعة ستانلي فيل، السكرتارية.....7 فبراير 1957».

تشريح الخرائب

تشرح تلك الوثيقة كيف تنهار الدول، وكيف أن الدول الفاشــلة أو شــبه الفاشــلة مهمــة لأنها مهددة جدا بالتغير المناخي. في دول فاشــلة يكون الانهيار الاجتماعي هو المعتاد، مع أن الحكم والإدارة غير غائبين بالكامل. إنهما موجودان لكن بصورة شكلية. يبــدو كأن الدولة الفاشــلة تعود إلى أســاليب فرعية من الســيطرة، والمعاملة بالمثل. ولأن فشــل الدولة نســبي، فهناك في معظم ما يدعى بحكومات الدول الفاشلة خراب نصف وظيفي - الدولة كحياة لاحقة مرتجلة. «وثيقة السفر» التي أعطاها الموظف في كيســنغاني لي مثال مضحك على ذلك، لكنه مع ذلــك قوي: ملاحظة مكتوبة بخط اليد خلف وثيقة اســتعمارية عمرها 50 ســنة. يجد المرء مثل هذا النوع من البيروقراطية وســط الانهيار في معظم الدول الفاشلة، حيث يلعب الموظفون المدنيون ذوو الرواتب الضئيلة رســميا، بمكونات جهاز استعماري ميت للشرطة، ليس رغبة في تطبيق القانون والنظام، لكن ببساطة لاستخلاص رشا تكفل لهم البقاء.

ينطبق هذا المثال على معظم الدول الفاشلة أو شبه الفاشلة – لقد فرغت حكوماتها مــن مضمونها. لكل من هذه الدول علم وعملة ومقعــد في الأمم المتحدة، لكن هناك القليل من القانون والنظام أو من البنية التحتية الفاعلة، أو لا يوجد شيء من ذلك على الإطلاق. ليست الدول الفاشلة دوما مناطق حرب مدمرة على النمط الصومالي السيئ. على الرغم من أنها تصاب بنوبات من العنف، فإن الحياة اليومية فيها تتميز بشكل أكثر نموذجية بالخليط اللصوصي الموجود في جمهورية الكونغو الديموقراطية.

في أماكن مثل الصومال وأفغانســتان وهاييتي وغينيا بيســاو وساحل العاج، تكون الدولة شــبحا: تظهر ثم تختفي. يمكنك رؤية معالمها، وتشــعر بوجودها، لكنها ليست هناك فعلا. على سبيل المثال، في كينشاسا عاصمة الكونغو لا توجد سلطة فعلية تفرض القانون، ولا برامج لحماية الناس، لكن هناك حظرا شــديدا على النمط الكوري الشمالي

لمصادرة العاملين «الخاصين» والمستقلين ذاتيا للسلطة التنفيذية الذين يقفون إلى جانبه، من أولئك الذين يمتلكون حقوقا في وسائل الإدارة والحرب والتنظيم المالي، إضافة إلى بضائع يمكن اســتعمالها سياسيا من الأنواع كلها. العملية كلها موازية تماما لتطور المشروع الرأسمالي من خلال المصادرة التدريجية للمنتجين المســتقلين. في النهاية تتحكم الدولة الحديثة بوســائل التنظيم السياسي كلها، والتي تندرج بالفعل بعضها مع بعض وتحت رئاســة واحدة. لا يملك موظف واحد شــخصيا المال الذي يدفعــه، أو الأبنية والمخازن والأدوات وآلات الحرب التــي يتحكم فيها. في «الدولة» المعاصرة - وهذا ضروري لفكرة الدولة - فإن «فصــل» موظفي الإدارة والعاملين فيها عن الوســائل المادية للتنظيم الإداري هو فصل كامل[5].

أمــا في الدول الفاشــلة فالأمــر على العكس تماما. تعاد شــخصنة الســلطة ويعاد تخصيص وســائل الإدارة والقمع. الســلطة التنفيذية - التي يعني بها فيبر سلطة اتخاذ القرار والتنفيذ - تعود من مؤسسة مركزية شرعية إلى طرف مؤسساتي، طبقة الموظفين الذيــن يتحكمون بجهاز الدولة: مكاتبها ووثائقها وملفاتها ووزاراتها وأســلحتها ونقاط تفتيشها وزنزانات سجونها. يعاد استخدام هذه التقنيات بطريقة مجزأة وطفيلية.

ينتج الانهيار البيروقراطي للدولة الفاشــلة نوعا فريدا من الجغرافيا السياسية: سيادة موزعة شبيهة بكلية السلطات - الملك والكنيسة والمدن والإقطاعيين - كالتي ميزت أوروبا في العصور الوسطى. يظهر هذا التوزع اليوم على درجات مختلفة عبر أجزاء من أمريكا اللاتينية وأفريقيا والشر

مــن قبل «الحرس الجمهوري» أو بعض القوات الميلشــيوية لوزارة الداخلية، وهي بحد ذاتها ملك لرئيسها. ســيكون هذا وصفا لكينشاسا وكابول وبغداد أيضا. خارج العاصمة يتحكم أحد قادة المتمردين ببعض الطرق المهمة إلى الحدود، وستجد مثل هذا في الكونغو وأفغانســتان وكولومبيا. تحمــي القوات الأجنبية - التي ربما تلبس خوذ الأمم المتحدة الزرقاء، أو تحمل علامة الناتو - المناطق حول قواعدها، وبعض الأبنيــة الحكومية، وعقد المواصلات والمطارات. يتحكم رجال العصابات والمتمردون بالمناطــق فيــما وراء ذلك. في مناطــق أو مقاطعات أبعد بمــوارد أو صلات تجارية مغرية، ربما يجد المرء حاكما مســلحا ومســتقلا يدّعي الــولاء لأي حكومة مركزية تساندها القوى الغربية الكبرى، لكنه في الحقيقة سيد نفسه ويدير دويلة مستقلة.

في مدينة المرفأ ليس من المستغرب أن تكون السلطة الحقيقية بيد أكبر تاجر استيراد وتصدير، والذي يستطيع بثروته الضخمة أن يرشو الشرطة، ويفعل ما يريد مع السياسيين المحليين. تصف هذه الخصائص مرة أخرى أنحاء من العراق وكولومبيا وأفغانستان وهاييتي وساحل العاج وغينيا بيساو وجمهورية الكونغو الديموقراطية والصومال على سبيل المثال لا الحصر.

هذه هي النماذج السياسية التي سادت أوروبا في القرن الرابع عشر، وهي الأشكال السياسية التي خلفها انهيار الإمبراطورية الرومانية إثر وباء الطاعون[6]. إنها ليست نماذج التخلف، لكنها بالأحرى النماذج الناجمة عن انهيار اجتماعي، وسقوط سياسي. إنها حطام مؤسساتي وسياسي لحداثة سابقة. وهي تميز الحاضر بصورة متزايدة.

نرى هنا معاكسا غريبا لـ «نظرية المرحلة» في التنمية لوالت روستو، وفكرته حول «الإقلاع الاقتصادي»[7]. الانهيار كالتنمية، يحدث تدريجيا، حيث تبنى كل مرحلة على التتالي فوق الظروف التي خلَقتها المراحل السابقة. ومثل التنمية، يمكن للانهيار أن يصبح عملية مدعومة ذاتيا. الانحدار نحو الأنتروبيا (الاعتلاج) والفوضى مثل الحلقة الايجابية للتحديث والتصنيع التي تخيلها المخططون في الغرب بعد الحرب - لكنها تسير بعنف في الاتجاه المعاكس.

دول وحرب وجريمة

لو قرأنا فيبر بالشكل المعاكس، فسنفعل حسنا لو استشرنا مقالة تشارلز تيللي الكلاسيكية «صنع الدولة وصنع الحرب كجريمة منظمة» بالطريقة ذاتها[8]. بحسب تيللي «الحرب تصنع الدول»، وينتمي «قطع الطرق والقرصنة والتنافس بين العصابات والحماية والحرب كلها إلى التواصل نفسه»[9]. وهو يحاجج بأن الجريمة المنظمة - نموذج عصابات الحماية، هي من نواح عدة مشابهة لعملية فرض الضرائب من قبل الدول الشرعية. توجد الحرب والابتزاز والنهب ضمن طيف مفصول بمستويات مختلفة من الشدة والشرعية. النقطة الرئيسة في المقالة هي أنه مع ازدياد تكلفة الحرب في أوروبا من حيث تكلفة السفن والمدافع والجيوش الميدانية، أصبح مشروع فرض الضرائب والإدارة أكثر تطورا، وبالتالي أصبح حديثا.

وكما يعبر تيللي عن ذلك:

> في تدرج مثالي، صنع سيد عظيم الحرب بفاعلية كبيرة، بحيث أصبح يسيطر على مقاطعة كبيرة، لكن شن الحرب أدى إلى استخلاص أكبر لوسائلها - الرجال والأسلحة والغذاء والمساكن والنقل والإمدادات و/ أو المال لشرائها - من سكان المقاطعة. وبالمثل أدى بناء قدرة صنع الحرب إلى زيادة القدرة على الاستخلاص. لو نجحت عملية الاستخلاص ذاتها، لشملت التخلص من السيد العظيم وتحييده أو تعاون المنافسين المحليين ضده، وبالتالي لأدت إلى صنع الدولة. وكمنتج ثانوي، فقد خلقت تنظيما على شكل وكالات جمع الضرائب، وقوى الأمن، والمحاكم، وبيوت المال ومسجلي الحسابات، وبالتالي أدت مرة أخرى إلى صنع الدولة[10].

إذا كان صنع الحرب التقليدية قد أنتج الدولة الحديثة، فإن الحروب اللاتناظرية والانهيار الاجتماعي والصراع القبلي والطائفي والتحارب ومكافحة التمرد المفتوحة في عصر الفوضى المناخية، ربما ستكون عوامل انهيار الدولة الحديثة. مع انهيار وسائل الإدارة و«الاستخلاص»، تنشق «عصابات من رجال مسلحين» عن الدولة، وتطلق حرة في المجتمع للبقاء بوسائلها الخاصة. يصبح فرض الضرائب سرقة مع عودة الجنود والشرطة إلى الرشوة والابتزاز والنهب. وحيثما تكون الدولة غائبة تماما، تنشأ العصابات لتحكم العشوائيات مثل دول المدن القديمة.

ربما توجد أيضا نواح تقنية لانهيار سلطة الدولة الحديثة. وكما توضح الحالة الكينية، هناك شيء خاص حول انتشار الأسلحة الصغيرة: AK-47 وقاذفات القنابل والآلات الرشاشة. عندما تكون هذه الوسائل «الديموقراطية» للعنف رخيصة بما يكفي، فإنها تنسف سلطة الدولة بطريقة معاكسة مباشرة لحجة تيللي، حيث تطلبت السفن الحربية المكلفة والمدافع الضخمة (وبالتالي أنشأت) أنظمة بيروقراطية وضريبية معقدة ومركزية وحديثة [11]. إذا كانت المدافع والسفن الحربية قد صنعت الدولة الوطنية الحديثة، فإن الكلاشينكوف والراديو الحقلي ربما سيكونان سبب فشلها.

الجزء الثالث

آسيا

9

مخدرات وجفاف وجهاد: التاريخ البيئي للحرب الأفغانية

السنة الجيدة تحدَّد من ربيعها.

مثل أفغاني

«صحيح أن التعصب الديني والكره العنصري والطموح الاستعماري هي أدوات حركت العنف بشكل كبير، لكن تغير المناخ أيضا يغذي الصراع في أفغانستان»

المؤلف

فتح المزارع العجوز الجوز والرمان في باحة بيته المحصن المبنية جدرانه من الطين، وشرح متاعبه. يزرع وزير الأفيون والماريوانا في مقاطعة حدودية من مقاطعة نانغارهار الجنوبية شرق أفغانستان. تمتد الحدود، وهي خط دوراند، على طول حافتي سلسلة جبلية مرتفعة تغطي قمتها الثلوج التي تغذي الأنهار التي تروي وديان نانغارهار الجافة[1].

عندما زرت المنطقة أوائل سبتمبر 2006 كانت تمر بدورة سيئة جدا من الجفاف. وكما اكتشفت الأمم المتحدة من إحصاء أجري قبل أربع سنوات، كانت الآبار تجف خلال معظم العقد الأخير، مع معاناة أفغانستان من «أقسى

حالة جفاف في الذاكرة الحية»[2]. يربط العلماء هذا الجفاف بالتغير المناخي، وعلى الخصوص بارتفاع درجة الحرارة في الجبال، وانخفاض بسيط في كميات الهطول.

حل الجفاف في نانغارهار أخيرا في العام 2010 عندما مرت رياح مونسـون بحر العرب الضخمة التي أغرقت نحو 20 في المائة من باكسـتان على طول خط دوراند. في باكسـتان قدرت الأمم المتحدة أن نحو 2000 شخص ماتوا، واحتاج 14 مليونا إلى مساعدة إنسانية، وفقد 2.4 مليون هكتار من المحاصيل، ودمر أو تخرب 1.9 مليون بيت، وأصبح أكثر من 7 ملايين شخص من دون مأوى. ربما كان الأسوأ أن الفيضانات دمرت 50 سـنة من البنى التحتية. قدر الإجمالي الاقتصادي للخسـائر بـ 43 مليار دولار[3]. وبحلول العام 2011 سيطر سوء تغذية خطير على منطقة الفيضانات.

في أفغانسـتان ضرب جانب من نظام الطقس نفسـه عـدة مقاطعات شرقية، بما فيهـا نانغارهار، التي كانت على أطراف امتداد الرياح الموسـمية. نموذجيا، فإن شهر أغسطس في نانغارهار جاف جدا بهطول أقل من 5 مم للشهر بأكمله[4]. لكن في تلك السـنة فتحت أبواب السـماء، وجرفت الأمطار الضخمة المحاصيل والماشية و2500 منزل وقتلت 80 شخصا.

وبحسـب التقارير الأمنية فإن نانغاهار ليست الأمطار جافة أو مغمورة بالمياه فقط، لكنها تشـتهر بالعنف أيضا: سـجلت 23 حادثة معظمها متعلقة بقتال خلال الأسـبوع الذي زرتها فيه خلال شهر سـبتمبر 2006. وفقا لمكتب الأمن الأفغاني غير الحكومي ANSO، شهد ذلك الأسبوع تهديدات بالخطف وعمليات مستمرة لمكافحة التمـرد «وتقريرا عـن تغلغل مجموعة جديدة من المتمرديـن» مؤلفة من «العرب والشيشـان والباكستانيين»؛ وشوهدت عربتان اسـتخدمتا من قبل «عناصر مسلحة من طالبان» في مقاطعة شـيرزاد، وحصلت هناك عدة هجمات بالصواريخ. وصفت تقارير مكتب الأمن الأفغاني ANCO المنطقة باعتبارها خارج سيطرة الحكومة.

وحدهـا تجارة المخدرات أبقت هذه المنطقة مسـتقرة اقتصاديا، لكن التهديد بمنع زراعتها كان حاضرا دوما، وإن كان في الأغلب بعيدا. وصف المزارع وزير رعب المزارعـين المحليـين عندما جاءت فرقة لمكافحة زراعة الأفيـون من كابول. «جاءت حملة مكافحة المخدرات، لكنها اكتفت بأخذ الرشـوة»، قالها وزير ونحن نجلس في ديرتـه dera، وهي منطقة مظللة مخصصة لزيارة الضيوف خارج البيت، على أسرة

من الحبال والخشـب تدعى تشارباي. «عندما سمعنا أنهم آتون إلى هنا، ذهبنا إلى حاكم المقاطعة وفاوضناه على سعر». أخبرني وزير أن القائد المحلي، واسمه هاسيل، اختير كممثل للمزارعين. بعد قبض الرشوة، ومن أجل التقاط الصور، أتلفت الشرطة بعض حقول الأفيون القديمة الجافة والتالفة.

«لو لم يقبل الحاكم الرشـوة لكنا مسـتعدين للقتال. إذا فقد المـزارع أفيونه فلن يستطيع الحصول حتى على السكر والشاي. سوف يقترض المال من شخص غني، وسوف يفقد أرضه». قال وزير إن معدل فوائد قروض الطوارئ تصل إلى 100 في المائة.

الضغـوط البيئية التي كانت عاملا أوليا في عدم اسـتقرار أفغانسـتان أصبحت تغـذي العنـف الآن. هذا ما يبدو عليه التجمع الكارثي مـن الفقر والعنف والتغير المناخي في أفغانسـتان: تربة مجروفة ومياه شحيحة وشرطة جشعة وقوات أجنبية وغضب جماهيري وتمرد يحمي محاصيل الأفيون من الإزالة.

دور الجفاف

في العـام 2008 أصـدرت الحكومـة البريطانية تقريرا يصف ما سـيفعله تغير المناخ في أفغانسـتان. «ترتبط التأثيرات السـلبية الأكثر احتمالا.. بالجفاف، وتشمل ديناميكيـات مرتبطة بـه كالتصحر وتدهور التربة. من المحتمـل أن يعتبر الجفاف حالـة طبيعية بحلول العام 2030، بدلا من أن يكـون حادثا مؤقتا أو دوريا.. وتأتي الفيضانات غـير المنتظمة، والزيادة العامة في درجات الحرارة في الدرجة الثانية من حيث الأهمية. لكن تأثيراتها قد تتضخم بسبب ذوبان أكبر وأسرع للثلوج في الربيع نتيجـة ارتفـاع درجة الحرارة، بالإضافة إلى تأثيرات مصـب النهر على تدهور التربة وانحسار الغطاء النباتي وسوء إدارة الأراضي»(5).

اقـرأ تاريخ الحـرب الأفغانية بعمق، وسـتتضح زاوية المناخ فيه. تعاني آسـيا الوسـطى من صدمات مائية - دورات جفاف وفيضانـات - توافق نموذج الاحترار العالمي المدفوع من قبل الإنسـان. يعمل ثلثا الأفغان في الزراعة، ومع ذلك فمعظم البلـد صحراء، ونظام الري فيها مخرب جدا. يسـبب الطقـس العنيف الناجم عن التغير المناخي البؤس، والذي يسبب العنف، وهذا يؤدي إلى مزيد من البؤس وهكذا دواليك. من نظرة أولية، فإن أهم سـبب للحرب في أفغانستان هو الوجود الأمريكي

هناك: جاءت الولايات المتحدة وحلفاؤها من الناتو إلى أفغانستان لمطاردة القاعدة والقضاء عليها و/ أو لبناء دولة أفغانية تمنع حضانة الإرهاب الدولي. لكن ومن ناحية أخرى، تحارب الطالبان لطرد المحتلين الكفرة.

لكن كانت هناك حرب في أفغانستان قبل أن تتدخل الولايات المتحدة بشكل سري، حتى قبل أول تدخل أمريكي سري تحت رئاسة جيمي كارتر العام 1979. كانت هناك حرب حتى قبل التدخل السوفييتي في ديسمبر في العام 1979. ترجع بواكير جذور الصراع الحالي من نواح عدة إلى انقلاب في العام 1973 بقيادة الجنرال محمد داوود خان ضد الملك محمد ظاهر شاه. وضمن قصة انقلاب داوود يقبع عنصر من ضحية مخفية ناجمة عن المناخ.

صحيح إن التعصب الديني والكره العنصري والطموح الاستعماري هي أدوات حركت العنف بشكل كبير، لكن تغير المناخ أيضا يغذي الصراع في أفغانستان. أولا، بدأ العنف نتيجة لجفاف حدث منذ أربعين عاما. وثانيا، خلق الضغط المناخي الفقر واليأس اللذين يغذيان التمرد ضد احتلال الناتو الآن. وثالثا، يسبب تغير المناخ تنافسا بين الدول يظهر على شكل عمليات غير مباشرة داخل افغانستان. وأخيرا وبشكل مهم جدا، فنبات الأفيون مقاوم للجفاف، بينما المحاصيل البديلة غير مقاومة له، والناتو يهاجم الأفيون بينما تدافع طالبان عنه. دعنا نبدأ القصة بالجفاف والانقلاب الذي أطاح بالملك ظاهر شاه.

ملك في إجازة

في العام 1969 فشلت الأمطار في أنحاء كثيرة من أفغانستان بشكل كامل. وخلال العامين التاليين فشلت مرة أخرى. ثم جاء شتاء قاس جدا، وللبقاء اضطر العديد من المزارعين إلى أكل بذورهم وذبح ثيرانهم، مما ترك لهم القليل لزراعته، والقليل من الحيوانات لجر المحاريث. ونتيجة لذلك كان محصول العام 1972 من القمح غير كاف، وبحلول أبريل اجتاحت المجاعة شمال أفغانستان ووسطها. وبحسب راجا أنور كانت تلك «أسوأ مجاعة في التاريخ الأفغاني»[6].

كانت مقاطعة غور في المنطقة الداخلية النائية من البلد الأشد تضررا. منذ آلاف السنين كانت المنطقة مغطاة بالغابات بكثافة. لكن تلالها أيضا احتوت

على رواســب معدنية، لذا قطعت أشـجار غور وحرقت لصهر الخامات المحلية. ثم أصبحت المنطقة المعراة قلب صناعة القطيع في أفغانســتان في العصور الوســطى، لكن الأبقار والماعز والأغنام دمرت الأراضي. والآن تبدو غور أشــبه بســطح القمر - جرداء تماما. فقط على طول النهر وأحواض الجداول تصبح الزراعة ممكنة. بالنسبة إلى معظــم الناس، كانت أكم نبات المريمية الصغــير التي تجمع خلال الصيف على التلال البعيدة هي المصدر الوحيد للوقود(7).

كان عبد الحق واليه محرر صحيفة محلية تدعى كارافان (القافلة)، أول صحافي يعلــن عن قصة المجاعة في العام 1972. ســافر إلى تشــاغتشران العاصمة الصغيرة المغبرة لمقاطعة غور، وهناك اكتشــف مشهدا مخيفا: الجثث تملأ الشوارع، والباقون على قيد الحياة لم يكونوا قادرين على حفر القبور بسرعة كافية لمنع الكلاب، وأعداد من الأطفال تخلى عنهم آباؤهم لأنهم لم يعودوا قادرين على إطعامهم، أو يُتِّموا لأن آباءهم ماتوا من الجوع.

الصحافي التالي الذي قام بزيارة الإقليم كان جيمس ســتيربا من جريدة نيويورك تايمــز. رفض محــررو ســتيربا في المكتب الخارجي نــشر قصته لأنهــا لم تحتو على إحصاءات كافية. كم عدد الأشــخاص الذين ماتوا؟ حاول أن يشرح أن أفغانستان لم تكن بلدا تجرى فيه الإحصاءات، إذ لا أحد يعلم حتى عدد ســكانها حيث اختلفت التقديــرات بنحو 5 ملايين في أي اتجاه. أخيرا أرســل ســتيربا 3 لفــات من فيلم قام بتصويره في غور. لم يكن من الممكن إنكار الفظاعة الآن، ونشرت التايمز قصة ستيربا حول الأطفال المتروكين من المجاعة. هنا مقتطف منها: «تهالك جسم الصبي النحيل ببــطء على الطريق الترابي المملوء بالحجارة. خفض رأســه نحو الحصى مريحا خده الغائرة على يده. شفتاه الجافتان والمتشققتان لم تغلقا. حاول أن يغطي قدمه، لكن الخرق الوسخة الممزقة التي كان يلبسها لم تكن واسعة بما يكفي. وضع علبة فارغة من التنك هي كل ما كان يملكه بالقرب من معدته. ثم انخرط في البكاء»(8).

وبينما جاع الآلاف حتى الموت في الجبال، لم يقل، أو يفعل، ســوى القليل حول المشكلة في كابول. وكما ذكر أحد التقارير «لم يقتل الناس المصابون بالجفاف بحسب نظر الأفغان والملاحظين الأجانب بسبب الافتقار إلى الطعام في منطقتهم فقط، لكن بسبب الإهمال الحكومي وفساد الموظفين وجشعهم»(9).

تولى الملك محمد ظاهر شاه السلطة في العام 1933 وهو في سن التاسعة عشرة عندما اغتيل والده. ولكونه صغيرا وضعيفا وغير مهتم بمصائب شـعبه، هيمن عليه أعمامـه وأبناء عمومته، حيث حكموا واسـتخدموا الملك الشـاب كزينة احتفالية، ومفتاحا للقصر. من هذه الترتيبات برز نمط غير كفء وسلبي من الحكم، لكن مع نضوجه مارس ظاهر شـاه سلطة أكبر. في العام 1964 أنشأ مجلسا تشريعيا منتخبا، لكنه كان غير فاعل، وسـيطر عليه الإقطاعيون وعلماء الدين وزعماء القبائل الذين جعلتهم محافظتهم يعارضون بشـدة أي تحديث[10]. كانت الأحزاب السياسية غير شرعيـة. كان الجمود المضحك تقريبا والركود هما السـائدان. خلال العام 1970 لم يصدر تشريع واحد. وشهدت السنوات الأخرى إصدار مشروع واحد أو اثنين أصبحا قانونين[11]. بقيت أفغانستان منعزلة وراكدة اقتصاديا ومتخلفة وفقيرة وغير منظمة سياسـيا. انتخبت خمس حكومـات، وانهارت كلها في أقل مـن عقد. تأخر مشروع للتنميـة مقدم مـن ألمانيا الغربية بقيمـة 10 ملايين دولار كمسـاعدة في المجلس التشريعي لمدة ثلاث سنوات من دون أي فعل.

وبينـما تحول الجفاف إلى مجاعة، عاش الملك ومجلسـه التشريعي الصغير المفعم بالمشـاحنات في عالم خيالي. عندما أطلقت جهود الإغاثة أخيرا جعلها الفسـاد من دون قيمـة - مجرد مشروع آخر لسرقة الشـعب. في تشـاغتشران في قلـب المجاعة، هاجم المزارعـون الغاضبون والجائعون مبنى للحكومة[12]. وفي هذه الأثناء وصل غليان أواخر السـتينيات إلى كابول، ونزل طلاب الجامعة إلى الشوارع، وتعاركوا بعضهم مع بعض في الحرم الجامعي - شـيوعيون مقابل إسـلاميين، وماويون ضد سـتالينيين، والجميع ضد سبيرو أغنيو(*) الذي توقف هناك في زيارة له العام 1970[13]. من بين هؤلاء الناشطين برز الرجال الذين سيقودون الحكومة الشيوعية، والمجاهدون في الثمانينيات.

لم تحـدث هـذه الاحتجاجات الطلابية بسـبب الطقس، أو المنـاخ، أو معاناة الفلاحـين، لكنها كانـت ذات صلة بكل ذلك. خاصة مع بـدء موت المزارعين حيث أصبحت المجاعة في الريف رمزا صارخا لعدم كفاءة الملك وبعده عن الأمة.

بحلـول صيف العـام 1973 كان البلد في عامه الثالث مـن الجفاف والمجاعة. كان حصاد القمح مرة أخرى سيئا جدا. أظهر فيلم محلي صنع في ذلك العام مزارعا

(*) نائب الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون. [المحررة].

أفغانيا يشرح المتاعب: «كانت السنتان السابقتان قاسيتين. لا يمكن لأي انسان أن يفسر إرادة الله. لم تهطل أي أمطار، والكثير جائعون. نستيقظ باكرا في هذا المناخ الحار. لدينا الشاي والخبز، ونعمل حتى الرابعة بعد الظهر»[14].

كتبت النيويورك تايمز: «كان هناك سخط كبير في أفغانستان على جهود الحكومة للتعامل مع المجاعة التي أتت نتيجة ثلاث سنوات من الجفاف. يقال إن أكثر من 80 ألف شخص ماتوا من المجاعة»[15]. ويصفها تقرير آخر للنيويورك تايمز بهذه الطريقة. «لا أحد يعلم كم عدد سكان أفغانستان - تتراوح التقديرات بين 9 و17 مليونا - ولا يوجد على الإطلاق أي إحصاء لعدد الناس الذين ماتوا من المجاعة»[16]. كان الملك في هذه الأثناء في إجازة في منطقة الينابيع المعدنية في جزيرة إسكيا مقابل شاطئ نابولي. كما تبين، فقد دامت إجازته 40 سنة تقريبا.

انقلاب المجاعة

في 17 يوليو العام 1973 حدث أخيرا شيء ما. استولى الجنرال محمد داوود خان ابن عم الملك وصهره على السلطة في انقلاب. تحدثت التقارير عن قتل ثمانية أشخاص في قتال ناري صغير بين الشرطة الموالية للملك، والجنود التابعين لداوود[17]. كان داوود الأصلع الرأس أقرب مستشاري ظاهر شاه خلال معظم فترات الخمسينيات والستينيات. وكرئيس للوزراء خلال تلك السنوات فقد حكم البلد نيابة عن الملك. كان داوود محبا للتحديث، وغازل كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي لبناء طرقات وسدود ومدارس ومصانع. لكن في العام 1963 نحى ظاهر شاه داوود جانبا.

ما إن عاد داوود إلى السلطة حتى أعلن الأحكام العرفية وألغى الملكية وأنشأ جمهورية رئاسية ونصب نفسه رئيسا لها. خلال أيام من الانقلاب انخفضت أسعار المواد الغذائية. اعتقل أعداؤه وأحيانا قتلوا وغالبا أبعدوا [18]. وكوطني بشتوني متحمس ووحدوي، اعتبر داوود الحدود الباكستانية - الأفغانية واقعا غير شرعي فرضته الدول الاستعمارية. وبرسمها في العام 1893 من قبل الديبلوماسي البريطاني مورتيمر دوراند، فقد اقتطع الخط المدعو باسمه قطعا ضخمة يهيمن عليها البشتون من أفغانستان الملكية (بما في ذلك العاصمة الشتوية بيشاور) وضمها إلى الهند البريطانية. بعد العام 1947 أصبحت تلك الأراضي جزءا من باكستان.

كرئيس للجمهورية بدأ داوود يثير غضب باكستان، ويتكلم عن بشتونستان الكبرى[19]. أنشأ معسكرا لتدريب المتمردين البلوش خارج قندهار لإثارة المشاكل عبر الحدود مع باكستان. وشجع الوطنية البشتونية داخل باكستان[20]. بعد ذلك ستتصرف أفغانستان تحت الحكم الشيوعي بالطريقة نفسها. على سبيل المثال، قامت بحماية ودعم كتائب الرعب الحمراء ذي الفقار لمرتضى بوتو، التي حاولت الاطاحة بالديكتاتور اليميني الجنرال محمد ضياء الحق الذي حكم باكستان من 1977 إلى 1988[21].

لا حاجة للقول إن باكستان لا ترى ادعاء أفغانستان على جزء من أراضيها شرعيا، ورحبت بالمتشددين الإسلاميين في أفغانستان حالما جاء داوود إلى السلطة، وقامت بتدريبهم. بدءا من 1973 دعمت باكستان قلب الدين حكمتيار، وحزبه الإسلامي. أصبح هذا الحزب بعد ذلك ضد السوفييت، وقوة للمجاهدين المتمركزين في باكستان، وتحالف مع طالبان منذ العام 2005.

منذ نشوئها حاولت طبقة الضباط الباكستانيين إبقاء أفغانستان ضعيفة، بحيث تقدم «عمقا إستراتيجيا» أو مساحة للتراجع في حالة نشوب حرب كبرى مع الهند. على طرفي الحدود بين باكستان وأفغانستان يعيش البشتون. في أفغانستان كان البشتون دوما العنصر الحاكم، لكنهم كانوا في باكستان أقلية كبيرة وفقيرة ومتمردة تمثل نحو 16 في المائة من السكان. آخر ما تريده باكستان هو أن يتصل البشتون المقيمون ضمن حدودها مع أفغانستان قوية ومجاورة يحكمها البشتون، ومتحالفة مع الهند أو أن يصبحوا أداة لها.

ضمت الحكومة الجمهورية الجديدة لداوود عناصر متعارضة من الشيوعيين في حزب الشعب الديموقراطي في أفغانستان PDPA، وإسلاميين ناشطين سياسيا. هيمن كل فريق من الميول الثورية الحمراء والخضراء هذه على الحرم الجامعي لجامعة كابول. في نمط مميت يذكر بالرئيس قاسم في العراق ورجال التحديث الأقوياء الآخرين، حاول داوود أن تلعب القوى المتعارضة بعضها ضد بعض، مستخدما مزيجا من التعاون السياسي والقمع. كان لحزب الشعب الديموقراطي PDPA مراكز في الحكومة، لكن داوود قمعها أيضا. لكن عملية إحداث التوازن هذه لم تدم طويلا.

ثورة ساور

في أبريل 1978 أطاح فريق من حزب الشعب الديموقراطي بداوود في انقلاب، بادئين بذلك ما دعي بثورة ساور، على اسم شهر أبريل الذي حدثت فيه.

كان الحزب الشيوعي الأفغاني غير فاعل ومنقسما ومشبعا بالعقيدة. على الفور بدأ حزب الشعب الديموقراطي PDPA بالهجوم على أتباعه. كما أجرى إصلاحات زراعية بنية طيبة، لكن بتخطيط سيئ، حيث ألغى إقراض المال من التجار، لكنه لم يقدم للمزارعين بنية بديلة. فرضت قوانين جديدة أخرى المساواة في الجنس والتعليم العام وحقوق العمال، لكن الاندفاع صوب الحداثة لم تحتمله الثقافة الريفية المحافظة جدا في أفغانستان. في أبريل 1979 ثارت الفرقة العسكرية في هواة. وبحلول الخريف تفكك الجيش الأفغاني تقريبا.

منذ الخمسينيات كانت أفغانستان رابع أكبر متلق للمساعدات السوفييتية. قاتل السوفييت الثوار المسلمين الذين استعملوا أفغانستان الضعيفة قاعدة لهم حتى منتصف الثلاثينيات[22]. بعد الحرب العالمية الثانية رأى الاتحاد السوفييتي أن الاستقرار في آسيا الوسطى يعتمد على الاستقرار في أفغانستان وعلى العلاقات الودية معها... لذا ضخ مقادير ضخمة من المساعدات إلى الجارة جنوب آمو داريا(*). وبمراقبة انهيار أفغانستان في العام 1979، واجه السوفييت خسارة دولة تتعامل معهم، وإمكانية عودة تمرد إسلامي يمتد إلى جمهورياتهم في آسيا الوسطى. وبغض النظر عما إذا كان السوفييت اجتاحوا أفغانستان أم دعوا إليها، فقد قاموا بعد ذلك بقتل حفيظ الله أمين الرئيس المتطرف لحزب الشعب الديموقراطي PDPA الذي استدعاهم، ونصبوا مكانه المعتدل ببرك كارمل، ومع ذلك بدأت الحرب.

نظرت الولايات المتحدة إلى التدخل على أنه خطأ سوفييتي كبير، وبالتالي فرصة لها. بدأت الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية بسرعة في تقديم 8 مليارات دولار مساعدات للمجاهدين المتمركزين في باكستان والمدعومين منهما، والذين كانوا يقاتلون لإسقاط حكومة حزب الشعب الديموقراطي PDPA [23].

عندما استولى المجاهدون في النهاية على السلطة في العام 1992 بدأوا مباشرة في قتال بعضهم بعضا، مدمرين نصف مدينة كابول في هذه العملية. من الحرب الأهلية

(*) نهر جيحون. [المحررة].

بـــرزت طالبان كقوة لفرض النظام والقانون. عندما أمنت طالبان الطرقات فازت بدعم مافيا النقل الباكستانية، ثم وكالة الاستخبارات الباكستانية. وعندما طرد أسامة بن لادن من الســـودان وجد ملاذا عند نظام طالبان. وبحلول 11 ســـبتمبر العام 2001 تحكمت حركة طالبان في معظم أفغانستان، وبالتالي أعد المشهد للحرب الدائرة حاليا.

جفافستان

يرى باحثـــون في الحكومة البريطانيـــة ارتباطا بين الاحـــترار العالمي والصراع في أفغانســـتان. يلاحظون كيف أن الســـجلات منذ العام 1960 تظهر ارتفاع متوســـط درجة الحرارة الســـنوي في أفغانســـتان بمعدل 0.6°م، بينما هبط متوســـط الهطول بنحـــو 2 في المائـــة كل عقد[24]. الأهم من الأمطار هـــو القمم الثلجية. خلال معظم العام يحافـــظ ذوبان الثلوج على تدفق ثابت للماء في الأنهـــار والجداول والقنوات التي تغذي المزارع على أراضي أفغانستان الجافة والحارة جدا.

تمثـــل المياه من الذوبان نحـــو 70 في المائة من حجم مياه نهر كابول في الفصل الجـــاف. يجري نهر كابـــول غربا خلال نانغارهار ويدخل باكســـتان وينضم إلى نهر السند الذي يجري جنوبا إلى البحر.

في مدينة كابول تبدو مشـــكلة النهر واضحة للعيان. من خلال سحب من الغبار المثار بالرياح، يرى المرء أن نهر كابول – وهو مصدر ضروري للماء لســـكان المدينة البالـــغ عددهـــم ثلاثة ملايين – قد تقلـــص إلى أكثر بقليل من مجـــرد تنقيط خلال الأوســـاخ. في أوقات عدة خلال السنوات العشر الســـابقة كان جافا تماما[25]. أوصل العقد الأخير من الجفاف الزراعة في أفغانســـتان إلى أكبر المســـتويات انخفاضا لها. يعمل نحو 80 في المائة من الأفغان في الأرض، لكن كما ذكر تقرير حكومي بريطاني بعنوان «التأثيرات الاقتصادية - الاجتماعية لتغير المناخ في أفغانستان» فإن «معظم المزارعين الأفغان غير مكتفين ذاتيا حاليا في إنتاج الحبوب حتى في السنوات الجيدة». ويذكر تقرير المكتـــب البريطاني للتنمية الدولية: «يتعرض القطاع الزراعي لدرجات حرارة متزايدة، ولتغيرات في أنماط الهطول، ولذوبان الثلوج عاليا. تؤثر زيادة التبخر مـــن التربة، وانخفاض تدفـــق الأنهار جراء ذوبان أبكر للثلـــوج، وقلة الأمطار خلال ذروة الفصول الزراعية كلها، على الإنتاجية الزراعية ووفرة خيار المحاصيل»[26].

كان شـتاء العام 2010 مرة أخرى «دافئا وجافا» بشكل غير عادي، مثيرا الخوف من أن الجفاف «يمكن أن يتسـبب في ندرة الغذاء، وينسـف محاولات منع زراعة الخشـخاش، ويفاقم المسائل الأمنية». عبر الجبال في أواسط أفغانستان كان الغطاء الثلجـي من 4 إلى 12 بوصة فقط، بالمقارنة بالمعدل العادي الذي يصل إلى 6 أقدام. ناشد الأئمة الناس أن يصلوا من أجل هطول الأمطار[27].

لاحظ تقرير من أبريل العام 2010 أن «سـقوط أمطار أقل من المتوسط ضرب الإنتاج الزراعي شرق أفغانسـتان وشمالها الشرقي، حيث جفت بعض الحقول التي تتغذى بالأمطار». شرح حميد الله وهو مزارع من نانغارهار الوضع: «زرعت القمح في أرضي»، لكنه فشـل بسـبب قلة الأمطار. «قال مزارع آخـر في مقاطعة مجاورة: «أنفقت 70 ألف دينار أفغاني (1450 دولارا) على بذور القمح والبصل، لكن مزارعي جفـت». في ربيع العـام 2010 ضرب الجفاف 12 من مقاطعـات نانغاهار الـ 23. توسـل المزارعون في طلب المسـاعدات الغذائية، والمعونات للري. ثم في مايو أفسح الجفـاف الطريق لأمطار غزيرة مفاجئة عبر أجزاء من وسـط أفغانسـتان وشرقها. جرفت الفيضانات الخاطفة المحاصيل والماشـية والتربة السـطحية، وهجرت آلاف الناس وقتلت العديد منهم[28].

كان هذا مجرد مقدمة. جلب أغسـطس فيضانـات فجائية وغير متوقعة أكثر. «بعد ضرب باكسـتان، عبر هذا النظام المناخي الحدود إلى أفغانستان»، كتب مقدم نشرة الطقس في الجزيرة. «تحرس الجبال العالية إلى الجنوب البلد عادة من الرياح الموسـمية الجنوبية الغربية بالكامل. وهذا هو أكثر الأوقات جفافا عادة، ولا تهطل أي أمطـار بين شـهري يونيو وأكتوبر... لكن الجبال سـاعدت قليلا. هطلت معظم الأمطار فوق باكستان... وشهدت بيشاور أكثر مما تتوقعه في عام بأكمله»[29].

زهرة رحيمة

في وجه الجفاف والفيضانات يجلب أحد المحاصيل أمنا نسـبيا. إنه خشـخاش الأفيـون. لماذا؟ الجـواب المعتاد هو أن المخـدرات تجلب أسـعارا أعلى بكثير من المشـمش والزبيب أو القمح. لكن اعتبر هذا: يستخدم الخشخاش فقط سدس الماء الـذي يحتاجه القمح. يمكن لهـذه الحقيقة وحدها أن تفسر تجـارة المخدرات في

المناطق المصابة بالجفاف في أفغانستان. إضافة إلى ذلك، على الرغم من أن أسعار الحبوب ارتفعت كثيرا منذ العام 2008، فإن الخشخاش ما زال يجلب دخلا أكبر من القمح[30]. تنتج أفغانستان نحو 90 في المائة من الأفيون في العالم، ويقدر أن اقتصاد الأفيون يشكل نحو نصف حجم الناتج المحلي الإجمالي في أفغانستان. المقاطعة الأفغانية التي تنتج معظم الخشخاش هي نانغارهار المصابة بالجفاف والفيضانات حيث يعيش المزارع وزير.

على الرغم من كونه مقاوما للجفاف وغالي الثمن، فإن الخشخاش مع ذلك محصول غير قانوني. هوجم من قبل الناتو المحتل، وحكومة حميد قرضاي، لكن طالبان دافعت عنه. لذا فزراعة الخشخاش المدفوع بالجفاف عامل إضافي يدفع المزارعين إلى تأييد المتمردين. وكما شرح أحد الصحافيين: «من المحتمل أن يجعل حصاد سيئ، خاصة إذا ترافق مع افتقار إلى المساعدات الغذائية، النقود التي تقدمها طالبان لمقاتليها أكثر جاذبية، وينسف الدعم للحكومة المركزية التي ينظر إليها الكثيرون على أنها بعيدة وفاسدة»[31]. حاججت اللجنة الدولية حول الأمن والتنمية (سابقا لجنة سينليس) بأن حملات مكافحة الأفيون التي تقودها الولايات المتحدة كانت «السبب الأهم الذي حول الأفغان ضد الأجانب»[32].

يؤدي الجفاف والفيضانات إلى مزيد من الفقر. يغذي الفقر الشعور بالظلم واليأس بين الناس، ويخلق طوابير من الشباب العاطلين والعازبين. ينجرف عمال المزارع المعوزون - غير القادرين على دفع مهر العروس، أو شراء أرض، أو العثور على عمل - إلى صفوف طالبان، ويصبحون هدفا لطائرات درون الأميركية، والوقود البشري للحرب.

وكما شرح أحمد رشيد: «فشلت الولايات المتحدة والناتو في استيعاب أن طالبان لا تنتمي إلى أفغانستان أو باكستان، لكنهم سكان محرومون جاؤوا من مخيمات اللاجئين، والمدارس العسكرية، وعدم توافر الفرص في المناطق الحدودية بين أفغانستان وباكستان. لم يكونوا مواطنين حقيقيين لأي من البلدين، ولم يعيشوا المجتمع البشتوني القبلي التقليدي. وكلما طال أمد الحرب، أصبحت طالبان وبيئتها عبر الحدود أكثر تجذرا واتساعا»[33].

يمكننا أن نضيف أنه كلما استمر تغير المناخ من دون تخفيف لأسبابه، ومن دون تكيف مع تأثيراته، أصبحت بيئة طالبان الألفية(*) عديمة الجذور أكثر سوءا. في هذا الخصوص فإن اقتصاد الأفيون والدفاع المسلح عنه هما آليتان محليتان للتكيف مع تأثيرات تغير المناخ.

النسغ اللزج

«منذ ثلاث سنوات لم نكن نزرع الكثير من الخشخاش»، قال مضيفي وهو مزارع محلي ومقاتل سابق من المجاهدين. «الآن كل شخص يزرعه، حتى رئيس الشرطة. غدا سأجلب لك بعضا منه».

كيف عملت تجارة الخشخاش خلال الحرب وكيف تناغمت معها؟ في العام 2004 سافرت إلى وردك، وهي مقاطعة على بعد ساعة من كابول. استردت العصابات وردك، لكنها في ذلك الوقت كانت لا تزال في أيدي الحكومة. تبدو وردك مثل نيوميكسيكو: وديان خضراء بأشجار حور متفرقة، وتجمعات لبيوت ذات جدران من اللبن، تقبع خلف الطريق. تطل على هذا كله جبال ضخمة جرداء، وسماء زرقاء. ذهبت إلى وردك مع المصور تيرو كواياما ورجل ندعوه مصطفى قدمنا إلى عائلته أو على الأقل إلى أقاربه من الذكور. (من عادات البشتون أن تحتجب النساء بعيدا عن أعين الرجال الغرباء). جلسنا في غرفة جلوس مفروشة بالسجاد في الطابق الثاني. هذه الغرفة التي أكلنا ونمنا فيها تقع بعيدا بشكل آمن عن غرف العائلة. كان مضيفونا رجالا غلاظا ملتحين، قاتل العديد منهم مع المجاهدين بقيادة قلب الدين حكمتيار خلال الثمانينيات والتسعينيات. عاد أحدهم لفوره من إيران حيث عمل في معمل لصنع أقماع البوظة. كان على وشك الزواج من امرأة لم يرها منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها، وكان يكبرها بسنوات قليلة. كانت العائلة كلها تستعد لليوم الكبير، لذا تحولت رحلتنا خلال عطلة الأسبوع إلى حفلة، مع الكثير من الأكل والشاي والشراب وتدخين السجائر والضحك ولعب القمار بمراهنات عالية طوال الليل.

شرح أحد الرجال أن جفافا قويا كان في عامه السادس آنذاك، دمر المحاصيل الأكثر تقليدية لمنطقة وردك كالعنب والتفاح والقمح. كان الخشخاش المقاوم

(*) يقصد بها هنا الاعتقاد بالألفية أو بنهاية العالم بعد ألف أو ألفي عام. [المترجم].

للجفاف هو كل ما تبقى لهم. «كل واحد هنا يزرع الخشخاش» قال مزارع يدعى نظير ويدعوه أقرباؤه مازحين بـ «السيد القاعدة» بسبب لحيته وقبعته على طراز طالبان.

لم يكن ازدهار زراعة الخشخاش مقتصرا على وردك. فعبر أفغانستان كلها عادت زراعة هذا المحصول بسبب الجفاف إلى حد كبير. يعتقد باحثو الأمم المتحدة أن 1.7 مليون من سكان أفغانستان البالغ عددهم 28.5 مليون يعملون مباشرة في زراعة الخشخاش، ويعمل كثيرون آخرون في التصنيع والنقل وإقراض المال وتبييضه والنشاطات الأخرى المرافقة. ويفرض أمراء الحرب الضرائب على المزارعين والموزعين أيضا، وبفضل سياسة حامد قرضاي المتساهلة يمتلك العديد منهم الآن مواقع رسمية في الدولة، مما يسهل استغلالهم لاقتصاد المخدرات بشكل أكبر.

لكن طالبان تستفيد أيضا. فهم أولا يفرضون الضرائب على تجارة المخدرات، كما يفعلون بالنسبة إلى أشكال التجارة كلها. وهم ثانيا لا يقومون بإتلاف محاصيل الخشخاش. وفي مناطق موالية لهم لا يقلق المزارعون بشأن إتلاف المحصول والإساءة والرشوة اللتين تترافقان معه.

في وردك مع مضي الليل وتناول العشاء ثم الشاي ثم لعب الورق والاطلاع على صور أكثر، أصبح الرجال أكثر راحة، وشرحوا تفاصيل صناعة الأفيون. «الخشخاش رخيص للزرع. يمكنك الحصول على البذار في أي سوق»، أخبرني ماهيد وهو محارب قديم فقد ساقه عندما داس على لغم أرضي في التسعينيات. للخشخاش فصلان في وردك، إما في مناخ أشد حرا أو أكثر برودة، فليس من الممكن الحصول سوى على فصل واحد. المحصول الأول الذي يزرع في مارس ويحصد في يونيو ويوليو هو الأفضل دوما. من أنواع الزهور الثلاثة - الأحمر والأبيض والقرمزي - فإن الأبيض هو الأفضل.

«بعد أن تزرع الخشخاش وترويه بالماء يبرعم خلال 15 يوما»، شرح السيد القاعدة. «ثم عليك أن تزيل الحشائش من المحصول، وتستمر في ذلك حتى يصبح النبات أكبر من الحشائش. خلال 3 أشهر تزهر. تبرز أكياس البذور وتنمو في البرعم ثم تسقط الزهرة وتستمر أكياس البذار في النمو. ثم نخدش أكياس البذار بواسطة غوزا (مجرفة صغيرة مصنوعة منزليا لها حافة مسننة من ستة أسنان، ليخرج حليب أبيض لزج من الشقوق). يخدش الخشخاش في الصباح، ويجمع النسغ في المساء

عندمـا يصبح أكثر لزوجة وبني اللون. تحصل عـلى القليل من كل زهرة، ثم يصبح لديك كرة، وهذه تجفف لتصبح الأفيون»، قال السيد القاعدة مبتسما.

في معظم أنحاء أفغانســتان يمكن للمزارع أن يحلب كل جراب للبذور حتى 7 مرات. في النهاية يفرغ الجراب ويترك ليجف قبل أن يحصد للزراعة التالية. تستخدم البذور أيضا لصنع الزيوت الصالحة للأكل، وتغلى أحيانا مع الشـاي الذي تستخدمه النساء لتخدير أطفالهن الرضع خلال ساعات العمل الطويلة.

لتوضيـح التأثير الاقتصادي للخشـخاش بدأ الرجل ذو الرجـل الواحدة ماهيد يتحـدث عن قياسـات الأراضي. الواحـدة هنا هي الجيريب (الجـراب) وتبلغ نحو نصـف فدان. يقول الرجـال في وردك إن المزارعين يمكنهم عـادة الحصول على 28 كيلوغراما من الأفيون من 1 جيريب من الأرض. ويمكنهم بيعها مقابل 5 آلاف دولار. في المقابل ربما يكسب المزارع من 1 جيريب من القمح 100 دولار، أو ربما لا يجلب أي نقود على الإطلاق حسب الطقس والأسعار.

في بعـض المناطق يقدم المهربون قروضا يعاد دفعهـا بالأفيون. يبدو أن النظام في وردك أكثر حركة: يقترض المزارعون من أصحاب المتاجر، ويسـددون نقدا عندما يدفـع لهم المهربون. «في السـنوات الثلاث الأخيرة خرجت الكثـير من المزارع من الديون بسـبب الأفيون. لا يمكـن مقارنته بأي محصول آخـر. وفي أوقات الجفاف نحصـل على 10 في المائة فقط من تفاحنا وقمحنا. تسـتخدم هذه المحاصيل الكثير من الماء بالمقارنة بالخشـخاش. والقمح لا قيمة له تقريبا»، قال السيد القاعدة قبل أن يعود إلى عب الورق.

«أصبـح الكثير من قادة طالبان والمجاهدين السـابقين هنا غاضبين من أمريكا بسـبب ما يحدث في فلسـطين والعراق، ولأن الاقتصاد هنا سـيئ»، لاحظ السـيد القاعدة أن «قطع الخشخاش سيجعلهم أشد غضبا».

الخروج من نانغارهار

مع الأسـف أصبحت العلاقات الجدلية بين تغـير المناخ والحرب وتدهور البيئة تدعـم بعضها بعضـا. لخص مايكل رينير مـن معهد وورلد ووتـش (معهد مراقبة الأرض) ذلـك جيـدا: «أزاحت ثلاثة عقـود من الصراعات المسـلحة جزءا كبيرا من

السكان، وأعاقت الوصول إلى الأراضي الزراعية بسبب الألغام، ودمرت العديد من أنظمة الري أو جعلت صيانتها مستحيلة. وإذا أضيفت الفيضانات ودورات الجفاف المتكررة وإستراتيجيات السكان اليائسة للتعامل معها، فإن النتيجة الإجمالية ستكون تدهورا شديدا في البيئة الطبيعية لأفغانستان ومواردها المائية وبناها التحتية الزراعية. أدت إزالة الغابات على نطاق واسع، وأيضا الضغط الشديد على الأراضي الرعوية، إلى حت التربة، ونقص مقاومتها للفيضانات»[34].

الخطاب الرسمي حول مكافحة الأفيون طموح بشكل سخيف بالمقارنة بالحقائق على الأرض. بين الأركان الخمسة لهذه الإستراتيجية يوجد «الإصلاح القضائي» و«بدائل المعيشة». لا يوجد أي منهما هنا. المنظمة غير الحكومية الوحيدة في هذه المقاطعة تقوم بحفر الآبار، لكن وزير قال إن فريق الحفر الفاسد يطالب بأجرة لما يفترض أنه معونة.

مع بدء انحدار الشمس في السماء توجهنا إلى الخارج. في نصف الطريق نحو جلال آباد خرج خمسة رجال مسلحين من وراء الصخور. صوب أحدهم قنبلة مدفوعة صاروخيا أو آر بي جي RPG على شاحنتنا، بينما تقدم آخر إلى الطريق وصوب بندقيته من نوع AK - 47 على الزجاج الأمامي. اقترب رئيس المجموعة وسأل: «هل ما زالت شاحنة الشرطة في القرية؟».

بمصادفة محظوظة مررنا بشاحنة لشرطة الحدود تسير في الاتجاه المعاكس. بسرعة بديهة، أجاب أحد زملائي الأفغان: «نعم، وسيلحقون بنا خلال بضع دقائق». توقف صاحب البندقية ثانية طويلة جدا، ثم سمح لنا بالعبور. افترضنا أن هؤلاء الرجال لصوص محليون، أو ربما من طالبان كانوا يتربصون بنا، لكنهم توقفوا في الدقيقة الأخيرة بسبب مرور شرطة الحدود غير المحسوب. بعد أسابيع تكلم مترجمي واسمه نقيب مع وزير مرة أخرى وأكد أن هؤلاء المسلحين كانوا عصابات محلية بحاجة إلى المال. كانت خطتهم اختطافنا ثم بيعنا لوكلائهم من طالبان. في مواجهة الجفاف والفيضانات والمحاصيل الفاشلة كان من المحتمل أن نكون غنيمة اقتصادية.

10

حرب المناخ الصغيرة في قرغيزستان

عانى الناس وعاشوا أوقاتا صعبة بحيث أصبح من المستحيل الاستمرار على هذا المنوال... زيدت الضرائب على الأراضي، رُفعت أسعار الكهرباء والتدفئة... لا يجد الشباب فرص العمل، إنهم يتسكعون في الطرقات فقط، ونحن بالكاد نعطيهم تعليما.

شينار ماتكريموفا، متقاعدة من قرغيزستان 2010[(1)]

«كان النظام القرغيزي ضعيفا مسبقا قبل أن يدفعه الطقس العنيف إلى الهاوية»

المؤلف

كان الربيع في طريقه إلى قرغيزستان، وكانت البراعم الخضراء والأزهار الشاحبة تندفع للأمام، والسماء الرمادية الجميلة ملبدة بالغيوم. داعب المطر الخفيف العاصمة بيشكك، تاركا الساحات العريضة من الحقبة السوفييتية نظيفة ومنعشة. حمل الهواء الرطب غناء طير من حين إلى آخر، وعبر شوارع المدينة الفارغة.

لكـن الهدوء جـاء نتيجة أزمة وخوف. سرعان ما امتلأت السـاحة العريضة بآلاف المتظاهرين. وكما نقلت «الغارديان»: «قال المحتجون إنهم دفعوا إلى الشـوارع بسبب الارتفاعـات الحادة في أسـعار الخدمـات الاجتماعية كالمـاء والكهربـاء. كانت هذه الارتفاعات القشـة الأخيرة في بلد عانى مسبقا بطالة ضخمة، وفقرا منتشرا»[2]. لاحظت الـ «نيويورك تايمز» أيضا أن الجماهير كانت «غاضبة من ارتفاع أسـعار الخدمات ومن حكومة اعتبروها قمعية وفاسـدة»[3]. قبل أسبوع من بدء الاحتجاجات في أوائل أبريل 2010، أعلنت الحكومة خطة لرفع أسعار الخدمات بـ20 في المائة[4].

لماذا فعلت الحكومة ذلك؟ لأن البلد يعتمد كلية تقريبا على الطاقة الكهرومائية، والدخـل من تصدير الكهرباء، وقد أوقف الجفاف الطويل نفسـه في وسـط آسـيا، والذي كان يعاقب أفغانسـتان وباكسـتان، محطات الطاقة في قرغيزستان، وبالتالي اقتصادها بأكمله. في هذا الخصوص تبين حالة قرغيزستان بشكل متطرف كيف يمكن لتغير المناخ أن يطلق العنف. يشرح هذا الفصل كيف حدثت تلك الأزمة، ولماذا.

الطاقة

تحول الجمهور الذي كان يحتج على ارتفاع الأسعار بسرعة إلى غوغاء ومجموعات مسـلحة، وهاجموا الأبنية الحكومية. دوى صوت إطلاق الرصاص ودوي القنابل في الشـوارع. تطايرت علب الغازات المسـيلة للدموع عبر السـاحة. اندلع اللهب من نوافذ المكاتـب الحكومية. بناء واحد أولا تبعه آخر، ثـم التهمت النيران بناءً آخر. قبـض المحتجون على وزير الداخلية، وضربوه بقسـوة، واحتلوا مركز الأمن الرئيس والتلفـاز الحكومي. بدأت الشرطة بإطلاق الرصاص الحي. أطلق المحتجون النار ردا عليهـم. تقدمت الشرطة ثم تقهقرت.هرب الغوغاء بعيدا ثم ركضوا عائدين. حمل الجرحى والموتى بالسـيارات: قتل 60 شـخصا، وجرح المئات. سريعا كانت المنطقة التجارية الرئيسة في بيشكك تحترق، وبدأت موجة من النهب العنيف المنفلت.

بحلـول أوائل مايو العـام 2010 هرب الرئيس قرمان بيـك باقايف - «مصلح ثورة الخزامى[*]» المؤيد لسياسـة السـوق الحرة والغـرب - إلى بلدته الأصلية أوش

(*) ثـورة الخزامـى أو ثورة التوليب التي بدأت باحتجاجات في مارس 2005 أدت إلى خلع الرئيس عسـكر أكاييف وانتخاب قربان بيك باقايف رئيسا لقرغيزستان في يوليو من العام نفسه. [المحررة].

في الجنوب. استولت المعارضة على السلطة، ووعدت الرئيسة الجديدة السيدة روزا أوتونباييفا بخفض تعريفة الخدمات، وتقديم عون أكثر للفقراء. لكن لم يعد هناك نظام ولا قانون. نصبت الأحياء الحواجز، وشكلت الميليشيات. وسط النهب بدأ العنف العرقي - القرغيز ضد الأوزبك وبعض المعارضين - تحولت المعاناة الاقتصادية للناس وغضبهم من الطبقة الحاكمة الفاسدة بسرعة إلى حقد عنصري. دفعت اغتيالات التطهير العرقي واغتصاباته آلاف الأوزبكيين المذعورين للهرب نحو الحدود - لكن أوزبكستان كانت مغلقة[5]... استدعت الرئيسة أوتونباييفا الجيش الروسي للتدخل، لكن الكرملين رفض[6]. مع الانحسار التدريجي للهيجان، بدت قرغيزستان على شفا تفكك عرقي دموي.

في 10 يونيو اندلع العنف مرة أخرى، هذه المرة في المدينة الجنوبية أوش. تحول قتال صغير بين الأوزبك والقرغيز في صالة للقمار بسرعة إلى مذبحة. هذه المرة اشتركت عناصر قرغيزية من قوى أمن الدولة في تعقب الأوزبك. تاريخيا، كانت البلدات الجنوبية أماكن لإقامة التجار والمزارعين من الأوزبك، بينما كان معظم القرغيز من البدو وشبه البدو يتنقلون مع قطعانهم. لكن التعاونيات الإجبارية في الثلاثينيات أنهت هذا النمط، حيث استقر القرغيز في الوديان وسط الأوزبك. برز التنافس على الماء والأرض. وكما شرح تقرير لمنظمة «هيومان رايتس ووتش»: «أضحت المشاكل أكثر حدة مع نمو السكان. واتخذت الشكاوى حول توزيع الماء والأرض بعدا عرقيا بازدياد خلال حقبة البيريسترويكا والغلاسنوست(*) في منتصف إلى أواخر الثمانينيات، مع نمو الهويات العرقية واللغوية والثقافية»[7]. شهد جنوب قرغيزستان اضطرابات عرقية في التسعينيات خلال فترة تفكك الاتحاد السوفييتي. في العام 1990 حاولت الأقلية الأوزبكية الحصول على الحكم الذاتي والانضمام إلى أوزبكستان المجاورة. حصد العنف العرقي الذي جرى بعد ذلك حياة 1000 شخص. وفي العام 2010، مات أكثر من 350، وترك الآلاف من دون مأوى[8].

... والماء

من الوهلة الأولى، عكست التشنجات المفاجئة من العنف ثورة ضد رئيس فاسد يعمل لمصلحته، وإعادة إشعال فتيل نزاع عرقي قديم، لكن كانت هناك

(*) برنامجا الإصلاحات الاقتصادية والسياسية اللذان أطلقهما رئيس الاتحاد السوفييتي ميخائيل غورباتشوف. [المحررة].

قضية بيئية في قلب هذه المشاكل. كانت في الحقيقة التجمع الكارثي الذي تجلَى على شـــكل اضطرابات عرقية. في قرغيزســـتان التقت معالجة الاقتصاد بالصدمة الليبرالية الجديدة التي فرضت بعد تفكك الاتحاد الســوفييتي مع الانتكاســات العســكرية السياســية لحروب الوكالة في الحــرب الباردة، ومع الأزمة الناشــئة الناجمة عن التغير المناخي.

كما ذكر ســابقا، كانت الشــكوى الرئيسة للمحتجين في بيشــكك سعر الكهرباء وندرتها، وكان هذا بسبب الجفاف الطويل في آسيا الوسطى. أوقف الطقس الجاف مع الإدارة السيئة محطات الطاقة الكهرومائية في قرغيزستان. من ربيع العام 2008 وبعد ذلك، عانت قرغيزســتان انقطاع التيار الكهربائي المستمر[9]. في بعض المناطق كان الانقطــاع لفترة 10 ســاعات في اليــوم هو المعدل العادي. ثــم في العام 2009 حرّكت قرغيزســـتان الأمور نحو الأسوأ قليلا، بانسحابها من شبكة الطاقة في المنطقة التي بُنيت من قبل الاتحاد السوفييتي[10].

يأتي 90 في المائة من الكهرباء المنتجة في قرغيزســتان من محطات توليد الطاقة الكهرومائية، وأكبر مصدر لها هو السد الكهرومائي في قاعدة سد توكتوغول على نهر نارين. في الواقع فإن محطة طاقة توكتوغول هي الأكبر في وســط آسيا. وكمثال على التحديث السوفييتي بُنيت المحطة بين العامين 1975 و1982 في عز أيام بريجينيف التي تميزت بأســعار النفــط المرتفعة والتي مثلت قمة الازدهار الســوفييتي. لكن الجفاف مع ذلك أدى إلى مســتويات أخفض من الماء في ســد توكتوغول وبالتالي إلى انخفاض في إنتاج الطاقة.

لم يكن الجفاف النوع الوحيد من أشكال الطقس العنيف الذي غذى الأزمة. فقد ســاء شــتاء بارد جدا مع إدارة سيئة وجشــع في إنقاص مستوى الماء بشكل أكبر. شــهد شــتاء 2008 فترة باردة طويلة وعميقة انخفضت فيها درجة الحرارة إلى -31 مئوية أو -25 فهرنهايت، وهي أبرد بمثلين من الحالة الطبيعية. بســبب الجفــاف كانت هناك أيضــا انقطاعات في التيار الكهربائي خــلال الفترة الباردة. وبالتــالي لم تكــن هناك تدفئة أو ماء ســاخن في الكثير من الأماكــن! عبر البلد، تجمــدت الأنابيب، ومــات المتقاعدون، وتوقفــت الصناعة، وهلكت الماشــية، وأغلقت المدارس لمدة شهرين، أُغلق البلد فعلا.

أجـبر البرد القـارس الحكومة على إطلاق كمية أكبر مـن المخطط لها من الماء، كانـت تلك هي الطريقة الوحيدة لتوليد الكهربـاء، وللتغلب على انقطاعات التيار الكهربائي المخربة. ومع ارتفاع أسـعار الطاقة في أسـواق المنطقة، أطلق المسؤولون الفاسـدون كميـات أكبر من الميـاه لتوليد طاقة أكـبر وتهريبها إلى طاجيكسـتان وأوزبكستان وكازاخستان.

كان شتاء العام 2007 الأكثر جفافا منذ بدء بناء سد توكتوغول. وفي العام 2008 تلقـى الخـزان 70 في المائة فقط من التدفق المتوسـط، وانخفض حجمه إلى نصف مسـتواه في العام 2005 [11]. وكما عبر محلل سـياسي محلي عن ذلك: «مستوى الماء أقل من الحد الحرج. لذا فمسـألة الحصول على النور والتدفئة هذا الشـتاء، وفيما إذا كانت الأعمال الصغيرة والكبيرة سـتنمو، تعتمد كلها مباشرة على ارتفاع الماء في الخزان إلى المستوى المطلوب»[12]، لم يتم ذلك.

كضائقة بحد ذاتها كان لانقطـاع التيار الكهربائي تأثير صاعق مخرب على الاقتصـاد بأكمله خالقا البطالة والندرة. مـع إغلاق الصناعة ارتفعت البطالة، وانخفض الطلب، خالقا قدرا أكبر من البطالة. تعتمد معظم الأنشطة الصناعية إن لم يكـن كلها على الكهرباء التي من دونها يبـدأ الاقتصاد بالانهيار. أوضح خباز في بيشـكك هـذه العملية: «لقد أفلسـت عمليا بسـبب انقطاع التيار المتكـرر. في أوقات كثيرة صنعت خلطة العجين لخبز الكعك، لكن عدم وجود الكهرباء أدى إلى إتلافها. سـحبت قرضا في العام الماضي وكانت الأمور في طور التحسن. لكنني عانيت كثيرا انقطاع التيار الكهربائي. كان عليّ أن أدفع فائدة، وفي كل شـهر لم أكن أعلم من أين سـأتدبر المال». وقـال مصنّع ثياب يفتقر إلى الكهرباء إنه يعمل بـ 30 في المائة فقط من قدرة السـنة السابقة «شركاؤنا في العمـل غاضبون منا لأننـا متأخرون في اتفاقيات التسـليم. لا نعرف كيف نستطيع رد قروضنا»[13].

أدى الإنتـاج المنهار إلى نقـص في العائدات الضريبة، مما فاقم من الأزمة المالية في الدولة. الدكتور نور عوماروف أستاذ العلاقات الدولية قي جامعة قرغيز الروسية السلافية حلل الوضع بدقة عندما أخبر صحافيا: «هناك انفجار اجتماعي منتظر. كله يعتمد على من ينظم الجماهير المحتجة»[14].

القشة الأخيرة

في فبراير 2010، حتى مع بيع كبار الموظفين الحكوميين للطاقة، ضاعف الرئيس بقايف تكلفة الكهرباء والتدفئة والماء، وخطط لرفع الأسعار مرة أخرى بحلول منتصف العام. احتج الناس فورا في مدن الأقاليم مثل نارين بلوحات كتب عليها «لا يمكننا دفع الأسعار الجديدة للكهرباء» و«أيتها الحكومة اصغ لنا»[15].

كان عمدة بيشكك نايمان توليبيف قد حذر الحكومة المركزية سابقا من أن الارتفاعات في الأسعار سيكون لها تاثير مخرب في ميزانية المدينة، وفي الاقتصاد الأكبر. سيتأثر «المتقاعدون الوحيدون والمسنون والأشخاص المقعدون والعديد من عمال المؤسسات العامة برواتب ضئيلة» بشكل أقسى، كما حذر العمدة. وأضاف أنه يخشى «موجة السخط» التي قد يجلبها ذلك وأراد «منع الاحتجاجات الاجتماعية» بزيادة الرواتب والدعم للغاضبين[16]. لكن الرئيس المؤيد لسياسة السوق الحر لم يستمع له.

أزمة ما بعد السوفييت

الجفاف الذي سبب نقص الكهرباء، والذي شل بدوره الاقتصاد، وأعطى التبرير لبقايف لرفع أسعار الخدمات بشكل هائل، كان جزءا من المشكلة فقط. كان النظام القرغيزي ضعيفا مسبقا قبل أن يدفعه الطقس العنيف إلى الهاوية.

خلال الحقبة السوفييتية نظم اقتصاد قرغيزستان بالتكامل المدعَم مع الاتحاد السوفييتي الأكبر في نمط دعاه أحد العلماء «استعمار الرخاء». خلال الحرب الباردة الأخيرة أصبحت قرغيزستان منتجا رئيسا للبضائع والأسلحة العسكرية للجيش الأحمر. لكنها فقدت تلك الأسواق في الفوضى التي أعقبت تفكك الاتحاد السوفييتي.

بالنسبة إلى أحمد رشيد فإن «الحقيقة البارزة حول آسيا الوسطى اليوم هي أن الدولة المستقلة لم تكن مرغوبة أو مطلوبة من قبل النخب الشيوعية الحاكمة. لقد ألقيت عليهم عندما تفكك الاتحاد السوفييتي العام 1991. بالتالي اضطر الحكام في المنطقة فجأة إلى صنع هويات جديدة لدولهم الخمس المتنوعة كثيرا عرقيا. كازاخستان وقرغيزستان وطاجيكستان وتركمانستان وأوزبكستان - وأن تتنافس لأول مرة مع عقائد مختلفة متطرفة»[17]. ويمكن للمرء أن يضيف، ومع اقتصادات جديدة.

بعد العام 1991 أصبحت قرغيزستان أحد أصغر اقتصادات آسيا الوسطى وأكثرها تحررا. وبسبب خسارتها المفاجئة للأسواق والدعم السوفيتيين اتجهت قرغيزستان إلى البنك الدولي وإلى صندوق النقد الدولي طلبا للمساعدة. طالبت هاتان المؤسستان بدورهما بمجموعة من الإصلاحات الليبرالية الجديدة. التزمت النخب السياسية القرغيزية - المتحمسة للعلاج الأكاديمي للعقيدة الكلاسيكية الاقتصادية الجديدة - بحماس أكبر. خصخصت قرغيزستان الزراعة والصناعة والخدمات وانتقلت إلى عملة قابلة للتحويل بحرية، وأزالت معظم الحواجز على التجارة، وبنهاية التسعينيات خصخص ثلاثة أرباع الاقتصاد[18].

كان من المفترض أن يحفز هذا نمو الاقتصاد، لكنه فقط عمق إزالة الصناعة، وأغرق الأسواق بمنتجات أجنبية رخيصة دخلت من دون ضريبة جمركية. ولعدم قدرتها على المنافسة مع الواردات، جردت العديد من الشركات المخصخصة ببساطة من اعتماداتها. ارتفعت البطالة جدا، وعاد العمال من المدن إلى المزارع، أو هاجروا إلى خارج البلد. يعمل الآن بين 500 ألف إلى 800 ألف قرغيزي في الخارج، وتشكل تحويلاتهم جزءا رئيسا من الاقتصاد. انخفض الناتج المحلي الاجمالي لقرغيزستان بنحو 45 في المائة بين عامي 1991 و1996 مع انهيار الإنتاج الصناعي، وتبخر الأسواق السوفييتية لمنتجات الألبان، ووصل الغلاء إلى 1200 في المائة العام 1993[19]. لم يعد الدخل بالنسبة إلى الفرد إلى مستواه العام 1989، وأصبح عدم المساواة في الدخل بين الأسوأ في المنطقة. أجبر انهيار الخدمات العامة مثل الرعاية الصحية والتعليم الناس على تدبر ذلك بأنفسهم. يعيش أكثر من 20 في المائة من السكان على أقل من 2 دولار في اليوم. وأصبح أكثر من 40 في المائة من القرغيز فقراء بمعنى أنهم يكافحون لتلبية متطلبات الحياة الأساسية.

ذهبت ثلاثة أرباع دخل الحكومة من بيع الممتلكات الحكومية على دفع الديون الدولية. أوقفت عملية الخصخصة بشكل كبير، وحتى أنها عكست بعض الشيء بعد أواخر التسعينيات. في العام 2010 كان الناتج المحلي الإجمالي نحو 11.66 مليار دولار و«أخبار جيدة» كان الدين الخارجي بحدود 3.4 مليار دولار فقط[20]. تحتوي جبال قرغيزستان على توضعات للذهب، ومعادن ترابية نادرة، وخامات أخرى، وتعني حدودها مع الصين أن من الممكن أن تسحب إلى دوامة التنمية التي تمثلها الصين.

مع ذلك يقبع السكان في قرغيزستان الآن في الفاقة والفساد[21]. البطالة الرسمية هي بحدود 20 في المائة، وبفرصة ضئيلة لمستقبل أفضل تتحول عناصر من السكان - شبابها الغاضب المتكتل - إلى الجريمة وتجارة المخدرات وإلى القومية المتطرفة ضد الغرباء، وإلى أشكال متطرفة من الإسلام السياسي.

الجهاد في آسيا الوسطى

تتميز الدول الجديدة في آسيا الوسطى بالحكم الفاسد والاستبداد والخلل والضعف. خلال العقدين الأخيرين عبرت فعاليات مسلحة لا دول لها، أمراء حرب عرقيون ومهربو مخدرات ومرتزقة وميليشيات قبلية وعصابات سرقة وشبكات مرتبطة بالإرهاب العالمي كالقاعدة والحركة الاسلامية الأوزبكية (IMU) المنطقة، وخاضت حروبا فيها، وعندما ضغط عليها تحركت جنوبا إلى المناطق الخارجة عن القانون في أفغانستان وباكستان[22].

كانت دول آسيا الوسطى مكونات مندمجة بالاتحاد السوفييتي، ومتعاونة سياسيا واقتصاديا معه، بيد أنها الآن تجد نفسها تتنازع حول موارد وخطوط مواصلات واتصالات مشتركة سابقا. أما أعراق السكان التي تشكل الأساس الرسمي لهذه الدول، فهي أيضا موزعة عبر الحدود الوطنية. على سبيل المثال تعيش الأقليات الأوزبكية في كازاخستان وقرغيزستان وطاجيكستان.

لا مكان يجسد هذه الضغوط أكثر من وادي فرغانة الكثيف بالسكان. هنا تنحني الحدود بين أوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزستان بطريقة ملتفة من التجزئة السياسية. لكن البنى التحتية الاقتصادية للمنطقة تتبع المنطق الطبيعي لأراضي المنطقة. تصل تصفية نهر سير داريا (*) بين الدول الثلاث وسكانها. يقدم النهر منطقا راتزيليا للتكامل الاقتصادي(**). يقدم النهر والوادي إمكانية إنشاء طاقة كهرومائية وزراعة وربط مواصلات مشتركة. لكن الفوضى التي أعقبت تفكك الاتحاد السوفييتي والوطنية العرقية للرؤساء السياسيين، والمعاناة الاقتصادية التي

(*) نهر سيحون.

(**) نسبة إلى الجغرافي الألماني فريدريك راتزل Friedrich Ratzel الذي نظر إلى تأثير الحتمية الجغرافية في العلاقات بين الدول. [المترجم].

نجمت عـن المعالجة بالصدمة الليبرالية الجديدة خربـت الفرغانة. اليوم تحتضن فرغانة تراكيب عنيفة من الإسلام السياسي والمطامح العرقية.

يمكننا رؤية مسـتقبل عدم الأمـان في وادي فرغانة من ماضيـه. منذ العام 1917 شن المشـايخ والإقطاعيون وزعماء العشائر المحليون في الوادي وعبر آسيا الوسـطى مقاومة ضد البلاشـفة. وصف هؤلاء الزعـماء التقليديون من نموذج المجاهدين - أطلق عليهم السـوفييت اسـم باسـماشي، وتعني «قطاع الطرق» - أنفسـهم بأنهم يثورون من أجل الإسـلام والقومية التركية وضد الشيوعية. قاد إحدى هذه الزمر من المتمردين المسـلمين أنور باشـا، عضـو حركة تركيا الفتاة سابقا، ووزير الحرب العثماني، التركي القومي المثالي، والمتعسف ضد الأرمن الذين تركـوا تركيا ليقاتلـوا في مناطق أبعد إلى الشرق. اسـتخدمت قوات مختلفة من الباسماشي شـمال أفغانستان كملجأ لها، وقاد إبراهيم بيك هذه القوات التي لم تهـزم نهائيا حتى أوائل الثلاثينيات، وفقـط بالتعاون بين الجيش الأفغاني الملكي، والجيش الأحمر[23](*).

عندما اندلعت الحرب مرة ثانية في أفغانسـتان خلال الثمانينيات، هيج الإسلام المتطرف أيضا في آسيا الوسطى السوفييتية. مر نحو خمسة وثلاثين ألفا من المقاتلين الإسـلاميين من أنحاء العالم كلها عبر الحـرب الأفغانية للقتال مع المجاهدين. درس آلاف آخـرون في المـدارس الدينية المتطرفة في باكسـتان[24]. من خلال هذه الحلقة مـن الجهـاد تدفق المتطوعـون، وتمركزوا في منطقـة الحرب على الحـدود، حيث اسـتوعبوا المهارات القتالية والأفكار المتطرفـة. كان بينهم أوزبك وطاجيك وقرغيز من الجمهوريات السوفييتية.

في العـام 1987 عـبر بعـض المجاهدين من أفغانسـتان - عنـاصر من الحزب الإسـلامي المتعصب لقلب الدين حكمتيار - الحدود إلى طاجيكسـتان السوفييتية وهاجمـوا حرس الحدود، وقذفوا مدينة بانـغ بالصواريخ[25]. في ذلك الوقت كتبت الصحافـة الأمريكية: «أعلن المتمردون في 24 مارس أنهم أطلقوا من نحو أسـبوعين سـابقين الصواريخ عبر نهر آمو داريا (جيحون) نحو الأراضي السـوفييتية قاتلين 12 شخصا». في 8 أبريل قتل حارسا حدود سوفييتيان خلال هجوم ثان[26].

(*) هذه نظرة المؤلف إلى هذه القضية والتي تتطابق مع النظرة السوفييتية. [المترجم].

بعد خمس سنوات انفجرت المنطقة. كانت الحرب الطاجيكية أشد وأسوأ حرب أهلية في ذلك العقد. قتل نحو 60 ألف شـخص، ووصفت منظمة «هيومن رايتس ووتش» حدوث حملات تطهير عرقي على مسـتوى واسع. في نهاية الحرب انضمت عنـاصر من حـزب مقاومة إسـلامي إلى المتطرفين من الحركة الإسـلامية (IMU)، واقتحمـوا الجزء القرغيزي من وادي فرغانة، الذي تتحكم بأجزاء منه أوزبكسـتان وطاجيكسـتان أيضا. وفي عامي 1999 و2000 دفعت عمليات عسـكرية قرغيزية - أوزبكية مشتركة الـ IMU إلى أفغانستان ثم إلى باكستان[27].

بحلول صيف العام 2010، مع قرغيزسـتان محطمة بفعل الاضطرابات المحرضة بالتغير المناخي، أشـيع أن الحركة السـلامية الأوزبكيـة (IMU) رجعت إلى وادي فرغانة. فقدت الحكومة القرغيزية لسـيطرة على الكثـير من المنطقة الجنوبية في البلاد. وكما حذر رئيس مجموعة الأمات الدولية في صحيفة «الإنديبندت»: «يجب ألا يقلل أحد من إمكانية انتشار عنف عرقي على نطاق واسع خلال وادي فرغانة»، كانت المنطقة معبأة لحدوث الأزمة

انتشر الجفاف في قرغيزسـتان أخيرا العام 2010. منح نمط الطقس نفسه الذي ركع باكستان مهلة لقرغيزستان المعتمدة على الطاقة الكهرومائية. بحلول أغسطس من العام 2010 أعادت أمطار غزيرةمستويات الماء إلى وضعها في سد توكتوغول[28]. لكن القصة القرغيزية لم تنته بعد. تقى الدولة مقسـمة ومسلحة ويائسة. وتزداد أنماط الطقس التي يعتمد عليها اقتماد الطاقة الكهرومائية اضطرابا، ومن المحتمل أن يشتد اضطرابها مع التغير المناخي.

11

الهند وباكستان: جليديات وأنهار وعمل غير منتهٍ

إما أن يتدفق الماء وإما الدم!

علامة احتجاج في باكستان

«تحت هذه الظروف يمكنك أن تتخيل جيدا أن الناس بدلا من أن يموتوا بهذه الطريقة، سيموتون وهم يحاربون»

حسين سهروردي
رئيس وزراء باكستان الأسبق

من المعروف أن باكستان والهند منخرطتان في صراع. وسبب مهم لهذه العداوة هو حاجة كل طرف إلى الماء. وطريقة مهمة في الصراع هي استخدام باكستان للمجموعات الإسلامية المسلحة والإرهابيين بوصفهم وكلاء لها ضد الهند. إحدى ساحات الصراع المهمة هي أفغانستان.

مع زيادة الضغط المائي الناجم عن تغير المناخ في جنوب آسيا ووسطها، يزداد النزاع الهندي - الباكستاني الذي يتجلى على عدة جبهات حدة. لا يمكن اختزال النزاع بين الهند والباكستان في موضوع الماء وحده، ولا يمكن أن يقال إنه نشأ بسبب تغير المناخ. لكن الماء والمناخ مع ذلك محرضان رئيسان للنزاع. ومع جلب تغير المناخ

طقسا أكثر عنفا، واضطرابا في الرياح الموسمية، والفيضانات والجفاف والذوبان السريع للجليديات، فإنه يؤدي دورا متزايد الأهمية في شكل النزاع بين الهند وباكستان.

برج ماء قراقرم

يتمحور الصراع بين الهند وباكستان على كشمير، جزئيا لأن 90 في المائة من الزراعة المروية في باكستان تعتمد على أنهار تنشأ في المنطقة التي يحتل معظمها الجيش الهندي[1]. بدأ النزاع في العام 1947 أثناء التقسيم. تحت الحكم البريطاني كانت هناك أغلبية مسلمة في إمارة دولة جامو وكشمير، لكنها كانت تحكم من قبل مهراجا هندوسي، وحاشيته المكونة من هندوس من خارج الإمارة.

كان منطق التقسيم هو أن يشكل المسلمون والهندوس في الهند كيانين منفصلين. اقترح التحالف الإسلامي ذلك، ووافق المؤتمر الوطني الهندي بتردد على فكرة الفصل الجغرافي بحسب الخطوط الدينية. تحولت تلك العملية بسرعة إلى كارثة مروعة مع اقتتال الهندوس والمسلمين. قتل مليون من الناس، وهجر 15 مليونا. كانت هذه النزاعات بين المجتمعات دينية بالاسم، لكنها شملت أيضا صراعات طبقية مشوهة ومزاحة. وكما عبر باحث من تلك الفترة عنها «الطائفية هي أكثر من ظاهرة دينية. تظهر ملامحها الاجتماعية والاقتصادية عندما يضطهد الفلاحون الذين يتصادف أن يكونوا مسلمين من قبل مقرضي الأموال الهنود، أو عندما يثور النساجون المسلمون ضد أصحاب المصانع من الهنود»[2].

عنصر محوري في التقسيم كان مصير 560 إمارة صغيرة شبه مستقلة في الهند البريطانية. نصحت كلها بالانضمام إلى الهند أو باكستان. وبما أن منطق التقسيم يقضي بأن تذهب المناطق ذات الأغلبية المسلمة إلى باكستان، بدا أن كشمير ستنتمي إليها: كان أكثر من 70 في المائة من السكان مسلمين، وكانت معظم علاقاتها التجارية، وخطوط اتصالاتها مرتبطة بتلك المنطقة... في إحدى نسخ المصطلح الأصلي الذي أصبح باكستان يرمز حرف الـ «ك» إلى كشمير[3]. إضافة إلى ذلك ومن المهم جدا، «فإن أنهارها الثلاثة التي تغذى من الجبال وهي السند وجيلوم (الذي يتدفق عبر وادي كشمير الشهير) والتشيناب، تندمج كلها في نهر واحد يمر عبر الأراضي المنخفضة في باكستان ليصب في كراتشي على بحر العرب»[4].

لكن الزعماء الهنود رأوا في كشمير منطقة حدودية غنية بالموارد، ومكسبا جيواستراتيجيا قيما جدا للتخلي عنه - تذكَر أن كشمير، إضافة إلى الجليديات الضخمة، لها غابات وخامات وحدود مع أفغانستان والاتحاد السوفييتي والصين. وكما شرح أليس ثورنر، وهو مؤرخ كبير عن الهند في ذلك الوقت، نظر إلى كشمير على أنها بوابة لتأثير هندي أكبر في آسيا الوسطى، وكقاعدة للدفاع عن الهند في الوقت نفسه. الهند وحدها كما حوجج لديها القوة الاقتصادية الكافية لتطوير إمكانية الطاقة المائية غير المستفاد منها حتى الآن في كشمير، ومواردها من الخامات[5].

تردد الماهاراجا الهندي وحاشيته في التخلي عن سيادتهم لأي من الدولتين، وتبع ذلك حدوث مشكلة من ثلاث نواح. ثم في 22 أكتوبر من عام 1947 تحركت باكستان. في الظلام قبل الفجر اجتاحت فرقة مسلحة من نحو 2000 من قبائل البشتون - الجيل الأول من العصابات الباكستانية المرتزقة المجندة من المناطق الحدودية الشمالية الغربية مع أفغانستان، يقودها نقيب قي الجيش الباكستاني - كشمير. تقدموا 60 ميلا وراء الحدود قبل أن يواجهوا مقاومة من قوة صغيرة من قوات كشمير الحكومية. استدعت حكومة الماهاراجا معونة عسكرية هندية. ومع إرسال القوات الهندية بالطائرات فوق الجبال، وافق زعيم كشمير الهندوسي أخيرا على السيطرة الهندية. وعندما هبطت القوات الهندية في سينغار وجدت البلدة غير محتلة، لكنها قاتلت حالا رجال القبائل المتقدمين. تداعى تقدم البشتون مع انفصال مجموعات مرتدة عن الفرقة الرئيسة من أجل النهب. سرعان ما استولت الهند على نصف كشمير.

سجلت باكستان في الحال موقفها برفض الاعتراف بضم كشمير إلى الهند، واتفقت الدولتان علنا على إجراء استفتاء حول القضية. لكن جواهر لال نهرو عارض الفكرة سرا [6]. أرادت الهند كشمير، وكانت بحاجة إليها، وشعرت بأنها تستحقها - من المحتمل أن الاستفتاء كان سيعني التخلي عنها لباكستان. بعد أسبوعين شنت الهند هجوما احتلت بموجبه ثلثي الأراضي التي تتحكم فيها باكستان[7]. خلال منتصف الصيف التالي كان لباكستان وحدات من الجيش النظامي تقاتل هناك[8].

بالتالي، انحاز زعماء كشمير إلى الهند، بينما بدأت غالبية سكانها من المسلمين في الهيجان تحت الاحتلال الهندي. ولم يجر أي استفتاء. خرجت كشمير من التقسيم مجزأة ومحتلة. وخلف الصراع الإسلامي - الهندوسي قبعت قضية المياه.

سياسات الدول المتشاطئة

منذ العام 1957 أشـــار الزعماء السياسيون إلى دور المياه المحوري. خذ تعليقات حسين سهروردي رئيس وزراء باكستان في ذلك الوقت:

> هناك - كما تعلم - ســتة أنهار ينبع معظمها من كشــمير. أحد الأسباب التي يجعل كشــمير مهمة جدا لنا هذه المياه التي تروي أراضينا. إنها لا تروي الأراضي الهنديــة. ما فعلته الهند الآن - إنها لا تهدد فقط - بل قامت بالفعل ببناء ســد اليــوم، وهي تهدد بقطع ميــاه الأنهار الثلاثة مــن أجل ري بعض أراضيها. لو أنها فعلت ذلك من دون تعويض عنها، فمن الواضح أننا سنجوع، وســيموت النــاس مــن العطش. تحت هــذه الظروف - آمل ألا تنشــأ هذه الحــالات الطارئة - يمكنك أن تتخيل جيــدا أن الناس بدلا من أن يموتوا بهذه الطريقة، سيموتون وهم يحاربون[9].

وهــذا ما فعلوه. دخلت الهند وباكســتان في حرب العام 1965 حول كشــمير. مرة أخرى اصطدم الجيشان في تلك المنطقة في العام 1999[10]. خاضت الهند وباكستان أربع حروب خرجت باكســتان عادة منها بشكل ســيئ. اثنتان منها كانتا حول كشمير الغنية بالمياه. في العام 1971 فقدت الباكستان نصف أراضيها بتدخل الهند. عندما عولج إعصار مخرب في باكستان الشرقية باستجابة حكومية غير ملائمة، أطلقت حركة انفصالية هناك حربا من أجل الاســتقلال. تدخلت القوات الهندية لمساعدتهم. ألقى المتمردون القبض على 90 ألف جندي باكستاني، وساعدوا في ولادة دولة بنغلادش الجديدة.

انظــر إلى الصراع من وجهة النظر الباكســتانية. باكســتان دولة طويلة ونحيفة محصــورة بين دولتين معاديتين هما الهند وأفغانســتان. وهي بلد جاف بعدد كبير ومتنام من الســكان يعمل معظمهم في الزراعة. وبهذا الشــكل فإن باكستان إحدى أفقــر الدول إلى المياه في العالم، وهذه الحقيقة تســاعد في تحريك الصراع مع الهند على التحكم في جامو وكشــمير. ينبع نهر الســند مع روافده من التبت، ويمر خلال الهند إلى باكســتان، ثــم ينحدر من الجبال البــاردة نحو الســهول الخصبة الحارة للبنجاب ليروي سلة خبز البلد.

نهر السند هو العمود الفقري الاقتصادي لباكستان. ومن دون هذا النهر لن يدوم مخزون المياه الجوفية في باكســتان ومياه الســدود إلا لشهر واحد فقط، لا نهر لا بلد. وفي أعلى النهر يوجد العدو، الهند: بلد ضخم ديناميكي اقتصاديا وديموقراطي سياســيا

ومحترم دوليا ومسلح نوويا. إلى الغرب، على نهر كابول الذي يصب في السند حليف الهند غير المستقر، وغير الثابت، أفغانستان. تحولت أفغانستان من ملكية إلى جمهورية ومن دولة شيوعية بحزب واحد إلى ديموقراطية متعددة الأحزاب، لكنها لم تترك – سوى خلال حكم طالبان – جانب الهند. ببساطة تفوقت الهند على باكستان.

مفارقة الندرة

ضمن هذه القصة من التنافس يخدم الماء كعامل لنسف الاستقرار، وللعجب للتعاون أيضا[11]. إحدى اتفاقيات المياه والوحيدة عبر الحدود في آسيا الوسطى هي أيضا أقلها احتمالا: ارتبطت الباكستان والهند في العام 1960 باتفاقية حول مياه السند جرى التفاوض عليها تحت إشراف البنك الدولي.

بحسب الاتفاقية تتلقى باكستان حقوقا حصرية على مياه السند، وعلى رافديه الرئيسين في الغرب جيكوم وتشيناب. أعطيت الهند الروافد الشرقية رافي وبياس وسوتلج[12]. يمكن للهند أن تبني السدود على هذه الروافد لتوليد الكهرباء وتربية الأسماك وتطويعها للملاحة... إلخ، لكن عليها أن تطلق معظم المياه إلى باكستان. إجمالا يجب أن تتلقى باكستان 80 في المائة من المياه التي يمكن أن تصل بصورة أخرى إلى نهر السند. في الخمسينيات عندما أخذت الاتفاقية شكلها، كان للهند النفوذ الأكبر، لكنها احتاجت إلى تمويل البنك الدولي لتطوير اقتصادها. لذا وافقت على شروط منحازة إلى باكستان[13].

من العجيب أن الاتفاقية نجحت حتى الآن. لماذا؟ حاجج أحد الأكاديميين بأن باكستان والهند تتعاونان لأن ذلك «منطقي مائيا»، بمعنى أن «هناك ضرورة للتعاون لحماية وصول الدولتين إلى مياه مشتركة على المدى البعيد»[14]. لكن ذلك التفسير يترك السؤال التالي من دون جواب: لماذا الاجتياح غير منطقي مائيا ؟

القضية المركزية في المعاهدة هي تفوق الهند. وكدولة مشاطئة لأعلى النهر، وبقوة عسكرية أكبر، كان من الممكن للهند أن تأخذ حصة أكبر من الماء. في الحقيقة تستطيع الهند أن تدمر باكستان بتحويل سلة الخبز في البنجاب إلى صحراء. لكن أواخر الخمسينيات، عندما جرى التفاوض على الاتفاقية، احتاج البلدان إلى تمويل البنك الدولي، وكان الاتفاق على المياه وحده كفيلا بتأمين ذلك. أكثر من ذلك، على

الرغم من أن باكســتان كانت في موقف ضعيف، فقد واجهت الهند أيضا تحديات مهمــة. كانت باكســتان متحالفة عن قرب مع الولايات المتحــدة، وكانت جزءا من منظمــة معاهدة جنوب شرق آســيا المدعومة أمريكيا. كانت باكســتان تقترب من الصــين، منافس الهند. بعد عامين من التوقيــع على الاتفاقية، خاضت الصين والهند حربا قصيرة الأمد من أجل التحكم في قمم جليدية أخرى.

قــصرت نواح أخرى عديدة من المعادلة الدولية يد الهند. كان شــن الهند حربا شــاملة من أجل جامو وكشمير، ثم بناء سدود لتحويل مياه نهر السند، سيعد عملا عدوانيا لا تسامح فيه.

بدلا من ذلك تقبض الهند على كشمير ذات الغالبية المسلمة كدولة محتلة. تهيمن مقاومة شــعبية تشبه الانتفاضة الآن على المقاطعة. خلال الأزمة في صيف العام 2010 كانت القوات الهنديــة تقتل متظاهرا أو اثنين كل عدة أيام[15]. يتهم الموظفون الهنود في كشــمير بــ «إهمال مشــاكل كشــمير الاقتصادية الضخمة، وتفشي الفساد، وتزييف الانتخابات» والتدخل في «سياسات كشمير بطرق تتناقض مع دستور الهند نفسه»[16].

أشعلت انتخابات مزورة للمجلس التشريعي في العام 1987 معارضة عنيفة واسعة النطــاق. بحلول العام 1992 مع تراجع الجهاد في أفغانســتان، انتقل بعض المجاهدين من أفغانستان إلى كشمير. بدأ الصراع حول استقلال كشمير يتحول إلى «حملة إسلامية مقدســة لجعل كشــمير بكاملها تحت تحكم باكســتان»[17]. لم يوقــف احتلال الناتو لأفغانســتان منذ العام 2001 المســلحين عن كشــمير، لكنه بدلا من ذلــك قوى نظام الصراع في آســيا الوســطى بأكملها. والآن تفاقم السرعة القاســية للجفاف والفيضانات هذه الأزمات.

سدود قتالية

في العام 2008 دشــنت الهند ســد باغليهــار للطاقة الكهرومائية باســتطاعة 450 ميغاوات على نهر تشيناب، وبدأت في تقييد تدفق الماء إلى باكستان. ينبع نهر تشيناب في كشــمير، ويصب في باكســتان. حاولت باكستان منع بناء سد باغليهار بمناشدة البنك الــدولي في العام 2005. لكن المشروع مضى قدما عــلى الرغم من ذلك، بعد أن وافقت الهند على تخفيض ارتفاع السد، ووعدت بعدم الحد من تدفق النهر[18].

مع ذلك فسد باغليهار هو واحد فقط من عدد من السدود قيد البناء[19]. يقول الناشطون الباكستانيون الأكثر تشنجا وتعصبا إن الهند بنت مسبقا 44 سدا على «أنهار باكستان»، ولديها مشاريع لبناء 52 سدا آخر[20]. تؤكد الهند أنها تطوع الطاقة المائية أو تنظف الأنهار للملاحة فقط، ولا تحجز مياها أكثر من حصتها أو تحولها. لكن باكستان تشكك في ذلك، وتشير إلى تناقص التدفق في أنهارها.

في صيف العام 2008 أبلغ المزارعون على طول نهر تشيناب عن انخفاض مستوى الماء في النهر والمياه الجوفية[21]. بحسب اتفاقية مياه السند للعام 1960، تتلقى باكستان 55 ألف كوسيك من الماء. (الكوسيك cusecs عبارة عن وحدة حجم لقياس تدفق السوائل تساوي قدما مكعبة في الثانية) في السنوات الماضية احتجت باكستان بأن الهند تخفض تدفق النهر إلى مجرد 13 ألف كوسيك خلال الشتاء، وإلى تدفق أعلى يصل إلى 29 ألف كوسيك خلال الصيف. يخرب هذا الزراعة وتوليد الطاقة معا، ويؤذي بدوره الصناعة والإنتاج[22].

لجعل الأمور أكثر سوءا أبلغت باكستان عن تناقص في هطول الأمطار وعن استغلال جائر للمياه الجوفية. نقصت مستويات المياه الجوفية في إسلام آباد وراولبندي بين 1 و 2 متر في العام بين عامي 1982 و2000. في كويتا، عاصمة بلوشستان العطشى، ينخفض مستوى المياه الجوفية بنحو 3.5 متر في العام[23]. بحسب سلطة تطوير الطاقة والمياه في باكستان شهدت السنوات الـ 50 الأخيرة انخفاض توافر الماء بالنسبة إلى الشخص في العام بنحو 80 في المائة، من 5600 م3 إلى 1038 م3. وبحلول العام 2025 يتوقع أن ينخفض ذلك الرقم إلى 809 م3 فقط للشخص في العام[24].

الآن تُحول التوترات الهندية - الباكستانية - التي ولدت جزئيا من نزاع حول المياه، وتفاقمت نتيجة لتغير المناخ - وتدار على شكل حرب دينية. يتحدث المتعصبون المسلمون في باكستان عن المياه والله والعنف بالخطاب ذاته.

في العام 2010 اتهم المقاتل الديني حافظ محمد سعيد رئيس جماعة الدعوة ومؤسس لاشكار طيبة(*) المحظورة، وهي مجموعة إرهابية مرتبطة بالجيش الباكستاني، الهند بأنها تمارس «الإرهاب المائي» لأنها كانت تبني أنفاقا وسدودا على روافد رئيسة لنهر السند. تدعي الهند أن هذا لن يؤثر في مستويات المياه. لكن أحجام المياه تتناقص، وتظاهر المزارعون الباكستانيون محذرين «إما أن يتدفق الماء وإما الدم»[25].

(*) منظمة جهادية باكستانية أسسها حافظ محمد سعيد في العام 1990. [المحررة].

الآن ينشئ مسلحو جماعة الدعوة حركة من أجل الماء. حضر الاجتماع الذي دعوا إليه في مايو العام 2010 ممثلون عن معظم الأحزاب السياسية، بما في ذلك حزب الشعب الباكستاني والجماعة الإسلامية وحزب تحريك إنصاف للاعب الكريكيت عمران خان الذي تحول إلى سياسي. في الاجتماع طالبت جماعة الدعوة بأن توقف الحكومة الهند عن بناء السدود في كشمير، أو تعطي «المجاهدين الكشميريين» الحرية للتعامل مع هذه المشكلة[26]. «لدينا خياران إما أن نقبل الإرهاب المائي الهندي، أو نشن الحرب عليه»، قال الزعيم الكبير لحركة جماعة الدعوة حافظ خالد وليد. حرض زعيم حزب آخر على معاداة السامية لادعائه بأن «مهندسين إسرائيليين يشرفون على بناء السدود، ويقومون بمنع حصة باكستان من المياه»[27].

إزاحة إستراتيجية

أزيحت التوترات حول المياه التي زادها تغير المناخ بين هاتين الدولتين المسلحتين نوويا، ولعبت أيضا على شكل حرب دينية وعرقية في أفغانستان. بالنسبة إلى الأفغان، تعود العداوة بين دولتهم وباكستان إلى فقد أفغانستان أراضي للهند البريطانية عام 1893، عندما فرض خط دوراند الذي هو الآن الحدود بين أفغانستان وباكستان على «الأمير الحديدي» لأفغانستان عبد الرحمن خان. في تلك الصفقة فقدت أفغانستان قدرا كبيرا من مقاطعتها البشتونية. بين الأفغان، مازال ذلك الجرح ينزف. بالنسبة إلى باكستان، القضية هي الهند.

غازلت الهند أفغانستان بمنحها أكثر من 1.3 مليار دولار كمساعدات لإعادة البناء منذ العام 2001. يتوسع نفوذ الهند السياسي عبر مواردها في الذكاء، وبصمتها الدبلوماسية الكبيرة، والمشافي الجديدة، ومشاريع الطاقة الكهرومائية، وبناء الطرقات - الكثير من الطرقات وبعضها قريب بشكل مريب من الحدود الباكستانية.

ترغب باكستان في أن تبقى أفغانستان حليفة الهند دولة ضعيفة. لذا فإنها تدعم الجماعات المتطرفة مثل طالبان كما فعلت في كشمير. منذ منتصف السبعينيات كانت باكستان تثير عدم الاستقرار في جارتها الغربية. وللمخابرات الباكستانية حتى الآن صلات مع عناصر من طالبان الكويتا شورى(*) وشبكة حقاني(**) والحزب الإسلامي.

(*) الكويتا شورى هي منظمة عسكرية تتألف من قيادات طالبان الأفغان. [المحررة].

(**) جماعة جهادية مسلحة متحالفة مع طالبان أخذت اسمها من جلال الدين حقاني. [المحررة].

يفصل أحمد رشـيد كيف اسـتمر هذا الدعم إلى وقت متأخر في الحرب الأفغانية في كتابه الرائع «انحدار نحو الفوضى: الولايات المتحدة وفشـل بناء الدولة في باكستان وأفغانستان وآسيا الوسطى». يكتب قائلا: «اعتقد الجيش الباكستاني أن حكومة قرضاي الانتقالية كانت معادية بشـدة لباكستان.. وللحفاظ على تأثيرها بين طالبان والبشتون الأفغان طورت الآي أس آي (مخابرات ما بين الأجهزة) سياسة باتجاهين، إذ تقوم بحماية طالبان من جهة، وتقديم العرب وغير الأفغان الآخرين من القاعدة إلى الولايات المتحدة من جهة أخرى. «بقيت الولايات المتحدة متشككة، لذا أنشأت المخابرات الباكستانية» منظمـة سرية جديدة تعمل في المجـال المدني خارج بنى المخابرات العسـكرية. أعيد التعاقـد مع مدربي طالبان السـابقين من الآي أس آي، وضبـاط متقاعدين من الجيش من البشـتون، وبخاصـة من قوات الحدود. أقاموا مكاتب في منازل خاصة في بيشـاور وكويتـا ومدن أخرى، ولم يقيمـوا أي علاقة مع رئيس مقـر الآي أس آي المحلي أو مع الجيش. عمل معظم هؤلاء العملاء في وظائف نظامية ظاهريا كمنسقين للاجئين أفغان، وموظفين حكوميين، وباحثين في الجامعات، ومدرسين في كليات، وعمال مساعدات أيضا. أنشأ آخرون منظمات غير حكومية للعمل ظاهريا مع المهاجرين الأفغان[28].

في العام 2007 اكتشـف أن معظم الـ 5 مليـارات دولار التي أنفقتها الولايات المتحدة لدعم مجهود باكسـتان الحربي لقتال القاعدة وطالبان قد سرقت أو حولت إلى التوجه الحربي ضد الهند. وأثناء ذلك استمرت عناصر من قوات الأمن الباكستانية في العمل مع طالبان.

عندما أجريت مقابلة مع مقاتلي طالبان بمقاطعة زابل في أفغانسـتان خلال العام 2006 وصفـوا أنفسـهم بأنهم مؤسسـون ومدعومون من قبل باكسـتان[29]. قال أحد عناصر طالبان: باكسـتان تقف معنا، ومكاتبنا موجودة على الجانب الآخر من الحدود. باكستان تدعمنا وتزودنا بالموارد. وزعماؤنا هناك يجمعون المساعدات. الناس على هذا الجانب من الحدود يدعموننا أيضا. بعد عدة أيام تواصلت مع المتحدث باسـم طالبان د. محمد حنيف (قبض عليه بعد ذلك) الذي أكد الدعم الباكستاني أيضا[30].

في يونيـو من العام 2010 تأكدت العلاقـة بين طالبان والآي أس آي أكثر عندما أصدر معهد الدراسات التنموية في مدرسة لندن للاقتصاد تقريرا نقديا مفصلا يوثق كيف تعمل وكالة التجسـس الباكسـتانية ما في استطاعتها للتحكم في حركة طالبان

- وليـس دائما برغبتها ولا حتى بموافقتهـا. وصف التقرير الذي كتب من قبل مات والدمان من مركز كار لسياسـة حقوق الإنسـان في جامعة هارفارد، علاقة الآي أس آي بطالبان على أنها تعود إلى «أبعد من التلامس والتعايش»، وتلخص كيف تفرض الآي أس آي تحكمهـا، وتتعامل مع معارضين طالبانيين أكثر اسـتقلالا، وتقدم النقل والمعلومات والذخيرة والدعم الناري..الخ»[31].

لماذا تفعل باكستان ذلك ؟

هكذا وصف مدير الاسـتخبارات الوطنية الأمريكية دينيس بلير هذه العلاقة في فبراير من العام 2010 : «تشكل المجموعات المسلحة جزءا مهما من سلاح باكستان الإستراتيجي لموازنة التفوق الهندي العسكري والاقتصادي»[32]. يضرب وكلاء باكستان المصالح الهندية مباشرة في كشـمير والهند وأفغانستان. قتل الإرهابيون من طالبان مهندسـين ومدربي شرطة وديبلوماسـيين هنودا يعملون في أفغانستان. في يوليو من العـام 2008 فجـر فدائيون من طالبان لهم صلات مزعومة بالآي أس آي السـفارة الهندية في كابول، فقتلوا 41 فيما جرحوا وشـوهوا 130 آخرين. وفي أكتوبر من عام 2008 ضربت سـيارة مفخخة انتحارية أخرى السـفارة الهندية فقتلت 17 أفغانيا كانـوا ينتظرون دورهـم للحصول على الفيزا. في خريف العـام 2009 هاجم رجال على صلات مع تنظيم لاشكار طيبة بيتي ضيافة في كابول كانا يغصان بأشخاص من السلك الطبي والتعليمي الهندي[33].

نخب

لـن تنهي قوات الأمن الباكسـتانية دعمها للمتعصبين الدينيين الذين يشـنون الحرب على الهند وأفغانسـتان. ولن يكون هناك تقهقـر لأصولية من نوع طالبان، ولا نهاية للصراع على كشـمير، ما لم يُضمن أمن باكسـتان مقابل الهند. هذا الأمن المتمحور بصورة متزايدة حول قضية المياه، واتفاقية مياه السند للعام 1960، يهترئ الآن بشكل سيئ.

12

ثوار الجفاف في الهند

الرجل الذي حصل على كل ما يريد، يؤيد الأمن والسلام.

جواهر لال نهرو

«كيف يجب أن تكافح الهند الناكسال؟ بالتكيف مع تغير المناخ وبإعادة التوزيع الاقتصادية وبالعدالة الاجتماعية والتنمية المستدامة»

المؤلف

تغطّي الغابات الجرداء تلال شمالي أندرا براديش على حافة هضبة الدكن الهندية. الشهر هو فبراير، وهو فصل الصيف في تلك المنطقة، وقد أسقطت الأشجار المتهالكة أوراقها في الحرارة الجافة. مشهد الأرض غريب: تلال مستوية القمة ذات ميول حادة، تتابع على خطوط طويلة، وتميز غالبا بجروف أفقية. بين هذه التلال تقع سهول واد عريض، تحتوي على حزم متفرقة من الحطام البركاني(1).

الحياة بالنسبة إلى المزارعين هنا صعبة. «هناك تناقص في الأمطار، وهذا يؤثر في المحصول، والأسعار لاتزال منخفضة». يقول

لينغا ريدي سـاما، مزارع قطن في قرية جامني على بعد بضعة كيلومترات من سـد سـاثنالا، غير بعيد عن حدود ولايتي تشاتيسغار وماهاراتشرا. معظم الناس في هذه المنطقة أديفاسيون أو «أناس قبليون»، من الغوند من مقاطعة عادل أباد. الآخرون هم مهاجرون من الهندوس جاءوا من ولاية ماهاراشترا.

في ذلك اليوم من العام 2009 عندما جلسـت تحت ظل شـجرة خشبية مبتورة مع مجموعة من المزارعين، لم يكن أي منهم قد سمع حتى الآن بغازات الدفيئة، أو بتغير المناخ الناجم عن الإنسـان. مع ذلك ظن جميعهم أن الطقس يتغير. قالوا إن الجفاف المنتظم والأمطار غير المنتظمة أصبحا شائعين جدا خلال السنوات العشر أو الخمس عشرة السابقة. خمن العديد منهم أن قطع الغابات هو السبب.

قال مزارع يدعى موهان راو: «قام هذا الجيل بفعل شيء خطأ أثر على الأمطار بهذا الشـكل. عندما كنت طفلا كانت الغابة تمتد حتى هنا. لم يكن بإمكانك رؤية تلك التلال. كل هذا كان مغطى بالأشجار. اعتدنا فصلين ممطرين. في يونيو كنا نزرع بغض النظر عن المطر بين 15 و28 من الشـهر، وبحلول سـبتمبر كنا نحصد». قال إن أمطار الصيف كانت تهطل بشـكل نموذجي لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، وغالبا ما تتبعها أمطار أخف وأقصر أواخر الخريف.

هذا النمط شـائع عبر جنوب الهند. تهب الرياح الموسـمية من المحيط الهندي، وتهطل عادة على الأرض في جنوب الهند في نحو 1 يونيو. تصل هذه الأمطار الشديدة لأن ارتفـاع درجة حرارة البر الهندي في الصيف يؤدي إلى سـحب الهواء الرطب من المحيط. ترتفع الرطوبة وتبرد، ثم تهطل على شكل أمطار. تنقسم الرياح الموسمية إلى فرعين عند وصولها إلى سلسلة جبال الغاتس الساحلية في الهند، حيث تهطل معظم الأمطار على السـاحل الغربي للهند، مخلفة معظم المنطقة الوسـطى جافة. تسـافر الرياح الموسمية نحو الشمال حتى شهر سبتمبر، ثم مع تحرك الشمس نحو الجنوب، يبدأ نظام الطقس بالتقهقر في ذلك الاتجاه، مولدًا الأمطار الموسمية الشتوية. تشكل الأمطار الموسمية في الصيف أربعة أخماس الأمطار الإجمالية في الهند، وتقدم الأمطار الموسـمية الأخف المتراجعة أو الشمالية الغربية البقية. لكن الأمور أقل استقرارا مما كانت عليه في الماضي. يقول المزارعون إن السـنوات الأخيرة شـهدت أمطارا شـتوية خفيفة فقط. وهذا يجعل من المستحيل زرع محصول قطني ثان.

لجعل الأمور أســوأ، فــإن هذه المنطقــة تقع تحت قبضة حــرب عصابات بشــعة صغيرة. الهند أكبر ديموقراطية في العالم، وهــي أيضا موطن إحدى أقدم حركات التمرد في العالم - وهي حركة تمرد ماوية تعرف بالناكســال Naxalites. بــدأت الحرب الماوية عام 1967 غرب البنغــال. تجزأت أحزابها ثم توحدت من جديد طبقا لارتفاع وتيرة الحرب وانحســارها[2]. اليوم يجري هذا الصراع بشكل خفيف على طول شرق الهند، وله مســببات مختلفــة، خاصة جغرافيا. في بيهار وتشاتســيغار، وهما قلب العنف، التعدين الضخم على أراض قبلية هو السبب المباشر للمشاكل. لكننا نجد في أمكنة أخرى التجمع الكارثي.

لــو قارن المرء خرائط هطول الأمطار بخرائط العنف لوجد بروز نمط مقلق: في المكان الذي ينتشر فيه الجفاف يتقدم الماويون. هذه الجغرافيا تمتد على طول الغاتس الشرقية، من بيهار غرب بنغال مرورا بأوريســا(*) وتشايتسغار إلى أندرا براديش، وحتى أبعد من ذلــك جنوبا وغربا. هذا «الممر الأحمر» هو أيضا ممر الجفاف. ينتج الجفاف سلســلة من ردود الأفعال من الاقتراض إلى خسارة الأرض والجوع والانتحار وقطع الطرق والماوية.

لمــاذا هذه العلاقة الوثيقة؟ الصلة ليســت «طبيعيــة»، لكنها بالأحرى منتجة تاريخيا. خلال سنوات صعود حركة الناكسال في أندرا براديش، كان الجفاف شديدا أيضا: الســنوات 1984 - 1985 و1986 – 1987 و1997 – 1998 و1999 - 2000 و2002-2003 كانت كلها سنوات جفاف[3].

ومع تفكك أنماط الطقس في الهند، انزاحت كذلك سياساتها الاقتصادية نحو اليمين بالتخلي فعلا عن طبقة الفلاحين، وخلق قدر أكبر من عدم المســاواة. إذا كان التجمع الكارثي في شرق أفريقيا قد تمحور حول عسكرية الحرب الباردة، فإن الوضع في الهند يعود إلى السياسات الليبرالية الاقتصادية الجديدة بشكل رئيس. تشتعل النار الماوية ليس بسبب الجفاف فقط، لكن بسبب سياسة السوق الحر للحكومــة أيضــا. يتقفى ما تبقى مــن هذا الفصل الصلات بــين المناخ والتاريخ الاقتصادي والعنف السياسي في أندرا براديش.

(*) اسمها الحالي أوريشا.

الجذور العميقة للتمرد

تتغلغل لغة العصابات الحديث السياسي بين الغوند في تيلانغانا، كما يعرَف الجزء الشمالي من أندرا براديش. يجعل القمع المزارعين يتحفظون في كلامهم، لكن أي نقاش حول الطقس أو الاقتصاد يقدَم سريعا إشارات إلى عقيدة الناكسال.

أحد المزارعين في قرية جامني قال: «جال، جانغل، زامين». وهي تعني «ماء، غابة، أرض»، وهي الدعوة إلى حشد التنظيمات الاجتماعية للغوند المحليين. إنها ايضا صرخة الحرب للناكسال، ودفاع عن الجمهور ضد كل من يعتدي عليهم. لكن هذا المبدأ يعود إلى أبعد من ذلك، فهو يعود إلى ثورة قبلية جرت ضد نظام(*) الحاكم المسلم القديم لتيلانغانا. خلال الأربعينيات ثار القبليون يقودهم كومارام بيم والشيوعيون ضد أسيادهم الإقطاعيين. خلال الحكم البريطاني بقيت تيلانغانا حرة اسميا كإحدى المقاطعات الأميرية شبه المستقلة.

على رأس النظام القديم جلس نظام، الرئيس المسلم لولاية تحكم من مدينة حيدر آباد. من القرن السابع عشر(**) حتى عام 1948، حكمت سلالة من نظام، لكن دوما بالتضامن مع طبقة من الإقطاعيين الهنود تدعى دورا dora. استخلص نظام والأرستقراطية الإقطاعية دورا أجورا زراعية باهظة من السكان الريفيين، لكنهم لم يستثمروا سوى القليل في البنية التحتية. بحلول أوائل القرن العشرين تسلل البريطانيون إلى بلاط نظام وتحكموا بماليته وعلاقاته الخارجية. مع ذلك بقي نظام يستفيد بشكل جيد.

وفي الحقيقة كان آخر نظام، عثمان علي خان بهادر، الذي حكم من 1911 حتى 1948 لفترة من الزمن، أغنى رجل في العالم، حتى أنه احتل غلاف مجلة التايم عام 1937[4]. لكن، في عام 1948، وعلى خلفية موجة التقسيم، غالى النبيل المتعجرف باللعب بأوراقه خلال مفاوضات الانضمام إلى الهند.

وكما في كشمير، رأت الهند المستقلة حديثا أنه من غير المجدي تماما لها القبول بدولة شبه معادية يحكمها مسلم محشورة في قسمها الجنوبي الشرقي. في 13 سبتمبر عام 1948 انتهت المفاوضات عندما قرر جواهر لال نهرو وحده وبالقوة أن يضم

(*) نظام، أو نظام الملك، هو لقب أطلق على حكام حيدر آباد في الفترة من 1720 حتى 1948. [المحررة].

(**) الصحيح أن سلالة نظام المالك حكمت حيدر آباد منذ يوليو 1720، أي القرن الثامن عشر. [المحررة].

تيلانغانا إلى الهند. تقدم الجيش الهندي الضخم، وقهر حراس قصر نظام ومجموعة من المحاربين المسلمين غير النظاميين دعوا رازاكارز. دعيت هذه «الحرب» التي دامت مدة 4 أيام العملية بولو، وهي إشارة ساخرة لملاعب البولو العديدة المجهزة التابعة لنظام. بالتالي ضمت دولة حيدر آباد إلى جمهورية الهند.

لكن الأمور الأساسية لم تتغير بالنسبة إلى مزارعي تيلانغانا. بقيت المنطقة منعزلة وراكدة اقتصاديا، واستمر فلاحوها في العيش ضمن شبكة من الخطر، محصورين ضمن تقلبات الأسواق وسياسات الولاية والطقس. كان العامل الأخير، وهو الطقس، الأكثر أهمية في المناطق الجافة وشبه الجافة التي تغطي 60 في المائة من مساحة الهند[5].

ترجع معظم التيارات الناكسالية أصولها إلى الحزب الشيوعي في الهند (الماويين)، وإلى مذبحة غامضة عام 1967 في قرية غرب البنغال تدعى ناكسالباري في الأجزاء الفرعية من دارجيلنغ المشهورة بزراعة الشاي[6]. في عام 1969 تجمع الناكسال في حزب سياسي دعي الحزب الشيوعي في الهند (ماوي - لينيني)، لكن الحزب حظر. أجبر هذا الناكسال على الاختباء في مناطق نائية، حيث مالوا إلى الانشطار إلى فئات من دون قيادة مركزية[7]. من البداية، وُجد الناكسال في غرب بنغال وبيهار وأندرا براديش[8].

الناكسالية الآن

في سياق الحديث مع المزارعين المكافحين في جامني، تبين أخيرا أن لهذه القرية تنظيمات جماهيرية متصلة بالناكسال. من خلال هذه الحركات احتج المزارعون مرارا، ونظموا وقفا للسير للمطالبة باستثمار الحكومة في أنظمتهم المائية. أرادوا بمجموعهم حفر الآبار، ورفع الماء للري من خزان ساتنالا الجوفي. فرديا، أراد العديد منهم السفر إلى حيدر آباد فقط على أمل العمل في مواقع البناء، أو السفر شمالا إلى ماهاراشترا حيث يمكنهم العمل كعمال زراعيين في مزارع كبيرة.

الحرب الناكسالية عملية غريبة تمزج بين احتجاجات الطلاب والمثقفين في المدن، والأفعال المباشرة غير العنيفة للتنظيمات الفلاحية (كإغلاق الطرق)، والأساليب الإرهابية لرجال العصابات (كالاغتيالات وتفجير الطرقات). بدا من الصعب على

الناكســال الاســتيلاء على الحكم، لكن قتالهم لم ينحسر مع نهايــة الحرب الباردة. في الســنوات الأخيرة هاجمتهم الدولة بأســلوب مكافحة تمرد كلاسيكية تزداد عنفا، متعقبة المتمردين ومؤيديهم من المدنيين لتقتلهم. تخلق الحرب أشــكالا دوارة من العنف توهن النسيج الاجتماعي وتصيبه بالفساد والجريمة والأمراض.

في هذه المقاطعة تم على الأغلب ربح الحرب الصغيرة ضد الناكسال، في الوقت الحــاضر على الأقل. مع ذلك لايزال مؤيدو الناكســال من المدنيين يغلقون الطرقات بالحواجز، ولايزال الناس هنا يحتفلون بالذكرى السنوية لمذبحة 20 أبريل عام 1981 ســيئة الذكر، حيث قتلــت الشرطة مائة من القبليين في قريــة اندرفيللي[9]. يخترق الناكســال أيضا صفوف أعدائهم، ويقتلون أحيانــا المخبرين (حقيقيين أو متخيلين). قال طالب محلي من قبيلة الغوند كان يرافقني إن رجال العصابات اتهموا ابن عمه في الســنة السابقة بالإخبار عنهم وقتلوه. مات سكان محليون آخرون في عادل آباد على يد الغريهاوندز(كلاب الصيد) – وهي القوات الخاصة للشرطة.

في العام 2008 هاجم الناكسال زورقا للشرطة على سد باليميدا- سيليرو بالقرب من حدود أندرا - أوريسا. في تلك المعركة قرر 59 من الغريهاوند «في عملية مشتركة»، لســبب أو آخر، عبور الســد في زورق واحد، حيث هاجمهم الماويون بإطلاق النار عليهم من التلال المجاورة. انقلب زورق الشرطة وقتل 38 من مغاويرهم[10].

المناخ والماء والحرب

في تيلانغانــا يعتبر الماء سياســة. وإدارة الماء هــي إدارة المجتمع. هذه المنطقة محصورة بين نهر غودافاري في الشــمال ونهر كريشــنا في الجنــوب. كل منهما يبدأ كنهر تغذيه الأمطار وليس الثلوج، كما هي الحال بالنسبة إلى نهري الغانج والسند. ولذلك فإن نهري تيلانغانا مهددان جدا بتغير المناخ، وإزالة الغابات محليا. ينبع نهرا غودافاري وكريشنا في الغاتس الغربية – الجبال والتلال التي تلتقط الجزء الأكبر من أمطار المونســون الصيفية، ويتصفيان شرقا عبر هضبة الدكن خلال تيلانغانا، ليصبا في النهاية في خليج البنغال. عندما تفشل أمطار المونسون تتناقص مياه النهرين إلى مجرد ذكريات. وحتى في ذروة المونسون عام 2010، حصل نقص بمقدار 25 في المائة عن المعدل المحلي في عادل آباد[11].

يتنبأ علماء المناخ بتغيرات فيزيائية كارثية لشبه القارة الهندية في المستقبل القريب. ارتكب التقرير التقويمي الرابع للجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC خطأ خطيرا وسيئ السمعة في التنبؤ بسرعة ذوبان الجليد في المستقبل[12]. لكن بعد كل ما تعرض له العلم من نقد عدائي، تبقى نتائج التقرير التقويمي الرابع صحيحة. " تناقصت كتلة جليد الهندو كوش - همالايا بأكملها في العقدين الأخيرين. وهي تستمر بالتناقص بمعدلات مخيفة[13].

الآن اعتبر هذا: ثلثا الهنود مزارعون، ومعظمهم يعتمد على تدفق المياه من جليديات الهمالايا أو من أمطار المونسون. والنظام الهيدرولوجي للمنطقة ينزلق إلى أزمة: يزداد تذبذب المونسون، وتتأخر الأمطار وتقل جدا، أو أنها تأتي بشدة ودفعة واحدة. في الشتاء لا تحصل بعض المناطق على الأمطار.

عندما قابلت أحد أبرز علماء المناخ في الهند، الدكتور موراري لال كان قلقا: «الطبقة السياسية في حالة إنكار تام. إنهم لا يتعاملون مع قضية تغير المناخ. إنهم يعتقدون أنها مشكلة الإنسان الغني فقط. لا شيء يقف في وجه «تألق الهند». أتفهم ذلك؟ إنهم يفكرون «التنمية أولا ثم معالجة الأمور البيئية». لقد تمت معالجة البيئة فقط بضغط من المجتمع الدولي، وفقط خلال السنوات الثلاث السابقة بدأوا بمجرد إدراك وجود مشكلة. «بعد عدة أشهر صدم وزير البيئة الهندي جيرام راميش العالم عندما اتهم الدول الغنية بإثارة الرعب من دون مبرر». «للعلم حدوده»، قال الوزير[14].

اختصاص لال هو نظام المونسون، وهو لاعب مهم في اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC. يقول بأن المونسون «يظهر تذبذبا متزايدا» مع زيادة طفيفة في الهطول الكلي، لكن بطريقة عشوائية أكثر بحيث إنه مع إدارة سيئة للأراضي، واهتمام غير كاف بحصاد المياه، سيؤدي إلى تصحر أكبر وجفاف على الرغم من هطول أكبر. «منذ عشر سنوات تنبأت بانخفاض هطول الأمطار الشتوية في الشمال، وقد حدث هذا بالفعل». قال لال بلهجة غاضبة حزينة[15].

لاحظت المخابرات الأمريكية هذا أيضا. في فبراير 2010 أخبر آدم دينيس بلير رئيس المخابرات الوطنية الكونغرس: «بالنسبة إلى الهند يشير بحثنا إلى أن التأثيرات العملية لتغير المناخ سيتم تدبرها من قبل نيودلهي حتى عام 2030. بعد ذلك فإن

قدرة الهند على معالجة الوضع ستنخفض مع تراجع الإنتاج الزراعي وتناقص موارد المياه وزيادة الضغوط من جراء الهجرة عبر الحدود إلى البلد»[16].

القضيــة المحورية هي المياه من حيث كميتها ونوعيتها. متى يأتي المطر؟ وكيف يهطل؟ أمــران مهمان جدا بقدر أهمية هل ســيهطل؟ بكلمات أخرى فإن تذبذب المونسون يعني أخبارا سيئة للمزارعين الهنود. إن له تأثيرا سلبيا في مردود المحاصيل أكثر مما تظهره بيانات الهطول المتوسطة والإجمالية. بمصطلحات اجتماعية، يتجلى تذبذب المونسون على شكل زيادة الديون والبؤس والنزوح والصراع الاجتماعي.

المصدر الآخر للماء في الهند هو كتل الجليد على الهمالايا – التي تدعى بالقطب المتجمــد الثالث – والتي تذوب بسرعــة. احتفظت الـــ 46298 كتلة جليدية على الهمالايــا بالماء على شــكل احتياطي متجمــد لمصلحة مئات الملايــين من البشر في آسيا[17]. لو اســتمرت إصدارات غازات الدفيئة بالزيادة من دون توقف، واستمرت درجــة حــرارة الأرض بالارتفاع، واســتمرت تلك الكتل من الجليــد بالاختفاء تماما، فســتصبح أنهار الغانج والسند ويمُنا والبراهمابوتترا والأنهار الأخرى التي تجري عبر الســهول الشــمالية في الهند، مجرد ممرات فصلية يتدفق فيها المــاء عندما يهطل المونسون فقط[18].

على سبيل المثال فإن نهر الغانج – أو غانغا ما، أقدس أنهار الهندوس، والمصدر المائي لحوالي 500 مليون إنسان – له تدفق فصل جاف متشكل من 70 في المائة من الماء المذاب من جليدية غانغوتري، وهي قناة واســعة مــن الجليد بعرض 5 أميال وطــول 15 ميلا. تتقلــص الغانغوتري بمعدل 40 ياردة في العام، وهذا يعادل ضعف سرعــة تقلصها تقريبا منــذ عقدين[19]. وهذا نموذج عــن «التقلص السريع جدا في جليديــات المنطقة»[20]. الغانج الآن في حالة تناقــص خطير، بحيث إنه اعتبر ضمن أكثر 10 أنهار مهددة في العالم[21].

على المدى القصير يؤدي هذا الذوبان لجليديات الهملايا إلى زيادة تدفق المياه، لكنه على المدى الطويل فإن أنهار آسيا التي تتغذى من الجليديات ستختفي بشكل كبير[22]. وأثناء ذلك يزداد عدد السكان والطلب على الماء: بحلول عام 2050 سيكون عدد سكان الهند أكبر ربما من عدد سكان الصين. وسيظل نحو 900 مليون من هؤلاء الناس يعملون في الأرض[23].

الولايات الهيدروليكية - في النظرية والتطبيق

بالعـودة إلى قريـة جامني في مقاطعة عادل آباد يسـتمر الحديـث عن الماء. يـروي بعض المزارعين هنا أراضيهم من آبار صغـيرة، وبعضهم من نهر محلي، لكن معظمهم يعتمدون بشـكل رئيس على الأمطار ولا شيء أكثر. إنهم يعيشـون تحت رحمة أمطار المونسـون التي يبقى معظمها بعيدا عن الدكن، بسـبب جبال غاتس الشرقيـة والغربيـة. ليس بعيدا عن القرية هناك نهر جاف تقريبا يدعوه السـكان المحليون ببساطة الجدول الكبير. يتدفق هذا النهر إلى خزان الساثنالا، والذي تكون من سد بني منذ عقود مضت.

في مثل هذا المناخ يشـكل الري وحصاد الأمطار مشـاهد رئيسة في المنطقة. في أندرا براديش وتامول نادو اعتمدت معظم الزراعة تقليديا على حجز المياه وتخزينها. «يحول الهطول ويلتقط ويخزَن ويتم التحكم به في عدد كبير من الصهاريج»، تعرف محليا بالخزانات، وتشكل من إغلاق تصريف منخفضات طبيعية بسدود ترابية على شـكل هلال[24]. تغذي قنوات من الخزانـات الأراضي بالمياه، وتحكم قوانين مفصَلة متى تعطى حصص الماء، وكيف؟

نظر ماركس وفيبر بشكل شائع، لكنه إلى حد ما غير صحيح، إلى أن أنظمة الري في جنـوب الهند هي نواتج دول منظمة ومسـتقرة وشـمولية. افترض رهط طويل من العلـماء الذين يتبعون هذين المفكرين الرئيسـين أن مشـاريع الري الضخمة ارتبطت عادة بالاستبداد وبيروقراطيات دول مستقرة تستوعب الفائض الذي ينتجه المجتمـع. هذه العلاقـة بين الري وسـلطة الدولة محورية في نظريـة ماركس عن «النمط الآسيوي في الإنتاج».

في كتابه الكلاسـيكي «الاسـتبداد الشرقي: دراسـة مقارنة للسـلطة الشمولية» وصـف كارل ويتفوغـل الضرورات السياسـية للماء كما يـلي: «لا تجبر أي ضرورة عمليـة (مزارعا) على اسـتغلال التربة أو النبات بالتعاون مـع آخرين. لكن الحجم الكبير لمصادر الإمداد بالماء كلها، عدا أصغرها، يخلق مشكلة تقنية تحل إما بالعمل الجماعـي وإمـا لا تحل على الإطـلاق»[25]. وشرح عالم آخر: «تتطلـب الحاجة إلى التحكم بعمل السخرة، والتنافس بين المجتمعات أعمالا اضخم، وتتطلب هذه عمالة أكبر من السخرة، وهذه تتطلب بدورها مستويات أعلى من الري والتنسيق، وبالتالي

أنظمـــة ضخمة دائمة تتطلـــب في النهاية بيروقراطيات متخصصـــة دائمة، تقرر عدد النـــاس اللازمـــين ولأي عمل وأين. يجب أن تكون هذه البنى منظمة شـــاقوليا»[26]. وبعبارة أخرى فإن الفكرة وراء الاستبداد الهيدروليكي، أو النمط الآسيوي من الإنتاج هـــي: يبدو أن أنظمة الـــري بالقنوات على المقياس الكبـــير تتطلب تنظيما جماعيا، ويبدو أن هذا يتطلب بدوره دولة مركزية قوية.

في الحقيقة، يبدو أن أنظمة الري القديمة في الهند تطورت ببطء، وعلى مراحل، وبالمصادفة، من خلال سلسلة من ترتيبات سياسية غير مستقرة، تخللتها فترات من العنـــف. وبالنظر إليها على المدى الطويل، فقد حدث العديد من التغير الاجتماعي، وعـــدم الاســـتقرار، خاصة على الهوامش الجغرافية والسياســـية للولايـــات[27]. وكما حاجـــج عالم الإنســـانيات ديفيد موس ضـــد التوافق القديم، فقـــد ارتبطت الحرب وحكم المحاربين في جنوب الهند دوما بالري وحقوق المياه - لكن ذلك لم يعن دوما الاســـتقرار. كان الصراع السياسي مســـتمرا، ومن المحتمل جدا أن أنظمة الري بقيت دوما في حالة من الأزمة النسبية، والتجهيز السيئ.

تمسَـــك الممثلون البريطانيون لشركة الهند الشرقية بهذه الحقيقة، واستخدموها كركيزة عقائدية ضمن مهمتهم الأكبر. استنفدت ملاحظات الهدر في المنشآت المائية في تقاريرهـــم جهـــدا كبيرا، وكما يـــشرح موس «كان هؤلاء الموظفـــون أول من رمز إلى الخزانـــات كجزء مـــن تقليد نبيل لمجتمع قديم، أزيل من قبل حكام مســـتغلين معاصرين. ومن هذا المشـــهد المحطم، استلهموا تبريرا لمد حكم بريطاني من النظام والملكية الخاصة»[28].

بالتالي شـــكل المـــاء والري والطقـــس العنيف عوامل محورية في السياســـة الهندية وبنية الســـلطة وترتيبات الملكيـــة وتقاليد القمع والمقاومة لقرون. تغير المنـــاخ - والتجمع الكارثي الذي يعبر عنـــه ضمن العالم الاجتماعي - يزيد فقط من أهمية الماء.

الليبرالية الجديدة والموت بالقطن

يـــزرع المزارعون في تيلانغانـــا كلهم نوعا خاصا من القطـــن المعدل جينيا. وهو منتج من شركة مونســـانتو الزراعية العملاقة. أصبح هذا القطن الجديد متوافرا منذ

سـنوات قليلة سـابقة. وعلى الرغم من الإعلان أنه لا يحتاج إلى مبيدات أعشـاب، فإنـه في الحقيقة يحتاج إليها. في البداية رفـع القطن الجديد الإنتاج والدخل، لكن المردود هبط بعد بضع سـنوات، وتحوَل القطن الجديـد إلى لعنة. تتغلغل جذوره عميقا في التربة بحيث تمتص المغذيات جميعها. وقبل وقت طويل يحتاج المزارعون إلى كميات ضخمة من الأسمدة الصناعية – وهذا يعني الاقتراض. يدعو العلماء هذا «الدورة المغلقة السيئة للزراعة الكيميائية».

«نعلـم أن الأرض بعـد 3 إلى 4 سـنوات سـتموت»، قـال لينغا ريدي سـاما الـذي ينتمي إلى عائلة هندوسـية مهاجرة، وليس إلى قبيلـة الغوند المحلية. يعلم المزارعون في هذه القرى أنهم يستخرجون المعادن من التربة، مستخلصين مغذياتها، ومصدرين لها على شكل قطن رخيص. وبينما يتناقص محصولهم تزداد ديونهم. وفي أسـوأ الحالات يقتل المزارعون أنفسهم. هذا هو التجمع الكارثي محليا على مستوى محاصيل معينة وعائلات حقيقية.

هـل انتحر أحد في جامني؟ نعم انتحر رجل في الخامسـة والأربعين من العمر يدعى أنجانا في السـنة السـابقة بتجرع المبيد. «قتل نفسه ليهرب من ديونه»، قال أحد المزارعين. «الآن تعمل زوجته وابنه البالغ بالأجرة في مزرعة في دولة ماهاراشترا».

تعود المشـكلة مرة أخرى إلى الماء. في السـنوات الأخيرة عانى الري نتيجة موجة من عدم الاسـتثمار الليبرالي الجديـد. رفعت الدولة معونات مهمـة عن المزارعين الصغار، ونتيجة لذلك انتحر الآلاف منهم.

مضـت العملية عـلى النحو التالي: بـدءا من عام 1991 بـدأت الحكومة الهندية عملية من التحرير الاقتصادي. أصبحت الكفاءة هي الكلمة المفتاحية: قطعـت الدول دعم الطاقة عـن المزارعين. وبذلك أصبح اسـتخدام المضخات عـلى الآبار والـري أغلى. للتعامل مع الوضع بدأ المزارعـون بأخذ القروض من البنـوك المحلية، أو من المرابـين[29]. عنت السياسـات الليبرالية الجديدة برفع الدعم، وقوع أنظمة الري المحلية في الإهمال. ولأن تجهيزات الري سيئة، تحول المزارعون إلى حفر آبار ممولة بشـكل خاص، وسحب المياه الجوفية. جرى هذا نموذجيا بطريقة عشوائية وفردية أو قرية فقرية، بتخطيط قليل أو إدارة مائية سـيئة. ونتيجة لذلك بدأت الخزانات الجوفيـة سريعا بالانحدار. تتطلب هذه

الاستراتيجيات الخاصة للمعالجة توافر رأسمال خاص. لحفر الآبار كان على المزارعين الاقتراض من المرابين المحليين - غالبا -بفوائد مرتفعة. وعندما يفشل المحصول أو تجف الآبار، وهو ما أصبح أكثر شيوعا مع تغير المناخ، لا يستطيع المزارعون تسديد ديونهم.

بحلول أواخر التسعينيات، لم تعد لدى العديد من المزارعين خيارات. كانوا متأخرين جدا في الدفع لكي يتمكنوا من الاستدانة من جديد، ومفلسين جدا لإنتاج المحاصيل. بالنسبة إلى الآلاف جاء المنفذ الوحيد للهرب من هذه الديون عن طريق الانتحار - غالبا - بابتلاع المبيدات. بحسب بيانات من مكتب سجلات الجريمة الوطني قتل 150 ألف مزارع هندي أنفسهم بين عام 1997 و2005. ولكن كما تذكر أنورادا ميتال، «تعتقد منظمات المزارعين أن عدد المنتحرين أكبر من ذلك»[30]. في أندرا براديش قتل ما يقدر بـ 2000 إلى 3000 مزارع أنفسهم بين عامي 1998 و2004. وكما أخبر أحد المقرضين مجلة النيويورك تايمز: «راكم العديد من المرابين الكثير من المال... أما المزارعون فقد تحطم العديد منهم»[31].

عندما أصبحت العلاقة بين الجفاف والري والديون والانتحار واضحة منذ 12 عاما، قامت مجلة السياسة والاقتصاد الأسبوعية بتقصي أسباب ذلك. «تظهر دراسة لـ 50 مزارعا منتحرا في مقاطعة وارانغال (قرب عادل آباد)، أن «مياه» الآبار هي المصدر الأكبر للري لنحو ثلاثة أرباع المزارعين. حفر نحو ثلث الآبار فقط تحت خطط الدعم الحكومي. في بقية الحالات تحمَّل المزارعون بأنفسهم نفقات حفر الآبار. إضافة إلى هذا فقد أدى استنفاد المياه الجوفية في السنوات الأخيرة إلى ضرورة تعميق الآبار، ووضع أنابيب فيها».

تراوحت تكلفة بئر كهذا في أواخر التسعينيات بين 1400 و3000 دولار[32]. وكما وجدت دراسة للبنك الدولي حول الجفاف وتغير المناخ في اندرا براديش، فإن هذا يعني الاستدانة. لاحظ البنك «كانت استجابة العائلات للجفاف عبارة عن ردود أفعال، ولم تفعل سوى القليل لبناء مقاومة للجفاف على المدى البعيد. يبقى الإقراض الاستجابة الأكثر شيوعا للجفاف». في الحقيقة أخذت 68 في المائة من العائلات المشمولة في الدراسة قروضا بسبب الجفاف، حيث اقترض الملاكون الكبار «من مصادر رسمية (كالبنوك)، بينما اقترض المزارعون

الصغـــار، والذين لا يملكون أراضي من المرابين بفوائد عالية»[33]. لم تكن الفوائد على شـــكل ربا فاحش فقــط، لكن هذه العلاقات غير الرســمية اعتمدت على آليات تنفيذ مذلة ووحشية.

الثورة الخضراء

الســبب الآخر للاقــتراض هو شراء البذور. كانت قمة هــذا الفخ هي قطنا من نوع Bt المعدل جينيا من قبل مونســانتو. تعود قصة Bt إلى الأيام الذهبية لنظرية التحديــث والثورة الخـــضراء، عندما احتل كتاب والت روســتو عام 1960 «مراحل النمـــو الاقتصـــادي: بيان غير شـــيوعي» مرتبة عاليـــة بين العلـــماء الغربيين وصناع السياســات[34]. كان الهدف العام في ذلك الوقت هو تصنيـــع الزراعة، وبالتالي رفع المـــردود، وتحرير العمالة، التي يمكن الاســتفادة منها في المـــدن كجزء من قطاعات التصنيع الجديدة. ولهذا الهدف أدخلت أنواع جديدة من البذور.

يُعـــزى مصطلح «الثورة الخـــضراء» لويليام غود من الوكالـــة الأمريكية للتنمية العالميـــة USAID ويعـــود إلى نحو عـــام 1968[35]. بمعنى محدد، شـــملت الثورة الخـــضراء مجموعة من برامج تكثيف زراعي هادفـــة ومخططة ومدعومة من قبل البنك الدولي وUSAID. أدخل الخبراء بذورا متنوعة عالية المردود، وأسمدة مصنعة ومبيـــدات كيميائية، وريًّا يعتمد بشـــدة عـــلى المياه الجوفيـــة. دعمت الحكومات والمؤسسات برامج تعليمية، وتوسيع المزارع، لتوطين أساليب هذه التقنيات الجديدة بين المزارعين. وبصورة أوسع، تشير الثورة الخضراء إلى الانتشار غير المخطط له لهذه الأساليب والتقنيات نفسها خلال عالم الجنوب.

في انـــدرا براديـــش كان الجناح الرســـمي للثـــورة الخضراء محصـــورا بالدلتات الســـاحلية. كان الرز والقمح أول المحاصيل المستهدفة. كان هدف البرنامج في الهند ككل هـــو تحقيق الاكتفاء الذاتي بالغذاء، وخلـــق فائض من العمالة، ورأس المال في الريف يمكن نقلهما إلى المدن وتســـهيل التصنيع. وبحسب روستو سيمكّن هذا من عملية الإقلاع الاقتصادي - البدء بتصنيع سريع وحديث ونمو اقتصادي.

انتقد البيئيون كثيرا الثورة الخضراء في الهند بسبب استخدامها الجائر للكيمائيات السامة، بينما هاجمها الماركســـيون لخلقها عدم مساواة أكبر بين المزارعين[36]. لكن

هذا الدفع التحديثي لقي دعما من الزعماء الجماهيريين، وشـمل أشكالا من إعادة توزيع المسـاعدات الحكومية، مثل برامج تثبيت الأسـعار، ودعم الدخل الأسـاسي للمزارعين[37]. بالمقارنة مع التقشـف الليـبرالي الجديد اليوم، أدت الدولة دورا قويا واشتراكيا تقريبا. زودت شركة مملوكة للدولة، وهي مؤسسة البذار الوطنية، التمويل والتوجيه، وتضاعف المردود خلال السـتينيات. لكن هذا المردود مع ذلك كان تابعا لاسـتثمار رأسمال أكبر. احتاج المزارعون إلى رأسـمال أكبر لشراء الأسمدة والمبيدات وأنابيب الري والآلات[38]. لذا ارتفعت الديون مع ارتفاع المردود.

وسرعان ما أصبح القطن أحد المحاصيل الرئيسة. لم تعد القضية الآن أمنا غذائيا أكبر، لكنها أصبحت انتصارا وأرباحا في أسـواق المواد الأولية العالمية. لكن مشـكلة القطـن هي أنـه يحتاج أيضا إلى كميـات كبيرة من المياه. خلال عقـد بدأ المردود بالانخفاض مع تجريد التربة من المغذيات، وتسميمها بالمبيدات. كان الحل الوحيد بالنسـبة إلى الكثير من المزارعين هو المضاعفة هبوطا للأسفل: استدن أكثر، واستثمر أكثر، واستخدم تقنية أكثر، وراكم دينا أكبر.

جاءت الثورة الخضراء إلى هضبة الدكن بشـكل غير مباشر وغير رسـمي عندما هاجـر مزارعـون ناجحون من طبقة الكاما برا من السـاحل بحثا عن الأراضي التي يزرعون فيها القطن والفلفل. اسـتقر المهاجرون بعضهـم مع بعض، وحافظوا على علاقات مصاهرة قوية مع الساحل، لكنهم جلبوا معهم أساليب الزراعة كثيفة رأس المال ونشروها[39]. مرة أخرى تكرر النمط المجرّب في أماكن أخرى: في البداية كانت المحاصيل جيدة، ثم تناقصت بشكل ثابت بعد ذلك.

مع صعود زراعة القطن الكثيفة رأس المال في تيلانغانا خلال الثلاثين سنة الأخيرة برز تناقضان غريبان[40]. أولا اسـتمر سـعر المحصول النقـدي الرئيس وهو القطن بالانخفاض: مع ذلك استمر الفلاحون في زراعة المزيد منه. لماذا لم يتحول المزارعون إلى محاصيـل أخرى؟ وثانيا، بينما كان إجمالي النمـو في الإنتاج الزراعي في المنطقة قويا – أكثر من 4 في المائة في العام لسنوات عديدة – فإن مداخيل معظم المزارعين واسـتهلاكهم تناقصت بشـدة، ويتضح هذا على شـكل انتحار المزارعين، وتأييدهم للناكسـال[41]. يصبح السـؤال الآن: لمـاذا يلجأ المزارعون إلى الاسـتدانة، كي يزرعوا محصولا (القطن) تنخفض أسعاره؟

حدد مؤرخ اقتصادي لامع شــاب اسمه فامسي فاكولابهارانام السياسة وراء هذا التناقض، والتي تبدو على شكل مجموعة خرقاء من الحقائق، وفسّرها. يقبع الجواب كـــما كتب في نظام القروض. يطالب المقرضون بزراعة القطن تحديدا، لأن القطن لا يــؤكل، وبالتالي لا يمكن للمنتجين خلال الأزمـــات أن «يسرقوا» أي يأكلوا المحصول. يعطي المقرضون أساســا قروضا مسبقة على المحصول ثم يتسلمونه. لو كانت هناك عائلــة زراعية تموت من الجوع، وكان محصولها من القمح، فمن المحتمل أن تأكله لتبقى على قيد الحياة بدلا من أن تعطيه للمقرضين. يتجنب القطن هذه المشكلة. لذا حتى لو كانت أسعار محاصيل غذائية أخرى كالقمح أعلى، إلا أنها تحمل مخاطر أكـــبر لمقرضي الأمـــوال. القطن هو الضمانة البيولوجية للمقرضـــين لتوجيه المزارعين بعيـــدا عن المحاصيل الغذائية، حتى لو كانت إمكانية الربح أكبر، لأن القطن وحده مضمون مباشرة. باستخدام هذه الفكرة بيّن فامسي أن المزارعين في تيلانغانا ابتعدوا منــذ العام 1980 عن زراعة حبوب خشـــنة كالقمح والشـــعير والدخـــن إلى زراعة القطن، حتى عندما كان يفترض أن توجههم حركة الأسعار في الاتجاه المعاكس.

ترافق هذا التحول مع الإصلاحـــات الليبرالية الجديدة التي أزاحت من الزراعة العديـــد مـــن الحمايات القانونيـــة والدعم الحكومي – بما في ذلك التســـليف العام واســـتثمار الدولة في الري[42]. اســـتجابة للانسحاب النســـبي للدولة، أخذ المزارعون عـــلى عاتقهم تكاليف أكـــثر، وبالتالي كان عليهم الحصول عـــلى المال من أي مصدر كان – وهذا يعني من المرابين. وكلما ازداد تحول المزارعين إلى المرابين، ازداد الضغط عليهـــم لزراعة المزيد من القطن. وكلما زادت كميـــات القطن التي يزرعونها، كلما انخفضت أسعاره.

لـــذا أصبح مزارعـــو تيلانغانا محصوريـــن ضمن حلقة اقتصاديـــة مفرغة تتجه للأسفل: يحتاجون إلى رأسمال ومدخلات غالية الثمن لإنتاج محصول تنخفض قيمته حتى أثناء الاستثمار الكثيف فيه. والتجهيزات المركزية – خاصة مع جعل تغير المناخ المنطقة أكثر جفافا، بســـبب الطقس العنيف والجفاف المتكرر – هي البئر وأنظمة الـــري، لذا يقترض المزارعون. يدعو فامسي هذا «نموا مســـببا للبؤس» - إنتاج زراعي يـــزداد ومداخيل تتناقص. وصف آخرون المجموعة ذاتهـــا من التناقضات بـ «الفقر الحديث» أو أنها شكل من «ندرة مدفوعة تنمويا»[43].

ري الفساد

فاقم سوء الادارة والتدخلات السياسية حديثا من مشكلة الماء الناجمة عن تغير المنـاخ في أندرا براديش. يعود إهمال نظـام إدارة المياه التقليدي بصورة خاصة إلى تدخلات راما راو. كممثل سـينمائي يتكلم لغة التيلوغو، دخل راو كما عرَف نفسـه المشهد السياسي، بتأسيس حزب تيلوغو ديسام. وهو حزب محلي تيلانغاني سعيا إلى تنمية أكبر في شـمال أندرا براديش، وحكم معظم الثمانينيات والتسـعينيات. صنع جاذبيته الشخصية مباشرة للناس بمزج شعبوي للأفكار من اليسار واليمين.

مـن ناحية، قاتل راو الناكسـال بضراوة، متزعما إنشـاء الغريهاوندز (كلاب الصيـد) – قـوات شرطة مكافحة التمرد. ومن ناحية أخرى فعل الكثير لإفشـال مجموعـات الضغط القديمة، وتقديم الخدمات للطبقات الشـعبية في المنطقة. وكجـزء من هجومه على الامتيازات المؤسسـة والموروثة، ألغـى نظام المناصب ونظـام الطبقات الإقطاعي، اللذان ورث النبلاء المحليون بموجبهما وظائف جمع الضرائـب، وإدارة الميـاه، وصيانة أنظمة الـري – أي الفـرص جميعها للتحكم بالمزارع. أزال الممثل السـينمائي مزايا القرية هذه كلها – شيء من العدالة، لكنها أيضـا طبقة إضافية أخرى للتدخل السـياسي بينه وبين الجماهير – لكن لسـوء الحـظ لم يتم اسـتبدالها بشيء أفضل. نظَمت بعض لجـان القرى لكنها لم تمول. بقـي التحول إلى نظام مختلف أكثر ديموقراطية لإدارة المياه متخلفا وغير منظم، وبالتالي عانى نظام الري المحلي من ذلك.

الفسـاد كان أيضا مشـكلة تؤثر في إدارة المياه. في قرية باتاغفادا أسفل الطريق مـن جامني عبر الجـدول الكبير، وأعلى هضبة صغيرة، يرتبط الناس بشـدة بحزب المؤتمـر الهندي. أسـباب ذلـك واقعية جدا: رصـف الحزب شـارع القرية الرئيس بالاسـمنت، ووعد بجعل الوصلات إلى الشبكة الكهربائية التي يستخدمها القرويون لسرقة الكهرباء قانونية وتحسينها. أخبرني القرويون كيف أنهم وعدوا بحفر خمس آبار، وكيف سـجل أنها حفرت في سـجلات المقاطعة، لكن لم ينجز سوى واحد منها فقـط. ولذلك عانى الناس من تناقص المـردود وانخفاض المداخيل وازدياد الضغوط والأمراض والخوف والإحباط. فشـلت الأمطار الشتوية وأصبح الجدول الكبير مجرد بضع برك من المياه الراكدة.

خليط جاف من الغضب

هذه العوامل الاجتماعية - انسحاب الدولة وصعود زراعة كثيفة رأس المال ونهب المرابين وعدم كفاءة الإدارة المحلية وفسادها وكلها ضمن مناخ شبه جاف - شكلت جميعها الأزمة الموجودة مسبقا التي يتسلق عليها تغير المناخ الآن. تساهم هذه العوامل، مثل الحرب ومكافحة التمرد، في التجمع الكارثي للمناخ والفقر والعنف.

من تحت الشجرة أستطيع رؤية لماذا كان لينغا ريدي ساما والمزارعون الآخرون في جامني متشائمين جدا حول الزراعة. كانت لديهم مجموعة واضحة من الأفكار حول السياسات البيئية لما يفعلونه: قطن الـ Bt الذي يزرعونه يدمر الأرض. يقول البعض إن نمو السكان أدى إلى زيادة استغلال الغابات، وهذا كما يعتقدون (بصحة) يؤثر سلبا في هطول الأمطار. وبعيدا على التلال قطع تجاري وغالبا غير قانوني للأشجار. أما هنا، فإزالة الغابات هي منتج ثانوي لوقودهم، ولحاجات البناء المحلية.

في الغابات النائية في تشاتيسغار فإن نشاط الناكسال قوي جدا، بحيث إن شرطة الدولة شبه العسكرية مقيمة هناك، ومحصورة ضمن مخيماتها المحصنة - حصون مدعمة بأكياس الرمل والأسلاك والجدران المدعمة والأبراج المجهزة بالبنادق. عندما تخاطر الشرطة بالخروج يكمن لها الناكسال. يجمَع رجال العصابات أيضا قواتهم لشن هجمات كبيرة، وفي بعض الأحيان يسيطرون على مخيمات الشرطة شبه العسكرية، ومراكز الاحتجاز. على سبيل المثال، في نوفمبر من عام 2005 اقتحمت عصابات الناكسال سجنا في جيهان أباد في بيهار «مطلقين النار على المكاتب، ومحررين عدة مئات من السجناء». وفي مارس عام 2006 «هاجموا معسكرا للشرطة في تشاتيسغار قاتلين 55 شرطيا، ومستولين على كميات كبيرة من الأسلحة». لقد فجَروا محطات القطارات وأبراج النقل. خلال انتخابات عام 2009 استولوا على قطار ركاب، وأخذوه رهينة، وهاجموا خطا طينيا لنقل خام الحديد بتكلفة عدة مليارات الدولارات[44].

سلاح الناكسال المفضل هو اللغم الأرضي الذي يفجر بالإشارة. بما أن هذه ليست ألغاما تفجر بالضغط، يمكن زرعها في الطريق قبل شهور من استخدامها: تؤثر الأمطار والأوحال والمواصلات والشمس على منظر الطريق فوق الألغام، بحيث

تشكل تعمية تامة. يصبح من المستحيل اكتشاف الألغام المدفونة تحت الطرقات المرصوصة بشدة، لكن تبقى المتفجرات فعّالة ومربوطة بأسلاك طويلة يمكن وصلها بصواعق وإطلاقها كلما كان رجال العصابات جاهزين لذلك.

ومثل الأجهزة المتفجرة المرتجلة، أو الألغام المصنوعة يدويا IED في العراق وأفغانستان، فإن ألغام الناكسال فعَالة على مستويات عدة في الوقت نفسه. تكتيكيا تشوه الألغام رجال الشرطة شبه العسكرية وتقتلهم. ونفسيا تتعب المتفجرات العدو وتدمر معنوياته. وسياسيا تعمل الألغام كحاجز اجتماعي بين قوات مكافحة التمرد والناس الذين يريدون التحكم فيهم. الوضع سيئ جدا بحيث إن عناصر من القوة الجوية الهندية تضغط لبدء حملة قصف جوي على أراضي الممر الأحمر العطشى[45].

فنون مظلمة من الاضطهاد

بدلا من تبني تقنيات الزراعة الخضراء الحديثة بقوة، ودعم المزارعين الذين يواجهون مناخا غير معروف، ركَزت الدولة على القمع. نجم الانتصار النسبي على العصابات في تيلانغانا من مزيج شبه مثالي من مكافحة التمرد بأسلوب «البندقية والزبدة» التقليدي. عند الطرف النحيف من الإسفين، هناك فرقة المطاردين التي سبق ذكرها، وهي القوات شبه العسكرية الخاصة لشرطة الدولة. تأسست قوة مكافحة التمرد في أوائل التسعينيات وكانت فعالة جدا. لم تتردد في استخدام العنف، لكنها وظفت قدرا كبيرا من الطاقة في الاستخبارات. هذا يعني أن المطاردين صوبوا عنفهم بشكل فعال. غالبا ما كانوا يتنقلون بثياب مدنية، مسلحين بشدة لكن خفية، ويمرون خلال السكان لكن من دون إعلان، غير مرئيين عادة، على شكل فرق من المغتالين أكثر من جنود محتلين. كانوا جزئيا قوات خاصة، وجزئيا كتائب قتل.

أجرت قوات المطاردة عمليات بحث وقتل في حزام الغابات في شمال تيلانغانا لسنوات عدة، ومازالت تقوم بذلك. أحيانا يواجهون العناصر المسلحة في قتال ناري. في أكثر الأحيان يقتلون رجال عصابات غير مسلحين، ومؤيدين مدنيين[46]. بمساعدة شبكة من المخبرين المأجورين، وعناصر قبلية غير نظامية

تخدم الدولة، وعناصر سابقة من الناكسال غيرت ولاءها، أمضت القوة المطاردة نصف عقد من الزمن تمشَط التلال، وتمسح المنطقة فيزيائيا واجتماعيا، وتراقب حركة الناشطين جيئة وذهابا، وتتعرف على الشبكات الاجتماعية في القرى - ثم تقوم على طراز عملية فينيكس للجيش الأمريكي في فيتنام الجنوبية - بتحطيم الروابط الاجتماعية الرئيسة بين رجال العصابات والشعب. أي إنهم كانوا يقتلون العناصر المسلحة وغير المسلحة أو الناشطين. تستمر الإستراتيجية، ولو بدرجة أقل. ودوما، عندما يعرض القتلى على وسائل الإعلام - متسخين وملطخين بالدماء وقد ألقوا على الحصير - تعزو القوات المطاردة الاغتيالات إلى الدفاع عن النفس. المصطلح الذي يصف القتل هو دائما نفسه. إنها عمليات «مواجهة» أو صدامات طارئة بين عصابات مسلحة وقوى النظام. في الممر الأحمر هذا هو المصطلح الذي يطلق على إرهاب الدولة[47].

حدثت ذروة نشاط الناكسال في أندرا براديش في أكتوبر 2003، عندما قام الوزير الأول في الولاية، تشاندرابابو نيدو، بزيارة إلى معبد فينكاتيسوارا الشهير لحضور جزء من احتفال هندوسي. مع مغادرة موكبه للمعبد، رفعت سلسلة من ستة ألغام من نوع كلايتون تفجرت من بعد، الأرض من تحت السيارات في صدمة صامة للآذان ناجمة عن الانفجارات. تشوهت سيارة الوزير المقاومة للرصاص، وانقلبت إلى خارج الطريق. لكن بفضل كفاءة شركة هندوستان موتورز التي أعادت من قبل تجهيزها، بقي نيدو حيا بجروح بسيطة على الوجه والصدر فقط. لكن سائقه وأربعة آخرين من المجلس التشريعي للولاية جرحوا بشكل خطير. كان المهاجمون عناصر من مجموعة حرب الشعب PWG، وهي أحد أكبر الأحزاب الماوية في الهند وأقدمها.

«بيّن الهجوم على نيدو أنه ليس هناك بديل عن العودة إلى الحوار، ومباحثات السلام بين الـ PWG والحكومة». قال أحد المتحدثين باسم الناكسال في العلن، وهو غادار، المغني الشعبي المحبوب الذي يميل إلى اليسار، والذي يستعمل اسما واحدا فقط [48]. بالفعل كان الهجوم إحدى أكثر غارات الناكسال شهرة حتى الآن، ليس بسبب حجمه لكن بسبب هدفه: كانوا على وشك قطع رأس حكومة ولاية. رثت صحيفة السياسة والاقتصاد الأسبوعية(*) التأثيرات:

(*) The Political and Economic Weekly.

مـع ذعر حكومة الولاية من محاولة اغتيال تشـاندرا بابو نيدو، وانزعاج مجموعـة حرب الشـعب PWG مـن فشـل محاولتها، صلّـب كلا الجانبين موقفيهـما الانتقاميـين، ومن المحتمل أن تمر أنـدرا براديش بدورة أخرى من القتل الشرس. سـيكون الضحايا من الرجال. ستستهدف الشرطة قرويين فقراء وناشـطي حقوق الإنسان: على أنهم «ناكسال مشكوك فيهم» (كما فعلوا عند الإغارة على بيـت زعيم حركة الحريات المدنية القديم كانابيران)، وسـتقبض عليهم أو تقتلهم في عمليات مواجهة مزيفة. وستقوم مجموعة حرب الشعب PWG بدورها بـرد الفعل على بعض المسـؤولين من القرويـين أو الموظفين الخاضعين لحكومة الولاية، متهمة إياهم بأنهم «مخبرون»، وبتنفيس الغضب بإشعال النار في بعض محطات القطارات أو أماكن انتظار الباصات[49].

بعـد التفجير ضد الوزير الأول نيدو صعّدت شرطة أندرا براديش من عملياتها. أعـادت حكومة نيدو فتح المفاوضات مع مجموعة حرب الشـعب PWG. (كانت المحادثات تجري منـذ يونيو 2002، لكن هجوما كبيرا على حافلة مملوءة بالشرطة أوقفها) أمرت الشرطة بالانسـحاب، وحث المتمردون على فعل الشيء نفسه. «لدينا تقاريـر تفيد بأن هناك مجموعـات تجول في القرى بأسـلحتها. نطلب منهم عدم التنقل مع أسلحتهم»، قال وزير داخلية أندرا براديش[50].

أجريت المحادثات الأولية عبر مبعوثين كان أحدهم مؤلفا ناكساليا شهيرا أعطاني وصفـه للحادثة ظهر يوم حار في حيدر أباد اسـمه فارافـارا راو. «لم تكن الحكومة جـادة»، قال المؤلـف العجوز. «كانوا يسـتخدمون المحادثات للبحث في شـبكات الناكسـال». بحلول عام 2005 ألقي القبض على فارافارا نفسه، واتهم باغتيال رجال الشرطة. ومع ضربات مطرقـة الولاية مرة أخرى أخبر الصحافة: «حزب المؤتمر مثل سـم حلو. بينما اسـتبعدت حكومة TDP (الحزب المحلي) دومـا المحادثات معنا، يتكلم حزب المؤتمر عن السلام، لكنه يقتل الثوريين في مواجهات مدبرة».

كان وقـف إطلاق النار في أندرا براديـش، وفي ولايات أخرى في نهاية المطاف جزءا من خدعة وإسـتراتيجية أكبر لطرد الشـبكات السرية لمجموعة حرب الشعب PWG بحيث تتم تصفيتهم وسـجنهم. بدأت الحكومة الاتحادية أخيرا في الإعلان عن مكافحة تمرد على ثلاثة محاور: مخابرات مدعومة على مسـتوى الولاية، وقمع بوليسي مستدام مدفوع مخابراتيا، وتنمية متسارعة في المناطق التي يؤثر فيها الناكسال. بين عام 2003

و2005 أعلن أكثر من 1500 ضحية كل عام من كل من الولايات الإحدى عشرة المتأثرة بعنف الناكسال. قتل أكثر من ثلاثمائة شرطي خلال تلك الفترة[51].

بذر الفوضى

وصـل عنف الناكسـال في أندرا براديش إلى ذروته بعد عـام 2005 مباشرة[52]. في النهايـة، برهنت قوة المطاردة على أنها أقوى مما يتحمله الناكسـال في تيلانغانا، وتقهقـر الماويـون إلى غابة تشاتيسـغار وتكاثروا هناك. في تلـك المقاطعة طورت الشرطة قوة من الدفاع المدني دعيت سـالفا جودوم، وهي تعني باللهجة الغوندية المحلية «السـير نحو السـلام». في البداية كانت عبارة عن منظمـة عضوية للدفاع الذاتي، لكن الدولة ضمتها بعد ذلك. أصبح الاشـتراك إلزاميا، وأصبحت هذه «القوة الثالثة» تابعا مسلحا لقمع الشرطة[53].

ضمت المليشيات الجديدة العديد من عناصر الناكسال السابقين، وبهذا الشكل فهي تشبه دوريات المدنيين في مكافحة التمرد في غواتيمالا، أو المليشيات الأولية في كولومبيا[54]. في يناير عام 2009 سـجلت لجنة الحريات المدنية في أندرا براديش أن «مواجهة» واحدة في تشاتيسـغار كانت حقا مذبحة لـ 18 قبليين من جانب عناصر سـالفا جودوم مسـلحين ومدعومين من الشرطـة[55]. يقول المنتقـدون إن المراقبة المدعومة حكوميا لجماعة سالفا جودوم أجبرت اكثر من 50 ألف شخصا على اللجوء إلى مخيمات اللاجئين على جانبي الطرقات[56].

الحـرب الأهلية الهندية مثال واضح على التجمع الكارثي. يلتقي فقر أصبح أكثر سـوءا بسـبب الليبرالية الجديدة بمكافحة تمرد، وتواجه أزمة بيئية مدفوعة مناخيا بالقمع. لو فشلت أمطار المونسـون، أو لو هطلت بشدة، فسيهدد الماويين وقوات المطاردة وسالفا جودوم جميعهم بلعب دور من عدم الاستقرار المتزايد في السنوات القادمة. إنهم بالضبط أشكال من القوى النابذة غير المسؤولة، ومن الجريمة المنظمة التـي يتركها التمرد ومكافحة التمرد خلفهما لتشـويه النسـيج الاجتماعي المشـوه مسـبقا. تطلق الحرب الشاملة على مستوى الجذور – وهي الآن الاستجابة المفضلة للأزمة الاجتماعية، والفوضى العنيفة – سياسـة تنتج فسادا وانحرافا وأذى وأمراضا مدمرة - لا يفيد أي منها في مواجهة التغير المناخي.

الناكسال هم مصدر واحد فقط لعدم الاستقرار. كان رئيس الوزراء مانموهان سينغ مصيبـا عندما قال بأن الهند قابلة للتشـظي. على الرغم مـن الانتصار القوي للتحالف الـذي يقوده حزب المؤتمر في انتخابات عام 2009، فإن سياسـة البرلمان في البلد تحدد من قبل أحزاب سياسية إقليمية مستقلة بشدة، وبزعماء لهم حضور محلي قوي[57].

يشـتد التوتـر الاجتماعـي عبر الريـف الهندي. هنـاك عنف متشـنج داخل المجتمعات بين الهندوس والمسلمين والمسيحيين. تغذي الهجرة الجماعية للمسلمين مـن بنغلاديـش إلى مناطق يهيمن عليها الهنـدوس من الهند القوميـة الدينية في المجتمعين. يتاجر حزب بهراتيا جاناتا BJP من المتعصبين الهندوس بفاشـية الخوف من الإسـلام. في الوقت نفسه تدعم باكستان مجموعات إرهابية مسلمة، وهناك في الشـمال الشرقي انفصاليون مسلحون يقاتلون من أجل دولة مستقلة في آسام. عبر الشـمال الجاف الوعر تسـتمر اللصوصية الاجتماعية، وفي المدن الضخمة المتنامية مثـل دلهي ترتفع معدلات الجريمة بسرعة. هذه المشـاكل تنتظـر في أفق التاريخ الهندي، مهددة بأن تصبح أسوأ بكثير مع اشتداد تغير المناخ.

في مدن الجنوب أنتجت تقنية المعلومات والعملية الاقتصادية المثمرة طبقة من أصحاب المليارات الجدد[58]. مع ذلك لا تسـتطيع القيادة السياسية الهندية، أو أنها لا تريد. تقديم الكهرباء والماء والرعاية الصحية والتعليم الأساسيين لغالبية السكان. وفقا لمؤشر الفقر متعدد الأبعاد الجديد للأمم المتحدة يعيش فقراء في ثماني ولايات هنديـة، أكثر مما يعيش في أفريقيا جنوب الصحراء بكاملها. على الطبقات الحاكمة في الهنـد أن تسـتيقظ، أو أن تغير المناخ سـيحطمها. كيف يجـب أن تكافح الهند الناكسال؟ بالتكيف مع تغير المناخ وبإعادة التوزيع الاقتصادية والعدالة الاجتماعية والتنمية المستدامة.

الجزء الرابع

أمريكا اللاتينية

13

وجع ريو: من طقس عنيف إلى «كوكب من العشوائيات»

«لفهم التجمع الكارثي، علينا أن نفهم أولا الأزمة المؤسسة للعنف والفقر، حيث يضاف إليهما الآن التغير المناخي المتسارع»

المؤلف

يجب أن يسعد موت الأشكال المعاصرة من التنظيم الاجتماعي الروح بدلا من أن يزعجها. لكن ما يخيف هو أن العالم المغادر لا يترك وراءه وريثا، بل أرملة حبلى. بين موت شخص وولادة شخص آخر ستجري مياه كثيرة، وسيعبر ليل طويل من الفوضى واليأس.

ألكسندر هيرزن(*)،

حول فشل ثورات 1848.

طوفت حوامة الشرطة السوداء فوق ريو. وأمامنا لاح تمثال المسيح الضخم على قمة الجبل بذراعيه الممدودتين نحو المدينة، وتحتنا امتد شاطئ إيبانيما الطويل الواسع. وبرا من الأحياء الفخمة المطلة على الماء، ارتفعت جبال

(*) ألكسندر هيرزن (1812 - 1870)، كاتب ومفكر لقب بأبي الاشتراكية الروسية. [المحررة].

شاهقة من صخور صلبة، تعلوها غابة خضراء. وعلى طول هذه المنحدرات الحادة، صفت عشوائيا الفافيلات favelas[*]، وهي الأحياء المكتظة غير المنظمة للفقراء والطبقات العاملة.

إذا كانت المفارقة بين الشواطئ البيضاء والجبال المعتمة تحدد جغرافية ريو على بطاقة السياحة، فإن عدم المساواة السيريالية لشقق فاخرة تطل عليها عشوائيات فقيرة هي التي تحدد المشهد الاجتماعي لريو. الفافيلات الموبوءة بالفقر والجريمة، والتي بُنيت في البداية من قبل مستوطنين جاءوا من الريف الشمالي الشرقي، وسميت على اسم أعشاب صلبة من تلك المنطقة، هي الدمل المفتوح على ابتسامة ريو المرحبة.

العيش في سكن عشوائي يطل على أحياء ثرية على الشاطئ هو تحريض بشدة فريدة. تجعل هذه المفارقة من ريو التجسيد الجغرافي لـ «الفقر النسبي». يبين علم الاجتماع أن العوز المطلق والفقر وحدهما لا يسببان العنف. إنه العوز المجرب بالعلاقة مع وضع الآخرين، أو بالعلاقة لما يمكن أن يكون، أو يجب أن يكون، أو كان مرة، هو الذي يؤلم أكثر، ويحرض على الجريمة والتمرد والعنف[1]. لذا فالعوز النسبي يحطم التجانس الاجتماعي ضمن المجتمعات[2].

كان رجال الشرطة يأخذونني في رحلة للاطلاع على هذه الجغرافيا الغريبة، ويشرحون لي كيف يديرونها بالعنف، وحول هجومهم الجديد ضد مسلحي الفافيلا. مع اقترابنا من فافيلا فيديغال، قاد الطيار الحوامة فوق الماء على شكل قوس دفاعي عريض. فيديغال «معادية»، وهي تحت سيطرة الكوماندو فيرميلهو، إحدى العصابات في ريو، التي اشتهرت بإطلاق النار على حوامات الشرطة. أكد الطيار الشاب المغرور، بلباس القفز الأزرق ونظاراته السوداء، على الإشارة إلى ثلاثة ثقوب رصاص مرقعة حديثا قرب مروحة ذيل الحوامة قبل أن نقلع مباشرة. عطل مروحة الذيل، وستخرج الحوامة عن السيطرة.

في أكتوبر العام 2009 أسقط مسلحو الفافيلات مروحية للشرطة خلال يوم من إطلاق النار لمجموعتين متنافستين من العصابات مع الشرطة. قتل 3 ضباط شرطة

(*) فافيلا (Favela) من البرتغالية، حي من السكن العشوائي المنتشر في مدن البرازيل الكبرى، مثل ريو دي جانيرو. [المترجم].

وجرح 4 بشــكل خطير. قتل 12 مدنيا أيضا، وفي المنطقة المحيطة فجر الشــباب 10 حافــلات. بعد عام تكرر الأمــر: قتلت غارات الشرطة 13 شــخصا، ثم حرق أعضاء العصابة 15 حافلة خلال 4 أيام من العنف[3].

بالفعل تدير عصابات ريو الفافيلات وتجارة المفرق للمخدرات في المدينة. ضمن الفافيــلات يحملون الرشاشــات علنا كما لو كانوا مــن الشرطة، ويفرضون الضرائب على المجتمعــات المحلية كما لو كانوا موظفي ضريبة الدخل، ويديرون محاكم غير رســمية، ويصدرون العقوبات كأن لديهم قانونا شرعيا. اسرق هاتفا خليويا، تحصل على طلقات على اليدين والقدمين. بلغ عن شخص؟ توقع الإعدام.

بحجمهــا المقــارب، يبلغ معدل جرائــم القتل في ريو 6 أمثالــه في نيويورك. في العــام 2009 قتــل نحو 5000 شــخص هنا. تدخل الشرطة الفافيلات لشــن غارات قصيرة وعنيفة فقط - يصلون في الليل بقوافل مســلحة للسلب والتعذيب والقتل. في معظم العشــوائيات لم يؤسســوا محطات ثابتة لهم. ووفق تقرير منظمة مراقبة حقوق الإنســان هيومان رايتس ووتش تقتل شرطة ريو أكثر من 1100 شــخص كل عام. لم يتم الحكم ســوى على 4 ضباط من الشرطة في ريو بإساءة استعمال السلطة خــلال العقد الماضي. لكن رجال الشرطــة في ريو يواجهون مخاطر أخرى: مات نحو 90 شرطيا في أثناء تأديتهم الواجب في العام 2009.

إذا لم يكن هذا كافيا هناك الآن مصدر ثالث يغذي العنف: شكل رجال الشرطة والإطفاء وحراس الســجون خارج الخدمة ميليشــيات للتصــدي للعصابات. يمكن لهؤلاء المتطوعين أن يكونوا مجرمين مثل أعدائهم. في العام 2008 عذبت ميليشيات كهذه صحافيين من أكبر صحيفة في المدينة. يبدو الوضع بصورة متزايدة وكأنه حرب منخفضة المستوى.

التجمع الكارثي في المدن

لماذا يوجد الكثير من الناس في ريو؟ لماذا هي عنيفة بهذا الشكل؟ وماذا سيفعل التغير المناخي لأماكن مثل ريو؟ قررت أن أستكشــف هــذه المدينة العملاقة، لأنها تبين كيف يتم التعبير عن الأزمة المناخية في الريف على شــكل عنف في المدن. كان أحد أهم التحولات الكبيرة خلال الـ 50 سنة الماضية هو نمو المدن السريع في العالم.

تستمر هذه العملية، ويساعد تغير المناخ الآن على تغذية الهجرة من الريف إلى المدينة. تسمح ريو لنا بالتنبؤ بالقضايا السياسية المرتبطة بتغير المناخ، لأنها من نواح عدة مدينة ناجمة عن الطقس العنيف في أماكن أخرى. غذى نمط قاس من الجفاف والفيضانات على بعد مئات الأميال في الشمال الشرقي الجاف من البرازيل، أو نورديست، نمو ريو. ومع ازدياد الطقس عنفا وفوضوية نتيجة الاحترار العالمي، ستزداد الهجرة من الريف إلى المدينة.

أدت اختلالات في أنماط نطاق التقارب بين المدارين إلى صدمات طقس عنيفة - فترات طويلة من الجفاف تخللتها فيضانات شديدة - جعلت زراعة الكفاف في الشمال الشرقي أكثر صعوبة. يتجه المزارعون المهجرون من المنطقة - لاجئو المناخ في الداخل - جنوبا إلى المدن العملاقة مثل ريو وساو باولو. هناك يحصرون ضمن المدن العشوائية (الفافيلات)، ويجذب الكثير من الشباب إلى دوامة الاقتصاد التحتي، كرنفال البنادق والمخدرات والمال والجنس والموسيقى والتضامن والاحترام. لذا بتهجير الناس إلى الفافيلات، يغذي الطقس العنيف المرتبط بتغير المناخ حروب الجريمة في ريو.

ريو أيضا تواجه طقسا عنيفا. بعد زيارتي مباشرة أسقطت عاصفة استثنائية 12 بوصة من الأمطار على المدينة خلال 24 ساعة تقريبا - وهو أسوأ هطول في تاريخها المسجل. غرقت الطرقات بمياه الصرف الصحي، وتوقفت المواصلات في الازدحام طوال اليوم، وسقطت قطع من مدن الصفيح إلى أسفل الهضبة، ومات أكثر من 100 شخص. وفي يناير شهدت ساو باولو طقسا مماثلا؛ حيث حطم نهران ضفتيهما، وأصبح الآلاف مؤقتا بلا مأوى، وغرق 64 شخصا[4]. لكن خط الجبهة الأمامية الحقيقي لتغير المناخ في البرازيل هو منطقة الشمال الشرقي الجافة.

نظم مناخ عادية جديدة

منذ السبعينيات عانى الشمال الشرقي جفافا متزايدا، وهو الآن يضرب بانتظام بالفيضانات الجارفة أيضا. شهد صيف العام 2010 فيضانات عارمة، وكذلك في السنة التي سبقته. قتل نحو 50 شخصا وجعل 120 ألفا بلا مأوى ومسح 1200 ميلا من الطرقات، ودمر 80 جسرا على الأقل. كانت الأزمة سيئة لدرجة أن الرئيس لولا دي سيلفا اعتذر عن حضور مؤتمر قمة العشرين[5].

يشـكل هذا النمـط العادي الجديـد من الفيضانـات والجفـاف والعواصف الاسـتثنائية جزءا من نموذج أوسع للطقس العنيف يقول العلماء إنه ناجم عن تغير المناخ بفعل الإنسـان، ويتنبؤون بأنه سيضرب الشـمال الشرقي من البرازيل بشدة أكبر. وعلى الرغم من تحفظهم في الإشـارة فإنه لا يمكن إلقاء اللوم بشكل أكيد على تغير المناخ من حادثة واحدة للطقس، بيد أن النموذج الأوسع يمكن أن يكون نتيجة لتغير المناخ هذا. خذ نتائج التقرير التقويمي الرابع للجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC الذي يقول: «خلال العقود الأربعة الماضية خضعت أمريكا اللاتينية لتأثيرات متعلقة بالمنـاخ جراء ازدياد حدوث ظاهرة النينـو... ازداد حدوث كوارث مرتبطة بالمناخ بنحو 2.4 مرة بين الفترات 1970 - 1999 و2000 - 2005، متابعا بذلك الميل الملاحظ خلال التسعينيات»[6]. ويلاحظ التقرير بعد ذلك أن تكرار دورات الجفاف الطويلة في الشمال الشرقي شبه الجاف من البرازيل أنتج هجرة من الريف إلى المدن لمزارعي الكفاف، وزيادة في انتشار الأوبئة.

يتحـدر الكثير من سـكان الفافيلات مـن المنطقة الشـمالية الشرقية للبرازيل. ديجاسـير آلفيس الذي قابلته على سـلم في فافيلا دو مورو دوس كابريتوس نموذج لذلـك. هاجـر إلى ريو من فارغوتا في سـيارا «أتيت هنا للعمـل، منذ عشرين عاما تقريبا، كانت عائلتي تعمل بالزراعة، كانت لنا عائلة كبيرة، لكن بقي شـخصان منا فقط يعملان في الأرض. يقومان بزراعة الكفاف. من الصعب جدا تدبر أمور المعيشة هناك. والآن تزداد الأمور صعوبة هناك بسبب زيادة الجفاف».

عمل ألفيس بـ «أنواع العمل جميعها» في ريو - البناء والخدمات وجمع التذاكر في الحافـلات. ومتحدثـا من على هذه التلـة المغطاة بالإسـمنت، بطرقها المحاطة بالأسـوار، وبتكتل بيوتهـا المبنية يدويا، كان ألفيس يلبس نعـلا، وقميص كرة قدم أخضر؛ بدت الزراعة والأرض له بعيدين جدا من ذكريات الماضي.

في العهد الاستعماري ازدهرت المنطقة الشمالية الشرقية في البرازيل باقتصاد يقوم على المزارع السـاحلية وصناعة القطيع. ثم حرضت دورات الجفاف في سـبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر الهجرة المستمرة لفقراء المنطقة. وخلال معظم القرن العشرين بقيت الزراعة البرازيلية متخلفة وبدائية. وعلى النقيض من العديد من دول أمريكا اللاتينية كالمكسيك وبوليفيا، لم تقم في البرازيل أبدا ثورة بورجوازية

حقيقية تحد من سلطة حكم الأقلية الإقطاعية، وتفرض الإصلاح على ملكية الأراضي. استهدف برنامج إعادة التوزيع في الثلاثينيات (إيستادو نوفو) عمال المدن والطبقات المتوسـطة فقط[7]. جلب الانقلاب العسـكري العام 1964 برنامجا تقوده الحكومة يهدف إلى التحديث السريع في الزراعة، لكنه لم يشمل إعادة توزيع الأراضي.

حتـى هذا اليـوم يمتلك نحو 3 في المائة من السـكان في البرازيـل ثلثي الأرض تقريبا[8]. سـبب التحديث الزراعي على شكل ثورة خضراء واستخدام الآلات بطالة ريفيـة متزايدة، وبالتـالي زيادة الهجرة إلى المدن. وبحلـول 1972 كانت المحاصيل الرئيسـة كالقمح وفول الصويا مميكنة بنسـبة 60 في المائة. انتقل العمال الريفيون المزاحـون إلى المدن وبنوا الفافيلات[9]. في العـام 1940 عاش 15 في المائة فقط من السـكان في المدن. بحلول 1970 وصل هذا الرقم إلى 50 في المائة[10]. واليوم يعيش أكـثر مـن 80 في المائة من البرازيليـين في المدن. ونرى الآن نـذر موجة جديدة من الهجرة مدفوعة بالطقس الغريب الناجم عن نظام مناخي منهار.

الاضطهاد في العشوائيات العملاقة

يعـبر عـن الضغط الاجتماعـي في المدن - المدفـوع إلى حد مـا بأزمة مناخية اجتماعية في الريف الشـمالي الشرقي - بالعنف الإجرامـي والقمع الحكومي. بعد تـرك الفيفلات راكـدة لعقود ، تتحرك الدولـة الآن لإعادة السـيطرة عليها. تعمل الاسـتراتيجية كما يلي: أولا تجتاح القوات الخاصة العسكرية لشرطة ريو - المعروفة بالمصطلـح البرتغـالي BOPE - الفيفـلات، وتقمع العصابات. ثم تؤسـس وحدات من الشرطة العسـكرية النظاميـة قواعد دائمة لها، وتبدأ بالقيـام بدوريات. ما إن يتـم تأمين منطقة، حتى تنتقل إليها الخدمـات الحكومية فورا - كالرعاية الصحية والتعليـم والتجهيزات الثقافيـة والمحاكم المدنية. أو هذه هـي الخطة على الأقل. يدعونها التهدئة؛ إنها عملية مكافحة تمرد، بيد أن العدو شبح وتهديد هلامي وبيئة إجرامية وعصابات وفوضى وليس متمردا صلبا.

عندما كنت في ريو في أوائل 2010، كانت نحو عشرة من فافيلات المدينة البالغ عددها ألفا تقريبا تخضع لعملية التهدئة. كان سكان الفافيلات منقسمين في رؤيتهم لهـذا الاحتلال. لم تكن العصابات مسرورة، ولذلـك كانوا يثأرون من المجتمع الأكبر

بإحراق حافلات النقل «على الأرصفة»، كما تدعى ريو خارج الفافيلات. «من يمتلك البنادق هو القانون». شرح كلوديو كارفالها، رئيس هيئة السكان في دو مورو في دوس كابريتوس. لسنوات، كانت هذه الفافيلات عرضة لصراع مستمر بين عصابة فيرميلهو، وعصابة منافسة تدعى آميغوس دوس آميغوس (أصدقاء الأصدقاء).

«عندما يجرح واحد منهم، يرمونه جانبا - نصف ميت، وهو ينزف - على لجنة السكن، ويتوقع منا أن نأخذه إلى المشفى» شرح كلوديو.

في دونا مارتا، وهي أول فافيلا احتلت في نوفمبر 2008، وقيل إنها نموذج للبرامج الاجتماعية، قابلت مجموعة من الشباب العاطل عن العمل. ربما التحقوا أولا كجنود مشاة في الكوماندو فيرميلهو، لكنهم نظروا إلى الاحتلال على أنه عصا بالكامل من دون جزرة.

«إنهم يضربون الناس»، قال رجل قصير موشوم في الثالثة والعشرين من العمر يدعى ماكس. كان يلبس بنطالا قصيرا أحمر، ونعلا بلاستيكيا، ويتكئ على جدار الكوخ الخشبي القديم حيث يعيش مع زوجته أماندا. صدح راديو صغير بتيار ضئيل من موسيقى الهيب هوب البرازيلية الراقصة، بينما تغسل أماندا الصحون تحت صنبور ماء خارج البيت، وخارج السلم الرئيس مباشرة. تجمع قلة من الشباب الآخرين بشورتات قصيرة من دون قمصان في الحرارة ونحن نتكلم.

«معظم الناس يريدون أن ترحل الشرطة من هنا، وتعثر على شخص آخر لتضطهده»، قالت أماندا «إنهم يعاملوننا كأننا مجرمون. إنهم يجبروننا على البقاء في البيت بعد الحادية عشرة. لو كنت تملك ما يعتقدون أنه كمية كبيرة من المال، فإنهم سيأخذونها منك».

«إنهم يدفعوننا كلما دخلنا إلى الجمعية أو خرجنا منها»، قال شاب آخر بذراعين موشومتين بكثافة يدعى المور (المغربي) «إنهم يعتقلوننا لجرائم صغيرة، يرفسوننا ويقبضون على أعناقنا، ويفتشوننا ويركلون أبوابنا ويضربوننا. إنهم يفعلون ما يريدون. ولا يمكننا مقاومتهم وإلا قتلنا».

«إن هذه الرؤية الاجتماعية غير مدروسة بشكل جيد»، قال ماكس. «وعدونا بخدمات الحضانة والرعاية والمستوصفات والوظائف. لكن كل ما أراه هو الشرطة».

الانتكاسة على الطريقة البرازيلية

يحاجج العلماء بأن أزمة العنف في البرازيل متجذرة في تاريخها المتمثل في الرق، وغزو المناطق الحدودية . هذا صحيح، لكن الأصول الأحدث تقع في عدم المساواة الاقتصادية الشديدة في البلد، والصراعات الطبقية العنيفة التي حرضت عليها. قوبلت التنظيمات العمالية لفترة طويلة بالقمع الوحشي. من العام 1964 إلى العام 1985 عانت البرازيل ديكتاتورية عسكرية مباشرة، وعقد من «حرب قذرة»؛ ومن ذلك العصر من التمرد والقمع، تشهد الآن نوعا من الانتكاس. في هذا التاريخ، نشاهد عنصرين من التجمع الكارثي يؤديان دورهما: إعادة هيكلة اقتصادية على طريقة الليبرالية الجديدة، وعنف الحرب الباردة.

تعود أصول قصة أضخم عصابة في ريو وأقدمها إلى الصراع المسلح للحرب الباردة، خاصة في قصة الديكتاتورية العسكرية اليمينية، والمقاومة الماركسية لها. بحسب مقاتليها القدامى، أسست عصابة الكوماندو فرميلهو CV في منتصف السبعينيات في سجن كانديدو ميندس في إلهاغراند عندما سجن رجال العصابات مع المجرمين العاديين.

وكمعظم دول أمريكا اللاتينية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، شهدت البرازيل صعود رجال عصابات المدن الذين عارضوا الاستغلال الاقتصادي والقمع السياسي. في العام 1968 نجح مغاوير من عصابة MR8 الصغيرة حتى في اختطاف السفير الأمريكي تشارلز إلبريك. الرجل الذي نسق عملية الاختطاف، فرناندو غابيارا، هو الآن صحافي مشهور، ومؤلف وسياسي يساري. بني الفيلم «أربعة أيام من سبتمبر» على هذه الأحداث. عنصر آخر مشهور في العصابات سابقا وسجينة سياسية من تلك الحقبة، هي ديلما فانا روسيف، أول رئيسة للبرازيل.

لم يتوافر لكل ثوري مثل هذا المستقبل المهني اللامع. قابلت الديكتاتورية العسكرية اليساريين بعنف شديد من قبل فرق الموت والتعذيب والاعتقال. طبقت على نطاق واسع قانونا فضفاضا للأمن القومي، سمح باحتجاز أي شخص يظهر أدنى علامة من البوهيمية – يمكن لشعر طويل وغيتار أن يتسببا في اعتقال شخص. يتوافر تاريخ كامل من القمع بفضل أرشيدوقية ساو باولو الكاثوليكية، التي جمعت فريقا سريا من المحامين لنسخ وثائق ونشرها بطريقة غير شرعية من

707 محاكمة عسكرية سرية، تشمل 7367 متهما [11]. أظهرت الملفات المختلسة أن التعذيب والقتل كانا شائعين، وعندما نشرت خلاصة عنها بعنوان «البرازيل: أبدا مرة أخرى»[*]، أصبحت فجأة أفضل الكتب مبيعا[12].

وبينـــما برزت بعض العناصر من الثورة بعد ذلك في مجال السياســة، شــكَّلت بعــض العناصر الأخرى المحرومــة الجيل الأول من زعماء كومانــدو فيرميلهو CV (تشــكلت عصابات أخرى بعد ذلك بالانفصال عن CV). وكما يكتب بين بينغلازي «بمعنى مباشر نوعاً ما، كانت عصابة كوماندو فيرميهلو الطفل غير الشرعي لمحاولة الديكتاتورية قمع المعارضة السياسية المسلحة»[13].

من مقاتلي حرب العصابات إلى عصابات

خلف القضبان نظم ناشــطون سياسيون في سجن كانديدو مينديس أنفسهم ثم توحدوا مع المســجونين من عامة الشعب. شــاهد المجرمون العاديون كيف حافظ الســجناء السياســيون على وحدتهم، وكيــف حصلوا من خلالها عــلى القوة، وعلى مستوى أعلى من المعيشة. كان السجناء السياسيون «يتشاركون في اي طعام أو مال يتلقونه من خارج السجن، ويفرضون نظاما صارما يمنع السجناء من مهاجمة وسرقة بعضهم بعضا، وهي أمور شــائعة في الســجون. تضامن الســجناء السياسيون أيضا مع بعضهم بعضا للدفاع عن أي معتقل ســياسي يهاجم من الحراس، أو من سجناء آخرين، والمطالبة بظروف أفضل»[14].

كان أول ســجل مكتوب عن هذا التاريخ هو «أربعمائة ضد واحد»، وهي مذكرات وليام دي ســيلفا الذي ساعد وهو شاب في الســجن في بدء عصابة الكوماندو فيرميلهو CV. يصف دي ســيلفا كيــف أن أول مجموعة «حمراء» في الســجن كانت كتائب الـ LSN التي قتلت في العام 1979 زعماء عدد من المنظمات السياســية المنافسة، وتولت الســيطرة على الســجن بكامله، وأصبحت الكوماندو فيرميلهــوCV، ثم فرضت قواعد ثورية جديدة. شــملت هذه القواعد بحســب دي ســيلفا «الموت لأي شــخص يهاجم ســجناء آخرين أو يغتصبهم، وترك النزاعات من الشــارع خارج الســجن، واســتخدام العنف لمحاولة الهرب فقط، والنضال المستمر ضد الإهانة والاضطهاد»[15].

(*) Brasil: Nunca Mais.

امتد هذا النظام وهذه الوحدة سريعا إلى الفافيلات. كانت الفكرة دعم السجناء المفــرج عنهم، والتحكم بالمجتمعات، بما في ذلك تجارة المخدرات، اســتعدادا للقيام بثورة في ريو وما وراءها. عملت الـ CV كمنظمة سياسية وجمعية خيرية للسجناء والمحكومين ســابقا. وصلت إلى المجتمعات المحلية، وتسـلحت باســم الأمن الذاتي والثــورة، وبدأت بفرض ضرائــب على تجارة المخدرات[16]. قــضي على الجيل الأول مــن زعماء الـ CV المتطرفين سريعا، وبحلول منتصف الثمانينيات كانت الكوماندو فورميلهو (CV) قد أصبحت مجــرد عصابة أخرى من عصابات المخدرات، ولو أنها كانت كبيرة جدا، ومنظمة جيدا.

ومع بدء الـ CV بالصعود، بدأ الاقتصاد الســياسي الأكبر للبرازيل بعملية تحول قوية باتجاه النمط الليبرالي الجديد. كانت سلسلة المراحل الأولى من تجمع كارثي في طور التشكل: عنف سياسي يواجه موجة جديدة من الفقر.

برازيل الليبرالية الجديدة

كان الوقــت العام 1983، وكانت الياقات ماتزال واســعة، والســوالف طويلة، والمحتجون غاضبين. ســار العمال الصناعيــون العاطلون عن العمل حديثا – الآلاف منهم – في شــوارع ساو باولو. تسقط الحكومة العســكرية! وصل هؤلاء الناس إلى أقــصى قدرتهم على التحمَل. هتف البعض: «الناس المتحدون لن يهزموا أبدا»، لكن آخرين صرخوا فقط «نحن جائعون!».

بينما كان الكوماندو فيرميلهو CV يتحركون نحو الفافيلات، كان الاقتصاد البرازيلي يجثــو على ركبتيه، وكانت الاحتجاجات دليلا على ذلك. في الأســبوعين الأولين من يناير طرد 14860 عاملا في ســاو باولو. في الوقت ذاته كانت الدولة تنفذ إجراءات تقشــفية: قطــع الخدمات العامــة، والمعونة للفقــراء، والدعم للصناعة. في أوائــل أبريل تصاعد الغضب: ســار العاطلون عن العمل محتجين، ليواجهوا بـ 10 آلاف من شرطة مكافحة الشــغب. سرعان ما تحولت الهتافات والاحتجاجات إلى رمي الحجارة والســلب. ردت الشرطة بإلقاء وابل من قنابل الغاز المســيل للدموع، وبالهجوم والضرب المبرح . استمر العنــف لمدة ثلاثة أيام، ونهب على الأقل 11 مخزنا كبيرا، والعشرات من المخابز. هاجم الآلاف من المحتجين - وهم يصرخون طلبا للوظائف - قصر حاكم الولاية. ألقت الشرطة القبض على أكثر من 450 شخصا، ووصلت الأضرار إلى 1.5 مليون دولار[17].

كانت البرازيل تدخل في مرحلة مؤلمة من إعادة الهيكلة الاقتصادية. بانغماسها في الدين، توجهت الحكومة إلى صندوق النقد الدولي IMF والبنك الدولي WB للحصول على قروض جديدة، لكن المساعدة الطارئة جاءت مع شروط اقتصادية جديدة وصارمة. لموازنة الحسابات، كان على البرازيل أن تتحمل موجة من الفقر المدقع، والبطالة والجوع والتشرد والإحباط.

كان هذا هو السياق الذي تم فيه صعود تجارة المخدرات، والكوماندو فيرميلهو CV من سجون ريو إلى الفافيلات. لفهم التجمع الكارثي علينا أن نفهم أولا الأزمة المؤسسة للعنف والفقر اللذين يضاف إليهما الآن التغير المناخي المتسارع.

من تصنيع إحلال الواردات إلى صندوق النقد الدولي

كالعديد من الاقتصاديات النامية، اتبعت البرازيل منذ الثلاثينيات نموذجا من التصنيع الموجه من الدولة بقصد إحلال الواردات ISI (*). وصولا إلى هذا النهج كرد فعل على انهيار أسواق صادراتها التقليدية خلال الكساد الكبير، شمل هذا النوع من التنمية الرأسمالية الموجه من الدولة تآلفا صعبا بين أرباب العمل والعمال، تقوم فيه الدولة المتدخلة بدور الوساطة. ولقاء الانضباط في العمل، أنشأت الدولة برامج الضمان الاجتماعي، وسمحت برفع الأجور للنخب من العمال. نظم الاستثمار والتمويل، وكانت البنوك غالبا مملوكة للدولة. خلال الثلاثينيات والأربعينيات واستجابة للكساد الكبير والحرب العالمية الثانية، تجذرت أشكال من التعاون في أماكن عدة. نفذت أحيانا سياسات تشاركية في ولايات ديموقراطية، كشاهد على الصفقة الأمريكية الجديدة (**). في أحيان كثيرة قدم التحالف التنموي بين العمال ورأس المال من قبل دول سلطوية «مستقلة نسبيا» كإيطاليا وإسبانيا والبرتغال واليابان وبوليفيا والأرجنتين في منتصف القرن العشرين.

كانت الصناعة والأسواق المحلية محمية بشدة. على سبيل المثال، بلغت التعرفة الجمركية في البرازيل على الواردات المصنعة العام 1960 تقريبا عشرة أمثال تلك التي كانت تفرضها السوق الأوروبية المشتركة EEC - 165 في المائة في البرازيل

(*) تصنيع بقصد إحلال الواردات (ISI) Import - substitution industrialization.

(**) الصفقة الجديدة (New Deal) هي الإجراءات التي اتخذتها حكومة الرئيس روزفلت في الثلاثينيات للخروج من الكساد الكبير. [المترجم].

مقابـل 17 في المائـة في الـ EEC[18]. تمت حماية الصناعة الوليدة والمؤسسـة جيدا بشـدة ضد المنافسـة الأجنبية. تحت هذا النظام نمت الصناعة بقوة، لكن من دون تساو. كانت بعض القطاعات ديناميكية وكفوءة ومبتكرة، «حصلت مجموعة من الشركات الرائدة على تفوق تنافسي في القطاع الصناعي»، بينما اختفت أخرى بسبب الاحتكارات الاصطناعية التي سـمحت سياسـة الـ ISI بها. إجمالا - وعلى النقيض من تأكيدات الأرثوذكسـية الاقتصادية اليوم - ازدادت الانتاجية العمالية، وارتفعت مستويات المعيشة، ونما الاقتصاد ككل تحت نظام الـ ISI [19].

وصف ديفيد هارفي عـصر التنمية التي تقودها الدولة كما يلي: «قدم هذا النظام معدلات عالية من النمو في الدول الرأسمالية المتقدمة، وولد بعض الفوائد التي امتدت للخارج (أكثر وضوحا إلى اليابان، لكن أيضا وبشـكل غير متسـاو عبر أمريكا الجنوبية، وبعـض الـدول الأخرى في جنوب شرق آسـيا) خلال «العصر الذهبي» للرأسـمالية في الخمسـينيات وأوائل الستينيات» [20]. في أوائل السبعينيات واجه هذا النموذج بصوره المتعددة مشكلة - جزئيا بسبب مشاكل داخلية، وجزئيا بسبب أزمة عالمية من الإنتاج الفائض، والتراكم الزائد [21].

ما دعي بالعصر الذهبي للرأسمالية، تقريبا من 1945 حتى 1973، كان أساسا قصة إعـادة الإعمار بعد الحرب: كان الازدهار الطويل هو إعـادة البناء الضخمة التي تلت الخـراب في الحرب العالميـة الثانية. لم تدمر الحرب 59 مليونا مـن البشر فقط، لكنها بددت أيضا كميات هائلة من رأس المال القائم: مصانع ومدن ومزارع ومرافئ ومرافق غاز وشـبكات مياه وطرقات وسـكك حديدية وأنظمة اتصالات. لسـت سنوات غذت العبقرية العلمية والقوة الصناعية الجبارة للاقتصاديات الرئيسـة الحرب بشـكل كلي. قـدرت التكاليف الإجماليـة بـ 1.5 إلى 2 تريليون دولار، لكننا لـن نعرف أبدا التكلفة الإجمالية الحقيقية.

كان الازدهـار الاقتصادي بعد العام 1945 أساسـا إعادة بناء ضخمة، أو عملية تعـاف كبيرة. عنـت نهاية الحرب وجـود طلب كبير والكثير من الاسـتثمار، وتمتع التخطيط الصناعي بشرعية واسـعة. خلال عمليـة إعادة البناء الكبيرة، نمت الأجور والضرائب والأرباح كلها بعضها مع بعض. ومع ذلك، ففي منتصف السـتينيات كان هناك العديد من الأشـياء والقليل من الطلب[22]. بحلول العام 1970 امتلك 99 في

المائـــة من المنازل الأمريكية الثلاجات والمـــكاوي الكهربائية والمذياعات. امتلك أكثر من 90 في المائة منها الغسالات والمكانس الكهربائية ومحمصات الخبز.

و كما عبر أحد الاقتصاديين عن ذلك، «أدى الإشباع في إحدى الأسواق إلى إشباع أســواق أخرى، مع تطلع المنتجين إلى الخارج عندما تســتنفد احتمالات التوســع في الداخــل. كانت النتائج حملات تصدير متزامنة من قبل الشركات في الدول المتقدمة جميعهــا، بمنتجات متشــابهة متطورة تقنيا تنتقل من ســوق إلى آخــر... صادرات متزايــدة من دول نامية مثل تايوان وكوريا والمكســيك والبرازيل، زاد بشــكل أكبر ازدحام أسواق الجملة في الاقتصاديات المتقدمة»[23].

بحلول أوائل الســبعينيات كانت الرأسمالية تختنق من نجاحها الصناعي. حول العالم وعبر الصناعات وجدت الشركات من الصعوبة المتزايدة الحفاظ على عوائدها المذهلة (إن لم تكن الشاذة) في فترة ما بعد الحرب[24].

قارة الديون

في أوائــل الســبعينيات دخل عامل جديد في المســألة: كانت هنــاك تخمة في الســيولة النقدية في العالم. الكثير جدا مــن المال يتنافس على القليل جدا من فرص الاســتثمار. ترجم هذا إلى قروض رخيصة ومتوافرة. استدانت البرازيل دوما لتمويل تصنيعها، لكن النمو الآن تباطأ، وأصبح رأس المال رخيصا.

في العــام 1973 جاءت ضربة أخرى: قادت هزيمة العرب في حرب يوم الغفران إلى حظر نفطي من مصدرين رئيسيين. ارتفع سعر النفط بمعدل أربعة أمثال في أقل من عام. ضرب هذا البرازيل بقوة. على الرغم من أن البرازيل أصبحت الآن منتجا رئيســا للنفط، فإنها في ذلك الوقت استوردت 80 في المائة من نفطها. قبل أن تستقر الأسعار سقط شاه إيران في ثورة مما تسبب في صدمة نفطية ثانية في العام 1979، حيث تضاعفت الأسعار تقريبــا مرة أخرى. بحلول أوائل الثمانينيات كانــت الحكومة البرازيلية تحاول جاهدة تشــجيع اقتصادها بالاستدانة والإنفاق. أشــارت صفحة الأعمال الاقتصادية في صحيفة ميامــي هيرالد إلى عدم العــدل في وضع الاقتصاد الكلي: «عــلى النقيض من الأرجنتين والمكسيك، فقد ذهبت نسبة عالية من المليارات التي اقترضت هنا إلى المشاريع المنتجة كــما يقول المحللون. كان العديد منها مشــاريع «برازيل العظيمــة» - محطات توليد

الطاقة النووية، وسدود كهرومائية، وطرق سريعة في الغابات، ومجمعات بتروكيميائية، وصناعة أسلحة موجهة للتصدير، ومصانع الفولاذ، وسكك حديدية بقيمة 3 مليارات دولار لتسهيل تصدير الفولاذ»[25]. لكن البرازيل كانت خاضعة للتقشف ذاته الذي خضعت له دول اقترضت بإنتاجية أقل.

ثم ضربت طبقة ثالثة من الأزمة. واجه الاقتصاد الأمريكي الرائد في العالم مشاكل عميقة أيضا. ترجمت القدرة الفائضة عالميا إلى انهيار العوائد على الاستثمار - انهيار الأرباح. «من ذروة بلغت 10 في المائة تقريبا في العام 1965، هوى متوسط الربح الاجمالي بعد حسم الضرائب للمؤسسات المحلية غير المالية إلى أقل من 6 في المائة خلال النصف الثاني من السبعينيات - وهو انخفاض بأكثر من الثلث» [26]. بعد عشرين عاما من التوسع المستمر خلال فترة النقاهة الطويلة بعد الحرب، بدأت الأرباح بالانخفاض في العام 1966، واستمرت بالانحدار بثبات حتى العام 1974، إلى أن وصلت إلى مستوى منخفض بنحو 4.5 في المائة [27]. شوهد النمط نفسه من ألمانيا إلى اليابان مع مرورالدول الرأسمالية المتقدمة جميعها بتجربة انخفاض في الربح بعد الضريبة بين 20 إلى 30 في المائة.

وصف روبرت برينر، أحد العلماء الرواد في هذا التاريخ، الوضع على الشكل التالي: «بسبب دخول الاستطاعة الفائضة والإنتاج الفائض لم تتمكن أسعار المواد المصنعة العالمية أن تنمو بالتناسب مع أجور المنتج وكلفة المصنع والمعدات: كانت النتيجة هبوط أسهم الأرباح ونسبة المنتج إلى رأس المال، مما أدى إلى انخفاض معدلات الأرباح».

كيف عولج هذا الأمر؟

لكي تتعافى الأرباح يجب أن تنخفض الأجور، وليس الأجور فقط بل الأجور الاجتماعية - الحصة من الإنتاج الوطني التي يعاد توزيعها على الطبقة العاملة على شكل خدمات مدعومة من الدولة، وتقدم للجمهور كالتعليم والرعاية الصحية والرفاه الاجتماعي. جاءت النجدة من بول فولكار، الرئيس الجديد للاحتياطي الأمريكي الاتحادي. بدءا من العام 1979 بدأ فولكار برفع الفائدة بشكل كبير من 7.9 في المائة العام 1979 إلى 16.4 في المائة العام 1981. كان لهذا تأثير خفض الاقتراض خلال الاقتصاد، وبذلك هبط الاستثمار والإنفاق الاستهلاكي فجأة أيضا.

وصلت البطالة إلى 10.8 في المائة بحلول ديسمبر العام 1982[28]. في الوقت نفسه شن ريغان وتاتشر كلاهما هجوما على سلطة المنظمات العمالية، وخفضوا النفقات الاجتماعية، وقلصوا الضرائب على الأغنياء. نتيجة لذلك غاص الاقتصاد الأمريكي في ما كان في ذلك الوقت أسوأ انحسار منذ الكساد الكبير[29]. وفي هذه العملية سحب هذا الاقتصاد معه العديد من شركائه التجاريين مع تقلص الواردات الأمريكية بصورة كبيرة.

في أمريكا اللاتينية، عنت السياسة النقدية الجديدة أيضا ارتفاع الفوائد المدفوعة على القروض القائمة. وبذا بدأت أزمة ديون أمريكا اللاتينية. من العام 1978 إلى نهاية العام 1982 ازدادت ديون أمريكا اللاتينية بأكثر من الضعف من 159 مليار دولار إلى 327 مليار دولار. نمت خدمة الدين – أي دفع الفائدة – بسرعة أكبر: استعملت دول أمريكا اللاتينية أكثر من 30 في المائة من عائداتها من التصدير لخدمة الدين فقط. دفعت البرازيل نحو 60 في المائة[30]. شرح الصحافي أندري أوبنهايمر ذلك بالقول: «أدى ارتفاع الدين القديم إلى طلب المزيد من الدين، ولتلبية دفعات الفوائد كان على دول أمريكا اللاتينية الرئيسة أن تعتمد أكثر فأكثر على قروض طارئة من صندوق النقد الدولي، والبنوك التجارية. في الحقيقة كانت تتسلم بيد، لتعود وتدفعه باليد الأخرى» [31]. ومع ارتفاع الدين العام فقدت العملة البرازيلية قيمتها حتى أصبح الغلاء المزمن غلاءً فائقا، وليصل إلى 1765 في المائة بنهاية الثمانينيات[32].

تقشف

جاء حل الأزمة على شكل إجراءات تقشفية مفروضة من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. في العام 1983 كان للبرازيل أضخم دين للخارج في الدول النامية: 83.8 مليار دولار. ومن أجل خدمة دينها فقط، كان على البرازيل أن تقترض أكثر فأكثر بحلقة فارغة للأسفل. في أوائل العام 1983 توجهت البرازيل إلى صندوق النقد الدولي من أجل قرض بقيمة 6 مليارات دولار، كان يعد في ذلك الوقت أضخم قرض واحد في تاريخ الصندوق. في المقابل، وافقت البرازيل على برنامج تقشفي شديد: خفض الغلاء، وخنق النمو، وقلص الإنفاق العام، وخفضت قيمة العملة، وقيدت

الواردات، وخصخصت الأملاك العامة، وشـجعت الصادرات[33]. في ساو باولو احتج العمال سريعا[34]. وخلال العقد التالي استمرت الأزمة.

دافعت حكومة البرازيل العسكرية قليلا، مقاومة اشتراطات مؤسسات بريتون وودز(*) الأكـثر شـدة. وكما شرح وزير المالية ديلسـون فونـارو في العام 1986، «الطريق للخـروج من أزمة الديون هي من خلال النمـو، وصيغ صندوق النقد الدولي IMF لا تقدم النمو»[35]. لكن الليبرالية الجديدة انتصرت في النهاية، وحدد التقشـف الكابح للغلاء وإزالة القيود والخصخصـة والتصدير الهجومي والبطالة والأجور المتدنية والجوع والفساد والجريمة والهجرة كلها المشهد الاقتصادي.

لسـوء الحظ، حدث الدفع نحو التصدير في البرازيل وسط انخفاض في أسعار المواد الأولية. أسـهم عاملان في ذلك. كانت مؤسسـات بريتون وودز في الوقت ذاته تضغط عـلى دول العالم الثالث الأخرى لتصديـر أكبر، وفي الوقت ذاته كبحت معدلات الفوائد المرتفعة في الدول الأغنى الاسـتهلاك. أدى الإمداد الزائد إضافة إلى الطلب المتناقص إلى انهيار الأسـعار. انخفضت أسعار السكر والنحاس والألمونيوم والمواد الخام الأخرى كلها إلى مستوى متدن.

نجـم عن برنامـج التعديل الهيكلي المفروض من صنـدوق النقد الدولي ارتفاع البطالـة وازدياد الفقر ونمو المدن مع هجـرة الفقراء من الريف إلى المدن بحثا عن العمل. من العام 1980 إلى العام 1990 كان المتوسـط الكلي لنمو سـكان ريو 8 في المائة، لكن سكان الفافيلات ازدادوا بمعدل 41 في المائة. وكما شرح الاقتصادي الخبير في أمريـكا اللاتينية مارك فايزبروت «من العـام 1960 إلى العام 1980 ارتفع دخل الفرد – وهو أكثر المقاييس أساسـية لـدى الاقتصاديين على التقدم الاقتصادي – في البرازيـل بنحو 123 في المائة. ومن العـام 1980 حتى العام 2000 نما بأقل من 4 في المائـة». يقدر فايزبروت أنه لو لم تعتنق البرازيل النظام الليبرالي الجديد، «لكان لها اليوم مسـتوى المعيشة الأوروبي ذاته. ولكان لديها بدلا من 50 مليون فقير كما هو اليوم، القليل جدا منهم. ولكان الجميع تقريبا يتمتعون اليوم بمسـتويات معيشـة أعـلى، وبتعليم أرفع، وبرعاية صحيـة أفضل»[36]. حتى لو بالغ فايزبروت قليلا (أي أوروبا؟ هل هي الريف اليوناني؟ أم المدن الهولندية؟) بيد أن فكرته الأشـمل بشأن التأثير المخرب لليبرالية الجديدة صحيحة.

(*) اتفاقيـة بريتـون وودز (Bretton Woods) وقعت في العام 1944 لتنظيم العلاقات التجارية والمالية بين الدول الكبرى في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. [المترجم].

التكلفة البشرية

لـــو لم تتبنَ البرازيل الليبراليـــة الجديدة، لكان العنف حتـــما قضية أقل أهمية. مـــع ازدياد الفقر ونمو الفافيلات، تعقدت العلاقات الاجتماعية ضمنها. وســـط هذا التحـــول إلى الليبراليـــة الجديدة، نمت عصابة الكومانـــدو فيرميلهو CV والعصابات الأخرى لتصبح جيوشـــا غير نظامية، من دون عقيدة أو قضية سياســـية، مستخدمة فقط أساليب حرب العصابات وتنظيماتها.

«بحلـــول العام 1991 أصبحت الـــ CV منظمة إجرامية بحتة. لم تكن لديها أي عقيدة»، شرح القائد رودريغو أوليفيرا من القوات الخاصة المدنية لشرطة ريو عندما قابلته في مكتبه لمناقشة العصابات والحرب عليها. «هدفهم الآن هو السيطرة، بكل وضوح وبســـاطة – وليس الثروات الضخمة الخاصة لـ «مالكي» العشـــوائيات»، كما قال مســـتخدما المصطلح اللغوي الدارج لزعماء العصابات. «معظم هذا يدور فقط من أجل السلطة التنظيمية والأسلحة والمكانة».

يلاحظ المحللون الأكاديميون لعصابات ريو غياب مؤسســـات الدولة أو فشـــلها. يحاجـــج آخـــرون، من أشـــهرهم انريكو ديزموند آريـــاس، بأن البنـــى الإجرامية في الفافيـــلات تجمع رجال العصابات مع الشرطة وزعماء المجتمعات وسياســـيي التيار الرئيس ضمن شـــبكة من المصالح المفيدة المشـــتركة. نشـــأ مثل هذا الاتهام، تجريم الولاية المحلية بصورة أساســـية، من أزمة الليبرالية الجديدة [37]. وآرياس مصيب إلى درجة أن الإجرام في الفافيلات لا يصبح قضية نتيجة انســـحاب الدولة، بقدر ما هو حالة من التعفن الاجتماعي – مجتمع بأكمله مصاب بغرغرينا الاقتصادات التحتية والفساد والعنف.

الشمال الشرقي - نورديست

يرفـــرف علم الثورة الأحمر من أعلى ســـارية في الريـــح الحارة. يقع تحته مخيم صغير أقامه مزارعون فقراء على أرض تخص مزارعا غنيا يسكن في مكان بعيد. أهلا بـــك إلى الأراضي الجرداء الحارة من النورديســـت، وإلى القرية الصغيرة بوكويراو في مقاطعة ســـيارا في البرازيل. تجثـــم القرية على درب ترابي باتجاه وحيد أســـفل واد طويـــل تحـــده من الطرفين جبال شـــاهقة ذات صخور جرداء داكنـــة. لو نظرت في

خرائط غوغل لوجدت أن بوكويراو تقع تقريبا إلى الشمال من إيراكوبا، التي تقع على الطريق BR222. يبدو الوادي الطويل مثل ندبة شاحبة بين التلال الداكنة.

على أحد طرفي الطريق هناك قرية مكونة من منازل صلبة صغيرة مدهونة بالأبيض، لها أرضيات إسمنتية ناعمة، وأسقف قرميدية حمراء. على الطرف الآخر هناك مخيم الناشطين من الفلاحين، أعضاء من حركة ناس من دون أراض MST. حركة MST هذه عبارة عن حركة اجتماعية مؤلفة من نحو 370 ألف شخص، منظمين ضمن أكثر من 1000 مجتمع محلي عبر البرازيل. هدفهم بسيط: إعادة توزيع الأراضي على المزارعين الجائعين. في السنوات العشرين الأخيرة أحرزوا نجاحا ملحوظا. كانت أساليبهم بسيطة أيضا: الانتقال إلى أرض، والبدء باستغلالها. هذا ما يحدث الآن هنا. استخدمت كوادر الـ MST البلاستيك الأسود الصلب والحطب لبناء كوخين جماعيين. واحد للطبخ والأكل والاجتماع، والآخر ممتلئ بأسرة النوم. لا يترك المخيم أبدا من دون ناس.

أرض الجفاف

النورديست منطقة شبه جافة تتلقى كمية قليلة جدا من الأمطار. تقطّع الفيضانات العارمة دورات جفافها المتكررة. من العام 1877 حتى العام 1879 قتل جفاف كارثي أكثر من 500 ألف إنسان، وأدخل الشمال الشرقي الزراعي في أزمة سياسية [38]. أصبح الخوف من الجفاف الآن محفورا في ثقافة المنطقة. على سبيل المثال في أنحاء من سيارا انتهت السنة تقليديا بطقوس التنبؤ بالجفاف. في 13 ديسمبر، عشية يوم القديسة لوسيا، وضع رجل عجوز ست قطع من الملح الصخري على ورقة موز، بحيث مثلت كل قطعة شهرا من الفصل الممطر القادم. في الصباح التالي، تمثل القطع الملحية التي ذابت في الندى الشهور الممطرة من الفصل القادم. قال المزارع الذي شرح هذا التقليد لي أيضا: «يبدو أنها لم تعد تعمل بشكل جيد». على أي حال، يشير البحث إلى أن دورة الجفاف «أصبحت أكثر تكرارا خلال القرن الماضي، حيث سجلت خمس فترات جفاف خلال العقد الحالي»[39].

يستمر الفصل الممطر في سيارا من يناير حتى يونيو باختلاف كثير في المدة والتوقيت والشدة والأماكن. يهطل المطر مع تحرك نطاق التقارب بين المدارين إلى أدنى موقع جنوبي له [40]. تجد دراسة في مجلة علم المناخ التطبيقي أن درجة حرارة سطح البحر هي العامل الرئيس المسؤول عن «الاختلاف في الهطول من سنة إلى

أخرى في شمال شرق البرازيل»، مما يعني من بين أشياء أخرى أن الجفاف «يميل إلى أن يتصادف مع الطور الدافئ من فترات تذبذب النينو الجنوبي ENSO» [41].

بصورة أشمل، تظهر دراسات إقليمية لميول درجات الحرارة في المنطقة «حدوث تغيرات تتفق مع الاحترار المتوقع، وبالأخص ليال أشد حرارة. «تجد معظم النماذج المناخية أن شمال شرق البرازيل يتوقع له أن يشهد احترارا أسرع من المتوسط العالمي خلال القرن الحادي والعشرين». بحسب النموذج والمقادير المحتملة لغازات الدفيئة التي تضخ إلى الغلاف الجوي في العقود القادمة، فإن زيادات درجات الحرارة المتوقعة لهذا القرن تتراوح من 1°م إلى 6°م. بعبارات أكثر صلابة، تتوقع معظم التنبؤات أن تكون منطقة شمال شرق البرازيل تحت ضغط مائي شديد جدا بحلول العام 2050[42].

فافيلات ريو مأهولة إلى حد كبير بأناس من هذه الأراضي الجافة. على الرغم من مناخها القاسي فإن منطقة الشمال الشرقي مأهولة بكثافة بالسكان[43]. ومع طحن التغير المناخي لمزارعي الكفاف، يترك عدد أكبر من السكان المنطقة للبحث عن عمل إما في المدن المضغوطة من مناطقهم الساحلية القريبة مثل فورتاليزا وريسيفي، أو نحو الجنوب في المدن العملاقة مثل ساو باولو وريو. لذا فإن البعد الاجتماعي للأزمة البيئية في الشمال الشرقي (وهي جبهة أمامية لتغير المناخ) يعبر عنه في المدن على شكل بطالة وبيوت مؤقتة وتجارة مخدرات وعنف.

على ضوء ما تقدم يمكننا قراءة صراع المزارعين في بيكويراو أو على أنه صراع غير متعمد ضد العنف والانهيار الاجتماعي في المدن. في الوقت ذاته فإن صراعهم للتمسك بالأرض هو صراع من أجل العدالة الاجتماعية في إحدى أكثر الدول من حيث عدم المساواة في العالم. إنه أيضا صراع من أجل التكيف مع التغير المناخي في بيئة متطرفة بالفعل، وبهذا فهو يغلف إمكانيات الحياة البرازيلية ومخاطرها في مواجهة التجمع الكارثي.

تقنيات وتكيف

«شكرا لله أننا جميعا أقوياء. نحن لا نأخذ القروض»، قال أوسمار كاريترو أروغو. كنا نجلس في ظل مطابخ مخيم الـ MST(*). وحولنا كانت الأرض في فترة ما

(*) حركة «ناس من دون أرض».

بعد الظهيرة هادئة وحارة. كل شيء بدا كأنه ينتظر غياب الشـمس. أوسمار، زعيم المخيم الفعلي، كان في أوائل الأربعينيات، قصير القامة وغامق اللون بعيون منحرفة ومفكرة، وشارب أسود كثيف. هو الذي جاء بفكرة احتلال الأرض. قال:

> مرت علينا عدة سـنوات من دون جفاف. ثم في السـنة السابقة - لم نشهد شتاء كهذا. لقد أمطرت حتى شهر أغسطس. بالنسبة إلى ارتفاع درجة الحرارة، لا يمكننا قياس ذلك، لكننا نحس بأنها أسـخن. نشعر بالزيادة عبر السنين. وبالنسبة إلى الزراعة فإن هذا سـيئ. السنة السابقة كانت سـيئة حقا. لأن الأرض غمرت، خسرنـا 50 في المائة من الفاصولياء. الفاصولياء العريضة كانت جيدة. لكن كانت هنـاك وفرة في هـذا المحصول، لذا كانت أسـعارها منخفضة. المـزارع الحقيقي يحتفظ دوما ببعض البذور. نحن بخير على الرغم من السنة السابقة. لكن لو جاء طقس سيئ جدا مرة أخرى، فسيكون من الصعب علينا أن نتعافى.

في هذا المجتمع هناك سـبع وعـشرون عائلة معظمهم من الأقارب. في مواجهة الجفاف والفيضانات بدأوا بالتكيف تقنيا وسياسـيا. أولا تحولوا من زراعة المحصول الواحد للقطن أو الفاصولياء التي تتطلب حرق الحقول المتروكة، واستخدام مدخلات كيميائية غالية الثمن، إلى نوع من الزراعة البيئية لمحصول مختلط، وإدارة للغابات ومكافحة متكاملة للحشرات تسـتخدم القليل من المبيدات والأسمدة الكيميائية أو تستغني عنهما تماما. إنهم يستخدمون أيضا أشكالا مبتكرة من تقنيات التقاط الماء وحصاد الأمطار.

يأخذني أوسمار وبعض من رفاقه عبر الطريق ليريني «النظام»، وبعض تقنياتهم البديلة لحصاد الماء. تشـمل إحدى الطرق بناء «سـدود جوفيـة». إنها تجري على الشـكل التالي: أولا يجد المزارعون جدولا جافـا، أو منطقة طبيعية لتصريف المياه. في قاعدة هذه المنطقة، بعيدا عن منحدر التلة وأسفلها، يحفرون خندقا طويلا عبر الممر الطبيعي للتصريف. قد يكون الخندق بطول مائة إلى ثلاثمائة قدم، وعميقا بما يكفـي للوصول إلى الصخر - هنا، بعمق خمس إلى سـت أقدام. ثم ضمن الخندق يبنون جدارا من الإسـمنت والصخر - أو سدا - مغطى بطبقة بلاستيكية ثقيلة. ثم يعبأ الخندق بالماء ويطمر الجدار. هذا السـد الجوفي يبطئ بشـكل كبير التصريف الطبيعي، ويخلق حقلا رطبا وخصبا «أعلى الجدول».

محاصيل الزراعة الغابية هي مزيج من أشجار الفاكهة والذرة ومحاصيل الغطاء ومحاصيل العنب المتسلق. تبدو الحقول مهجورة من الناس بسبب الخليط المتشابك من أصناف النباتات. يلتقط هذا التشابك الكثيف الرطوبة، ويخلق توازنا بين الحشرات المتنافسة، بحيث يقلل من الحاجة إلى مبيدات كيميائية أو يستغني عنها. تناقص المردود خلال السنوات الثلاث أو الخمس الأولى، لكنه ازداد بعد ذلك مع تحسن التربة. وجلب المنتج العضوي أسعارا أعلى.

بالنسبة إلى النباتات المفردة التي تحتاج إلى ري يربط المزارعون علبا بلاستيكية فارغة ومثقبة على أعواد فوق النباتات العطشى. بهذا الشكل من الري بالتنقيط ذي التقنية البسيطة يمكن للمزارع أن يغذي نباتا مفردا ببعض الماء، ويسمح للسائل الثمين بالتنقيط ببطء وفوق النبات الذي يحتاج إليه فقط. قائمة المزارعين من الطرق المبتكرة طويلة، وتتطور جزئيا بفضل مجموعات مثل المنظمة غير الحكومية الكاثوليكية كاريتاس التي تعمل على نشر المعرفة بأفضل الأساليب بين المجتمعات.

تستخدم هذه الأساليب في الزراعة البيئية أو زراعة الغابات التي تعيد إحياء الطرق القديمة وتطورها في أنحاء العالم كلها. تذكر اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC هذه الأساليب في تقريرها التقويمي الرابع: «تقدم الزراعة الغابية باستخدام الأساليب الزراعة البيئية إمكانيات قوية للحفاظ على التنوع البيولوجي في أمريكا اللاتينية، نظرا إلى التقاطع بين المناطق المحمية، والمناطق الزراعية»[44].

يحافظ «النظام» كما يدعوه المزارعون على خصوبة الأرض والرطوبة، ويطورهما، ولأن الحقول لا تترك أبدا كأرض جرداء فإن ذلك يمنع عملية الحت. «يتكلم الناس عن الزراعة المستدامة لكن ذلك يستهلك المال والوقت» قال أوسمار «نحتاج إلى إصلاح ملكية الأراضي، والمساعدة في حصاد الماء، وتجهيزات تخزينه».

سياسة التكيف

خلال بقائي في بيكويراو لاحظت تناقضا. بينما تزعم أوسمار وآرون «النظام»، واستخدموا أساليب الزراعة الخضراء على جانب الطريق حيث يمتلكون الأرض، كانوا لايزالون يحرقون ويزرعون المحصول الواحد فقط على الأراضي التي احتلوها. يظهر السبب وراء ذلك كيف يرتبط التكيف بالعدالة الاجتماعية: تستغرق الزراعة الغابية

ما بين 3 و5 سنوات لتصبح مربحة. من دون حقوق على الأرض – أي من دون ملكية قانونية – لا تستطيع هذه العائلات استثمار دخلها القليل، ومجهودها النادر على المدى الطويل في مشروع كثيف العمالة من استصلاح التربة ورعايتها. في قرية أخرى أبعد شمالا على طول الطريق الترابي وجدت تأكيدا آخر على أن إصلاح ملكية الأراضي هو التكيف المناخي.

في قرية بوينو قابلت أنطونيو براغا موتا «النظام هو نظام متوازن؟ دهشت حقا لأننا لم نحتج فعلا إلى أسمدة ومبيدات لتحقيق ذلك»، قال أنطونيو ونحن نجول بين محاصيله المغطاة بدوالي العنب والأشجار: «كانت الطريقة التقليدية مخربة. الحرق يستنفد التربة. لسوء الحظ فعلت ذلك كثيرا». قال إنه حتى حيوانات التابير والطيور النادرة بدأت بالعودة. باستطاعته أن يتحمس للنظام لأنه يمتلك أرضا. لم يكن غنيا، لكنه يمتلك ما يكفي من الأرض ليحقق التحول من طرق عادية إلى الزراعة الخضراء.

في مخيم MST وجدت أيضا مثالا على الهجرة المعاكسة من الفافيلات إيابا إلى الأرض. مارسيو روميرو دو أروغا براغا مزارع شاب نحيل ترك الوادي في مارس 2003 من أجل أضواء ساو باولو اللامعة، حيث عمل في طلاء الأبنية.

«كانت الأمور جيدة وسيئة في المدينة»، شرح بينما كان يأخذ استراحة من نزع أشجار صغيرة على الأرض المحتلة حديثا. في ساو باولو قابل امرأة شابة وتزوجها. كانت تنحدر من باهيا الريفية وكان لهما ولد. «لكن الأمور كانت خطرة. كان على زوجتي أن تعبر فافيلا كل صباح للذهاب إلى العمل، كان هناك الكثير من العنف، وكانت المخدرات دوما في كل مكان، أفضل العمل في الأرض».

تحققت رغبة مارسيو في العودة إلى موطنه فقط عندما بدأ احتلال المزرعة غير المستثمرة. الآن هناك أرض يمكنه العمل بها. «حلمي أن أبقى هنا، وأستمر في الزراعة»، قال عندما سألته كيف يرى مستقبله. «عندما نربح هذا الصراع» - أشار إلى الحقل الذي كان ينظفه مع دزينة من الرجال الآخرين - «أستطيع أن أفعل ذلك».

إعادة الليبرالية الجديدة إلى الوراء

خلال أعوامه الثمانية في الحكم، أخذ الرئيس لويس إيناسيو لولا دا سيلفا على عاتقه بجد مهمة إعادة التوزيع والتنمية الاقتصادية للبنى التحتية في البرازيل –

أي حاول إعادة الليبرالية الجديدة إلى الوراء. وعد بشيء يشبه الصفقة الجديدة للرئيس روزفلت، لكنه قدم شيئا أقرب إلى «الحرب على الفقر» للرئيس جونسون - مقدما فوائد حقيقية للفقراء من دون أن يؤذي الأغنياء. لم يعالج الرئيس لولا الأزمة المناخية ببرنامج طموح من التخفيف والتكيف. مع ذلك فقد وضع الأسس لمجهودات التكيف الحقيقية التي يمكن أن تأتي بعد ذلك.

تحت لولا سددت البرازيل ديونها الخارجية، وراكمت احتياطيا بلغ 240 مليار دولار. في العام 2005 أعلنت البرازيل أنها ستسدد ديونها إلى نادي باريس (الذي يضم أكبر تسعة عشر اقتصادا في العالم) وصندوق النقد الدولي المكروه جدا أيضا [45]. أعاد هذا في الحقيقة توجيه تدفقات ضخمة من العائدات بعيدا عن المقرضين الأغنياء العالميين (الذين يكسبون المال من إقراض الآخرين)، ونحو الاستثمار الاقتصادي والاجتماعي ضمن البرازيل.

أحد برامج لولا الاقتصادية المركزية كان البولسا فاميليا، التي تعطي دفعات تصل إلى 104 دولارات في الشهر للعائلات الفقيرة. يدفع للأمهات اللاتي تربين أولادهن المال لإرسالهم إلى المدرسة، والحصول على اللقاحات، واتباع تغذية جيدة. يقدم البرنامج الغذاء ليس للمشردين فقط، لكن للطبقة العاملة بقوة أيضا، وبالتالي يتمتع بتأييد واسع. بدأت البولسا في الحقيقة في التسعينيات من قبل الحكومات السابقة، وتوسعت تحت الرئيس فرناندو أنريك كاردوسو، ثم توسعت مرة ثانية كثيرا تحت لولا. بحلول العام 2010 اعتمد واحد من كل أربعة برازيليين على البولسا، مما ساعد في انتشال 21 مليونا من الفقر. التكلفة هي ضمن الحد الأدنى: تنفق البرازيل أقل من 1 في المائة من ناتجها القومي الإجمالي البالغ 1.6 تريليون دولار على برامج مكافحة الفقر. هذه عدالة اجتماعية بإعادة التوزيع، لكنها لا تحول العلاقات الاجتماعية المؤسسة إليها.

ربما كانت مبادرة لولا الأخرى الكبيرة أكثر عمقا. برنامج تسريع النمو PAC وهي سياسة على مستوى الاقتصاد الكلي، والبنى التحتية - الكينزية الكلاسيكية - بدأت في العام 2007 باستثمار أولي بلغ 4.2 مليار دولار، وهدفت إلى إعادة إصلاح البنى التحتية وتطويرها. بنت الـ PAC طرقات وسككا حديدية وخطوط الكهرباء والبيوت. في الشمال الشرقي تساعد المصدرين الزراعيين في احتجاز المياه والري والنقل وتسهيلات الموانئ.

ساعدت الـ PAC في الحفاظ على النمو الاقتصادي القوي للبرازيل: حتى خلال أسوأ حـالات الركود الاقتصادي أخيرا في العالم عملت البرازيل بشـكل جيد وانخفضت عدم المساواة فيها. تحت لولا، ازدادت نسبة الـ 10 في المائة الأغنى في البرازيل إلى 11 في المائة، لكـن الـ 10 في المائة الأدنى شـهدوا ارتفاعا للدخل بمعـدل 72 في المائة. لكن تركيز الـ PAC على مشروعات ضخمة برأسمال مكثف، عنى الاعتماد على رجال أعمال يتمتعون باتصالات جيدة، وهذا يميل إلى إعادة ترسيخ الطبقية ضمن المجتمع [46].

يتطلـب تغير المنـاخ والمهمة الصعبـة في التكيف على مسـتوى القاعدة دورا اقتصاديا موسـعا للدولة البرازيلية. مع ذلك، حتى أنشـطة إعادة التوزيع البسيطة مـن قبل الدولـة يمكنها بلا قصد إعـادة تدعيم ديناميكية علاقـة الراعي - الأجير البالغ عمرها خمسمائة عام، والتي أساءت إلى البرازيل. هل يمكن لمعونات التكيف المناخي في الشمال الشرقي أن تجبر الفقراء على الاعتماد على نخب محلية - زعماء سياسـيين يعملون كوسـطاء مع الدولة؟ أو هل سـتعمل مع الحركات الاجتماعية؟ الوقت وحده سيبين ذلك.

كما اكتشف دونالد نيلسون وتيموثي فينان الخبيران في هذا الموضوع، تقدم أعمال الحكومـة الآن الغـذاء والماء والنقود إلى ضحايا الجفاف. اسـتهدف الشـمال الشرقي بمعونات الجفاف الطارئة، وبمشـاريع البنى التحتية الكبيرة لتخزين الماء على مدى أكثر من مائة عام. «نتيجة لذلك لم تعد الوفيات المتعلقة بالجفاف ظاهرة، وانحسرت الهجرة الإجباريـة بدرجـة كبيرة، مما يشـير إلى أن الدولة نجحت في تخفيف أسـوأ التاثيرات في البيئة. مع ذلك، ونتيجة للمسـتويات العالية من التعـرض، تبقى العائلات الزارعية معتمدة على جهاز الدولة السياسي (والنخب المحلية) خلال أيام الأزمة» [47].

كما تمثل MST وCV اسـتجابتين متناقضتين على مسـتوى الجـذور للتكيف مع المعاناة، بيد أن الصفقة الاسـتوائية الجديدة للولا والهجوم شـبه العسكري للـ BOPE عـلى الفافيلات مثالان على الإمكانات المتعارضة للدولة البرازيلية. سـتصبح المشـاكل الاجتماعية الناجمة عن الفقر والعنف في البرازيل أكثر شـدة مع ترسخ التغير المناخي. بعض القدر من القمع محتم. السؤال هو: أي اتجاه ضمن الدولة سيهيمن على سياستها في المستقبل: التوجه لتخفيف المعاناة، أو لاحتوائه وقمعه بعنف؟

14

غولغوثا ميكسيكانا(*): لاجئو المناخ والتجارة الحرة والحرب في الجوار

بدأ نهار جديد، ويبدو كأنه ليل.

تشارلز بودن، مدينة القتل

«بلد أصبحت بنيته ومؤسساته الاجتماعية بغرغرينا فساد المخدرات ليس بلدا يمكنه التكيف مع ارتفاع مستوى البحر والطقس العنيف وانخفاض مردود المحصول والهجرة الجماعية التي تحركها هذه العمليات»

المؤلف

كانت الريح التي تهب من الصحراء المكسيكية باردة ورملية. وتوارت شمس شتوية شاحبة بعيدا، وامتدت ظلال خوارزيز إلى مكان بعيد عبر الطرقات. كنت أركب مع دورية للجيش المكسيكي في شاحنة عسكرية تقفز وتتمايل فوق الأرض الوعرة. انتشرت أكواخ من الخشب المحترق عشوائيا على التلال الصغيرة والوديان المنحدرة. كنا نلف ونلف بانتظار العنف. هذا ما يفعله الجنود هنا: يسوقون في حلقات، ثم يتوقفون لتناول وجبة سريعة، ثم يسوقون أكثر. سريعا تظهر

(*) غولغوثا أو جلجثة هي موقع صلب المسيح وفقا للإنجيل. [المحررة].

جثــة مخترقة بالرصاص. يظهر عدد منها كل ليلــة، لأن هذه المدينة هي إحدى أعنف المدن في العالم.

كان لــدى جندي يمضغ العلكة في مؤخرة الشــاحنة، ويحمل بندقية G3 في يد تلبــس الكفوف، ويمســك قضيب الشــاحنة باليد الأخرى، خطــة لخواريز: «أحكام عرفية». مســح بعينيه الأســقف المنبســطة من خلال غطاء أصفر شــاحب. «منع تجوال. التفتيش من منزل إلى منزل. أخذ الأسلحة كلها. لا شفقة».

يقولون إن هناك حربا في المكســيك، وعدد القتلى يجعلها كذلك. قتل ما يقارب مــن 30 ألف شــخص هنا منذ العام 2006، عندما وضــع الرئيس فيليبي كالديرون الجيــش في المدن الحدودية للقتال في حرب المخــدرات[1]. بحلول العام 2009 كان أكــثر من 1100 من القتلى هم من الجنــود والشرطة وموظفي الأمن. وصف تقرير حكومي مكســيكي سري العام 2009 بأنه أشد الأعوام قتلا حتى ذلك التاريخ، حيث قتل أكثر من 9600 إنسان، وكانت السنة التي تلتها أسوأ[2].

في نهاية العــام 2009، عندما قضيت بعض الوقت أتجول في المنطقة الحدودية، ســجلت خواريز - وهي مدينة متداعية وملطخة بالســواد ونصف مهجورة - الرقم المذهل المؤلف من 2600 قتيل[3]. شــمل العديد من هــذه الحوادث أيضا الخطف والتعذيب والتشــويه. من ناحية أخرى ســجلت مدينة الباسو أربعة اغتيالات فقط. حدثــت بعــض الاغتيالات في خواريز بمعدل ضحية واحــدة كل مرة، وحدث بعضها على شــكل مذابح قتل فيها حتى ثماني عشرة ضحية في وقت واحد[4]. حصل بعضها أواخر الليل، بينما تمت أخرى خلال زحمة الســير في منتصف النهار. بدا أول يوم في العــام 2010 بقتل جماعــي: هاجم أكثر من دزينة من المســلحين بالبنادق حفلا في بيت لطلاب المدرسة الثانوية من الطبقة الوسطى، فقتلوا ثلاثة عشر شخصا، وجرحوا أربعة وعشريــن[5]. ثم نُصب كمين لموظفين في الســفارة الأمريكية، واغتيلا. بحلول أواخر أبريل 2010، كان قد قتل تســعة وعشرين ضابطا من الشرطة في خواريز، ثم كمن مســلحون لسيارتي شرطة في وسط المدينة، فقتلوا سبعة آخرين. وخلال الوقت ذاته أغار مسلحون على مكتب الجمارك في الجانب المكسيكي من الجسر الدولي الذي يربط كامارغو في المكســيك بريو غراند في تكساس. في اليوم نفسه هوجمت الشرطة بالقنابل في لا يونيون، غويريرو. أعدم رئيس في الشرطة، ونائبان له في البلدة الزراعية

لـوس الداماس في نيوفو ليون. قطـع رأس رئيس الشرطة في بلـدة قريبة. ثم خلال الوقت ذاته تقريبا كمن مسـلحون لمسـاعد رئيس شرطة نوغاليس، سونورا، وقتلوه مع حارسـه. في ولايتي تاموليباس ونيوفو ليون شنت دزينات من مسلحي المخدرات هجومات متزامنة على معسكرين للجيش، وذكر أن ثمانية عشر من المهاجمين قتلوا. انفجرت سـيارة مفخخة في خواريز، وذبح سـبعة عشر مهاجـرا في تامواليباس على بعد مائة ميل تقريبا من براونزفيل بتكساس[6]. في هذه الأيام يقتل العمدة وضباط الشرطـة والمرضى المتعافـون من المخدرات المكسـيكيون جميعهم بشـكل روتيني وبأعداد كبيرة مروعة. يمكن لقائمة الأعمال الوحشية الغريبة هذه أن تستمر.

صلات سياسية من بُعد

للوهلة الأولى يبدو أن هذه الأزمة من العنف لا علاقة لها بالتغير المناخي - لا يغتال مروجـو المخدرات الشرطة لأن نطاق التقارب بـين المدارين خرج عن وضعه الطبيعي. لكن بتفحص أدق يقدم الانهيار شـمال المكسيك توضيحا آخر للتجمع الكارثي: سياسات تخلق الفقر والعنف تصطـدم الآن بالحقائق الجديدة لتغير المناخ، ومع بعضها البعض تخلق هذه القوى الثلاثة أشكالا مخربة اجتماعيا من التكيف.

مع استكشـافي لخواريز، أصبح واضحا أن التغير المناخي عامل مهم مسـبقا في الأزمة. أولا وقبل كل شيء يهدد المناخ يهدد الزراعة وصيد الأسماك. ومع السياسات الاقتصاديـة الليبراليـة الجديدة، فإنه يزيد البطالة، ويدفع الناس نحو الشـمال إلى الولايات المتحدة، وإلى مصائد اقتصاد المخدرات السري.

يضرب التغير المناخي المكسـيك بشدة. وقع النصف الشمالي من البلد في قبضة أسوأ جفاف خلال سـتين عاما، بينما تغمر المياه المناطق الجنوبية الشرقية. وجدت دراسـة حديثة أنه لكل نقص بمقدار 10 في المائة في المحصول يهاجر 2 في المائة أكثر من المكسـيكيين إلى الولايات المتحدة. تتنبأ الدراسـة نفسـها بأن 10 في المائة من سكان المكسيك الحاليين بين الخامسة عشرة والخامسة والستين من العمر، يمكن أن يحاولوا الهجرة شمالا نتيجة ارتفاع درجات الحرارة[7].

شهد العام 2010 طقسا أكثر شذوذا: خربت الأمطار معظم محصول الفاصولياء في ولايتي سـاحل المحيط الهادئ ناياريت وسينالوا، دمرت الأنهار حوافها، وأغرقت

المحاصيل في ميشوكان. أغرق الإعصار اليكس منطقة شمال شرق المكسيك، فقتل ثلاثين شخصا على الأقل، وحزب المحاصيل. ضربت الفيضانات بالجملة تاباسكو للمرة الثانية خلال أربع سنوات. وفي العام 2007 غمرت مياه الفيضانات 80 في المائة من الولاية[8].

هجرة

في العام 1990 تنبأت اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC بأن «أكبر تأثيرات التغير المناخي قد تكون تلك المتعلقة بالهجرة الجماعية». ازدياد العواصف وفترات الجفاف والفيضانات وانتشار الأمراض وارتفاع البحار كل ذلك سينشر الدمار للشواطئ الحضرية، والاقتصادات الزراعية في العالم. يقترح هذا مستقبلا يكون فيه ملايين الناس في حالة هجرة. سيؤدي ارتفاع بمقدار 1 متر في مستوى سطح البحر - وهو مؤكد تقريبا مع نهاية القرن، ما لم يحدث تدخل غريب من الطبيعة الأم مثل حدوث انخفاض إلى الحد الأدنى في الإشعاع الشمسي - إلى غمر أراض تؤوي حاليا نحو 10 في المائة من سكان العالم. ولن يستطيع الكثيرون الذين يعيشون بعيدا عن البحر على أراض زراعية شبه جافة التكيف وسيجبرون على الانتقال.

في ضوء هذا تصبح الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك قالبا نموذجيا لفهم ديناميكيات عالمية خطيرة. في كل أنحاء العالم تزداد الحدود وأنظمة الشرطة تصلبا لتوافق السياسات التي تقيد الهجرة مع السياسات التي تحرض على كره الأجانب.

بحلول العام 2050 من المتوقع أن يبلغ عدد سكان العالم ذروة تصل إلى 9 مليارات إنسان، ومن المحتمل أن ترتفع درجة حرارة العالم إلى 2°م أسخن مما هي عليه الآن أو أكثر. كم سيصبح عدد اللاجئين البيئيين؟ كان تقرير منظمة الهجرة الدولية واقعيا حول عدم التأكد، ملاحظا أن «التقديرات الحالية تتراوح بين 25 مليونا و1 مليار من البشر بحلول العام 2050». يشرح التقرير أيضا أنه «كما كانت الحالة في السابق بالنسبة إلى اللاجئين السياسيين، من المحتمل أن يقع عبء تزويد لاجئي المناخ على عاتق أفقر الدول - تلك الأقل مسؤولية عن إصدارات غازات الدفيئة»[9].

قدرت سترن ريفيو البريطانية للعام 2006 أن بين 200 و250 مليون إنسان سيُقتلعون من أوطانهم بسبب تغير المناخ. وهذا يعادل 10 أمثال الرقم الحالي

للاجئين في العالم[10]. دع هذا يتغلغل في تفكيرك للحظة. كان الأكاديمي من بنغلادش عتيـق رحمن مصيبا عندما حذر قائلا «سـيتحرك ملايين الناس. ولن يسـتطيع أي قـدر من الغواصات النووية إيقافهم»[11]. قدر تقرير آخر أن هناك 214 مليونا من اللاجئين الدوليين في العالم اليوم. «لو استمر هذا الرقم بالزيادة بالسرعة نفسها التي كان عليها خلال الـ 20 عاما السـابقة، فيمكن لعـدد اللاجئين الدوليين أن يصل إلى 405 ملايين بحلول العام 2050»[12].

تظهر الهجرة على شـكل سلسـلة من تأثيرات صادمة تخفي علاقات عرضية. في الـدول الفقيرة، ليس من الـضروري أن يكون الأفقر والأكـثر تضررا هم الذين يهاجـرون أولا وإلى أبعـد مكان. «القـدرة على الهجرة تتبع القـدرة على التحرك والموارد (ماليا واجتماعيا). بعبارة أخرى، فإن الناس الأكثر تعرضا لتغير المناخ ليسوا بالضرورة الأكثر احتمالا للهجرة»[13].

هنا يظهر التجمع الكارثي نفسـه مرة أخرى: تضيف أزمة المناخ قوة دافعة إلى الإرث المخرب الذي ظهر مسـبقا لليبرالية الجديدة، وللمغامرات العسـكرية أثناء الحـرب الباردة. يعمل تغير المناخ كعامل عرضي إضافي في تشـكيل تدفقات اللجوء المؤسسـة مسـبقا. ولمواجهة ارتفاع موجات الهجرة، تتصلب الحدود وتتسـلح بين الاقتصادات المركزية الغنية والدول النامية[14].

من المهاجر المناخي؟

عـلى الضفة الجنوبيـة من نهر ريو غراند قابلت خوسـيه رامـيرز. كان عاطلا عن العمل بوجـه متورد يرتدي الجينز وقميصا بطاقيـة، يجلس القرفصاء ويحدق عبر النهر إلى الولايات المتحدة. كان صيادا في ميتشـواكان، لكنه هاجر منها بسـبب الصدمات الاقتصادية التي تلت النينو 1997-1998. تظهر قصته العلاقة بين الأزمات الاقتصادية والبيئية.

«أصبح البحر أحمر، واختفت الأسـماك جميعها»، قال راميرز وهو يشرح سبب تركه موطنه. أصبح شـاطئ ميتشـواكان أدفأ، الأرض والبحر كلاهما. في البداية بقي هناك، لكن النينو جعله مدينا. كانت عائلة راميرز تدير مطعما صغيرا، لكنها اضطرت إلى إغلاقه عندما أصيب الكل بصدمة اقتصادية. أخيرا اضطر إلى بيع قاربه ومحركه.

ثـم عمل عـلى قارب ضخم لصيد القريـدس، لكن الدخل كان ضمـن الحد الأدنى. لـذا بعد عامين من صدمة الطقس بسـبب النينو، انتقل شـمالا إلى خواريز قاصدا الذهاب إلى الولايات المتحدة وهذا ما فعله. لنحو السـنة عمل بصورة غير قانونية بناء السطوح في لاس كروسيس في نيو ميكسيكو، لكنه قبض عليه بعد ذلك وهجر.

إنـه يتحين الفرص للعودة الآن. «تكلمت عـلى الهاتف مع رب العمل القديم. قـال إن لديـه عملا لي»، قال راميرز وهو ينظر عبر نهـر ريو غراند الجاف إلى مركز الباسـو. لكن مـن الصعب عبور الحدود هذه الأيام. إنه يحتاج إلى المال لاسـتئجار دليل محـترف. لا يوجد عمل هنا في خواريز. بين التحول الاقتصادي العالمي وعنف المخدرات الشديد في المدينة تبقى الصناعة في حالة تراجع. يكسب راميرز ما يكفي للعيش فقط من عمل يومي بين الحين والآخر.

«القتـل هنا يجعل الحيـاة صعبة جدا. رأيت طفلا يقتـل أمامي مباشرة. ليس بعيـدا من هنا في أحد المخـازن أطلقوا النار على رجل ثم عـلى الطفل. لا أريد أن أتورط في المخدرات. أريد أن أقوم بعمل شريف فقط». قال راميرز.

ما الذي حدث لخوسـيه راميرز؟ بعبارات بسيطة دفعه النينو إلى الدين، وهذا أجـبره على الهجرة شـمالا. كما كررت خلال هذا الكتاب، من المسـتحيل القول إن العالم الأشـد حرارة قد تسـبب في حادثة طقس وحيدة. لكن نمـط العلاقة واضح: يتعلق ارتفاع درجة الحرارة السطحية بحوادث أكثر من النينو.

يتجلى تغير المناخ في شـكل جزء من شبكة من الحوادث. أطلقت المياه الدافئة للنينو ازدهار الطحالب الحمراء السامة التي قتلت الأسماك وحركتها بعيدا، وبالتالي أطلقت رحلة راميرز إلى الشـمال. لكن الازدهار الطحلبي السام لم ينتج بسبب الماء الحار فقط. لقد نشأ أيضا من البر نتيجة التطوير الواسع للفنادق السياحية وملاعب الغولـف ومزارع الفاكهـة للتصدير، وكلها تطلق كميات أكـبر من الصرف الصحي والفوسفات العضوي إلى البحر، مغذية نمو الطحالب السامة.

هذه الزيادة في التلوث العضوي يضاعفها الانحسار في الدفاعات الطبيعية على شـكل غابات المانغروف والأراضي الرطبة. تنمو غابات المانغروف على مد منبسط، ومجـرى مياه عذبة نظيفة بامتصاص المغذيات التي كانت سـتغذي بطريقة أخرى الازدهار الطحلبي. يعني انحسـارها نمو المزيد من الطحالب. يزيل التطور المنفلت

نفســه الذي يضيف الملوثات العضوية إلى المياه الساحلية المانغروف أيضا. بحسب منظمة الزراعة والأغذية التابعة للأمم المتحدة امتلكت المكسيك 1.4 مليون هكتار من غابات المانغروف في العام 1971. وبحلول العام 1999 انخفضت مســاحة هذه الأراضي الخشبية الساحلية بنحو النصف إلى 733 ألف هكتار فقط[15].

بالمثل، لم تكــن التأثيرات الاجتماعية للمد الأحمر حتميــة، لكنها خلقت جزئيا نتيجة سياســات اقتصادية - سياســية. على ســبيل المثــال، لماذا لم يكــن المخزون الســمكي أكثر قوة؟ لأن مصايد المكســيك تدار بشكل ســيئ، وهي في حالة تقهقر، وقد ثبت معدل التقاط الأســماك منذ العام 1980 على الرغم من الزيادة المستمرة في الاســتثمار[16]. لمــاذا لم يكن هناك نظام عام للدعم لخوســيه راميرز خلال الأيام الصعبة؟ لأن المكسيك الآن مختبر اجتماعي لمؤيدي السوق الحر المتشددين.

سمك ليبرالي جديد

كانت الثورة المكســيكية تقدمية عموما في شــخصيتها. بــين إصلاحاتها المتعددة حجزت أفضل مصائد الأســماك للأفراد الصيادين الصغار، وبعض التعاونيات المدعومة من الدولة. «خلال الثلاثينيات منحت التعاونيات باستمرار امتيازات للصيد في المصائد الوطنيــة، وهي عملية توجــت بقانون الصيد عام 1947، الــذي منحها حقوق الصيد الحصرية في أهم تســع مصائد محار وأسماك»[17]. حصل صيادو الكفاف أو الحرفيون عــلى البقية. كيفية التقاط الأســماك وصنعها وبيعها كانت كمعظــم الاقتصاد مغلفة بطبقات من التشريعات المحددة بالوطنية الاقتصادية. تحكمت مؤسسة شبه حكومية تدعى بروبميكس في تغليف الأسماك وتصنيعها وفي الأسعار والتسويق[18].

خلال أزمة الديون في أمريكا اللاتينية في الثمانينيات حررت المكســيك باستمرار اقتصادهــا. كان الهدف النهائي من العملية الوصــول إلى اتفاقية التجارة الحرة مع الولايات المتحدة وكندا. وكجزء من هذا خصخصت بروبميكس كامل مصانع تعليبها وتغليفها وسفنها. سمحت عملية إزالة التحكم في القطاع المصرفي للشركات الخاصة بإبعاد التمويل الحكومي عن قطاع الصيد[19]. في العام 1989 سمح للملكية الأجنبية بـ 50 في المائة من صناعة الصيد وتصنيعه[20]. أنهي احتكار التعاونيات مما اضطرها للمنافســة مع القطاع الخاص للحصول على حقوق الصيد الرسمية. خُفضت الدولة

الإنفاق العام ببيع المؤسسة الحكومية الرئيسة لتصنيع الأسماك وتصديرها إلى بنك خاص، وخفضت الدعم للصيادين الصغار. بشكل أوسع، خصخصت أو جرت تصفية 940 مؤسسة قطاع عام من أصل 1155 مؤسسة بين عامي 1982 و1994، وفتحت الأسواق التي كانت من قبل مغلقة. مقابل هذا كله حصلت المكسيك على نفوذ أكبر إلى الأسواق الأمريكية[21].

جاء النموذج الليبرالي الجديد لإدارة المصائد بتكلفة اجتماعية وبيئية عالية. انخفضت المخزونات بشدة، وازداد الفقر بين مجتمعات الصيادين. ومع تقليص الدولة لدورها، وانتقال رأس المال الخاص إلى قطاع متحكم فيه بشدة، نما الفساد والصيد غير المشروع للموارد البحرية[22].

التشريع القليل المتبقي جرى تجاوزه مرارا فيما دعاه صحافي «التايمز» المخضرم تيم وينر «الهوة السحيقة بين القوانين المكسيكية وآليات تنفيذها». قدَّر المسؤولون أن نحو 12 ألف زورق صيد غير مرخصة كانت تعمل في بحر كورتس(*) وحده[23]. تستولي السفن الأجنبية على معظم الصيد: يمثل الأسطول المكسيكي أقل من 10 في المائة من الصيد الكلي، بينما تذهب البقية إلى سفن من الولايات المتحدة واليابان وكندا[24]. جعلت هذه الإدارة السيئة للموارد السمكية أناسا مثل خوزيه راميرز عرضة للطقس الشاذ الجديد، وساعدت في دفعهم بعيدا عن أساليب معيشتهم الأولية نحو المدن المكسيكية والولايات المتحدة.

قصة خوسيه راميرز المتكررة عبر البلد هي قصة تغير مناخي يعبر عن نفسه من خلال الحقائق الاقتصادية السياسية لليبرالية الجديدة. وبينما يستحيل القول إن تغير المناخ هو سبب النينو 1997 - 1998، نعلم بأن كوكبا آحر من المحتمل أن يؤدي إلى حوادث طقس أشد عنفا كالتذبذب الجنوبي للنينو وازدهار طحلبي أكثر سمية. وبالإضافة إلى سياسات اقتصادية سيئة، يؤدي تغير المناخ مسبقا إلى تدفق لاجئي المناخ.

دفعوا من سييرا

على الطرف الجنوبي الشرقي لخواريز، حيث تزحف البيوت العشوائية إلى سييرا مادر، قابلت لاجئي مناخ آخرين في مستعمرة لهنود الراراموري. عُرفوا أيضا بالتاراهومارا،

(*) خليج كاليفورنيا.

يأتي عداؤو المسافات الطويلة هؤلاء من سييرا مادري الغربية في جنوب تشيواوا. تمثل مستعمرتهم الحضرية قرية جبلية متمركزة حول ساحة، وكنيسة كاثوليكية ذات جدران صفراء. فوقهم يخيم جبل رمادي بارد ضخم. على سياج علق جلدا بقر جافان لحيوانين ذبحا للعطلة. الكثير من رجال الرارامـوري عاطلون عن العمل، أو يقومون بأعمال متقطعة في النهار، والعديد منهم سكارى. انتقل الهنود إلى هنا لأن الوظائف جذبتهم شمالا، لكن الجفاف في موطنهم يدفعهم إلى الانتقال أيضا.

«لم تهطل أمطار هناك، لذا يأتي الكثير من الناس إلى هنا»، قال سيلسو نافا غاليندو. انتقل وهو في السادسة والثلاثين من قرية على بعد 7 ساعات تدعى بوكوينا إلى هنا. «لا مطر، لا ناس» قال غاليندو. «في موطننا نعيش على الزراعة ونتكلم لغتنا. لكن الجفاف يجعل العيش هناك صعبا جدا».

في العام 2008 لاحظ كاتب الرحلات ريتشارد غرانت الشيء نفسه: «غادر التراهومارا المنطقة الآن. إنها قصة تغير مناخي كأي شيء آخر. كانت هناك اثنتا عشرة سنة من الجفاف في السنوات الخمس عشرة الأخيرة. أصبح من المستحيل على مزارعي الكفاف المحافظة على أنفسهم أحياء. من المشاكل والتحديات كلها التي واجهها التراهومارا كانت هذه هي الأكثر شدة»[25].

عندما استسلمت الزراعة للجفاف، عمل غاليندو بقطع الأخشاب طوال الوقت، لكن عندما أزيلت الأشجار فقد عمله. لذا جاء إلى خواريز – مثل الخشب الذي يأتي من موطنه الأصلي – وعمل في البناء. ومثل الرجال الآخرين في الساحة، شرح مسألة الجفاف بمصطلحات محلية وعملية: «الكثير من قطع الأشجار».

بالفعل تتعرض غابات سييرا التاراهومارا لضغط شديد. يأتي نحو 90 في المائة من الخشب المنتج في ولاية تشيواوا من هناك. المكسيك، ككل التي لم تكن أبدا مزروعة بالغابات بكثافة، قطعت أكثر من ثلث غاباتها. شهدت الثمانينيات، وهي عقد الليبرالية الجديدة المستمرة التي قادت إلى اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا)، إزالة سريعة للغابات. بين العامين 1990 و2005 فقدت المكسيك 6.9 في المائة من غاباتها للأبد[26].

ربما كان الرجال في الساحة مصيبين باعتقادهم أن إزالة الغابات هي سبب الجفاف. غير أن المشاكل تمتد إلى أبعد من سييرا التابعة لهم. تعاني معظم المكسيك

من طقس جاف وشاذ، بما في ذلك فيضانات مفاجئة في مناطق مصابة من ناحية أخرى بالجفاف. سيكون تغير المناخ الديناميكية المركزية في الهجرة بصورة متزايدة. يشير معهد المراقبة الدولي وورلد ووتش إلى أن «التصحر الذي يؤثر على الأراضي الجافة (في المكسيك) يدفع نحو 600 ألف إلى 700 ألف إنسان للهجرة كل عام». في العامين 2009 و2010 وقعت المكسيك بسبب النينو في قبضة أسوأ جفاف خلال عقود. في أنحاء عديدة من المكسيك كانت ملكية الماء أهم من ملكية الأرض[27]. «تأثر نحو 40 في المائة تقريبا من الأراضي الزراعية التي فحصتها الحكومة بالجفاف، مسببة انخفاضات خفيفة في حصاد الذرة والفاصولياء والقمح والسمسم»، كما أشارت برقية عمل. أنفقت الحكومة المكسيكية أكثر من 100 مليون دولار على مساعدات لضمان المحصول في حالات الطوارئ للمزارعين[28]. أعلنت الحكومة أن الجفاف أنقص حصاد الذرة البيضاء للغذاء في العام 2009 بنحو 10 في المائة، لكنها أصرت على أن «الإمدادات للاستهلاك البشري ستكون مضمونة»[29].

تفحصت مؤسسة كير CARE الدولية مسألة التصحر والهجرة في المكسيك ووجدت دلائل متزايدة على انزياحات سكانية بسبب تغير المناخ. «عندما يكون محصولنا سيئا، علينا أن نعتمد على أنفسنا»، شرح أحد المزارعين. «على الكثيرين منا أن يغادروا إلى كندا أو الولايات المتحدة... النقود التي جنيتها هناك... كانت مساعدة قيمة لعائلتي. من دون ذلك الدخل، سيكون الأمر صعبا جدا». أخبر مزارع آخر مؤسسة كير: «جدي وأبي وأنا عملنا في هذه الأرض. لكن الزمن تغير... المطر أصبح يأتي متأخرا الآن، بحيث إننا ننتج أقل. الحل الوحيد هو أن نغادر بعيدا»[30].

بعيدا إلى الجنوب تحصل الظروف ذاتها. ارتفاع درجة حرارة المحيط الهادئ قبالة شواطئ بيرو يعني أن تواجه غواتيمالا أسوأ جفاف خلال ثلاثة عقود. في العام 2009 فشل محصول الذرة في أربع مقاطعات. احتاجت 400 ألف عائلة فلاحية مساعدات غذائية. توسلت الحكومة للحصول على 100 مليون دولار على شكل معونات طارئة. في السلفادور جلب الإعصار «إيدا» فيضانات عارمة: هُجِّر 15 ألف إنسان من مساكنهم، ومات أكثر من 200 منهم. لكن الدمار الحقيقي من تلك العاصفة سيصل لاحقا مع دفع التربة المهترئة، والمحاصيل الفاشلة، والديون العائلية المتزايدة، الناس بعيدا عن الأرض إلى المدن، وما وراءها إلى المكسيك، ثم إلى الشمال مرة أخرى.

عندما يواجه السكان النازحون قدرا أكبر من الفقر والبطالة والسكن في العشوائيات وإغراء تجارة المخدرات السرية وفساد الدولة وعدم المساواة ووسائط الإعلام الحافلة بالمادية والنرجسية والجنس والتعطش للقتل، فإن الشذوذ والحرمان النسبي الذي يختبرونه يغذي فيهم الإجرام. تبرر الجريمة قمع الدولة المكسيكية، وكما سنرى لاحقا، تشدد الشرطة ضد الأجانب في الولايات المتحدة. بهذه الطريقة تتحول الأزمة في الأنظمة الطبيعية إلى أزمة عنف في المدن واضطهاد على الحدود.

يربط التجمع الكارثي، كما يتجلى في شمال المكسيك، بين الهجرة والاقتصاد والعنف والمناخ. ولفهم الانهيار الاجتماعي المتمثل في حرب المخدرات المكسيكية التي يتدفق إليها لاجئو المناخ الآن، علينا فهم التاريخ الاقتصادي للبلد، لأن الطقس الجديد الغريب الذي يدفع الناس بعيدا عن أراضيهم يعبر عنه من خلال الحقائق الاقتصادية التاريخية. هذا واضح من حالة جاهزية راميرز الصياد من ميتشواكان، والمزارع سيلسو نافا غاليندو من الراراموري الذي تحول إلى حطاب ثم إلى عامل يومي في المدينة. لم يدفع المهاجرون على شاكلتهم بعيدا بسبب الجفاف والفيضانات والازدهار الطحلبي، بل جذبوا أيضا إلى دوامة سياسات الحدود والهجرة تحت إغراء العمل الصناعي. لذا يتطلب فهم تغير المناخ في المكسيك وعلى الحدود المسلحة الأمريكية، جولة في التاريخ الاقتصادي للثورة المكسيكية، وفي التحولات التي أحدثتها اتفاقية النافتا.

المكسيك المتمردة

منذ العام 1920، عندما صمتت مدافع الثورة، وحتى أوائل الثمانينيات، تطور الاقتصاد المكسيكي بمؤسسات تقودها الحكومة وتتوجه إلى الداخل بنمط مماثل للبرازيل وشائع في أمريكا اللاتينية. تحت قيادة بورفيريو دياز قيل إن المكسيك بمنزلة أم للأجانب، وزوجة أب بالنسبة إلى المكسيكيين[31]. وكما وصف المؤرخ ومراسل صحيفة نيشن (الأمة) كارلتون بيلز في السيرة الذاتية لدياز «كان لمجموعته فكرة أساسية واحدة، وهي السرقة، كثيرا ودائما بطريقة مدروسة»[32]. كان هذا صحيحا خاصة بعد حرب الولايات المتحدة مع إسبانيا العام 1898، حيث انزلق دياز تحت الضغط التجاري من الشمال نحو السلطوية التي اشتهر بها. وقد ساءت

الأمـور مع الركود الاقتصادي في العـام 1903. جوبهت الإضرابات خلال فترة التعافي في العامـين 1906 و1907 بقمع عنيف. مزجت أسـاليبه - «الخبز أو العصا» - بين القمع والولاء الفاسـد. خلال عقده الأخير في السلطة كانت السياسة الاقتصادية في حالة من الفوضى، واسـتجابة للأزمة الاقتصاديـة العالمية بين العامين 1893 و1903 استدان دياز بشدة وبفوائد مرتفعة[33].

عشـية الثورة كانت علاقات السلطة في المكسيك فاسدة. رسم بيلز صورة (ربما مبالغـا فيهـا) لإذلال لا يمكن تحملـه: «في كل مكان كان للقائـد الحق الأول على النساء. غالبا ما كان القائد أو المشرف على العمل، بعد الاستمتاع بفتاة دخلت سن البلوغ لفورها، يسـتدعي شـابا كادحا ليقول له «هذه زوجتـك»، وهكذا كان يتم الاحتفال بالزواج»[34]. على قمة هذه الكومة من الفساد جلس دياز.

عندما اندلعـت الثورة أخيرا كانت عملية فوضوية، مؤلبة قوى غير متجانسـة جغرافيـا وعقائديـا ضد ديـاز ومؤيديه: من مـلاك المزارع والموظفين الفاسـدين والرأسـماليين الأجانب الكبـار ومعظمهم مـن البريطانيين والأوروبيين[35]. شـمل المتمردون ليبراليين طالبوا بسياسـة حرة، وفلاحين من الهنود طالبوا بالأرض، ورعاة بقـر ورجال عصابات طالبوا بالغنائم، ورجـال أعمال وطنيين بحثوا عن طريق نحو التنمية الاقتصادية الحديثة. وكما كتب فرانك تانينباوم في كتابه الكلاسـيكي المعاصر «سلام عن طريق الثورة»: «كانت الثورة المكسيكية مجهولة الهوية. كانت من صنع الناس العاديين أساسـا. لم يترأسـها أي حزب منظم عند ولادتها. ولم يصف مثقفون كبار برامجها، أو يصوغوا مبادئها، أو يلخصوا أهدافها»[36].

المادة 27 والدولة التشاركية

بعد الانتصار استقرت الثورة على خطة للتحديث الاقتصادي والتنمية الرأسمالية تمحورت بشـكل ملحوظ على أول دسـتور اشتراكي في العالم[37]. وتنص المادة 27 من وثيقة 1917 خصوصا على ما يلي: «تعهد الملكية المباشرة للموارد الطبيعية كلها إلى الدولة». عنى هذا الأراضي والمواد الخام والغابات والمياه والأسـماك جميعها. يتابع النص الفعلي بتفاصيل موسعة ليعدد «الأحجار الكريمة والصخور الملحية وتوضعات الملح المشكلة من مياه البحر... والنفط والهايدروكربونات الصلبة والسائلة والغازية

جميعها»[38]. (حتى الصخـور الملحية!) في لب المادة 27 كان إصلاح ملكية الأراضي الذي حرر معظم الفلاحين من سخرة الدين. بحلول العام 1940 ملكت 23 في المائة تقريبا مـن الأراضي كلها جماعيا ضمـن نظام إيجيـدو ejido (التعاونيات) حيث ارتفعـت من 1.6 في المائة عند نهاية الثورة[39]. في العام 1960 عملت نحو 20 ألف تعاونية بـ 2 مليون عضو «على أقل بقليل من نصف الأراضي المزروعة»[40].

حاولـت الدولة المسـتقلة ذاتيا نسـبيا تحفيـز التنميـة الاقتصادية من خلال سياسـات التصنيع بإحلال الواردات(ISI). ومثـل البرازيل والعديد من دول أمريكا اللاتينية الأخـرى في القرن العشرين، ألفت المكسـيك اندماجا محدودا بين العمال ورأس المال. امتلكت الدولة بعض الصناعات وفرضت تحكمها على أخرى. في النهاية، شـكلت هذه المجموعة شبه الاشـتراكية من التدخلات جزءا من «تحالف من أجل الربح» مع رجال الأعمال[41].

مقابـل التعـاون مع نقابـات العـمال والتفاوض معهم، سـمح للرأسـماليين المكسـيكيين بتشـكيل احتكارات وتكتلات اقتصادية. أجـبروا أيضا على الدخول في غـرف تجارة تديرها الدولة. عززت الدولة الفعاليـات الاقتصادية بالدعم والحماية الجمركية وتشريعات صممت لصد التأثيرات المخربة الناجمة عن التنافس المنفلت بين الشركات، وحماية الشركات المكسـيكية من المنافسـين الأجانب. سمحت ملكية الدولة الجزئية لقطاعات أقوى من الاقتصاد بدعم قطاعات أضعف[42].

قدمـت الدولة قروضا رخيصـة وثابتة مع «إحلال تدريجـي للملكية الوطنية وملكيـة الدولة للنظـام المصرفي محل الملكيـة الأجنبية»[43]. سـهل نظام الإقراض الجديـد «التقدم في الإصلاحات الزراعية»، وطـور نظام إقراض يقوم على المحصول بدلا من الأرض للملاك الصغار و«لفلاحين يمتلكون أراضي جماعية في القرى». بهذه الطريقة أمكنهم الحصول على قروض جاهزة، من دون أن تتحمل الأراضي الجماعية الأقساط[44]. في هذه الأثناء كسبت نقابات العمال حقوقا قانونية، على الرغم من أن العناصر الأكثر تطرفا في التنظيمات العمالية هُمشـت. رفعت الاحتجاجات العمالية والتفاوض المشترك الأجور. وحفزت هذه بدورها الاستهلاك، ونمو الأسواق الداخلية، وشـجع هذا الاستثمار الأكثر إنتاجية، موفرا عمالة واسـتهلاكا وأرباحا أكبر، وهكذا دواليك[45]. سـمحت هذه الإصلاحات التقدمية كلها للصناعة المكسيكية بالمنافسة

مع المصالح البريطانية والأمريكية الأقوى التي سيطرت على الأعمال والتجارة (لكن ليس على الزراعة) تحت بورفيريو دياز[46].

كارديناس والنفط

تعمقت النسخة المكسيكية من التشاركية بشكل كبير أواخر الثلاثينيات تحت الرئيس لازارو كارديناس، الذي سرع بإصلاح ملكية الأراضي، وتأميم الصناعات الأساسية. «كان الافتراض وراء سياسات كارديناس أنه بينما تبقى الرأسمالية ضرورية للتنمية، غير أنه من الممكن التحكم برأس المال كالعمالة وتنظيمه من قبل الدولة»[47]. أكد كارديناس على «برامج لتحسين حالة الطبقات الأدنى خاصة الهنود من خلال التعليم وإعادة توزيع الأراضي وإقامة المزارع التعاونية (إيجيدو)، والحد من رأس المال الأجنبي، وإعطاء دور أكبر للمشاريع التي تديرها الدولة»[48].

بحلول العام 1937 أمم كارديناس السكك الحديدية، وصوب نظره إلى الجائزة الكبرى: النفط. جره ذلك إلى مواجهة مع شركات نيوجرسي ستاندارد أويل، وشل، والحكومة الأمريكية. لكن كارديناس انتصر، وصادر العمليات المكسيكية للشركات البترولية الدولية، لإنشاء شركة النفط الوطنية بتروليوس مكسيكانوس، أو بيميكس Pemex[49]. لكن كانت لهذا النظام مشاكله. بتركيز السلطة واستبعاد رأس المال، لكن من دون تحطيمه، فتحت الدولة المكسيكية المجال لفساد خطير. كانت الفكرة أن تكون الدولة «موجهة للاقتصاد». أبعدت الأعمال الاقتصادية عن السياسة، ومنعتها من الوصول إلى دوائر عملية صنع القرار، ولم يسمح لمالكي الشركات الخاصة حتى بأن يكونوا جزءا من الحزب[50]. لكن الاستبعاد الرسمي للقطاع الخاص من القنوات الرسمية للتأثير، شجع رجال الأعمال على رعاية اتصال ونفوذ غير رسميين. نتج عن هذا الفساد والوساطة.

مع حلول الستينيات أسست بعض الصناعات غرفا صناعية مستقلة عارضت تدخل الدولة في الاقتصاد. كانت الأقوى بينها لجنة رجال الأعمال التي شكلت العام 1962 ولجنة تنسيق رجال الأعمال التي أنشئت في العام 1975. ضمن هذه المجموعات النخبوية نمت الضغوط من أجل التحول في السياسة الاقتصادية نحو اليمين.

لعنة الازدهار النفطي

مر النموذج التشـاركي بأيام صعبة خلال السـبعينيات. اجتمع النمو المتداعي والغلاء المرتفع مع تزايد الدين العام. في الوقت نفسـه بدأ الازدهار النفطي يشـوه الاقتصـاد المكسـيكي. في العام 1973 مبـاشرة، وبعد أن بـدأت احتياطيات نفطية جديدة في الإنتاج، ارتفعت الأسعار من 3 دولارات إلى 12 دولارا للبرميل(51).

في الوقت ذاته كان الضغط الاجتماعي ينمو في المكسـيك: شـكل المزارعون والعمال وأكثر من هذا كله الطلاب وشـباب المدن حركات اجتماعية نشطة. قوبلت احتجاجاتهم بالاعتقـال والتعذيب والاغتيال، وحتى بالمذابح. قبل عشرة أيام من افتتاح دورة الألعاب الصيفية الأولمبية عام 1968 في المكسـيك، فتح جنود النار على مظاهرة طلابية في ساحة لاس تريـس كلتوراس(*) في تلاتيلولكو. قتـل ما بين مائتين وثلاثمائة وجرح مئات آخرون، وألقي القبض على المئات وضربوا، وأخذت أعداد من الجثث وأخفيت من قبل الجنود(52).

وسـط التوتر المتصاعد بدأ لويس ايتشـيفيريا رئاسـته لست سـنوات في العام 1970. ولتورطه شـخصيا في قتـل الطلاب المحتجين في تلاتيلولكـو في العام 1968، حاول إيتيفيريا إحاطة شرعية الدولة ببرنامج شعبي جديد من الإصلاحات السياسية والاجتماعية. كانت «التنمية المشتركة» هي العبارة الرائجة، وكان التوسع الضخم في الإنفاق العام الوسـيلة لتحقيق ذلك. بين أشـياء أخرى، ازداد عدد طلاب الجامعات بنحو 290 في المائة بين العامين 1970 وعام 1976.

جاء تمويل هذا التشـجيع من عائدات النفط التي كانت ترتفع مع ارتفاع أسـعار النفـط عالميا. لكـن إيتيفيريا احتاج إلى موارد أكثر. احتـاج إلى جمع ضرائب أكثر من الأغنياء، لكنه لم يسـتطع ذلك لأن الكثيرين منهم خبأوا ثرواتهم في الخارج. لذا زادت الحكومـة من الاقتراض من الأسـواق الأجنبيـة(53). تحت إيتيفيريـا ارتفعت الديون الخارجية من 3.2 مليار دولار إلى 16 مليار دولار. ومع التحفيز جاء الغلاء. في أغسطس من العام 1976 انفجرت فقاعة ديون إيتيفيريا، وخفض البيزو بمقدار 45 في المائة. كان معدل الغلاء منخفضا في المكسـيك، لكن الأسـعار بدأت في الارتفاع أوائل السبعينيات من متوسط 3.6 في المائة سنويا بين 1965 و1970 إلى 30.5 في المائة بين 1977 و1982. بحلول منتصف الثمانينيات وصل الغلاء عند 90 في المائة.

(*) أي، الثقافات الثلاث. [المحررة].

تابع الرئيس التالي خوسيه بورتيو عملية التوازن: قمع اليساريين المتطرفين لكنه سمح للحزب الشيوعي بالترشح للانتخابات. أنفق بسخاء على مشاريع التنمية واستثمر في قطاعات مهملة كالزراعة والإسكان والصحة والتعليم. مرة أخرى كانت أسعار النفط ترتفع بسرعة. بين 1979 و1980 نما دخل المكسيك من النفط بنحو الثلثين[54]. مع ذلك بقيت الحكومة في حاجة إلى الاقتراض لدفع فواتيرها. كان الاقتصاد ينمو بمعدل 8 في المائة في العام، وكانت الشركات تعمل باستطاعتها القصوى، وكان سوق الأسهم الصغير في المكسيك يزدهر. منذ أوائل الستينيات مرورا بالسبعينيات تضاعف عدد المدارس الابتدائية، وانخفض معدل الأمية إلى 15 في المائة، وتراجع معدل وفيات الرضع إلى النصف بفضل زيادة بلغت 10 أمثال عدد الأطباء العامين[55].

منطق القروض

نظريا، كانت إستراتيجية أخذ قروض مقابل عوائد النفط في المستقبل صحيحة. مع زيادة أسعار النفط العالمية، ازداد سعر احتياطيات المكسيك من النفط. حاول المخططون المكسيكيون تجنب «لعنة الموارد» بالتطور إلى اقتصاد غير متوازن يعتمد على النفط. راهن القادة السياسيون في المكسيك أنه بينما كانت القروض رخيصة ومردود النفط مرتفعا، يمكنهم تحديث القطاعات غير النفطية من الاقتصاد بديون مضمونة. بسبب الازدهار النفطي كانت القروض رخيصة: كانت الأسواق المالية تطفح بالنقود لأن معظم الدول النفطية افتقرت إلى القدرة على استثمار ثروتها الطارئة داخليا. أعيد تدوير ما دعي بالبترو دولار من خلال الأسواق المالية العالمية. كان من المفترض أن يسمح النمو الاقتصادي المتنوع والمتوازن للمكسيك بتوليد عوائد ضريبية يمكن بواسطتها تسديد ديونها. بهذه الإستراتيجية حاول التكنوقراط المكسيكيون تجنب «أخطاء فنزويلا» التي استهلكت معظم النفط المصدر خلال القرن، وبعثرت عوائده. كانت الحيلة هي استثمار دخل النفط المركزي في الإنتاج، وليس مجرد إنفاق المال على الواردات[56]!

لكن مع الأسف لم تتناقص الواردات، ولم يرتفع الإنتاج المحلي. ارتفعت قيم البيزو مما جعل الواردات رخيصة: تضاعفت واردات القمح بين 1979 و1980،

وسـحب قطاع النفط والخدمات معظم المواهب. أمـا الزراعة وهي قلب المجتمع المكسيكي، فقد ركدت وسـط الازدهار، كما فعلت قطاعات أخرى غير نفطية. بقي الفقر شـديدا وشائعا. وبحلول نهاية العام 1980 كانت المكسيك مدينة بـ 33 مليار دولار للبنوك الأجنبية. ومع اقتراب الأزمة أصر الرئيس خوسيه لوبيز بورتيو على أن «اقتصادنـا ليس قائما على النفط». لكنه في الحقيقة كان قائما على النفط: جاء نحو 75 في المائة من دخل الصادرات من النفط[57].

أصبـح الاقتصاد المكسـيكي الآن مثل نـادل يندفع إلى الأمـام بصينية مملوءة بالأطباق: اسـتمر في الحركة، وأنت على ما يرام. لكن كما يقول المصرفيون «ليسـت السرعة هي التي تقتل، بل التوقف المفاجئ».

الانهيار

اتخذ التوقف المفاجئ شـكل ذلك الركـود المفروض الذي أطلق في العام 1979 عندمـا رفع الاحتياطي الفدرالي الأمريكي أسـعار الفوائد. أطلق هذا ما عرف بأزمة ديون أمريكا اللاتينية (لكنه لم يسـببها). ومع اشـتداد الأزمة تدخل صندوق النقد الـدولي والبنك الدولي. وكما يشرح الفصل 13 حول البرازيل، جاءت المسـاعدة من مؤسسـات بريتون وودز مقيدة ببعض الـشروط: أعطيت قروض طارئة، لكن فقط إذا طبق التقشف وزيدت الصادرات. لكن زيادة الصادرات تعني زيادة العرض من المواد الأولية، وبالتالي انخفاض الأسـعار. لذا ولدت أزمة الديون أزمة المواد الأولية، وهي فترة مطولة من الأسعار المنخفضة للمواد الأولية كالخشب والخامات المعدنية كالحديد وخامات الألمنيوم والقصدير والحبوب والأغذية مثل السكر والكاكاو والبن وإلى حد ما الزيت. حسـب أحد التقديرات انخفضت الأسـعار بمعدل 35 في المائة خـلال الثمانينيات[58]. نتيجة لذلك عانت العديـد من الاقتصادات في عالم الجنوب - وهي التي تشعر الآن بتأثيرات التغير المناخي - ركودا نسبيا لمدة عقدين تقريبا. فقط تدفق الازدهار الصيني والتأثيرات الأولية لتغير المناخ كسرت أخيرا الركود منذ العام 2004، وتسارعت حتى أزمة الغذاء خلال العامين 2008 و2010 [59].

كان لأزمة المواد الأولية ثلاثة أسباب: 1 - التباطؤ الاقتصادي في الدول المتقدمة، 2 - زيادة أنواع مخلقة من الدعم كنتيجة جزئيا لارتفاع أسعار النفط في السبعينيات

التـــي رفعت الحوافز لتقنيات هندســية صناعية جديدة، و3 - سياســات التعديل البنيــوي لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، والتي أجبرت الدول المســتدينة على زيادة الصادرات وتخفيض قيمة عملاتها[60].

في صيــف العام 1981، مع تحول تأثير ضغط فولكر المالي عالميا، بدأت أســعار النفط في الانخفاض، وواجهت المكســيك عوائد متناقصة بشــكل كبير، وأضخم دين خارجي في العالم: 70 مليار دولار. تنبأ الاقتصاديون المكسيكيون بأن الدولة ستمتلك عوائــد نفطية حتى 20 مليار دولار في العام 1981، و27 مليار دولار في العام 1982 لكن النفط جلب 14 مليار دولار فقط، وكانت السنة التالية تحت الهدف أيضا[61]. اســتهلكت خدمة الدين الآن معظم مبيعات المكسيك المتوقعة من النفط، وبالتالي معظم إيراداتها الأجنبية [62]. بحلول صيف العام 1982 كانت المكسيك مدينة بنحو 81 مليار دولار للبنوك الأجنبية، وكان هذا المبلغ يتنامى. لتجنب الفشــل في الدفع خفضت الدولة قيمــة البيزو، وفرضت تحكما محدودا في رأس المال. كان التخفيض الثــاني خلال عام[63]. أصيب الأفــراد الأثرياء والشركات الخاصــة بالهلع، ونقلوا إلى ثرواتهم خارج البلد.

في 12 أغســطس من العام 1982 أعلنت المكســيك أنها لن تستطيع تسديد ديونها، واتخذت الخطوات الأولى لإعلان فشــلها، معلنة توقفها عن الدفع لمدة 90 يوما. خفض البيزو بمقدار 30 في المائة، وقبل نهاية العام خفض بـ 53 في المائة أخرى[64]. وكما شرحت «النيويورك تايمز» «فإن فشل المكسيك في الدفع كان سيسبب تأثيرات خطيرة على النظام المــصرفي الأمريكي، وعلى المصارف الأخرى في العالم. بحســب أحد المصرفيين الأمريكيين، فــإن نحــو 90 في المائة من رأســمال بعض المصــارف الأمريكية كان على شــكل قروض على المكســيك. حتى في مصارف أخرى مكشــوفة بشكل صغير نســبيا، شكلت القروض المكسيكية 30 في المائة من رأسمالها» [65]. أوائل سبتمبر أمم الرئيس خوسيه لوبيز بورتيو النظام المصرفي الخاص في البلد، مجمدا المفاوضات مع صندوق النقد الدولي[66].

إنقاذ عام 82

شــمل الحل الوســط في النهاية الاحتياطي الفدرالي الأمريــكي، وصندوق النقد الدولي، ومعظم المصارف الـ 900 التي كانت المكســيك مدينة لها[67]. مقابل تقديم

قرض بقيمة 12 مليار دولار، بدأت المكسيك سياسة التحرير الاقتصادي، وفرضت التقشف. خرج كينز، ودخل هايك(*). باعت الحكومة 106 شركات ووكالات مملوكة من الدولة. شملت هذه مصانع السكر وأحواض السفن ومصانع الطاقة والنسيج، وأيضا معامل تصنيع شبه حكومية، وشركة التصدير والتسويق أوشين غاردن برّوداكتس التي كان الصياد العاطل عن العمل خوسيه راميرز يبيع صيده لها[68].

جلبت الخصخصة مالكين جددا مزقوا الاتحادات العمالية وطردوا العمال وخفضوا الأجور. مع نهاية العقد تقلصت 1155 شركة أعمال إلى 400 فقط. كسبت الدولة أقل من 2 مليار دولار من هذه الخصخصة، ذهبت كلها لخدمة الدين[69]. في الوقت نفسه خفضت الدعم على الأغذية، وقطعته نهائيا عن البيض والحليب وزيت الطبخ والسكر والفاصولياء والأرز. ضوعف سعر المفرق للغازولين والغاز الطبيعي[70]. بحلول العام 1986 كانت القدرة الشرائية للمكسيكي المتوسط تبلغ نحو نصف ما كانت عليه في العام 1982[71].

ومع ذلك، تقاعد الرئيس خوسيه لوبيز بورتيو ليعيش في بيت على قمة جبل بقيمة 30 مليون دولار، وهو صرح للفساد والخيلاء يشتمل على مخزن مزود بـ «ثلاجة للفراء»، ومكتبة تتسع لمليون مجلد، و«مرصد فلكي أفضل تجهيزا مما هو موجود في الجامعة الوطنية»[72].

نافتا

وجهت تجربة المكسيك بالدين مسيرتها الطويلة إلى اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا). توجت الاتفاقية عملية من التحرير الاقتصادي ولدت من أزمة الديون في العام 1982. على الطريق، عدلت المادة 27 من دستور العام 1917 من بين أشياء عدة أخرى، بحيث أصبحت الآن تسمح باستثمار أجنبي أكبر. في 1 يناير من العام 1994 طبقت اتفاقية النافتا[73]. في الوقت نفسه، في ولاية تشيباس الجنوبية،

(*) جون كينز John Keynes اقتصادي بريطاني صاحب نظرية في الاقتصاد دعت إلى تدخل الدولة لإنقاذ الاقتصاد الرأسمالي من الركود وطبقت نظريته حتى السبعينيات، وفريدرتش هايك Friedrich Hayek اقتصادي بريطاني من أصل نمساوي حاز جائزة نوبل في الاقتصاد، دعا على عكس كينز إلى الليبرالية الكلاسيكية في الاقتصاد. [المترجم].

ثار جيش زاباتيستا zapatista للتحرير الوطني ومعظمهم مجموعة من الفلاحين الأصليين ضد الحكومة، معتبرين النافتا بمنزلة حكم بالإعدام على الهنود[74].

بحسب مروجها، رئيس المكسيك السابق كارلوس ساليناس، ستمكن نافتا المكسيك من «تصدير البضائع وليس البشر»[75]. سيجري تحديث الاقتصاد الريفي، وسيستطيع المزارعون الذين لا يستطيعون التكيف العمل في قطاع الخدمات والقطاع الصناعي المتوسعين[76]. لكن ماذا فعلت التجارة الحرة حقا للمكسيك؟ أجاب مقال ساخر نشر في صحيفة «نيويورك تايمز» في العام 2009 عن هذا السؤال بما يلي: «حققت النافتا في بعض الحالات نتائج معاكسة تماما لما وعدت به. على سبيل المثال فككت الصناعات المحلية، بسبب استيراد الشركات الدولية للقطع من مزوديها الخاصين. أخرج المزارعون المحليون من الأسواق بسبب الأغذية المستوردة من دون تعريفة جمركية. تخلى الكثير من المزارعين المكسيكيين عن أراضيهم ببساطة، واتجهوا شمالا»[77]. تابعت المقالة لتلاحظ أنه على الرغم من أن صادرات المكسيك تضاعفت خمس مرات، خلال خمس عشرة سنة، أصبح نحو نصف مليون من الناس يهاجرون كل عام للبحث عن عمل، وجزء كبير منهم من الريف. بنحو ربع المجموع الكلي لسكان المكسيك، يمثل الريفيون 44 في المائة من جميع المهاجرين المكسيكيين المنتقلين إلى الولايات المتحدة[78].

تحت النافتا فككت الحكومة معظم الوكالات التي قدمت المساعدات، وأدارت الدعم للمزارعين الصغار. «تقلصت برامج الإقراض من الحكومة والقطاع الخاص كليهما بـ 75 في المائة بعد العام 1994، عندما دخلت النافتا حيز التنفيذ، بينما ازدادت الإفلاسات في الريف ستة أضعاف»[79]. تسمح المادة 27 المعدلة الآن ببيع أراضي التعاونيات (إيجيدو) مما زاد من عدد من لا يمتلكون أراضي[80] وبحسب تقرير في العام 2010 لأوكسفام، أنفقت المكسيك 80 مليار دولار على استيراد الغذاء، ولها اليوم عوز في تجارة الغذاء يقدر بـ 435 مليون دولار[81]. تحول الإنتاج الزراعي المكسيكي من تأمين الغذاء للناس وللأسواق الداخلية إلى إطعام الحيوانات لتصديرها[82]. فتحت أسواق الذرة والمحاصيل الغذائية التي كانت محمية من قبل الحكومة حتى اتفاقية النافتا تماما[83]. طالبت المنظمات الفلاحية بإعادة مناقشة الاتفاقية[84].

منذ العام 1994 تباطأ النمو الاقتصادي في المكسيك. وهو الآن بمعدل 3 في المائة تقريبا. من العام 1921 إلى 1967 وصل النمو السنوي إلى نحو 5.2 في المائة، ولمعظم تلك الفترة كان أعلى من 6 في المائة[85]. وبحسب أرقام البنك الدولي، «في العام 2004، كان 28 في المائة من سكان الريف فقراء جدا، و57 في المائة فقراء بشكل وسط»[86].

شجعت المعاناة والاستقطاب الاجتماعيان، اللذان أنتجتهما الليبرالية الجديدة، على الفساد، وفاقما الحرمان النسبي. هذا هو المسرح المعد مسبقا والذي تدخل إليه الآن قضية التغير المناخي لتتجمع مع الأزمة الاقتصادية، وإرث الاضطهاد السياسي. بمجموعها تساعد هذه القوى كلها على دفع الهجرة إلى الولايات المتحدة وشمال المكسيك، حيث تنخر حرب المخدرات الفوضوية الآن في المجتمع.

حرب المخدرات: العد التنازلي نحو الفوضى

يطل كوخ تانيلا غارسيا على الولايات المتحدة الأمريكية من حافة خواريز الغربية. يتخذ المنظر مشهدا سياسيا متلونا، بسبب الهوة العميقة بين تخلف عالم الجنوب وثراء عالم الشمال الباهر. كانت للكوخ أرضية قذرة مغطاة بقطع من سجاد رمادي مأخوذ من مكاتب. غطيت جدرانه بطبقات من صناديق كرتونية منبسطة. ووضع بلاستيك شفاف ومعتم فوق الجدران الصغيرة لإبعاد رياح الشتاء الصحراوية. تنبعث من كل غرفة من غرف غارسيا، واحدة لها ولزوجها، وأخرى لأطفالهما الأربعة، وهما صبيان وفتاتان، روائح التعرق والثياب الوسخة. على مصطبة من الأرض فوق الكوخ يجثم بيت خارجي صنع من الألواح الخشبية.

اشترت بيتها الصغير في مستعمرة أنابرا بما يعادل 2000 دولار. سورت باحته الجرداء بسياج مصنوع يدويا من العصي والأسلاك الشائكة ومرتبة سلكية. على شجرة قصيرة جرداء علقت ثلاثة أقفاص خشبية لطيور غناء التقطتها: دُعي الطيران الحمراوان الصغيران: غوريون، والأكبر تشيفو. تقفز الطيور بنزق إلى الأمام والخلف في قفص بحجم صندوق للأحذية. «أحب طريقة غنائها في الصباح»، قالت غارسيا.

تعمل غارسيا بتنظيف البيوت، ويعمل زوجها عاملا مياوما في البناء. في ذلك الوقت لم تكن لديهما وظائف. وقفت إحدى ابنتيها وعمرها إحدى عشرة سنة بالقرب منها في أثناء شرحها لطريقة تدبرهم أمور معيشتهم: «نحتفظ بالطعام عندما يتوافر لنا».

تسحب الماء من صنبور جارتها. أما الكهرباء فتسرقها من عمود قريب في شبكة الكهرباء. أسـلاك التمديد القديمة التي تغذي بيتها، وضعت عشوائيا فوق الأغصان والسـطوح. من المعروف أن ترتيبات مفبركة كهذه كهربت الأشخاص الذين يمشون بالقـرب جدا منها عـلى أرض موحلة خـلال العواصف المطرية. متوسـط الهطول السـنوي هنا هو - في حـده الأدنى - نحو 8 بوصات فقط، لكـن أجزاء من غواريز والباسـو ضربت بفيضانات مفاجئة أحيانا. عندما ألقت السماء في أغسطس 2006 بأكثر من 15 بوصة على المنطقة، طفت حفر المراحيض وغرقت أكواخ غواريز بصرف صحي مكهرب.

على الطرف الآخر من المسكن الصغير يقع طريق رملي والجدار المعدني للحدود الأمريكية. ووراء ذلك هناك الخطوط المقوسة لسكة حديد الباسفيك الجنوبي، وعلى منحدرات جبال فرانكلين هناك ضواحي الطبقة الوسطى للطرف الغربي من إلباسو، تلال غورونادو وريدج كريست.

هذا المشـهد متطرف جدا في تناقضاته الاجتماعية، ومرشـد سياسيا، بحيث إنه ربما صمم من قبل ثوريين وواعظين أو صحافيين كسـالى، لو لم يكن قد خلق مسبقا من قبل مهاجرين ومضاربي أراض وسياسـيين وبيروقراطيين وشركات صناعية تبحث عن عمالة رخيصة. هذه هي خواريز: المدينة التي بنتها النافتا ثم بدأت بقتلها. لكن تغير المناخ سينهي هذه المهمة، ربما بحدود 2050. وبينما يدفع التغير المناخي الناس بعيدا عن أراضيهم، يأتون هنا للبحث عن عمل وعبور الحدود. وبينما ينتظرون هنا يمتص اقتصاد المخدرات شبابهم.

ليسـت خواريز والحدود المسـلحة التي تتكئ عليها نتاج التغير المناخي، لكن لاجئـي المناخ الآن يعبرون من هنا ويعلقون هنـا ويموتون هنا. ودوامة القتل التي تميز غواريز الآن هي نذير لعالم يتجاهل تخفيف التغير المناخي، ويأخذ فيه التكيف شكل فصل طبقي عنيف.

في البداية كان هناك قتل

جذب العنف السـيئ الصيت في خواريز الاهتمام لأول مرة في العام 1993، عشية تطبيـق النافتا. بدا وكأن سـفاحا كان يتعدى على شـابات يعملـن في مصانع تجميع

بالمدينة. عثر على النساء موتى بعد أن اغتصبن وشوهن. كانت عاملات المصنع مهددات بشكل خاص، كما قيل، بسبب تنقلهن في الصباح الباكر عبر مسافات مهجورة في صحراء مفتوحـة، حيث يمكن اختطافهن بسرية ويـسر. كان لخواريز جغرافيا مؤلفة من قطع مهجورة بشـكل غريب، حصلت نتيجة قفز المضاربين على الأراضي من بقعة إلى أخرى بعيدا في الصحراء.

قبضت الشرطة على متهم بعد آخر. أولا عرف أن الجاني مجرم جنسـيا: كيميائي مصري انتقل إلى خواريز من ميدلاند في تكسـاس. سـجن، لكن القتل اسـتمر. ثم ألقت الشرطة باللوم على عصابة من المراهقين المغتصبين، ثم على سائق باص. لكن القتل استمر. قدم فيلم وثائقي رائع بعنوان «الشابة المفقودة»(*) من قبل لورديس بورتيو دليلا ربط عناصر من داخل الشرطة بالاغتصاب والقتل[87]. تحولت القصة في السنوات الأخيرة السابقة إلى أبعد من ذلك: من نساء موتى إلى مدينة تموت بأكملها. يبـدو للوهلة الأولى أن العنف الآن مدفوع بمعارك على الأرض، وصراع على الزعامة بين عدد لامتناه من تجار المخدرات. لكنه في الواقع أسوأ من ذلك.

وصف تشارلز باودن، مؤرخ خواريز لفترة طويلة، نوعية انعدام القانون التي تجري الآن: «تخيـل العيش في مكان يمكنك فيه قتل أي شـخص تريد، ولا شيء يحدث سـوى موته. لن يقبض عليك. ولن يعلن عن اسمك في الصحف. يمكنك الاستمرار في الحياة وفي القتـل. يمكنك أخذ امرأة واغتصابها لأيام، ولا شيء يحدث. لو أردت يمكنك إذا أزعجتك تلـك المـرأة بطريقة أو أخـرى أن تقتلها بعـد أن تغتصبها. كن على ثقـة بأنه لا شيء سيحدث لك نتيجة أفعالك»[88]. ثم يشرح بعد ذلك بشكل أكثر تجريدا: «لسنوات بحث الناس عن تفسـير واحد للعنف في خواريز... نصر على أن تستبدل قوة بأخرى، وعلى أن تحل هيكلية محل هيكلية سابقة... حاول مرة أن تتخيل شيئا آخر، ليس هيكلية جديدة بل نموذج، وليس لهذا النموذج وظيفيا سـقف أو أرض، ولا مركز أو حافة، ولا رب عمل أو خادم مطيع... يحدث العنف في خواريز مثل ريح لا تتوقف... العنف الآن محبوك في نسيج المجتمع، وليس له سبب وحيد، ولا دافع وحيد، ولا زر لوقفه»[89].

انعدام القانون هذا هو السياق الذي بدأ تأثير المناخ يؤثر ضمنه. إنه أيضا جزء مما يجعل المكسـيك مهددة جدا بتغير المناخ. إذن، ما تاريخ عنف المخدرات الذي يخرب الآن شمال المكسيك؟

(*) Señorita Extraviada.

قيح التجارة الحرة

بحسب معظم الأوصاف، كانت للاحتكارات المكسيكية الضخمة جذور قديمة في التهريب، أو إنها بدأت كملحقات للمنظمات الكولومبية[90]. خلال النصف الثاني من الثمانينيات أصبحت المكسيك نقطة عبور لواردات المخدرات غير الشرعية إلى الولايات المتحدة بعد حملة إدارة مكافحة المخدرات الأمريكية DEA على طرق التهريب في فلوريدا بدءا من العام 1982. وبينما أغلقت فلوريدا فتحت المكسيك[91]. في العام 1988 ارتفعت مصادرات الكوكايين على طول حدود كاليفورنيا بنحو 700 في المائة في عام واحد، مع تحريك الكولومبيين الكوكايين خلال طرق الهيروين والماريوانا المعروفة باسم «خطوط الأنابيب المكسيكية». قدرت إدارة مكافحة المخدرات DEA أن 30 إلى 40 في المائة من الكوكايين الذي دخل إلى الولايات المتحدة يصل الآن عبر المكسيك[92]. هذه النسبة سترتفع لاحقا بشكل كبير.على مدى سنوات سهل المكسيكيون شحن الكوكايين والماريوانا لمصلحة الاحتكارات الكولومبية الأقوى فقط[93]. في منتصف التسعينيات تغيرت الظروف. بدأت الاحتكارات الكولومبية في التصدع. أولا سجن زعيم احتكار، ميديلين بابلو اسكوبار، ثم هرب وقتل من قبل قوات المغاوير التابعة لإدارة مكافحة المخدرات EDA. وبهذا بدأت منظمته في التشظي، وأزيحت من قبل احتكار كالي، الذي يقال إنه فتح الطريق خلال المكسيك، لكن سرعان ما اعتقل زعماء هذا الاحتكار أيضا[94].

بعد شهر من مقتل بابلو اسكوبار وقعت الولايات المتحدة والمكسيك على اتفاقية النافتا. نشر الراحل كين ديرموتا – وهو صحافي أمريكي كبير قابل المسجون بابلو اسكوبار، وغطى حرب المخدرات الكولومبية بشكل أفضل من الكثيرين – تقريرا عن كيفية انتظار احتكار ميديلين لاتفاقية التجارة الحرة بحماس يشبه حماس الأطفال عشية عيد الميلاد. وبسماعه أن اتفاقية النافتا قادمة أخبر مهرب مخدرات اسمه خوان فيرناندو تورو الصحافي ديموتا: «قريبا سأستطيع الشحن عبر المكسيك إلى الولايات المتحدة!»[95].

بدأ معاونو المنظمات الكولومبية من المكسيكيين في النضج حالا، وأصبحوا أكثر دهاء واستقلالية[96]. كانت السنة التي أدت إلى النافتا في العام 1993 هي أيضا السنة التي أسس فيها آمادو كاريللو فوينتس، «ملك السماء»، احتكار غواريز. بعد

عام قدرت إدارة مكافحة المخدرات DEA أن 80 في المائة من الكوكايين المشحون إلى أسواق الولايات المتحدة دخل عبر المكسيك، مما جعلها المركز الجديد لتجارة المخدرات في نصف الكرة الغربي من العالم[97]. وجد تقرير سري دعي «تهريب المخدرات والتجارة والنافتا على الحدود الجنوبية الغربية» صدر في العام 1998 من قبل أوبوريشين أللايانس، وهي قوة مهام تقودها منظمة الجمارك الأمريكية، أن المهربين كانوا يستخدمون «أعمالا لها علاقة بالتجارة... لاستغلال المد المتنامي من التجارة عبر الحدود»[98]. شرح فيل جوردون، وهو موظف سابق في إدارة مكافحة المخدرات DEA أنه «بالنسبة إلى عصابات المخدرات المكسيكية، كانت النافتا صفقة أنجزت في جنة للمخدرات. لكن بما أن الولايات المتحدة والمكسيك كلتيهما ملتزمة جدا بالتجارة الحرة، لا يود أحد أن يعترف بأنها ساعدت أرباب التهريب الكبار. إنها موضوع محرم... بينما كنت في إدارة مكافحة المخدرات EDA، تلقيت تعليمات صارمة بعدم إبداء أي رأي سلبي حول التجارة الحرة»[99].

وصل ديرموتا بين النقاط: «في الفترة الحرجة التي شهدت بداية نافتا، ازدادت واردات المكسيك من البضائع القانونية من كولومبيا من 17 مليون دولار في العام 1990 إلى 121 مليون دولار في العام 1995، بينما تضاعفت تجارة المكسيك مع الولايات المتحدة». من الواضح أن الكثير من زيادة التجارة كان غطاء للمهربين الكولومبيين حيث يملك العديد منهم شركات قانونية، ويستخدمونها لنقل الكوكايين إلى المكسيك. في العام 1995 سأل ديرموتا السفير الأمريكي في كولومبيا إذا كان المسؤولون الأمريكيون قلقين من أن التجارة الحرة ربما تزيد من تدفق المخدرات. شرح السفير: «شعر أولئك الذين أيدوا النافتا، ومن قبل إدارة كلينتون، بأن استخدام الحجة بأن أي زيادة في التجارة يمكن أن يزيد من تهريب المخدرات وغسل الأموال ليس حجة كافية للتغلب على حاجة الولايات المتحدة إلى زيادة الأسواق لصادراتها في الخارج، وللانخراط أكثر في تجارة أكبر مع دول المنطقة»[100].

بحلول العام 1996 وصفت الـ DEA اتحادا مكسيكيا للمخدرات مؤلفا من أربعة احتكارات كبيرة: منظمة تيخوانا واحتكار سونورا واحتكار خواريز ومجموعة غولف. بنهاية العقد قيل إن احتكار خواريز واحتكار تيخوانا هما الأقوى. بقي الكوكائين ينتج في الإنديز، لكن أزهار الهيروين والماريوانا أصبحت تزرع وتصنع

في مناطق قليلة وسط المكسيك وشمالها، خاصة في ولايات ميتشواكان وسينالولا وتشيواوا. سمح تنظيم الاحتكار وديبلوماسيته للجيل الجديد من المهربين بغرس جذور عميقة في بنية السلطة السياسية، ونسيج الحياة اليومية. تعمق الفساد بطرق خطيرة. وأصبح المهربون بعد النافتا أكثر احترافا وتشابكا مع الدولة.

رسم روبرت كولير محرر الشؤون الخارجية في صحيفة سان فرانسيسكو صورة هزلية قاتمة لفساد الشرطة اليومي الذي يميز الحياة الآن: «في مراكز الشرطة الاتحادية... يلبس العملاء كلهم تقريبا مجوهرات ذهبية ثقيلة وساعات ذهبية ويسوقون سياراتهم رباعية الدفع من آخر طراز. يعمل ثلاثة شباب يلمعون الأحذية دوما في قاعات المراكز، محافظين على لمعان احذية العملاء المصنوعة من جلد التمساح». عندما سأل كولير شرطيا كيف يمكنه شراء سيارة جيب تشيروكي جديدة بمرتب 500 دولار في الشهر، أجاب «لدي الكثير». وعندما سأل كولير قائد شرطة اتحادية كان مشغولا باعتقال مزارعي الماريوانا الصغار حول أمادو كاريللو فوينتيس أجاب: «لست على دراية بأي مشاكل مع السيد كاريللو... ليست هناك منظمات تهريب كبيرة في هذه الولاية»[101].

في أواخر التسعينيات وأوائل القرن الحادي والعشرين أصبح الميثامفيتامين أيضا جزءا من الصناعة. مرة أخرى كانت الحملة شمال الحدود هي التي دفعت العمل إلى الجنوب. دفعت تقييدات جديدة في الولايات المتحدة على بيع الأدوية الباردة من الايفيدرين والسيودوايفيدرين - وهما العنصران الأوليان لإنتاج الميثامفيتامين - معظم طبخ هذه المادة على المستوى الصناعي إلى المكسيك، حيث كانت التجارة في هذه المواد لصنع المخدرات رائجة[102].

إزالة الاستقرار

لم يكن الاستقرار النسبي لهذه الاحتكارات على نمط الشركات ليدوم. أولا: مات أمادو كاريللو فوينتس خلال عملية تجميلية فاشلة. نتج عن ذلك صراع على السلطة بين أتباعه، وحاولت الاحتكارات المنافسة الانتقال إلى احتكار خواريز[103]. في السنوات الأخيرة كان احتكارا السنالوا والخواريز، والعصابات التي تعمل لمصلحتهما مثل أزتيكاس يتقاتلون للتحكم في سيوداد خواريز. بعد مرحلة استقرار قصيرة بدأ العنف في الازدياد مرة أخرى.

استجابة للأزمة أرسل رئيس المكسيك اليميني فيليبي كالديرون، المتحدر من ثقافة رعاة البقر في تشيواوا، الجيش المكسيكي. ربما بدت هذ خطوة كبيرة، لكنها كانت مجرد مسرحية سياسية. جاء وضع الجيش من دون إستراتيجية حقيقية، ومن دون موارد إضافية كالمدعين العامين والقضاة، أو المال للتطوير. لا يهيئ القمع العسكري المسرح لإعادة بناء القانون والنظام، وإزاحة المؤسسات المدنية الفاسدة. لم يغير وجود القوات من حقيقة أن القليل جدا من الناس عوقبوا لارتكاب القتل في خواريز. ويبدو أن العنف قد ازداد فقط.

مسبقا، تحولت عناصر من وحدات النخبة في الجيش المكسيكي إلى احتكارات المخدرات: الزيتاس قوات خاصة سابقا، خدمت المهربين كقوة حماية، أصبحت عصابة خاصة وانخرطت مباشرة أحيانا في تهريب المخدرات. بعد سقوط ثلاثين ألف قتيل اتضح أن حملة الرئيس كالديرون فشلت تماما[104]. إنها تتظاهر بأنها تقدم حلا، لكن الوضع يزداد سوءا فقط.

أخبر أنتوني بلاسيدو، المدير المساعد للاستخبارات في إدارة مكافحة المخدرات DEA أعضاء مجلس الشيوخ بأن «أكبر عائق وحيد للتأثير بجد في مشكلة تهريب المخدرات في المكسيك هو الفساد... في الحقيقة فرض القانون في المكسيك غالبا جزء من المشكلة بدلا من أن يكون جزءا من الحل. ويصدق هذا بشكل خاص على مستوى حكومة الولاية والبلدية»[105]. ربما كان أبرز مثال على ذلك هو إلقاء القبض على نوي راميرز الرئيس السابق للوكالة المكسيكية المتميزة ضد المخدرات. اتهم بقبول رشوة من 45 ألف دولار لتسريب معلومات عن زملائه القدامى إلى عصابات المخدرات[106]. أصبح الأمر الآن واضحا: يوجد عفن في لب الدولة المكسيكية.

أي طريق للمكسيك؟

في ديسمبر 2008 وصفت مجلة فوربس المكسيك بأنها «دولة فاشلة». كتب باري ماكافري قيصر المخدرات في عهد الرئيس السابق كلينتون مذكرة وصف فيها المكسيك بأنها «تقاتل من أجل البقاء ضد إرهاب المخدرات». في يناير من العام 2009 نشر مخططون مع القوات الأمريكية الخاصة تقريرا تقويميا للتهديد قال: «بحسب سيناريو أسوأ حالة... هناك دولتان كبيرتان ومهمتان مهددتان بانهيار

سريع ومفاجئ: باكستان والمكسيك... تبدو الإمكانية المكسيكية أقل احتمالا، لكن الحكومة وسياسييها وشرطتها وسلطات القضاء فيها، كلهم تحت هجوم مستدام وضغوط من قبل عصابات إجرامية واحتكارات مخدرات. كيفية تجلي ذلك الصراع الداخلي خلال السنوات العديدة القادمة سيكون لها تأثير رئيس على استقرار الدولة المكسيكية. أي انحدار من قبل المكسيك نحو الفوضى سيستدعي استجابة أمريكية مبنية على التأثيرات الخطيرة على الأمن الوطني»[107].

أبدت الحكومة المكسيكية امتعاضا فوريا وشديدا ضد هذا التصريح: دعاه الرئيس كالديرون «سخيفا»[108]. جورغ كاستانيدا - الرجل الذي يفسر الأشياء المكسيكية والسياسية كلها لمجتمعات النميمة في أمريكا الشمالية - رفض أيضا هذا الوصف، معطيا الأمريكيين الثقة بأن المكسيك «تتحكم اليوم في ترابها الوطني بأكمله... وتمارس شبه احتكار على استخدام القوة ضمن حدودها»[109].

ظهر تقويم مختلف جدا في كلمة المحرر على الصفحة الأولى في صحيفة خواريز الرئيسة الدياريو بعد أن قتل قاتل مأجور شابا آخر من صحافييها. في رسالة مفتوحة موجهة إلى ملوك المخدرات في المدينة، بعنوان «ماذا تريدون منا؟»، أقرت الأسطر الأكثر تأثيرا من حيث المضمون بهزيمة العقل والقانون في خواريز. «ما الذي يفترض أن ننشره أو لا ننشره، بحيث نعرف ما علينا أن نلتزم به؟» توسل مقال المحرر «أنتم في هذا الوقت السلطة على الأرض في هذه المدينة، لأن السلطات القانونية لم تستطع إيقاف قتل زملائنا»[110].

ليست المكسيك دولة فاشلة، لكن أزمتها الهلامية من العنف وانعدام القانون تستبعد أي استجابة عقلانية أو تكيف متدرج مع تغير المناخ. من الصعب رؤية كيف يمكن لهذه البنية الاجتماعية أن تبقى خلال الخمسين سنة المقبلة، إذا بقيت إصدارات الغازات الدفيئة بمعدلاتها الحالية على مسار استهلاك غير مخفف للوقود الأحفوري. بلد من أصحاب المليارات ومن الجماهير الجائعة، ومن الجفاف والفيضانات، بلد أصيبت بنيته ومؤسساته الاجتماعية بغرغرينا فساد المخدرات، ليس بلدا يمكنه التكيف مع ارتفاع مستوى البحر والطقس العنيف وانخفاض مردود المحصول والهجرة الجماعية التي تحركها هذه العمليات.

15

جدران وغوغاء أمريكيون

«هذا الاقتصاد الرأسمالي عموما، مع كل استغلاله وظلمه، أنتج ثراء وتقنية كبيرين. هل من المستحيل حقا تصور طريقة لإعادة استخدام هذه الثروات والإمكانات وإعادة توزيعها؟»

المؤلف

هجرة غير شرعية؟ انصب سياجا، وابدأ بإطلاق النار

سام ورزلباخار، المعروف بجو السباك(*)

أخذني خوسيه روميرو، وكيل الجمارك وحماية الحدود الأمريكية CBP في قسم الأمن الوطني DHS بالسيارة إلى قطاع إلباسو من الحدود مع المكسيك - بطول 260 ميلا وبـ 86 ميلا من السياج المعدني. ليس بعيدا جدا على الطرف الآخر يقع كوخ تانيلا غارسيا. كان روميرو كما تتوقعه: تشيكانو(**) من الجيل الثالث، يلبس بدلة بنية غامقة، وأمريكيا بالكامل عقائديا، ومضيفا لطيفا.

(*) هو مواطن أمريكي اشتهر على جانب حملة جون ماكين الانتخابية في العام 2008 كنموذج لمواطن من الطبقة الوسطى. [المحررة].

(**) Chicano، أي أمريكي من أصول مكسيكية. [المحررة].

«لو مر مهاجرون غير شرعيين من هنا، لاستطعت التقاطهم من آثارهم إذا مروا من هذه الخروقات. ثم يمكن للعملاء أن ينتقلوا إلى المقطع التالي للبحث عن مكان عبورهم مرة أخرى». قال روميرو وهو يريني الحزام الترابي العريض الممشـط جيدا لالتقاط المهاجرين الراكضين شمالا».

سيزيد تغير المناخ من عدد الناس الذين يحاولون دخول الولايات المتحدة. يذكر التقدير الذي يقول إنه بحلول العام 2050 سينتقل ما بين 250 مليونا ومليار شخص بسـبب تغير المناخ[1]. قدرت ستيرن ريفيو البريطانية لعام 2006 أنه بحلول النصف الثاني من هذا القرن سـيخلق تغير المناخ عشرة أضعـاف عدد المهاجرين الحالي[2]. بهذا الصدد سـتصبح الحدود نصا يمكن منه قراءة المسـتقبل - أو نسخة منه. هنا نـرى كيف يخلق التجمـع الكارثي في الوقت ذاته فشـل الدولة في عـالم الجنوب، وتصلب سلطوية الدولة في عالم الشمال.

تغير المناخ دافع مهم بشـكل متزايد للهجرة. كتب أندرو روس يصف الغسـيل الأخـضر[*] لكراهيـة الأجانب في جنوب غرب الولايات المتحدة: «هجر مسـبقا ما يقدر بخمسـين مليونا من الناس تحت تأثير تغير المناخ، وسيتسارع الرقم في السنين المقدمة. في شمال المكسيك وهي مصدر رئيس للمهاجرين إلى أريزونا، تهترئ التربة بسرعة من نقص الهطول، وتتنبأ الدراسـات بأن هطول الأمطار في المنطقة يمكن أن يتناقـص بـ 70 في المائة في نهاية القرن. هل الإصـدارات التي تضخ في جو الصحراء فوق وسـط أريزونا مسؤولة مسـبقا، ولو بصورة غير مباشرة، عن جزء من الـ 500 ألف مهاجر غير مسـجل في الولاية؟»[3]، وبينما تبقى الأسباب الأعمق للأزمة البيئية - توسـع المدن والاسـتهلاك الزائد - غير معالجة، يبرز الاضطهاد والمراقبة والعنف على أنها الأشكال المفضلة للتكيف، فضلا عن تخفيف الإصدارات كاستجابة للهجرة.

تشـبه معظم الـ 1969 ميلا من الحدود المكسيكية - الأمريكية مسبقا خطوط المواجهـة في حرب هادئـة. يتميز جانب منها ببؤس الأكـواخ المرصوصة على طول السـياج في مدن الحدود الكبرى مثل تيخوانا وميكسـيكالي ونوغاليس وماتاموروس وخواريز. هنا يجاهد أناس مثل تانيلا غارسيا من أجل إطعام أنفسهم، بينما يجتاح

(*) يقصد بالغسـيل الأخـضر Greenwashing نشر معلومات مضللة عن تعامل حكومـة أو منظمة أو شركة مع البيئة بغرض تقديم صورة إيجابية للرأي العام. [المحررة].

مـد متصاعد من العنف المجتمعي، ويشـل قدرته. إلى الشـمال يميز 700 ميل من السـياج الفولاذي ومجسـات الاستشعار للحركة، وكاميرات الأشـعة تحت الحمراء، وسماء مراقبة بطائرات الدرون، ومروحيات الحرس الوطني، هذا الخط[4].

كانت التسـعينيات سـنوات نمو جذري لعسكرة الحدود، ولأسـاليب قمع المهاجرين كلها. شـهدت ميزانيـة وزارة العدل زيادة بأكـثر من الضعف بـين 1991 و2002. ومنذ الهجمات الإرهابية في 11 سبتمبر 2001 وإنشاء جهاز الأمن الداخلي (DHS) ازداد تمويل تطبيـق مكافحة الهجرة. شرح عالم الحدود بيتر أندريس: «شـكل فـرض القانون المجال الأسرع لتوسـع الحكومة الاتحادية منذ نهايـة الحرب الباردة، وكانت مكوناتها الأكبر هي التحكـم في الهجرة ومكافحـة المخدرات ومقاومة الإرهاب. «الأصنـاف كلها التي تتغذى طفيليا على «الحدود» كمشروع سياسي وفضاء مسلح وعلى فكرة الخوف من الأجانب»[5].

أسلوبنا الحالي في تطبيق مكافحة الهجرة - والتي سيجلب تغير المناخ بالتأكيد المزيد منها - هو الحد من الحريات المدنية، وبالتالي تحويل أمريكا جذريا، والعودة بالبلد إلى حالتـه الأكثر بدائية: ديموقراطية نخبوية مبنية على الفصل العنصري، والعنف الروتيني، حيث يغطي العرق والقومية على سـلطة طبقية فجة. يشـكل تسليح الحدود والضبط الداخـلي المنطقة الرمادية مـن القانون التي تقلص قانون الحريـات الأمريكية جذريا. المهاجرون هم بمنزلة طيور الكناري في منجم الفحم السياسي، والهجرة هي الوسيلة التي بواسطتها يهرب منطق «حالة الطوارئ» إلى الحياة والقانون والسياسة اليومية.

روح الحرب

الطـوارئ أو الحالـة الاسـتثنائية فكرة ضروريـة في النظرية السياسـية للدول الاستبدادية. برر كارل شميدت بشكل مشهور الأساس الشرعي للديكتاتورية في ألمانيا النازية اسـتنادا إلى هذه الفكرة. على هذا التقليد فإن حالة الطوارئ هي الوسـيلة التي تهرب بها الديموقراطيات سياسـات القانون السـلطوية والشمولية، وإجراءات تنفيذهـا. يحاجج المنظر السـياسي جيورجيو أغامبين بأن «الإنشـاء الطوعي لحالة دائمة من الطـوارئ (على الرغم من أنها ربما غير معلنة بالمعنى التقني) أصبح أحد الإجـراءات الضرورية في الدول المعاصرة، بما فيها ما يدعى بالدول الديموقراطية»[6]. في الولايات المتحدة دفع الانجراف نحو السـلطوية حتى الآن بالحالات الطارئة على

الواقع بصورة أقل، وبشكل أكثر بالمواقف السياسية الفجة للمرشحين والموظفين المنتخبين. شاهد على سبيل المثال إعلان العام 2005 لـ «طوارئ على الحدود» من قبل بيل ريتشارسون وجانيت نابوليتانو حاكمي نيومكسيكو وأريزونا، وكلاهما من الحزب الديموقراطي(7).

تشتمل الضوابط ضد الهجرة على خيمياء غريبة، حيث تتسلل وسائل الحرب والافتقار إلى إجراءات قانونية على الحدود، إلى الواجبات المعتادة لفرض القانون، وتعيد تشكيل الإجراءات اليومية التي تتخذها الدولة لفرض سلطتها. يتطلب تطبيق إجراءات الحدود معدات جديدة، وسلطات بوليسية موسعة، وتعاونا غير مسبوق بين الأجهزة. تعمل شرطة الهجرة في جهاز الأمن الداخلي DHS - إدارة الهجرة والجمارك ICE والجمارك CRP - بقوة مشتركة مع مكتب التحقيقات الفدرالي FBI وإدارة مكافحة المخدرات DEA والشرطة المحلية وعناصر من القوات المسلحة. توجد منطقة الحدود بكاملها الآن ضمن ضباب من الشرعية، حيث لم يعد دستور الولايات المتحدة يطبق بالضرورة.

فكر في هذا: الحدود «كحيز قانوني» هي الآن شريط بعرض 100 ميل يلتف حول الحدود البرية والبحرية للولايات المتحدة كلها، وبالتالي يضم ثلثي سكان الولايات المتحدة». - أو 197.4 مليون شخص، وتسع من عشر أضخم مناطق المدن الكبرى في البلد.

عادة يحظر التعديل الرابع للدستور التفتيش العشوائي والاعتباطي. لكنك عندما تعبر إلى الحدود الدولية تطبق قواعد مختلفة - حتى المواطنين هناك لا يملكون حقوق المادة الرابعة المعدلة بكاملها. لدخول البلد على المرء أن يظهر هويته، ويسمح بتفتيش أغراضه. لا تحتاج السلطات إلى سبب محتمل أو شك معقول. بفضل التغييرات الإدارية بعد 11 سبتمبر، مدت قواعد مماثلة على طول «المنطقة الحدودية»، على الرغم من أن هذه القواعد على الواقع لا تستخدم بشكل منتظم إلا في الجنوب الغربي فقط.

مع ذلك، حتى على الحدود الكندية، توقف دوريات الحدود الآن الحافلات، وتدير نقاط التفتيش على الطرقات السريعة، وتستجوب السائقين على سفن العبور غير الدولية في ولاية واشنطن وبحيرة تشامبلين، بين فيرمونت ونيويورك. من الوجهة القانونية فإن هذه «توقيفات إدارية»، حيث يسمح لدوريات الحدود فقط بالتثبت

من الهوية الوطنية. لكن الإيقافات كثيرا ما تذهب إلى أبعد من ذلك. البحث الذي يبدأ إداريا يمكن أن يتصعد بسهولة إلى أن يجد المسؤولون هذا التفصيل أو ذاك مثيرا للشك. وعندما إدارة الجمارك وحماية الحدود CBP مع قوات الشرطة الأخرى، فإن سلطاتها الخاصة المتعلقة بالحدود تحول بالضرورة إلى «وكالاتها المساعدة».

الحدود الحضرية

تغلق الآن القطاعات الحضرية من الحدود ببنى تحتية رادعة من الأبراج المحروسة. تتألف من جدران بارتفاع 18 قدما، توضع أعلاها في بعض الأماكن لفات ثلاثية من الأسلاك الحادة، وكاميرات تلفازية تعمل بالأشعة تحت الحمراء، وميكروفونات حساسة جدا، وآلاف مجسات الحركة بتقنية عالية، وعدد من أضواء الملاعب الرياضية الكشافة الجديدة والمتحركة. يتجول على الخط 20 ألف عميل، لمراقبة الحدود مدعومين بأكثر من 37 ألف موظف مدني، ومفتش جمركي. لدى الـ CBP أكثر من 500 طيار و250 طائرة، مما يجعلها أكبر قوة جوية غير عسكرية لفرض القانون في العالم[8]. هناك أعداد متباينة من قوات إدارة مكافحة المخدرات DEA وشرطة الكحول والتبغ والأسلحة النارية موجودون في المنطقة الحدودية في أي وقت للبحث عن مهاجرين مخالفين للقانون. وهناك أيضا 6000 عسكري مع معداتهم: مدافع رشاشة وهامفيز وسيارات سترايكر وطائرات[9]. يبني مهندسو القوات البحرية والحرس الوطني طرقا للوصول، ويقومون بعمليات مسح، بينما تستخدم وحدات نظامية من الحرس الوطني العمليات الحدودية كتدريب لها قبل فرزها خارجا إلى العراق وأفغانستان[10]. بعيدا عن الحدود المباشرة - في مقاطعات كاليفورنيا وأريزونا ونيو مكسيكو وتكساس - تشمل عملية متعددة الأجهزة فرق إغارة تكتيكية مدججة بالسلاح مدعومة بمروحيات وكلاب، وتنجم عنها اعتقالات جماعية.

في أوائل 2006، أمرت إدارة الهجرة والجمارك الـ ICE فرق عمليات المطاردة التابعة لها المؤلف كل منها من سبعة أعضاء (FOTs)، والتي قصد منها أن تكون مدفوعة للتحري، ودقيقة في أساليبها، برفع حصتها السنوية من الاعتقالات من 125 إلى 1000 شخص في العام! بين عشية وضحاها كان المتوقع منهم أن يصبحوا أكثر إنتاجية بـ 8 مرات[11]. وسرعان ما تبعت ذلك موجة من الغارات الجماعية.

بـين مواقـع أخرى اقتحمت فرق الـ FOT سـتة مصانع تعليب لحوم في تكسـاس وكولورادو ومينيسـوتا وأيوا ويوتا ونبراسـكا. خلال الغارة في نبراسكا، جمع 12 ألف عامل بعضهـم مع بعض تحت فوهات البنادق، ومنعوا مـن الوصول إلى الهواتف ودورات المياه والعائلات والمستشـارين القانونيين، بينما استجوبتهم الـ ICE واحدا بعـد الآخر. في هـذه العملية، كان لدى الـ ICE أمر بالقبض يحدد 133 عاملا كانوا يستخدمون بطاقات تعريف مسروقة. وكما شرح تقرير من منظمة الغذاء والعمال التجاريين المتحدة لاحقا»، كان في إمكان العملاء الاتحاديين - كما فعلوا قبل أسبوع في مصنع سـويفت في لويفيل كينتاكي - الذهاب إلى مكتب الموارد البشرية، وطلب سـحب المتهمين المحددين من خط الإنتاج بحيث يمكن اسـتجوابهم واعتقالهم إذا كان ذلك ضروريا. لكن أمر القبض للـ ICE في ديسـمبر 2006، كان وسـيلة لاحتلال العناوين العريضة وتحريك الهسـتيريا حول الهجرة والمهاجرين أكثر من كونه أداة لتنفيذ القانون»[12].

بين أولئك المعتقلين كان مايكل غريفس، وهو أمريكي - أفريقي ولد في الولايات المتحـدة. أخبر غريفس لجنة القضاء في الكونغرس حول الهجرة والمواطنة واللاجئين وأمن الحدود والقانون الدولي: «لقد حبسوني هناك ثماني ساعات. لا سبب. ولا حتى سـبب محتمل. كان الوضع كأنه خارج المصنع قد تحول إلى سجن أو مركز احتجاز. أنـا مواطن أمريكي. لقد ولدت وترعرت في هـذا البلد. وقد عوملت كمجرم في يوم عـادي، نهضت فيه من الفراش وذهبت إلى العمل». سـجل محتجز آخر شـهادته: «احتُجزت ست ساعات من دون ماء أو طعام»[13].

أخـبر المواطنون من أصـل لاتيني أن عليهـم أن يظهروا جوازات سـفرهم أو بطاقاتهم الوطنية. ونقل أولئك الذين لم يسـتطيعوا ذلك إلى قاعدة عسكرية تبعد 300 ميـل عن جونسـتون، أيـوا. أدت الحصة الجديدة التي أعطيـت للـ ICE إلى ارتفاع حاد في عدد المهجَّرين من 69226 في السـنة المالية 1996 إلى نحو 400 ألف في العام 2009[14].

هذا ما تبدو عليه «دولة الاستثناء» للمنظرين السياسيين عمليا. لديها الإمكانية لتقييد الحياة اليومية في عالم يفشل في تخفيف إصدارات غازات الدفيئة، ويختار - في مرحلة متأخرة من اللعبة - نوعا من التكيف المسلح.

الاحتجاز

الكثــير من الذين يلقى القبــض عليهم عند الحدود، يلقــون بسرعة على الجانب الآخر. مع ذلك، فالدخول غير الشرعي الآن جريمة يعاقب عليها، وتحتجز الـ ICE الكثير مــن المهاجرين من دون وثائق قبل أن تطردهم إلى الخــارج. تحتجز الـ ICE نحو 29 ألف معتقل في أي يوم، وهذا أكبر بـ 50 في المائة مما كان عليه في العام 2005[15]. ووفق جهــاز الأمن الداخلي DHS فإن أكثر مــن 80 في المائة من هؤلاء المحتجزين لم يرتكبوا أي جريمة ســوى الدخول غير الشرعي[16]. وكســجناء مدنيين - وليس إجراميين - ليس لهم حق توكيل محام ممول من الحكومة، ومعظمهم فقير جدا لاســتئجار محام خاص. عندما حللت الأسوشــيتيد برس قاعدة بيانات رسمية لإدارة الهجرة والجمارك ICE تم الحصــول عليها تحت قانون حرية المعلومات، وجدت عــدد المحتجزين يبلغ 32 ألف عشــية 25 يناير في العام 2009. ولم تكن هناك لـــ 18690 من هؤلاء المحتجزين إدانة بأي جريمة على الإطلاق - ولا حتى جريمة دخول غير شرعية ســابقة. أكثر من 400 من مجموع أولئك السجناء الأبرياء تماما، سجنوا لمدة عام أو أكثر[17].

تدير إدارة الهجرة والجمارك ICE شــبكة مؤلفة من أكثر من 500 مركز احتجاز تكلــف 1.7 مليــار دولار وموزعة عبر البلاد. معظم هذه المراكــز عبارة عن فنادق صغــيرة متداعية لكنها محصنة، أو مجمعات مكاتب مدنيــة محولة، معروفة كلها بظروفها الســيئة وازدحامها الشديد والعنف فيها[18]. تدار معظم هذه المرافق من قبل حكومة الولاية أو الحكومة المحلية وشركات خاصة متخصصة مثل كوريكشــين كوربوريشــين الأمريكية، التي تدير 60 مركز احتجاز من أنواع مختلفة. الإســاءة في هذه الســجون ومراكز الاعتقال شــائعة، على الرغم من أن المساجين، وكلهم فقراء وينتظــرون الطــرد، يصعب عليهــم تقديم الشــكايات أو الدعــاوى القانونية ضد سجانيهم. لذا من الصعب معرفة ما الذي يحدث فعلا داخل معتقل الـ ICE.

مع ذلك هناك إشارات. نعلم عن رجلين مكسيكيين متخلفين عقليا قضيا سنوات في الاحتجاز لغير ســبب ســوى إعاقتهما العقلية. أنهيت قضيتا ترحيلهما في العامين 2005 و2006 عــلى التــوالي، مع ذلك فكلاهما لديه القــدرات العقلية لطفل صغير فقط، وهما لم يعرفا متى سيتم الإفراج عنهما، ولم يلحا على سجانيهما، وبالتالي ضاعا «نقلا عبر شبكة من السجون ومشافي المجانين ومراكز الاحتجاز»[19].

تصف نســاء في مقاطعــة ماريكوبا في أريزونا الإســاءة الجســدية، بما في ذلك تقييدهــن خلال الولادة[20]. في مارس من العام 2008 احتجز غارود هانكينز، عامل محكمة قسم الشرف في مقاطعة واشنطن، مهاجرة مكسيكية من دون وثائق تدعى أدريانــا توريس فلوريس في خلية احتجاز صغيرة تابعة للمحكمة. ثم نسي هانكينز ســجينته، بينما عانت مــن دون طعام أو ماء لمدة 4 أيام. كانــت تنام على الأرض، وتــشرب بولهــا لتبقى حية[21]. حتى العــام 2008 على الأقــل، كان ضباط الـ ICE يحقنــون بانتظام المبعدين بالمهدئــات العقلية قبل رحلات طــيران إبعادهم. كان «كوكتيــل الطيران» قويا جدا أحيانا، بحيث كان على عملاء الـ ICE أن يســتخدموا الكراسي المتحركة لوضع المطرودين المخدرين في الطائرة[22].

أحيانا يفور اليأس بين المحتجزين. في 12 ديسمبر من العام 2008 اندلعت أحداث شــغب في أحــد المواقــف الخاصة في بيكوس، تكســاس، يدار من قبــل مجموعة جيو GEO. كان المهاجرون المحتجزون يحتجون على موت جيساس مانويل غاليندو بسبب الافتقــار إلى العناية الطبية. وبوصفه كـ «أكبر مكان احتجاز/ تأهيل تحت إدارة خاصة في العالم»، فإن هذا المجمع المترامي مســور بأسلاك شائكة، ويحتوي على خلايا اعتقال لـــ 3700 مهاجــر بلا وثائق، لكنه لا يحوي أي مســتوصف أو عيادة. في 2 فبراير 2010 ذهــب الصحافي توم باري للتحري، وبالمصادفة قام المحتجزون بأعمال الشــغب للمرة الثانية محرقين وحدة ســكنية بأكملها[23]. وصف باري شــبكة احتجاز المهاجرين على أنها «الوجه الجديد للســجون في أمريكا... ولأنها تعتمــد على عوائد المشروع بدلا من عوائــد الضرائب، فإنها لا تحتــاج إلى موافقة الناخبين. بدلا من ذلك فإنها تســوق من قبل مستشــاري السجون إلى الحكومات المحلية وحكومات المقاطعات على أنها أدوات تطوير اقتصادي تعد بخلق فرص عمل، وعوائد جديدة من دون ضرائب»[24].

الخاصة الأخرى لشبكة احتجاز الـ ICE هي النقل المستمر للسجناء. على الرغم من أنهم يحتجزون عادة على الحدود أو قرب منازلهم في مدن الشمال الشرقي وكاليفورنيا، بيــد أن المهاجريــن الملتقطين ينقلــون روتينيا إلى تجهيزات احتجــاز بعيدة وريفية في أريزونا ولويزيانا وتكســاس، عــلى بعد مئات أو آلاف الأميال مــن العائلات والمحامين المتعاطفين معهم. وجدت منظمة هيومان رايتس ووتش أنه نُقل 1.4 مليون على الأقل من العام 1999 إلى العام 2008 [25]. فيما إذا كان ذلك يتم بتصميم ســياسي، أو كعادة بيروقراطية، فإن سياسة النقل هذه آلية سادية للتحكم والإحباط.

هذا هو وجه تغير المناخ. الجفاف والفيضانات في المكسيك وأمريكا الوسطى يعبر عنها بشكل متأخر وفي كل مكان على شكل معسكر احتجاز للـ ICE. مع احترار الكوكب فإن الأورام السياسية للسلطوية الأمريكية واضطهادنا الحالي للمهاجرين ستنتشر. ويصيب مرض مشابه أوروبا، وسوف يشتد تغير المناخ حتى لو بدأ التخفيف الضروري أخيرا. رأينا مسبقا الأشكال التي يأخذها التكيف في العالم المتقدم. سيتسارع تصلب الدولة السلطوية المشفرة عنصريا على الواقع، مغلفة بالحرب على المهاجرين، بينما تصبح الهجرة المدفوعة بتغير المناخ قضية أكثر إلحاحا.

بلد الحديث العنيف

تسليح الحدود واعتقال المهاجرين ميليشيويا وشبكة احتجاز إدارة الهجرة والجمارك ICE المخصخصة عموما - هي كلها انتهاكات لحقوق الإنسان. لكنها أيضا سياسة كمشهد عقائدي. عندما تعامل الحكومة الناس الملونين الأبرياء كمجرمين فإنها تضفي الاحترام على العنصرية. الناس المولودون محليا، وعلى الأخص البيض منهم، تصلهم هذه الرسالة، ويشعرون بأنهم مدعوون إلى التنفيس بالتضامن القبلي خصوصا خلال الأوقات الصعبة.

تدفق الناس من الجنوب إلى الشمال - أناس استُؤصلوا من أماكنهم بالعنف المركب لاقتصادات الليبرالية الجديدة وعسكرة الحرب الباردة والآن تغير المناخ - لا يواجه بالجدران والدوريات المسلحة وخلايا السجون فحسب، بل بالافتراءات والكراهية والحديث العقائدي لغوغائيين من الجناح اليميني. لا شيء يوضح هذا أكثر الإذاعات الأمريكية. طوال النهار والليل وعلى مدار الساعة يمكن للمرء أن يسمع خطابا فجا ممتلئا بالكراهية. غلين بيك وراش ليمبو ومايك سافيج هم فقط الأكثر شهرة من الذين يتحدثون بالكراهية كوسيلة للعيش. كل يوم يستمع عشرات الملايين من الناس إلى رسائل اليمين المتعصب التي تتقيؤها موجات الأثير. وبينما يقودون سياراتهم أو يعملون أو يشتغلون في القبو أو يرقدون مستيقظين في الليل يستذكرون مشاكلهم الشخصية، يتابع الأمريكيون الإذاعات بإيقاعها المستمر حول الخوف والكره والمبالغة وأصولية السوق الحرة.

موضوع محوري في هذا الاحتفال الساخط هو مشهد الهجرة. الخوف من الأجانب والوطنية المتعجرفة هي تقاليد أمريكية قديمة. اكتشفها توكويفيل منذ

العام 1835: «لا شيء أكثر إزعاجا في مسـار الحياة العادي من هذه الوطنية النزقة للأمريكيين. يوافق الأجنبي بسرور على امتداح الكثير في بلدهم، لكنه يود لو يسمح له بأن ينتقد شيئا، وهذا مرفوض تماما»[26]. النسخة الحالية من هذه الوطنية النزقة تظهر في عالم يزداد احترارا حيث ينتقل السكان بازدياد. من المؤكد أن سرعة الهجرة وشـدتها والرغبة بها ستزداد بشـكل كبير خلال هذا القرن. لذا، تصبح الكراهية في السياسـة الأمريكيـة تعبيرا عن التجمع الكارثي. من التعقل الاسـتماع إلى الإذاعات مـع أخذ المسـتقبل بعين الاعتبار، ومـع فهم لعلم المناخ. من المهـم أيضا تذكر أن اليمين الكاره للأجانب، على الرغم من رداءته، فإنه يستغل قضايا حقيقية: الاقتصاد السـياسي في عالم غير عادل، والهجرة قضية اجتماعية تزداد تعقيدا وتتطلب سياسة جديدة - أي القول بتكيف مناخي مبني على عدالة اجتماعية.

خذ مرة أخرى كلمات ضباط المخابرات ورجال الجيش والسياسيين السابقين الذين كتبوا ذلك التقرير الموجه إلى البنتاغون حول تغير المناخ المسـمى «عصر العواقب». ها هو جيمس ووزلي، الرئيس السابق لإدارة الهجرة والجمارك، يكتب في CIA فصلا يعالج فيه سيناريو أسوأ حالة من نمو غير مخفف لإصدارات غازات الدفيئة:

> لو صعب على الأمريكيين التوصل إلى تسوية معقولة حول تشريع الهجرة اليوم، فكر بما سـيكون عليه مثل هذا النقاش لـو كنا نعاني من إعادة توطين الملايين من مواطنينا - هجروا بسـبب ارتفاع المياه في خليج المكسيك وجنوب فلوريدا ومعظم الساحل الشرقي وصولا إلى نيو إنغلاند - حتى ونحن نشاهد الهجرة شـمالا لأعداد كبيرة من السـكان من أمريكا اللاتينية والكاريبي. مثل هذه الهجرة يحتمل أن تكون إحدى العواقب الاجتماعية المبكرة لتغير المناخ، وارتفاع مسـتوى البحر بهذه المقادير في نصف الكرة الغربي. القضايا الناجمة عـن غمر قدر كبير من أراضينا، مع الهجـرة نحو حدودنا للملايين من جيراننا الجنوبيين العطـشى والجائعين، من المحتمل أن تهيمن على المشـاكل الأمنية والإنسانية في الولايات المتحدة. عالميا أيضا، سيهاجر السكان من مناخات تزداد حرارة وجفافا إلى أخرى أكثر اعتدالا[27].

التكيف على شكل زورق نجاة مسلح ممكن فقط لو فكر الأمريكيون بطرق معينة، وليـس بطرق أخرى. يثير هذا السـؤال حول كيفية تثقيف وسـائل الإعلام للأمريكيين

البالغـين؟ من المفيد قراءة الرسـائل التـي تبث من الإذاعات عبر الأمـة، لأن هذا هو السـياق السـياسي الذي يمكن بواسـطته فهم الهجرة وتغير المنـاخ. عندما برز إصلاح الهجـرة للنقاش في العام 2006، وظفت معظم وسـائل الإعلام الأمريكية نفسـها على شـكل فقاعة مملوءة بالكراهية. في العام 2010 برزت الهجرة مرة أخرى للنقاش، وثار الجدل من جديد. تقدم هذه الحوادث لمحة عن كيفية تصور صانعي الرأي العام لأزمة الهجرة في المستقبل.

متاريس عقائدية

يمكنك سـماع مسـتقبل قارب النجاة المسلح السـيئ من كلمات برندا ووكر، التي تصنف نفسـها على أنها كاليفورنية شـمالية مناصرة للبيئة والمرأة. ووكر مالثوسـية(*) متعصبة للبيئة اسـتلهمت أفكارها السياسـية بعد قراءتها كتاب بـول أرليش «القنبلة السـكانية». قالت وهي تتكلم في برنامج بيتر بويلز الإذاعي، الذي يبث من دنفر: «إذا كان هناك شيء واحد يجيده المكسيكيون فهو تأسيس بنى تحتية للتهريب. يمكنهم تمرير - كما تعلم بالطبع - ملايين الأجانب غير الشرعيين، وأسلحة الدمار الشامل أيضا»[28].

أو خـذ تعليقات وليام غين، رئيـس «أمريكيون من أجـل هجرة شرعية» على البرنامج نفسـه: «انظر، سآخذ الأمر إلى أبعد من هذا يا بيتر. دعني أذكر شيئا حول هـؤلاء النازيين ذوي اللـون البني...اخرجوا من بلدي - الآن. افهم الإشـارة. ارحل. ليـس علي القول «لا تدع بوابة الحدود تضربك وأنت تخرج منها». وأنا أعني ذلك. إنني جاد جدا حول هذا. الأمريكيون هم اليهود»[29].

إليـك أكذوبة أخرى من مقدم البرامج الإذاعية جي سـيفرن (جي سـيفيرينو سـابقا): «لذا الآن بالإضافة إلى الأمراض التناسـلية، وصادرات المكسـيك الرئيسـة الأخرى - النسـاء والشـوارب والأمراض الجنسـية - لدينا الآن إنفلونزا الخنازير». وفي مناسـبة أخرى عبر عنها بهذه الطريقة: «عندما نكون مركز جذب للبدائيين في العالم - وهي بالمناسـبة ليست خطيئة البدائيين، فأنا لا ألومهم على كونهم بدائيين - إننـي فقط أقدم ملاحظة على أنهم بدائيون...إنهم ملايين العلقات من بلد بدائي

(*) توماس مالثوس Thomas Malthus قس وعالم بريطاني في الاقتصاد السياسي والسكان حذر من أن نمو السكان المتسارع سيؤدي إلى الحرب أو المجاعة أو الأمراض بسبب قدرة الأرض المحدودة على تلبية متطلباتهم. [المترجم].

يأتون هنا ليلعقوك، ومعها يخربون المدارس والمشـافي والكثير من نواحي الحياة في أمريـكا»[30]. دوما وضع السـكان الأصليين مهدد ومضغـوط ومجتاح ومتخلى عنه ومكتسـح تقريبا. بصورة متزايدة يرى السكان الأصليون أنفسهم المدافعين الأقوياء عن الطبيعة، والحصن الأخير أمام هجوم الجراد البشري.

خـذ هذيان مذيع آخـر مؤيد وطنيا هو لاعب الأسـطوانات مايكل ألان وينر، الذي يعرف الآن بالاسـم الأكثر جرمانية من حيث اللفظ مايك سـافيج: «احرق علما مكسيكيا من أجل أمريكا، احرق علما مكسيكيا من أجل أولئك الذين ماتوا حتى تكون لديك هوية وسيادة، اخرج للشـارع وبرهن أنك رجل، احرق عشرة أعلام مكسيكية، لو استطعت أن أوصي بذلـك. ضـع واحدا في النافذة بالمقلوب، وقل لهم أن يعـودوا من حيث أتوا!»[31] هؤلاء الذين نصبوا أنفسـهم للدفاع عن الأمريكيين الحقيقيين يكتبون تحت شعار موقع على الإنترنت بعنوان «حدود ولغة وثقافة». في سياق مختلف، يمكن لهذه الثلاثية المنزلقة أن تمر على شكل عنوان فرعي أكاديمي بعد حداثي، لكنه هنا يستذكر نهاية العصر الأنغلو ساكسـوني على غرار «نهاية السـلالة العظيمة»(*) لماديسـون غرانت[32]. يصف سافيج نفسـه على أنه «محافظ غيور» ويدعي أن لديه 100 مليون مستمع في الأسبوع. مصادر أكثر موضوعية مثل مجلة توكرز تحدد جمهوره بثمانية ملايين - مازال رقما كبيرا جدا.

مـا الذي يقترح كارهو الأجانب فعله؟ يقول نيـل بورتز، أحد كبار مقدمي البرامج الإذاعيـة في البلد: «لن يشـحنوا إلى بلادهم. أعني، يا رويـال (مخاطبا منتج البرنامج) فكـر في هـذا – قبل كل شيء، المكسـيك لا تريـد عودتهم. فكر ما الذي سـيحصل لو قبضنا عليهم – قبل كل شيء، أين سـنضع 11 مليون هسـباني ينتظرون فقط شـحنهم إلى نيكاراغـوا وكولومبيا وكوسـتاريكا والمكسـيك. أين سـنخزنهم؟... في القبة الكبيرة! تماما. وفي القبة الفلكية في هيوسـتن. تلك هي الأماكن التي سنضعهم فيها»[33]. وخلال حديث إذاعي العام 2006 عالج الموضوع نفسه: «عندما نهزم قانون العفو عن الأجانب غير الشرعيين هذا، وعندما نسـحب سـجادة الترحيب، ويبدأون جميعهم بالعودة إلى المكسـيك، دعنا جميعا نقدم لهم كهدية وداع صندوقـا من الفضلات النووية. أعطهم كلهم القليل من الفضلات النووية، ودعهم يأخذونها معهم إلى المكسـيك. أخبرهم أنها يمكن – أن تدفئ التورتيلا (رقاق). أو شيئا كهذه»[34].

(*) The Passing of the Great Race.

شـخصيات التيار السائد هم بالسـوء نفسـه تقريبا. هنا لو دوبس، من تلفاز الـسي إن إن CNN سـابقا، ومضيـف الأخبار الاقتصادية في فوكـس حاليا: «هناك بعض المواطنين المكسـيكيين وبعض المكسـيكيين الأمريكيين الذيـن يريدون رؤية كاليفورنيـا ونيومكسـيكو وأنحاء أخرى من جنوب غرب الولايـات المتحدة تعطى للمكسيك. هذه المجموعات تدعوها «ريكونكويستا» وهي الكلمة الإسبانية لإعادة الاحتلال. وينظرون إلى ملايين الأجانب غير الشرعيين المكسيكيين منهم بشكل خاص الذيـن يدخلون الولايات المتحدة على أنهـم جيش محتمل من الغزاة لتحقيق هذا المشروع»[35]. دوبس - مرددا مخاوف الناس في القرن التاسع عشر من انتشار الدودة الشريطية بين المهاجرين الصينيين على الساحل الغربي - يحب تشبيه الهجرة بالوباء المعـدي: «يهدد اجتياح الأجانـب غير الشرعيين صحة الكثير مـن الأمريكيين. تعبر أمراض معدية جدا الآن حدودنا بعد عقود من القضاء عليها في بلادنا[36]».

غلـين بيـك، متعصب محـترم آخر ضمن التيار العام السـائد. هنـا يتكلم عن المسلمين: «حسنا. ها هو. الخبر الحصري الليلة: خلال عشر سنوات سينظر المسلمون والعرب إلى الغرب من خلال سـياج من الأسـلاك الشـائكة... مـن الأفضل للجالية الإسلامية أن تجد متكلما ليس مسلما لا يقول «نعم، ولكن». عليهم ألا يفهموا حتى كلمة «لكن»، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فإن صورتهم سـتصبح أسـوأ عندما تسـخن الأمور، وستأتي الأسلاك الشائكة»[37].

مثـل دوبس، انغمس بيـل أو رايلي - وهو محترم أكثر من بيك بوجهه الطفولي وتنظـيره للمؤامرة وصراخـه وعربدته - في رهاب إعادة الاحتلال المكسـيكي. في 1 مايو من العام 2006 بينما كان اللاتينيون يحتجون من أجل حقوقهم في كاليفورنيا، حذر أو رايلي بعضا من مشـاهديه الـ 3.25 مليون في الأسبوع: هناك أيضا الأجندة العسكرية المتشددة التي تقول: «لقد سرقتم أرضنا، أيها الأمريكيون السيئون». هذا مـا يقوله منظمو الاحتجاجات: «الحدود؟ لم نعبر الحدود، الحدود هي التي عبرتنا. هاهو شعارهم، لقد سرقتم أرضنا والآن سنستردها منكم عن طريق الهجرة الضخمة جدا إلى الجنوب الغربي. وسـنتحكم بتلك المناطق، لأنكم سرقتموها منا، وهذه هي الخطـة وراء هذا»[38]. أحيانا يصبح خطابه القتالي أكثر تحديدا: «ليسـت لديك أي سياسة ما لم يكن لديك أمن حدودي... لذا الآن أصبحت القضية حربا عنصرية. هذه

ما أصبحت – حربا عرقية. أنت ترى نصف مليون إنسان يظهرون في لوس أنجلوس، ويلوحون بالأعلام المكسـيكية. وهم يقولون «لدينا حق هنا. لا، ليس لكم ذلك. إذا كنتم غير شرعيين، فليس لكم الحق في البقاء هنا»[39].

فصل من الكراهية، مرة أخرى

في العام 2010 ازدادت السياسـة سـخونة مرة أخرى مـع مرور قانون المجلس التشريعي في أريزونا رقم 1070، والذي أمر ضباط الشرطة كلهم بإيقاف أي شخص يشكون في أنه بلا وثائق واستجوابه. أكثر من ذلك، سمح القانون للمواطنين بمقاضاة أي ضابـط يشـعرون بأنه تهاون في جهـوده ضد الهجرة[40]. جسـد القانون 1070 سياسـات الزورق المسـلح في التكيف. عالميـا كان وجه هذا القانـون هو الحاكمة جان بروير بشعرها المشقر وجلدها المبخوخ وابتسامتها المكشرة التي تعطيها تأثيرا يجعلهـا أشـبه بالروبوت. كانت الخلفيـة وراء هذا كله هي الأزمـة الاقتصادية في أريزونـا: كان لديهـا ثالث أعلى معـدل إفلاس في الولايات المتحـدة، ووصل معدل البطالة فيها إلى 10 في المائة في يوليو 2010.

مع القانون الجديد، هرب الآلاف من اللاتينيين المذعورين بلا وثائق من الولاية. قال منتقدون إن القانون سيجعل أريزونا، من بين أشياء عديدة أخرى، أقل أمنا لأنه سيكون من الأصعب على الشرطة أن تكتشف الجرائم لو بدأ اللاتينيون بتجنبهم. دافعت بروير عن الحملة بالادعاء أن المهاجرين يقطعون رؤوس الضحايا الأبرياء. لكن لم ترتكب مثل هذه الجرائم. لم تستطع هي ولا أي شخص آخر العثور على أي دليل يدعم ادعاءها. ثم حظرت الحاكمة بروير الدراسـات العرقية في مدارس أريزونا على أسـس وصفها الناطق باسمها: «يجب على طلاب المدارس العامة أن يتعلموا معاملة بعضهم بعضا، وتقديرهم كأفراد، وألا يتعلموا بغض العناصر أو الطبقات الأخرى أو الحقد عليها»[41].

دافـع بيل أو رايلي عن اضطهاد المهاجريـن بتكرار المقولات حول عنف هؤلاء: «على أريزونا أن تفعل شـيئا. في العاصمة فينيكس خرجت الجريمة تماما عن نطاق التحكم...جعل اغتيال متهم أجنبي غير شرعي لمزارع من أريزونا أخيرا، وإطلاق النار المزعوم من تاجر مخدرات أجنبي على نائب شريف - الوضع ميئوسا منه تقريبا»[42]. لاحقـا، بدأت قصة نائب الشريف المجـروح بالانهيار، كما حصل لقصة بروير حول

قطع الرؤوس. لاحظ الأطباء الشرعيون وجود حروق ناجمة عن مسـحوق على جلد الشريف، مما يشير إلى أن فوهة المسدس كانت ملامسة لجسمه عندما أطلق النار، وليست من 25 ياردة كما ادعى مسبقا[43].

حتـى كريس ماثيوز اقترح وهو يجـادل آمي غودمان: «التغير الثقافي ليس شـيئا يقبله أي مجتمع بسـهولة، أو حتى بأي نوع من المشـاعر الإيجابية»[44]. شجع ماثيوز أيضـا كتاب بات بوكانان «حالة طوارئ: غزو العالم الثالث لأمريكا واحتلالها». بشـكل مناسـب، يشـير عنوان هذا الكتاب، مهما كان ذلك مشـفرا، إلى نظرية كارل شميدت لتبرير النازية قانونيا. وكما يوحـي العنوان، يقول الكتاب إن الهجرة تحطم أمريكا[45]. وإليك، بالتشذيب قليلا، التاريخ العريض كما يرى من المحددات الضيقة لعقل بوكانان:

> من القرن الخامـس عشر إلى القرن العشرين، كتب الغرب تاريخ العالم. من دول أوروبا الغربية جاء المستكشـفون والمبشرون والغزاة والمسـتعمرون الذين بحلول القرن العشرين حكموا العالم كله تقريبا. لكن انحلال الغرب بدأ.
>
> كانت الإمبراطورية الإسـبانية أول من سـقط... وبحلول العام 1918 انهارت الإمبراطوريـة النمسـاوية - الهنغاريـة، والإمبراطورية الروسـية. جعلت الحرب العالمية الثانية الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسـية تنزفـان ثم تتجزآن. واحدة بعد الأخرى بعد نهاية الحرب، بدأت المواقع الاستراتيجية البعيدة في الإمبراطورية - السـويس ومنطقة القنال وروديسيا وجنوب أفريقيا وهونغ كونغ - بالسقوط. وخلال ثلاثة عقود كان انسحاب أوروبا من آسيا وأفريقيا تاما.
>
> من العام 1989 إلى 1991 سقطت إمبراطورية الاتحاد السوفييتي، وانقسمت إلى خمس عشرة قطعة، نصف دزينة منها دول إسلامية لم تكن موجودة من قبل. الآن بدأ الأفريقيون والآسيويون والمسـلمون والهسبانيون الذين حكمهم الغرب فيما مضى في التوطن بالدول الأم... تتألف أزمة الحضارة الغربية من ثلاثة أخطار وشـيكة قاتلة: سـكان يموتون وثقافات تتداعى واجتياح لا يقاوم... وكما انهارت رومـا فإن الغرب ينهار الآن للأسـباب نفسـها، وبالطريقة نفسـها. ما كان يمثله الدانوب والراين بالنسـبة إلى روما يمثله نهر ريو غراند والبحر الأبيض المتوسـط بالنسبة إلى أمريكا وأوروبا. لم تعد الحدود الأمامية للحضارة محمية[46].

في أمكنة أخرى يعج الكتاب بالكثير من الشيء نفسه: «نحن نشهد كيف تختفي الأمم. نحن ندخل المشهد الأخير من حضارتنا. المشهد الأخير هو تدمير الأمم. المشهد

قبـــل الأخير الذي يحدث الآن هو الاجتياح من دون مقاومة». «وأوضح العنصريون من التشـــيكانو والعملاء المكسيكيون هدفهم من خلال السكان والثقافة في استرداد ما خسره أســـلافهم بالحرب... نحن وســـط حرب ثقافية شـــديدة حيث تفقد القيم المحافظة مواقعها لجيلين»[47].

ليس بوكانان من الهامش المجنون. بدلا من ذلك فإنه شخصية رئيسة في الحياة الأمريكية، ومساعد لرؤســـاء جمهورية، وقوة في الحزب الجمهوري، ومحلل سياسي لتلفاز الـ MSNBC. تمثل سياساته تيارا عريضا من الرأي العام.

أسلوب جنون العظمة واستخداماته العقلانية

أهلا بكم في دولة الشعب الأمريكية الجديدة. هنا يلبس الكره ابتسامة، ويعمل باسم العدل والحرية. الحرب على الهجرة هي حرب أفكار. شرح ريتشارد هوفشتادتر العناصر لهـــذه النظرة إلى العالم منذ جيل مضى في كتابه «معاداة الفكر في التاريخ الأمريكي»، ثم في مقال مشهور جاء من الكتاب نفسه، «أسلوب جنون العظمة في السياسة الأمريكية». هذا ما كتبه هوفشتاتدر في العام 1964 - لاحظ كم يبدو النقد معاصرا:

> يرى المتحدث المصاب بجنون العظمة مصير المؤامرة بمصطلحات تنبؤية مرعبـــة - ينتقل بـــين ولادة عوالم وموتها بأكملهـــا، وأنظمة عالمية بأكملها، وأنظمة من القيم الإنسانية بأكملها. يقوم دوما بحراسة متاريس الحضارة. يعيش باســـتمرار عنـــد نقطة تحول. ومثل الدينيـــين المعتقدين بالألفية أو بنهايـــة العـــالم، يعبر عن قلق أولئك الذين يعيشـــون خـــلال الأيام الأخيرة، ويميل أحيانا إلى تحديد تاريخ لهذه النهاية... اســـتلبت أمريكا عموما منهم ومـــن أمثالهم، على الرغم من أنهـــم مصممون على إعادتها إليهم، وإيقاف الفعـــل المخـــرب الأخير من التدمـــير. أقصيت الفضائـــل الأمريكية القديمة مســـبقا من قبل المثقفين وســـكان المدن، ونســـفت الرأســـمالية التنافسية القديمة تدريجيا من قبل المتآمرين الاشـــتراكيين والشيوعيين، وحطم الأمن والاســـتقلال الوطنيان القديمان بمؤامرات خائنة، لم يكن أعظم عملائها من الخارج والأجانب كما في الماضي، بل كانوا سياسيين رئيسين في مركز السلطة الأمريكية. اكتشف سابقوهم مؤامرات؛ أما اليمين المتطرف الحديث فيجد أن المؤامرة هي على شكل خيانة تأتي من الأعلى[48].

ترعى هذه العقلية كره الأجانب الحالي. في العام 2010 وجد استفتاء بيو (Pew Poll) أن 67 في المائة من الأمريكيين قالوا إنهم «يوافقون على السماح للشرطة باحتجاز أي شخص لا يستطيع إثبات وضعه القانوني»، بينما وافق 62 في المائة على «السماح للشرطة باستجواب الأشخاص الذين يعتقد أنهم في البلد بصورة غير شرعية». وقال 59 في المائة إنهم يوافقون على قانون أريزونا في الاعتقال[49].

وليس من قبيل المصادفات أن بعض أكبر الداعمين الماليين لكره الأجانب ولـ«أسلوب جنون العظمة» هما قطبا النفط، والأكثر شهرة بينهم هما الأخوان كوك (Koch Brothers). بدأ هذان المليارديرات الهادئان ذوا الطباع المعتدلة حركة «أمريكيون من أجل الازدهار» وهي متجر للدفاع عن السوق الحرة، بتحويل 5 ملايين دولار على الأقل كبداية مالية لحزب الشاي(*). اتبعت عائلة كوك لزمن طويل نظريات المفكر هايك ضد الدولة، وشجعت أخيرا على إنكار تغير المناخ. الموقفان بالطبع مترابطان: أن تحترم السوق وتحتقر الدولة هو أن تعارض القيود القانونية على إصدارات غازات الدفيئة. خلال الثمانينيات والتسعينيات أنفق الأخوان كوخ أكثر من 100 مليون دولار لمساعدة شبكة من 34 منظمة سياسية يمينية متطرفة، بينها معهد كاتو ومؤسسة هيريتيغ ومنتدى النساء المستقل ومعهد المشاريع الأمريكي[50]. الضجة التي تصدر عن هذه المجموعات هي خليط من التعصب للسوق الحرة وإنكار تغير المناخ وكره الأجانب. أما الإذاعات والتلفزيونات فهي بمنزلة مكبرات صوتية لها.

أوروبا الحصن

في أوروبا أيضا فإن اليمين الكاره للأجانب قوي ونشط. الزعماء شبه النازيين القدماء مثل جان ماري لوبان مؤسس الجبهة الوطنية في فرنسا، ويورغ هايدر زعيم حزب الحرية النمساوي لمدة طويلة يختفيان الآن[51]. لكن جيلا جديدا من الزعماء يتسلمون التيار الرئيس للرسالة القديمة: من بينهم السياسي الهولندي غيريت ويلدرز، وزعيم حزب الشعب الدنماركي بيا كغاريزغارد[52]. ربما الأكثر مدعاة للقلق هو تبني السياسات العنصرية علنا من قبل حكومات الوسط اليميني: شاهد على

(*) Tea Party حزب الشاي حركة سياسية أمريكية شعبية ظهرت في العام 2009 اشتقت اسمها من حزب الشاي في بوسطن في العام 1773 الذي ثار على البريطانيين. [المترجم].

سـبيل المثال طرد الرئيس نيكولا ساركوزي لثمانية آلاف روماني من فرنسا، وتصريح المستشارة أنجيلا ميركل بأن التعددية الثقافية في ألمانيا قد «فشلت تماما»، وتسوير الجالية الرومانية في جمهورية التشيك[53].

مغازلة نهاية العالم

حتى بين الليبراليين الجيدين يجد المرء الإغراء لاعتناق مبدأ قارب النجاة المسلح. اعتبر الكاتب والناشـط البيئي بيل ماكيبين الذي قام بعمل ممتاز بجلب واقع علم المناخ لجمهور واسع، وبدأ مجموعة نشطاء المناخ العالمية 350.org. في كتابه الأخير تعثرت سياسته عندما عالج مسألة الأمن المناخي:

> إذا فكرت في المسـتقبل المتأزم لفترة كافية، يمكنك، على سـبيل المثال أن تنتهي باقتناع هو أنك سـتقف فوق مزرعـة خضارك وبيدك بندقية، تصد بها العصابات المغيرة التي تريد سرقة جزراتك... لن تساعدك القوات البحرية هنا - إنهم غير مهيئين لماكس المجنون(*) - لكن جيرانك قد يساعدونك. إن تصور حيـاة محلية في عالم صعب يعني تصور أخذ مسـؤولية أكـبر، ليس من أجل طعامك فقط بل لحمايتك أيضا. (اعتبر سـويسرا على سـبيل المثال حيث كل رجل بالغ هو جندي). الميليشـيا كلمة قبيحة للعديد منا، لكن من الجدير أن يتذكر على الأقل أولئك الذين يحتفظون منا بقبعات ثلاثية الزوايا في خزائنهم أن الميليشيا المحلية هي التي خاضت الحرب في ليكسنكتون غرين[54].

هذه هي صورة لأمريكا كدولة فاشـلة. يجب أن يكون هناك حقا خيار أفضل. تمتلك الحضارة مع كل عيوبها الكثير مما يستحق، والكثير ضمنها الذي يجب الدفاع عنـه. الحضارة العالمية، هذا الاقتصاد الرأسـمالي العالمي عموما، مع كل اسـتغلاله وظلمـه، أنتج ثـراء وتقنية كبيرين. هل من المسـتحيل حقا تصـور طريقة لإعادة استخدام هذه الثروات والإمكانات وإعادة توزيعها؟

(*) إشـارة إلى فيلم (أو سلسـلة أفلام) ماد ماكس Mod Max التي تتناول صورة متخيلة عن أسـتراليا بعد نهاية الحضارة كما نعرفها. [المحررة].

16

تضمينات واحتمالات

في الحقيقـة، بـدا تصميـم الفنان على الشـكل التالي: نظرية نهائيـة لي، مبنية جزئيـا على آراء مجمعـة لعدد من كبار السـن الذيـن تحدثـت معهـم حـول الموضوع. تمثـل الصورة قبطان سـفينة في عاصفـة هوجاء؛ حيث ترى السـفينة المترنحة نصف الغرقـى بأشرعتها الثلاثة المطويـة لوحدهـا؛ وحـوت هائج يريد القفـز فوقها بمجهود كبير ليغرز نفسـه فوق رؤوس الأشرعة الثلاثة.

هيرمان ميلفيل، موبي ديك

«إما أن تبدأ الرأسـمالية بالتعامل مع الأزمة الآن، وإما سنواجه انهيار الحضارة عند بداية هذا القرن»

المؤلف

الحضـارة في أزمـة، عـلى الرغـم مـن أن التأثـيرات لم يحس بهـا كاملة بعد. اسـتقلاب الاقتصـاد العالمـي غـير منسـجم أساسـا مع استقلاب الطبيعة. وهذا تهديد مميت لكليهما. في الصفحـات السـابقة، أوضحـت كيـف أن

التأثيرات الاجتماعية لتغير المناخ هي معنا مسبقا، وتعبر عن نفسها من خلال أزمات موجودة من الفقر والعنف اللذين نجما عن عسكرة الحرب الباردة واقتصاد الليبرالية الجديدة. يشكل مجموع هذه العوامل وتراكبها وتسارعها المتبادل التجمع الكارثي. وكجزء من التجمع الكارثي نرى بروز أشكال من التكيف العنيف.

في عالم الجنوب يكون التكيف على شكل مطامح عرقية وتعصب ديني وتمرد وقطع طرق وتجارة مخدرات وحروب صغيرة على الموارد كالمناوشات اليائسة على الماء والقطيع التي قتل فيها راع من التوركانا إيكارو لورومان. في عالم الشمال تظهر أزمة متعددة الطبقات على شكل قارب نجاة مسلح: استعدادات لمكافحة عمليات تمرد مفتوحة، وحدود مسلحة، ومراقبة عدائية ضد المهاجرين، وانتشار رئيس لكره الأجانب اليميني.

تذكر الحقيقة الأساسية: حتى لو توقف إصدار غازات الدفيئة كلها فورا - أي لو انهار الاقتصاد العالمي اليوم، ولم يشغل مصباح خفيف واحد، ولا محرك غازولين واحد أبدا - هناك مسبقا كمية كافية من غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي لتسبب احترارا مهما وتغيرا مخربا للمناخ ومعه فقر وعنف وانزياح اجتماعي وهجرة إجبارية وثورة سياسية. لذا علينا أن نعثر على وسائل إنسانية وعادلة من التكيف، أو سنواجه مصائر مروعة.

لن أقدم برنامجا من التنمية الخضراء، ولا حركة لنزع السلاح وبناء السلام على مستوى القواعد، ولا قائمة من منظمات غير حكومية تشير إلى الطريق قدما عبر مجهوداتها الطيبة. مثل هذه المجهودات يجب توليدها في سياقاتها الملائمة من قبل أبطال الدراما المحلية المحددة. ليست أزمتنا قضية افتقار الجمهور القارئ إلى أسماء مجموعات للعمل معها وعناوينها. بالمثل هناك أمثلة لا حصر لها تقريبا لأشكال صغيرة الحجم وعلى مستوى القاعدة من تكيفات عادلة اجتماعيا تستخدم تقنيات ملائمة، وداخلة ضمن ديموقراطية تشاركية. لكن هذه ستبقى ضئيلة حتى تصبح مركزية بالنسبة إلى سياسات الدولة، وخطة عمل رسمية لإعادة توزيع اقتصادي على المستوى العالمي.

أكثر من ذلك، فالتفكر والتمعن في مجموعات العمل النبيلة والتقنيات الجديدة المناسبة قد يفقدنا هدفنا. أزمة المناخ ليست مسألة تقنية، ولا حتى مشكلة اقتصادية إنها في الأساس مسألة سياسية.

اعتبر هذه العوامل واحدا بعد الآخر.

التقنية

هل هناك تقنية كافية للتخفيف، أو لتحقيق الانتقال إلى اقتصاد محايد بالنسبة إلى الكربـون؟ نعـم، فالتقنيات التي تخلـق كميات ضخمة مـن الطاقة المحايدة كربونيا موجودة مسـبقا. وأنتم تعلمون ما هي: الرياح والشمس والحرارة الجوفية وطاقة المد الحركية كلها، تغذي شبكة كهربائية كفؤة وذكية، تغذي بدورها سيارات كهربائية وأبنية أكثر كفاءة طاقيا. التقنية النظيفة ليسـت من دون مشـاكل لكنها هنا الآن ومتوافرة مسـبقا وتعمل على المسـتوى الصناعي. هل يمكن لمواطني عالم الشـمال خصوصا الأمريكيين أن يبقوا مبذرين كما هم الآن؟ لا. علينا أن نسـتخدم الطاقة والموارد بحذر أكبر.

يـرى البعض أن التخفيـف يعتمد على تحقيـق اختراق تقني عـال. ملياردير البرمجيات العظيم بيل غيتس والعالم البيئي جيمس لافلوك وحتى جيمس هانسـن من ناسـا يعلقـون آمالهم على المفاعـلات النووية بعيدة المنال مـن الجيل الرابع (المعروفة بـ IV Gen). مثل هذه التقنية سـتكون بالتأكيد أكثر أمنا من المفاعلات القديمة المتداعية الحالية، ويمكن أن تكون مجدية بعد عقود عدة، واسـتثمار مئات المليارات من الدولارات. لكن التطبيق الصناعي لمفاعلات IV Gen سـيصل متأخرا جـدا ليتجنب نقاط التحـول البيئي. مكتب الطاقة الأمريكي DOE، وهو مشـجع رئيس لكل مـا يتعلق بالطاقة النووية، يعطي في العام 2021 كأقرب تاريخ محتمل لافتتاح محطة طاقة نووية من النوع IV Gen[1]. تذكر أنه لم تبن حتى الآن محطة طاقـة نوويـة في الوقت المخطط، وضمـن الميزانية المرصودة لها. لـذا فإن تنبؤات مكتب الطاقة الأمريكية DOE متفائلة جدا.

يخبرنا العلم بأن علينا أن نبدأ بإجراء تخفيضات قوية للإصدارات فورا. يجب أن تصل الإصدارات إلى الذروة في العام 2015، ثم تتناقص بسرعة، إذا أردنا تجنب تغير خطـير في المناخ. مثل هذا الإطار الزمني يعنـي أن علينا أن نزيد من حجم التقنية النظيفة الحالية. سـيتطلب هذا استثمارات هائلة وتخطيطا جديا - لكن مثل ذلك المشروع قد بدأ مسـبقا. تبقى الولايات المتحدة مـترددة، لكن الاقتصادات الرائدة الأخرى في العالم بدأت بالتحول.

مـاذا عن النواحي التقنية للتكيف؟ في كل أنحـاء العالم يمكننا أن نجد غالبا

مشـاريع صغيرة على مستوى القاعدة تشـير إلى الطريق نحو الأمام. نشر زميلي الصحـافي البيئي مارك هيرتزغـارد تقريرا حول «المعجزة الخـضراء» لطريقة في الزراعة تعتمد على الشـجرة تحول منطقة السـاحل الغـربي. كانت المجتمعات الزراعية التي زارها في بوركينا فاسـو في أزمـة بطيئة الحركة منذ الجفاف الهائل للعام 1972 - 1984، عندما أنقص انخفاض بمقدار 20 في المائة في متوسط هطول الأمطار السـنوي الإنتاج الزراعي خلال السـاحل، وحول مسـاحات واسعة من السـافانا إلى صحراء، وتسـبب في موت مئات الآلاف من الجـوع. لكن التكيف الواسـع لـ«الزراعة الغابية» الجديدة أو لـ «إعادة التوليد الطبيعية المدارة من قبل المزارع» FMNR – وهي أساسـا الأسـاليب نفسـها التي رأيناها تطبق في شمال غرب البرازيل، لكنها طورت وفق السياق الأفريقي – أدى إلى إعادة توليد ضخمة لغطاء الأشـجار عبر أجزاء من مالي والنيجر وبوركينا فاسو. وبهذا، وعلى الرغم من نمو السـكان محليا، ارتفع مسـتوى المياه الجوفية فعلا بين خمسة إلى سبعة عشر مترا[2]. وهذا إنجاز مذهل حقا.

هنـاك أمثلة أخرى على التغير الإيجابي في محفظة برنامج الأمم المتحدة للتنمية UNDP حول الخدمة البيئية العالمية GEF الذي يوزع منحا صغيرة لمشاريع تكيف وتخفيـف تقترح من المجتمع. لـ UNDP- GEF أعمال تجري في 29 بلدا. تشـمل مشاريعها مشـاريع غابية تعتمد على المجتمع، ومشـاريع لزيادة كفاءة الطاقة في كينيا وكهرباء مبنية على الرياح والشمس، وتوليد كهرباء بالطاقة الشمسية للحلول محل الفحم والديـزل، وإدارة مطورة لجمع المياه ومحاربة التصحر وحماية التنوع الحيوي. في بوليفيا يؤسـس برنامج الأمم المتحدة 22 مشروعا ريفيا لتوليد الكهرباء بالتقنية النظيفة مزودا الطاقة لـ 200 ألف بيت ريفي، وبذلك سـتمنع من إصدار 21 ألف مليون طن من غاز ثاني أكسيد الكربون خلال الـ25 سنة القادمة[3].

لكن كما في مشـاريع الزراعة الغابية التي رأيناها في البرازيل تبقى هذه المشـاريع كلها صغيرة، وتعمل على هامش سياسـة الدولة. هذا يحتاج إلى تغيير. حققت البرازيل تحت رئاسة لولا خطوات كبيرة في معالجة الفقر، إلى حد كبير برفضها الوصفة العلاجية الأخلاقيـة والكارهة للتخطيط مـن العقيدة الاقتصادية الكلاسـيكية الجديدة[4]. لكن الإصلاحـات نصف الاشـتراكية والوردية قليـلا على النموذج البرازيـلي يمكن أن تعمل

كتكيف عادل اجتماعيا فقط إذا كان التصالح مع الطبيعة في مركز خطة العمل.

الاقتصاد

هل هناك ما يكفي من المال للتخفيف والتكيف؟ في الحقيقة نعم: هناك مقادير ضخمة من المال تتدفق ضمن النظام المالي العالمي الذي يبحث عن مخارج مربحة، وفي العملية تخلق فقاعات من المضاربة الخطيرة التي تهدد الاستقرار.

في مايو 2010 نشرت الواشنطن بوست تقريرا يقول إن «الشركات غير المالية تجثم على 1.8 تريليون دولار نقدا، وهو أكثر بالربع تقريبا مما كان متوفرا في بداية الركود»[5]. لكنها كما استمر المقال بالإشارة، لم تكن تستثمر في خلق وظائف جديدة. وفق بيانات الاحتياطي الاتحادي في أواخر العام 2010، لم تحتفظ الشركات الأمريكية بمثل هذا القدر من النقد غير المستثمر منذ العام 1956[6]. انشغل العديد من المصارف الكبيرة في السنوات الأولى من الانحسار الكبير بـ «تجارة حمل» عالمية، باستدانة المال من الاحتياطي الاتحادي الأمريكي بفوائد منخفضة، ثم إقراضها مرة أخرى إلى الحكومة الأمريكية - أي بشراء سندات الخزينة. هذا الأسلوب السلبي والطفيلي من المضاربة، بدلا من الاستثمار في رأسمال حقيقي، كان الأساس لسنتين من الأرباح العالية في سوق وول ستريت للأسهم. في العام 2010 دفعت أكبر 25 شركة في وول ستريت 135 مليار دولار على شكل تعويضات لتجارها ومحلليها[7]. وفي هذه الأثناء كان الاقتصاد راكدا. يبقى الفحم الحجري والغاز الطبيعي مصادر الوقود المهيمنة، ولم تكن هناك سياسة للدولة للمساعدة في بناء موجة جديدة من الاستثمار الخاص في تصنيع مؤسس على تقنية نظيفة، وتوجيهها وتشجيعها ومراقبتها.

وأنا أكتب، تزداد برك المال تلك على شكل فقاعة من المضاربات في المواد الأولية كالحبوب والخامات المعدنية. «بين العام 2003 و2008 نمت كمية المال الموظف في المضاربات في المواد الأولية من 113 مليار دولار إلى 317 مليار دولار، وهي زيادة بمقدار 2300 في المائة»[8]. ارتفع مؤشر سعر المواد الغذائية بنحو 75 في المائة بين 2006 ونهاية 2010[9]. ارتفعت أسعار القمح بـ 56 في المائة خلال النصف الثاني من 2010 فقط. جاء هذا جزئيا أيضا نتيجة أزمات مناخية - فيضانات في باكستان وأستراليا، وحرائق غابات في روسيا - أدت إلى خفض الإمدادات وارتفاع حاد في

الطلب. ما إن بدأ السعر بالارتفاع، حتى بدأ المضاربون الغارقون حتى آذانهم بالمال النقدي والضمانات الرخيصة، بدفعه للارتفاع أكثر[10].

لم تفشـل الحكومـة في دفع رأس المـال الخاص للاسـتثمار في تقنية نظيفة فحسـب، لكنها فشـلت في الاستثمار فيها بنفسـها. نعاني نقصا شديدا من المال العام الذي يسـتثمر مباشرة في التقنية النظيفة، وليس هناك نظام قوي للدعم. في الوقت نفسه، لم تفعل سياسة الضريبة الاتحادية شيئا تقريبا لمعاقبة المضاربة أو منعهـا. تمتلـك الحكومة الأمريكية مـوارد متوافرة للتحـول، حتى من دون فرض ضرائب على المضاربين. خذ الموازنة العسـكرية مثلا. عندما وقعت الموازنة الاتحاديـة للعـام 2010 لتصبح قانونا في 28 أكتوبـر في العام 2009 كان الحجم النهـائي لموازنة وزارة الدفاع 680 مليار دولار. ويشـكل الإنفاق المرتبط بالدفاع مـن أجزاء أخرى مـن الحكومة الاتحادية - مثل اختبار الأسـلحة وتخزينها من قبل الـــ DOE، والحماية لوزارة الداخلية في مناطـق القتال، والرعاية الصحية للجرحـى من الجنود القدامى، ووظائف مكافحة الإرهاب لوزارة الأمن الوطني، ونواح أخرى من عمل ناسـا.....إلخ - بـين 300 - 600 مليار أكثر وفق تقديرات مختلفة، مما يجعـل إجمالي الإنفاق على الدفاع بين 1 إلى 1.3 تريليون دولار في السنة المالية 2010. يمكننا القول بأمان إن الإنفاق العسكري المباشر زائد تكاليف مكافحـة الحرب الإضافية زائد برنامج DOE للأسـلحة الذريـة بلغ 722 مليار دولار في العام 2010 [11]. باختصار، هناك مال وافر - إذا أردنا أن نحصل عليه.

يجب ألا نسمح لقضية الدين الحكومي أن تخدعنا للتفكير بأن الاقتصاد يفتقر إلى المال للاستثمار في التخفيف والتكيف كليهما. لمعظم القرن العشرين، كان معدل الضريبة الهامشية الأعلى في الولايات المتحدة فوق 50 في المائة وكثيرا ما بلغت 90 في المائة. منذ بداية الصفقة الجديدة العام 1933 حتى العام 1980 لم ينخفض المعدل الأعلى عن 70 في المائة. في العام 1993 رفع كلينتون معدل الضريبة الهامشية الأعلى من 31 في المائة إلى 39.6 في المائة وبذلك سـدد الدين، وبحلول عام 1998 أصبحت الحكومـة الاتحادية تمتلك فائضـا من المال[12]. لو رفعـت الضرائب على الشريحة الأكـثر غنى، لأمكن للحكومة الأمريكية أن تخفـض الدين الوطني، وأن تمتلك المال للاستثمار في تقنية نظيفة.

السياسة

هل هناك إرادة سياسية لإجراء التحول؟ للأسف، لا.

مصالح الشركات الكبيرة - شركات الوقود الأحفوري، والمصارف الضخمة المدللة على سبيل المثال - لا تريد أن ترى إعادة توزيع للثروة والسلطة نحو الأسفل، ولا إلغاء اقتصاديا لرأس المال الغارق كله، وهو اقتصاد الوقود الحفوري. القليل من القضايا يجسّد هذه المشكلة السياسية أفضل من قصة إنكار قضية تغير المناخ التي تشجعها صناعة الوقود الأحفوري.

على مدى عشرين عاما مولت مجموعة ضغط الوقود الأحفوري حملات ضد قضية تغير المناخ ونظمتها. بشكل أبرز، منحت إكسون بين 1998 و2008 مبلغ 23 مليون دولار دعما لحملة تنكر تغير المناخ[13]. في العام 2006 طالبت الجمعية الملكية، وهي أهم الهيئات العلمية مكانة في المملكة المتحدة - أن تتوقف شركة إكسون عن تمويل المعلومات الخاطئة. وعدت الشركة أن تقوم بذلك، لكنها استمرت فيه على أي حال. في العام 2009 أعلنت منظمة السلام الأخضر أن إكسون قدمت 1.3 مليون دولار لمنظمات لها تاريخ في إنكار تغير المناخ، بما في ذلك مؤسسة هيريتيغ ومعهد الأعمال الأمريكي ومؤسسة واشنطن القانونية[14].

مصدر آخر للتشكيك في المناخ هو ثروة الأخوين كوك، مالكي مجموعة شركات ضخمة خاصة تعمل في التصنيع والتكرير وتوزيع المواد الكيميائية والبترولية إضافة إلى الطاقة والبلاستيك والخامات والأسمدة. تعد شركة صناعات كوك ثاني أكبر شركة خاصة في الولايات المتحدة بعد كارغيل، وليس من المستغرب أن تصنف بين أكبر 10 شركات تلويثا للهواء في الولايات المتحدة[15]. باتباع نمط استثماراتهم، يتبرع الأخوان كوك بسخاء لأنواع مختلفة من اليمينيين المتشددين الذين يتبعون هايك، ويمولون مجموعات تحرض على إنكار تغير المناخ[16]. وجد تقرير لجمعية السلام الأخضر أنه بين العامين 2005 و2008 ساهمت مؤسسات يتحكم بها الأخوان كوك بـ 24.9 مليون دولار لمنظمات تشجع إنكار المناخ. يبدو أن الحملة نجحت. وجد استفتاء بحثي لمؤسسة بيو في العام 2006 أن 77 في المائة من الذين تم سؤالهم وافقوا على وجود دليل على تسخّن الأرض: بحلول العام 2009 انخفض هذا الرقم إلى 57 في المائة[17].

المقاومة شمالا

أين القوة المعادلة؟ حركات العدالة المناخية في الولايات المتحدة في حالة سبات عموما، وتتعرض للهجوم. وهي في أوروبا أقوى نوعا ما، على الرغم من أنها تتعرض للضغــوط هناك، واخترقت من قبل الشرطة. أظهرت فضيحــة في بريطانيا أخيرا أن خمســة عشر ضابط شرطة على الأقل اخترقوا الحــركات الخضراء وخربوها في ذلك البلد[18]. مع ذلك فللخضر على مســتوى القاعدة في المملكة المتحدة وأوروبا حركة قوية نسبيا باتجاه العدالة المناخية.

في الولايــات المتحدة هناك أيضا حركــة للعدالة المناخية، عــلى الرغم من أنها صغيرة، وعانت بعد صعود من هزائم. وكما يشير بريان توكر: «بدأ تغير ملحوظ في الفهم في الفترة 2005-2006 عندما أغرق الإعصار كاترينا نيو أورلينز». ثم جاء كتاب آل غور التوثيقي الذي قرئ على نطاق واســع «حقيقة غير مريحة» وتبعه في العام 2007 التقريــر التقويمي الرابــع الموثق والمعتدل للجنة الدوليــة للتغيرات المناخية IPCC حول علم المناخ وعواقبه. أجبر مزيج من هذا كله مؤقتا دخول موضوع تغير المناخ إلى محور النقاش الوطني[19].

في هذه الأثناء كانت الجهود لإنشاء اتفاقية تالية لبروتوكول كيوتو تحرز تقدما. انتخب باراك أوباما، جزئيا بســبب وعده باستثمار 150 مليار دولار خلال السنوات العــشر القادمة لإطلاق نهضة صناعية تعتمد على التقنيــة النظيفة. وبحلول العام 2009 بــدا من الممكن التوصل إلى اتفاقية عالمية شــاملة. محليا بدأ الديموقراطيون بالدفع إلى إصدار تشريعات وطنية تتعلق بتغير المناخ، ما دعي بـــ «غطاء وتجارة»، لكــن تلك الجهود عطلت وعدلت بشــكل ســيئ من مجموعــات الضغط التابعة للشركات. مالت مجموعات «الأخضر الكبير» - التي تميل إلى المال – إلى رؤية اللغة التشريعيــة على أنهــا كأس مملوءة إلى النصف، بينما نظــرت مجموعات «الأخضر الصغير» التي تميل أكثر إلى اليسار إلى هذه القوانين على أنها ناقصة بشكل خطير.

تدفع معظم الأعمال الكبيرة – ممثلة في غرف التجارة واتحاد المصنعين الوطنيين، ولجنــة الوقــود الغربية ومعهــد النفط الــدولي – إلى الوراء بقــوة ضد تشريعات المنــاخ. وكما نشرت صحيفة الغارديان - لنــدن، زادت صناعة النفط والغاز والفحم الحجــري بحلول صيف 2009 من موازنتها لممارســة الضغــط ضد الخضر بنحو 50

في المائـــة. «حيث أنفق اللاعبون الكبار 44.5 مليون دولار في الثلاثة أشــهر الأولى» لذلك العام[20]. فشــل التشريع المناخي الشامل في الولايات المتحدة بالفعل. وساعد ذلـك في نســف محادثات منظمة اتفاقية الأمم المتحــدة الإطارية حول تغير المناخ UNFCCC في كوبنهاغن العام 2009 وفي كانكون في السنة التالية.

لمواجهة هذه النكسات أعاد بعض الخضر في أمريكا التركيز على استراتيجيات أكثر محلية وأشد هجومية. مثال على ذلك المعركة حول الفحم الحجري خلال العقد الأول من هذا القرن، والتي قادها نادي سييرا وشبكة العمل حول الغابات المطرية وعدد من الهيئات المحلية وحديثا حركة السلام الأخضر. استخدمت الحملات ضد الفحم الحجري هذه الاحتجاجات الجماهيرية، والأعمال المباشرة كاحتلال أعالي الجبال، والضغط المالي والسياسي لوقف بناء 130 محطة جديدة تعمل على الفحم الحجري[21].

توجــد أيضا منظمات أخرى موجهة إعلاميا بشــكل أكبر مثــل. org350 – حيث يشــير الاســم إلى 350 جزءا في المليون من غاز CO2 في الغلاف الجوي، والذي يصبح تغــير المناخ بعده أمرا محتملا. قامت تلــك المجموعة التي أطلقها الكاتب البيئي بيل ماكيبــين وبعض طلابه في كلية ميدلبيري بعمل مذهــل في تثقيف الرأي العام العالمي حــول الحقائق العلمية لتغير المناخ، وفكرة الحدود القصوى، ونقاط التحول. لكن كما يقــول هنري ميللر في نهاية كتابه «مدار الجدي»: «فحوى الرموز أن تكون رمزيا»[22]. الســلطة السياسية كالســلطة الاقتصادية مصنوعة في النهاية من مادة أثخن – هياكل وعمل وطبيعة، وأشياء وأماكن بنتها الهياكل، والعنف الفيزيائي الذي يتحكم بها كلها.

المقاومة جنوبا

المشهد الأول

كان الوقــت أواخر مايو 2005، وكانــت بوليفيا في قبضة احتجاجات جماهيرية لعدة أســابيع – كان معظم الناس من هنود الكويشــان والأيمــاران الذين يطالبون بتأميم صناعة الغاز الطبيعي في بوليفيا. دُعي إلى إضراب عام. والآن هناك مســيرة ضخمــة تنحدر مــن إل التو إلى لابــاز. كان المحتجون من نقابــات العمال وعمال المناجم والمعلمين وفلاحين من دون أراض. كان مقصدهم المجلس التشريعي وقصر الرئاسة، حيث وقفت أمامهما دبابات مكتظة لشرطة مكافحة الشغب.

مع اقترابهم حطم المتظاهــرون نوافذ الحافلات الصغيرة القليلة التي تجاهلت أمر الحركة بالإضراب. عندما قابلوا صفوف الشرطة رمى بعض عمال المناجم شحنات صغــيرة من الديناميت، اهتزت النوافذ للأعلى والأســفل في المجمع، رجعت الشرطة إلى الوراء، وصدوا المتفجرات بدروعهم البلاســتيكية، ثم ردوا بقذائف الغاز المسيل للدموع، والرصاص المطاطي. استمرت المعركة في التقدم والتقهقر لمدة ثلاثة أسابيع. ومع حصار لاباز ومعظم المدن البوليفية الرئيسة الأخرى، انخفضت إمدادات الغذاء والوقــود، وتوقفت الحافلات وســيارات الأجرة. احتل المحتجــون عددا من حقول الغاز ومحطة أنابيب. كانت هذه الاحتجاجات نتيجة خمســمائة ســنة من السرقة والإساءة، وطالب سكان بوليفيا الأصليون بالعدالة.

المشهد الثاني

بعد ســتة أشــهر عدت إلى بوليفيا. مســتيقظا في فندق رث في لاباز بعد ســفر طويل بالطائرة ليلا، أدرت مفتاح التلفاز. لدهشــتي على الشاشة جلس راول برادا، وهو مثقــف ماركسي قصير وثخين، يلبس نظارات محنية بشــكل دائم. كانت آخر مرة شــاهدت برادا فيها حين كان في الشارع يتفادى قنابل الغاز مع الجماهير. الآن هو مستشار للرئيس إيفو موراليس - نعم رئيس، ما أكبر الاختلاف الذي يحدثه عام واحد - كان برادا يشرح لماذا أمَمت الحكومة جزءا كبيرا من صناعة الغاز في بوليفيا.

جرت هنــاك تغييرات أخرى أيضا. وعد موراليــس أن يمضي إلى أبعد من الغاز، حيــث أعلن عن خطط لتأميم تعدين المناجم وإدارة الغابات ومصادرة المزارع غير المســتثمرة وإعادة توزيعها، ورفع الحــد الأدنى للأجور، وزيادة الإنفاق على الرعاية الصحية. بعد عقود من تقشف مفروض من قبل صندوق النقد الدولي، كانت إحدى أولى تصرفات الحكومة الجديدة الســماح بإنهاء صفقة تمويل لمدة ثلاث سنوات مع الصندوق - كان ذلك يعني طرده فعليا من بوليفيا.

في غرفة استقبال باردة في القصر الجمهوري، قابلت نائب الرئيس ألفارو غارسيا لينيرا. في الثانية والأربعين من العمر فقط، تمتع لينيرا بســيرة ذاتية تضمنت مهمات على شــكل مقاتل عصابات وســجين ومؤلف للســلطة ومثقف. «الشركات العالمية مرحــب بها في بوليفيا»، شرح نائب الرئيس ذو الوجه الصبياني. «لكنها لن تســيطر

عـلى الاقتصاد. يجب عليهم أن يتوقعوا دفـع الضرائب والخضوع لتشريعات بيئية واجتماعية معقولة. لكنهم سـيظلون يحققون الأرباح أيضا». كما شرح غارسيا لينيرا فإن كل ما تسـتطيع الدولة فعله هو فرض التوازن والحد الأدنى من الإنسـانية على وحشـية الرأسمالية البوليفية وفوضويتها، وتنمية الاقتصاد بنسخة تقدمية وخضراء مـن الكينزية. العديد مـن الصناعيين في لاباز - مالكو إمداد مـواد البناء، ومصانع رقائـق البطاطا، ومعامل الصهر الصغيرة «البورجوازية الوطنية» إن شـئت - بدأت تـدرك فضائل هذه الاسـتراتيجية. وضمن حدود هـذه الواقعيـة، تتلمس بوليفيا الطريق لنموذج جديد من الاقتصاد المختلط(23).

المشهد الثالث

بحلـول عـام 2010 كانت بوليفيا عـلى الأخبار مرة أخرى، هـذه المرة لأنها كانت تسـتضيف مؤتمر الشـعوب العالمي حول تغير المناخ، في توقع لاجتماع مؤتمر الأطراف COP 16 الذي كان سـيعقد في كانكون في ديسـمبر من ذلك العام. في السنة السابقة عمل وفد بوليفيا من دون كلل مع الـ G77 - المجموعة الرئيسة المكونة من 77 دولة ناميـة وفقيرة من عـالم الجنوب - لتحقيق تخفيضات عميقـة في الإصدارات، وتحويل قـوي لرأس المال والتقنية إلى عالم الجنوب، كجزء من اتفاقية ملزمة. بدلا من ذلك تميز اجتماع COP16 بما دعاه جون فيدال «بخطابات فارغة حول أن تكون أخضر»، وأنتج اتفاقيـة غير ملزمة وغير مناقشـة من قبل النخب. اعترفـت الاتفاقية كما وصفها أحد المراسـلين «بالحالة العلمية لإبقاء ارتفـاع درجة الحرارة أقل من 2°م»، لكنها لم تطلب تخفيض الإصدارات، أو معونة من الشمال إلى الجنوب للمساعدة على التكيف(24).

مـع اختتام COP 16 في كانكون انهار البحث عن اتفاقية ملزمة. بدلا من ذلك كان العـالم الآن يتصارع حول «اتفاقية» طوعية بدلا من معاهدة ملزمة. وبجمعها كلهـا، فـإن كل التخفيضات الطوعيـة (وبالتالي غير المحتملـة) في الإصدارات التي تعهدت بها أكبر الاقتصادات في العالم مازالت تسمح بارتفاع متوسط درجة الحرارة العالميـة بـ 3.2°م، حتى وإن كانت اللجنـة الدولية للتغيرات المناخية IPCC ترى زيادة بمقدار 2 °م الحد الأقصى للأمان. حتى زيادة 2 °م يمكن أن تكون كبيرة جدا، وتسبب تغيرا مناخيا منفلتا.

كانت بوليفيا الدولة الوحيدة التي رفضت الانضمام إلى هذه التمثيلية. عبر مفاوضها الرئيس - مندوب بوليفيا العبوس والمتوتر إلى الأمم المتحدة بابلو سولون - عن موقف بلاده في صحيفة الغارديان. في شرحه لـ «التزامه بتنحية الدبلوماسية جانبا، وقول الحقيقة» كتب ما يلي:

> اعتبر العديد من المعلقين اتفاق كانكون «خطوة في الاتجاه الصحيح». نحن لا نوافق على ذلك: إنها خطوة هائلة للوراء. يستبدل النص آليات ملزمة لخفض إصدارات غازات الدفيئة بتعهدات طوعية غير كافية تماما. تناقض هذه التعهدات الهدف المعلن المتمثل في وقف ارتفاع درجة الحرارة عند 2°م، وتوجَهنا بدلا من ذلك إلى 4°م أو أكثر. النص مملوء بالثغرات بالنسبة إلى الملوثين، والفرص لتوسيع أسواق الكربون، وآليات أخرى مشابهة.... نشعر بمسؤولية عميقة بعدم التوقيع على أي ورقة تهدد ملايين الناس[25].

وهكذا خلال خمس سنوات أصبح الاحتجاج في شوارع لاباز احتجاجا على المسرح العالمي. هل ترجمت الثورة الديموقراطية في بوليفيا إلى حركة قوية نحو الأمام على المسرح العالمي؟ لا. لكن التزام بوليفيا بسياسات تقدمية للتخفيف المناخي، يقدم قيادة جريئة وحيوية كانت من قبل مفقودة. حتى مالديفيس الذي كان شجاعا، دخل في مفاوضات سرية مع الولايات المتحدة لتقديم العون المالي وتقاعد فعليا من المهمة، وصادق على اتفاق كانكون. في الوقت ذاته قطعت الولايات المتحدة 3 ملايين دولار من المساعدات عن بوليفيا بسبب جهود دولة الأنديز في معارضة الاتفاق الطوعي وغير الملائم. ضغطت الحكومة الأمريكية على الأوروبيين ليفعلوا الشيء نفسه[26].

في المضمون تحاول بوليفيا مواجهة التجمع الكارثي بمعالجة المشاكل التي يعبّر تغير المناخ من خلالها عن نفسه. وإذا حصل تقدم أكبر للتوصل إلى اتفاقية دولية تخفف الإصدارات وتمول التكيف، فسيكون بفضل المثال الشجاع لدولة بوليفيا الصغيرة الفقيرة، والمحصورة برا إلى حد كبير. أن تقوم دولة بهذا الفقر وهذا التخلف وهذا التهميش الاقتصادي، مقيدة بأمية وأمراض وجوع منتشر، وبقيت سياستها لزمن طويل مصابة بالعنصرية والاستغلال والديكتاتورية، بتنظيم نفسها وتجنب الحرب الأهلية، والتقدم نحو طريق جديد من التنمية

الاقتصاديـــة المختلطة، وتبدأ بأخذ قضايا البيئـــة بجد، ثم تنقلها كلها إلى المسرح العالمي بكرامة، إنما هو إنجاز بمقياس بطولي وملحمي.

التخفيف الآن

أصابنـــي إدراك ثقيل، لكنــه واضح، وأنا أكتب هذا الكتــاب. التكيف التقدمي والسلمي مقابل التكيف السيء والعنيف خيار صعب، لكنه صراع مبني في حد ذاته على تخفيــف قوي. ومن دون تخفيف نخاطر بإطــلاق عملية تغير مناخي منفلتة وذاتية التغذية، لن يكون بالإمكان التكيف بنجاح معها.

كما نوقش مســبقا، يعتقد العلــماء أن تثبيت النظام المناخــي يتطلب عودتنا إلى تركيز لغاز ثاني أكســيد الكربون في الجو أقل من 350 ج. ف. م. الأخبار الســيئة جــدا هي أننا الآن عند 390 ج. ف. م. حددت منظمة الأرصاد الجوية العالمية عام 2010 على أنه أحد أحر الأعوام المســجلة عــلى الإطلاق. طوال العام ضرب الطقس العنيف نصف الكرة الشمالي. أضف إلى هذا التدفق المستمر لتقارير علمية جديدة حول الحالة السيئة لمحيطات العالم والكتل الجليدية والغابات. تقول اللجنة الدولية للتغيرات المناخية IPCC إن على دول غنية كالولايات المتحدة أن تخفض الإصدارات بـــ 25 في المائة إلى 40 في المائة تحت مســتويات العام 1990 بحلول العام 2020، وأن تقوم بعدها بتخفيضات كبيرة لتصل إلى الإصدار صفر تقريبا.

إذا لم نتصرف الآن، فمن المحتمل أن يرتفع متوسط درجة الحرارة في العالم بأكثر من 2°م، وهذا سيطلق مجموعة من دارات التغذية الراجعة الإيجابية التي ستطلق تغيرا مناخيا منفلتا ذاتي التركيب. على ســبيل المثال، لو استمرت التربة المتجمدة في القطب الشمالي بالذوبان، واســتمر إطلاق غاز الميثان CH4 من المخزونات الهائلة تحتها، فسيتســارع الاحترار العالمي جذريا، لأن الميثان «أكثر كفاءة في حبس الحرارة في الجــو بـــ 20 مرة من ثاني أكســيد الكربــون»[27]. في هذه اللحظــة تبقى هذه المخزونــات الضخمة من الميثان محصورة تحت الجليد وتحت التربة المجمدة وقاع المحيطــات. لكن هذا الغطاء من الطين المتجمــد ينصهر الآن مهددا باحترار سريع، وما يصحب ذلك من ارتفاع في مســتوى ســطح البحر وتخريــب للزراعة وإحداث للفوضى الاجتماعية.

مع ذهاب هذا الكتاب إلى المطبعة عام 2011، يجري القليل من التخفيف. لب المشكلة في المجهود الدولي لخفض الإصدارات هو أساسا تعنت الولايات المتحدة: لقد فشلت في التصديق على بروتوكول كيوتو، ولعبت دورا معيقا في المفاوضات اللاحقة. داخليا كان التقدم بطيئا أيضا، على الرغم من التأييد الجماهيري الواسع لحماية البيئة. منذ هذه الكتابة لم تصدر تشريعات حول المناخ في الولايات المتحدة. ليس لدينا ضريبة على الكربون، ولا أي برنامج من الاستثمار القوي في التقنية النظيفة. حتى التخفيض الضريبي على الحد الأدنى من الإنتاج للطاقة النظيفة المولدة بالشمس أو الرياح أو الطاقة الكهرومائية، لم يوضع على شكل التزام طويل الأمد. نتيجة لذلك يتطور استثمار القطاع الخاص في التقنية النظيفة بشكل خجول.

الصين من ناحية أخرى، وهي الآن ثاني أكبر اقتصاد في العالم، وأضخم ملوث بغازات الدفيئة، تتقدم للأمام بصناعة قوية وسريعة النمو في مجال التقنية النظيفة - أي بالتخفيف. نما قطاع الرياح الصيني باستمرار منذ 2001. وفي العام 2009 نما هذا القطاع بحوالي 113 في المائة بحسب تقرير طاقة الرياح العالمية. يأتي هذا النمو جزئيا نتيجة دعم قوي من الحكومة: استثمرت الصين 200.8 بليون دولار في تمويل مشاريع التقنية النظيفة. تتراوح التقديرات لتمويل تشجيع التقينة النظيفة في الولايات المتحدة بين 50 و 80 مليار دولار[28].

يتحرك الاتحاد الأوروبي أيضا لإنشاء شبكة كهربائية ضخمة على مستوى أوروبا، ويخطط لإنفاق 1 تريليون يورو للقيام بذلك[29]. تتحرك ألمانيا والبرتغال خصوصا بقوة لتوسيع قطاع التقنية النظيفة الواسع مسبقا في كليهما. العمل في الاقتصاديات الصناعية الرئيسة ضروري، لأنها وحدها تمتلك البنية التحتية التي تمكنها من دفع ثورة التقنية النظيفة، وتحويل الاقتصاد العالمي.

دروب للأمام

على الرغم من التصلب السياسي في الولايات المتحدة والاعتقاد بالوقود الأحفوري، هناك دروب للتقدم نحو الأمام. أولا وقبل كل شيء هناك وكالة حماية البيئة. بفضل ضغط الناشطين الخضر، ودعاويهم القانونية، اضطرت وكالة حماية البيئة الأمريكية EPA الآن لتنظيم إصدارات غازات الدفيئة. لو أُريد للـ EPA أن

تعمـل بقوة يمكنها أن تحقـق تخفيضات مهمة وفورية في الإصدارات باسـتخدام القوانين القائمة والتقنيات الحالية فقط.

بحسـب كيسي سـيغل من مركز التنـوع البيولوجي «يمكن لقانـون الهواء النظيـف أن يحقـق كل ما نحتاج إليه: تخفيض بمقـدار 40 في المائة من غازات الدفيئة فوق مستوى 1990 بحلول عام 2020»[30]. الشيئان الأكثر أهمية اللذان يمكـن للـ EPA أن تعملهما هما وقف أي سـماح لبنـاء محطات طاقة جديدة تعمل بالفحم الحجري - هناك خمسـون محطة جديدة تقريبا تطلب الموافقة اثنـاء ذهاب هذا الكتاب إلى المطبعة - وإجبـار التجهيزات التي تعمل بالفحم الحجـري حاليا كلها على التحول إلى الغاز الطبيعي. لا يتطلب «تحويل الوقود» هذا سـوى القليـل، أو لا يتطلب، من إعادة تجهيز محطـات الطاقة القائمة. لو حدث هذا، سـتنخفض الإصدارات الإجمالية من غبر وسـائط النقل بنحو 13 في المائـة أو أكثر خلال عـام أو عامين كما يقول خبراء عديدون. كوقود، فإن تلويث الغاز الطبيعي عمومـا أقل من نصف تلويث الفحم الحجري. لكن كما في حالة المحطات القديمة غير الكفوْة التي تعمل بالفحم الحجري، فإن التحويل إلى الغاز يمكنه أن يخفض الإصدارات بنحو الثلثين.

عـلى الرغم مـن أن الحفر لاسـتخراج الغـاز الطبيعي كثير المشـاكل فإنه مع التشريعات يمكـن أن يصبح أقل تلويثا. وهناك الكثير مـن الغاز الطبيعي: أغرقت الاكتشافات الأسـواق، وانخفضت الأسـعار بأكثر من 60 في المائة من ذروتها. ليس الغاز حلا فهو ليس نظيفا. يقدم الغاز فقط «وقودا مرحليا» واقعيا أكثر نظافة، بينما ننتقل نحو طاقة مولدة من الرياح والشمس والحرارة الجوفية والمصادر المائية.

الشراء الكبير للأخضر

طريقة أخرى متوافرة للتحويل هي شراء الحكومة مباشرة للتقنية النظيفة. حاليا تبقـى التقنية النظيفـة الرائدة أغلى بقليل من التقنيات القديمة الوسـخة البديلة. يوقـف ما يُدعى «فارق السـعر» هذا إنتاج التقنية النظيفة على المسـتوى الكبير. الحقيقة البسيطة هي أن الاقتصادات الرأسمالية لن تحول إلى الطاقة النظيفة ما لم تصبح أرخص من الوقود الأحفوري.

تنتج الفجوة في السعر جزئيا من تاريخ دعم التقنية الوسخة (72.5 مليار دولار بين عامي 2002 و2008)، وجزئيا من اقتصادية الإنتاج الكبير التي تتمتع بها صناعة الوقود الأحفوري. إن أسرع طريق لإغلاق فجوة السعر هذه هي في إنشاء أسواق كبيرة للتقنية النظيفة تسمح باقتصاد مماثل من الإنتاج الكبير. والطريقة الأسرع لفعل ذلك هي في إعادة توجيه الشراء الحكومي بعيدا عن طاقة الوقود الأحفوري، ونحو الطاقة والتقنية النظيفتين - لاستخدام قدرة الحكومة الكبيرة على الإنفاق لخلق سوق للتقنية النظيفة.

بعد كل شيء، لم تقم الحكومة بتمويل اختراع المعالج الصغير فقط، بل كانت أيضا المستهلك الرئيس الأول لهذا الجهاز. لم تقم بخلق التقنية فقط، بل خلقت السوق لها أيضا. خلال الخمسينيات جاء أكثر من دخل الـ«آي بي أم» IBM من عقود الحكومة. ومع المال قدّمت هذه العقود سوقا مضمونة مستقرة لـ IBM ومزوديها. وبالتالي ساعدت في استدراج الاستثمار الخاص لهذه التقنية - وهذا كله جعل IBM رائدة السوق[31].

الآن اعتبر حجم المشكلة: تزدحم شرايين النقل الأسفلتية بـ 250 مليون عربة تتحرك بالغازولين، تستهلك سنويا ما تتراوح قيمته بين 200 و300 مليار دولار من الوقود من أكثر من 121 ألف محطة تعبئة. أضف إلى هذا تكلفة تدفئة الأبنية وتبريدها والسفر بالطائرة والشحن بالسفن وصناعة الطاقة، والطاقة التي تلتهمها مخدمات الإنترنت وحواسبها، وسيصل اقتصاد الطاقة في الولايات المتحدة إلى رقم سنوي مذهل يعادل 2 إلى 3 تريليونات دولار.

هذه مبالغ هائلة، لكن الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات والمجالس المحلية تشكل أكثر من 38 في المائة من الناتج القومي الإجمالي. أنفقت الحكومة الاتحادية نحو 3.6 تريليون دولار عام 2010. بمصطلحات أقوى فإن الحكومة الاتحادية هي أكبر مستهلك للطاقة والمركبات في العالم - فهي تمتلك أو تستأجر أكثر من 430 ألف بناء معظمها أبنية ضخمة للمكاتب و650 ألف عربة. نتيجة لذلك، فإنها أكبر مصدر لغازات الدفيئة في البلد. وإذا أضفت نشاطات حكومات الولايات والمجالس المحلية فسوف تنمو هذه الأرقام مرة أخرى بحوالي الثلث.

ستخلق إعادة توجيه الشراء الحكومي أسواقا ضخمة للطاقة النظيفة والسيارات الكهربائية والأبنية الكفوءة ولأثاث وورق ومواد تنظيف وألبسة رسمية وأغذية وخدمات أكثر استدامة. لو اشترت الحكومة الأخضر، فسيخفض هذا سعر التقنية النظيفة، وسينمو الزخم نحو تقنية خضراء مدعوما ذاتياً، وسيمتد إلى القطاع الخاص.

تمتلك الحكومة قدرة هائلة لتفعيل المشتريات الخضراء لأنها لا تحتاج إلى ضرائب وبرامج جديدة أو إنفاق، وليست رهينة الكأس المقدسة الممثلة بـ 60 صوتا في مجلس الشيوخ. إنها ببساطة مسألة تغيير كيفية شراء الحكومة لطاقتها وعرباتها وخدماتها.

رأسمالية ضد الطبيعة؟

هناك سؤال ضروري أخير. تذهب تيارات عدة من الفكر الأخضر إلى أن الرأسمالية غير قادرة على التوصل إلى علاقة مستدامة مع الطبيعة، لأنها كنظام اقتصادي يجب أن ينمو أُسيًّا، بينما موارد الطبيعة محدودة[32]. تجد هذه الحجة في أدبيات الاشتراكية البيئية والبيئية العميقة والفوضويين البيئيين. تذاع الحجة نفسها كثيرا من قبل الخضر الليبراليين بمصطلحات غير تاريخية وغير نظرية، إذ إنهم بينما يشككون بالنظام الاقتصادي يتجنبون غالباً ذكر ذلك. بالعودة إلى أوائل السبعينيات، أكد كتاب نادي روما «حدود النمو» على مخاطر «النمو»، لكنه تجنب عموما شرح لماذا تحتاج الرأسمالية إلى النمو، أو كيف يرتبط النمو بالملكية الخاصة والربح والتنافس بين الشركات. فيما إذا كانت هذه الأدبيات تصف المشكلة على أنها «مجتمع صناعي حديث» أو «ثقافة للنمو» أو «نظام الربح»، فإن لديها غالبا الوصفة المماثلة: نحتاج إلى نظام اقتصادي مختلف تماما، إذا رغبنا العيش في توازن مع الطبيعة.

كان ماركس وإنغلز من أوائل من قالوا بهذه الحجة. جاءوا إلى نظريتهم البيئية من خلال فحص المشكلة المحلية حول العلاقة بين الريف والمدينة - والتي عبر عنها في الوقت نفسه على أنها تلوث مديني، وتدهور التربة في الريف. في استكشاف هذا السؤال اعتمدا على العمل الرائد لكيميائي التربة جوستس فون ليبغ. ومن هذه

المشكلة الصغيرة طورا فكرة «الانفصام الوظيفي» الكلي للرأسمالية مع الطبيعة[33]. هكذا يشرح ماركس هذه المعضلة:

> يجمع الإنتاج الرأسمالي السكان بعضهم مع بعض في مراكز كبيرة، ويتسبب في تحقيق تزايد متنام لسكان المدن. لهذا نتيجتان. فهو من جهة يركز القوة الدافعة التاريخية للمجتمع، وهو من جهة أخرى يؤثر في التفاعل الوظيفي بين الإنسان والأرض. أي أنه يمنع العناصر المكونة للتربة والمستهلكة من قبل الإنسان على شكل غذاء ولباس، من العودة إليها، وبالتالي هو يمنع عمل الطبيعة الدائم للإبقاء على خصوبة التربة... التقدم في الزراعة الرأسمالية كله، هو تقدم في الأسلوب ليس لسرقة العامل فقط، لكن لسرقة الأرض أيضا[34].

من هذا نما الاعتقاد الماركسي أن الرأسمالية ككل في حالة تناقض تام مع الطبيعة، وأن النظام الاقتصادي يخلق صدعا في توازن التبادل، أو في وظيفة وصل المجتمع الانساني بالأنظمة الطبيعية. كما بالنسبة إلى «سرقة التربة»، كذلك بالنسبة إلى مخزون الأسماك والغابات وإمدادت المياه والوراثة الجينية والتنوع الحيوي وتراكيز الغلاف الجوي. خرج النظام الطبيعي عن التناغم، ويعاد ترتيب عناصره وتوزيعها لتنتهي على شكل فضلات وتلوث.

وكما عبرت ماري دوغلاس، متصرفة بعبارات وليام جيمس: «القذارة قضية خارج محلها»[35]. على مقياس كبير بما يكفي، يهدد ذلك الإخلال بالعناصر بكارثة بيئية.

قد يكون هذا صحيحا: ربما تكون الرأسمالية في النهاية غير قادرة على تكييف نفسها مع حدود العالم الطبيعي.

لكن هذا ليس السؤال نفسه فيما إذا كانت الرأسمالية قادرة على حل أزمة المناخ. بسبب حجمها الكبير يمكن أن تبدو أزمة المناخ كأنها مجموع الأزمات البيئية كلها - زيادة استغلال المحيطات وإزالة الغابات والاستغلال الزائد للمياه العذبة وتدهور التربة وفقد الأنواع الحية ومواطنها والتلوث الكيميائي والتلوث الجيني بسبب الهندسة البيولوجية عبر الجينات. لكن وقف إصدار غازات الدفيئة هو قضية أكثر تحديدا، إذ إنها قطعة واحدة فقط من البانوراما الكارثية. وعلى الرغم من أن هذه المشاكل كلها مترابطة، فإن الأكثر إلحاحا والأكثر شمولية من بينها هو تغير المناخ بفعل الإنسان.

الحقيقة أن الوقت قد استنفد بالنسبة إلى قضية المناخ. إما أن تحل الرأسمالية الأزمة، أو أنها ستحطم الحضارة. إما أن تبدأ الرأسمالية بالتعامل مع الأزمة الآن، وإما سنواجه انهيار الحضارة عند بداية هذا القرن. لا يمكننا انتظار ثورة اشتراكية أو شيوعية أو فوضوية أو بيئوية عميقة، أو بدائية جديدة، ولا تحول محلي مبني على الحنين للعودة إلى اقتصاد البلدة الصغيرة في أمريكا ما قبل الثورة الصناعية، كما يحاجج البعض.

باختصار، لا يمكننا الانتظار حتى نقوم بتحويل كل شيء - بما في ذلك كيف نخلق الطاقة. بدلا من ذلك يجب علينا أن نبدأ فورا بتحويل اقتصاد الطاقة: التغييرات الضرورية الأخرى يمكنها أن تبدأ من هناك، وستفعل ذلك.

لا أمل؟ لو نحّينا السؤال حول حدود الرأسمالية جانبا، وتعاملنا مع إصدارات غازات الدفيئة فقط، فستبدو المسألة أقل صعوبة. بينما لم تحل الرأسمالية الأزمة البيئية - بمعنى التناقض الرئيس بين إمكانية النمو اللامتناهي للسوق، والعوامل المحدودة للكوكب - فقد حلت في الماضي أزمات بيئية محددة. حركة الصحة العامة في الحقبة التقدمية مثال على ذلك.

بحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر أصبحت المدن الصناعية حواضن مثالية للأمراض المعدية، وخصوصا الكوليرا والحمى الصفراء. وكتغير المناخ اليوم، ضربت هذه الأمراض الفقراء بقوة أقسى، لكنها أمرضت أيضا الأغنياء وقتلتهم. قدمت الامتيازات الطبقية بعض الحماية، لكنها لم تكن ضمانا للأمان. ونتيجة لذلك بدأ أفراد محسنون من الطبقة الوسطى سلسلة من الإصلاحات حدّت من الأوبئة في المدن ودحرتها في النهاية.

أولا منعت الخنازير التي تأكل الفضلات القذرة من شوارع المدن، ثم بدأت برامج الصحة العامة لجمع الفضلات، وبنت مجارير الصرف الصحي، وزودت البيوت بالمياه النظيفة، وطورت معايير قياسية للبيوت وطبقتها. وفي النهاية توقفت أوبئة الكوليرا. وكذلك تم التخلص نهائيا من أمراض معدية أخرى كالسل الرئوي والحمى التيفية والتيفوئيد[36].

لذا، على مستوى المدن، حل المجتمع الراسمالي أزمة بيئية من خلال التخطيط وإنفاق المال العام. أما تغير المناخ فهو أزمة على مستوى مختلف تماما من الحجم، لكن الحلول الماضية لأزمات بيئية أصغر تقدم دروسا في ذلك.

في النهايــة، ســيتطلب حل أزمة المنــاخ - مثل الانتصار في القرن التاســع عشر عــلى قذارة المدن والأوبئة - إعادة الشرعية لدور الدولة في الاقتصاد. ســنحتاج إلى التخطيــط، وإعادة توزيع الثروة نحو الأســفل. وكما وضَحت في الأعلى، هناك طرق متوافرة مســبقا لمعالجة الأزمة فورا - لو بذلنا الجهد لإجبار زعمائنا السياسيين على التــصرف. ندين بمثل هذا المجهود لأناس مثل ايكارو لورومان الذين عانوا مســبقا وماتــوا على خطوط المواجهة للتجمع الكارثي، وندين به للجيل التالي الذي ســيرث الفوضى. وندين به لأنفسنا أيضا.

الهوامش

الفصل الأول

(1) بالنسبة إلى أفريقيا تكتب اللجنة الدولية للتغيرات المناخية (IPCC) ما يلي: «من المحتمل جدا أن يكون الاحترار خلال معظم القارة الأفريقية وفي الفصول جميعها أكبر من معدل الاحترار العالمي، بحيث تكون المناطق تحت المدارية الأجف أكثر احترارا من المناطق الاستوائية الأرطب. ومن المحتمل أن يتناقص الهطول السنوي في معظم أفريقيا البحر الأبيض المتوسط، وشمال الصحراء الكبرى، ويتزايد احتمال هذا التناقص مع الاقتراب من ساحل البحر. من المحتمل أن يتناقص الهطول في معظم مناطق هطول الأمطار الشتوية والمناطق الهامشية الغربية في أفريقيا الجنوبية. ومن المحتمل أن تكون هناك زيادة في متوسط الهطول السنوي في أفريقيا الشرقية. من غير الواضح كيف سيكون الهطول في منطقة الساحل الأفريقي، وشاطئ غينيا، وجنوب الصحراء». سوزان سولومون وداهي كين ومارتن مانينغ واللجنة الدولية للتغيرات المناخية (IPCC)، مجموعة العمل الأولى، «تغير المناخ 2007: الأساس العلمي الفيزيائي: مساهمة مجموعة العمل الأولى في التقرير التقويمي الرابع للجنة الدولية للتغيرات المناخية» (كامبريدج: دار نشر جامعة كامبريدج، 2007) 850.

(2) جيمس هانسن، «عواصف أحفادي: الحقيقة حول كارثة تغير المناخ القادمة، وفرصتنا الأخيرة لإنقاذ البشرية» (نيو يورك: دار نشر بلومباري 2009).

(3) انظر «حول العلم والتأثيرات»، مركز بيو حول تغير المناخ العالمي:

www.pewclimate.org/science-impacts/about

(4) خفضت الـ IPCC كما هو معروف توقعاتها حول ارتفاع سطح البحر بين تقريريها التقويميين الثالث والرابع. لكن المجال الأخفض للارتفاعات المتوقعة في تقريرها التقويمي الرابع انتقد باعتباره متفائلا، لأنه لم يأخذ بعين الاعتبار دليلا جديدا على الذوبان السريع جدا للجليد في غرينلاند والقطب الجنوبي. لخّصت مجلة نيو سيانتيست مشكلة التنبؤ بارتفاع سطح البحر بما يلي: «لأن نمذجة الكيفية التي تتفاعل بواسطتها ألواح الجليد في غرينلاند والقطب الجنوبي مع ارتفاع درجات الحرارة صعبة جدا، لم تدخل الـ IPCC أيا منهما في تقديراتها. ليس هذا حذفا بسيطا: يحتوي الغطاء الجليدي في غرينلاند وهو الأصغر بين الاثنين والأقل استقرارا، على كمية من المياه تكفي إذا ذابت كلها لرفع مستوى سطح البحر بـ 6 أمتار بالمتوسط خلال الكرة الأرضية». يتابع المقطع نفسه باقتباس إيريك ريغنوت من جامعة كاليفورنيا في إرفاين، ومختبر الدفع النفاث لناسا بالقول «نتيجة لتسارع انطلاق المياه من الجليديات في مناطق واسعة، تساهم ألواح الجليد في غرينلاند والقطب الجنوبي مسبقا في ارتفاع مستوى سطح البحر بمعدل أعلى وأسرع مما تم توقعه مسبقا... لو استمر هذا المنحى، فمن المحتمل أن نشهد ارتفاع مستوى سطح البحر بـ 1 متر أو أكثر بحلول العام 2100». انظر كاثرين براهيك - ارتفاع مستوى سطح البحر يمكنه نقض تقدير الـ IPCC، نيو ساينتيست (مارس 2009).

(5) جون فيدال، «يسبب الاحترار العالمي موت 300 ألف شخص في العام»، «الغارديان»، 29 مايو 2009.

(6) جيانجن ين وآخرون، «إسقاطات نموذج الارتفاع السريع لسطح البحر على الشاطئ الشمالي الشرقي للولايات المتحدة»، نيتشر جيوساينس 2 (15 مارس 2009): 262

- 266. في العــام 2007 تنبــأ التقرير التقويمي الرابع للـــ IPCC بناء على بيانات أخذت قبل نشر التقرير بسنوات، أن غرينلاند والقطب الجنوبي لن يفقدا كميات مهمــة من الجليد بحلول العــام 2100. في الواقع يفقد كلاهما كميات من الجليد بسرعة كبيرة، ومن هذه البيانات الجديدة تأتي هذه الإسقاطات الجديدة.

(7) كوكو وارنر وآخرون «في البحث عن مأوى: تفحص تأثيرات تغير المناخ على هجرة البشر وانزياحاتهم»، معهد الأرض في جامعة كولومبيا ـ مايو 2009.

http://ciesin.columbia.edu/documents/clim-migr-report-june09_media.pdf

(8) كريســتينا ســتيفانوفا «ارتفاع مســتوى البحــر في المحيط الهادئ يخلــق موجة من المهاجرين»، «واشنطن تايمز»، 19 أغسطس 2009.

(9) مقتبس من ورقة لســوزان جورج بعنــوان «العولمة والحرب» (ورقة قدمت في المؤتمر العالمي للأطباء العالميين لمنع الحرب النووية، نيودلهي، 10 مارس 2008)، «تغير المناخ والصراع» تقرير مجموعة الأزمة العالمية، نوفمبر 2007.

www.crisisgroup.org/en/key-issues/climate-change-and-conflict.aspx

(10) دان ســميث وجانــاني فيفيكانادا، مناخ من الصراع: العلاقة بين تغير المناخ والســلم والحرب (ستوكهولم: الوكالة الســويدية الدولية للتعاون في التنمية، فبراير 2008)، 7. يمكن تنزيل هذه النشرة أو طلبها من:

www.sida.se/publications

(11) إحصائيــا، انخفضت «الوفيات المرتبطة بالحروب» عالميا منذ الحرب العالمية الثانية، وخصوصا منــذ نهاية الحرب الباردة، والتي كانت غالبا ســاخنة في خطوط المواجهة في دول عــالم الجنوب. لكــن أنواعا غير منتظمة أخرى من العنــف مرتبطة بالانهيار الاجتماعي آخذة بالانتشــار. خذ حالة الحرب الأهلية في السلفادور التي استمرت 12 عامــا وانتهت العام 1993، لكن «حالات الموت بالقتل في حقبة ما بعد الحرب فاقت في مرحلــة ما معدل القتل خلال الحرب نفســها»، وما زالت بالمعدل المرتفع نفســه اليــوم. أو خذ حالة كاراكاس، في الســبعينيات تعرضت فنزويلا لسلســلة من حروب العصابات الصغيرة، وفي الحقيقة حارب المظلي الشاب هوغو تشافيز رجال العصابات الماويين حول بحيرة ماريكيبو. اليوم تعد فنزويلا في «حالة سلم»، لكن أحياء كاراكاس عــلى التلال تضج بالجريمة. وكاراكاس أكثر عنفا الآن مما كانت عليه في حقبة الحرب الأهلية. يبلغ معدل القتل في كاراكاس 130 شــخصا لكل مائة ألف من الســكان. في العــام 2008 قُتل ما مجموعه 2415 شــخصا وجُرح 5098 آخرون. انظر على ســبيل المثال ســارا ميللر لانا «هل ســيؤذي معدل القتل في فنزويلا شــافيز؟»، كريســتيان سيانس مونيتر، 3 ديسمبر 2008، عنوان رئيسي: «الجريمة في فنزويلا، قضايا المخدرات 29 يونيو - 5 يوليو»، وصلة أخبار العالم (وزارة التجارة الأمريكية، 5 يوليو 2009).

الفصل الثاني

(1) «تصريح لسجل الدكتور توماس فينغر»، مكتب مدير المخابرات العامة، 25 يونيو 2008،

www.dni.gov/testimonies/20080625_testimony.pdf

تــم الحصول عليها في 25 يونيو 2008)؛ كيفين وايتلو، «ســيكون لتغير المناخ عواقب

مهددة للاستقرار، تحذر وكالات الاستخبارات»، تقرير أخبار أمريكا والعالم، 25 يونيو 2008. دعي التقرير «تأثيرات تغير المناخ على الأمن القومي العام 2030».

(2) لورا سوليفان «اقتصاديات السجون تساعد في دفع قانون هجرة أريزونا»، برنامج أول ثينغز كونسدرد (راديو NPR) 28 أكتوبر 2010.

(3) هذا التقرير متوافر على الشبكة - على سبيل المثال على موقع شبكة الأعمال الاقتصادية العالمية

www.gbn.com/GBNDocumentDisplayServlet.srv?aid=26231&url=/UploadDocumentDisplayServlet.srv?id=28566

(4) حول قصف القنابل ومفاوضات باريس، انظر غابريل كولكو «تحليل حرب: فيتنام - الولايات المتحدة والخبرة التاريخية الحديثة» (نيويورك: نيو برس 1985) 440 - 444، ستانلي كارناو، «فيتنام: تاريخ» (نيويورك: بنغوين 1997).

(5) جيف غوديل، «كيف نبرد الكوكب: الهندسة الجيولوجية والبحث الجريء لإصلاح مناخ الأرض» (نيويورك: هوتون ميفلين هاركورت، 2010).

(6) لمناقشة عميقة لنظام الدوران الحراري في المحيطات، انظر التالي: تيم فلانيري «صانعو الطقس: كيف يغير الإنسان المناخ، وماذا يعني ذلك بالنسبة إلى الحياة على الأرض» (نيويورك هاربر: هاربر كولينز 2006)؛ إليزابيث كولبرت، «ملاحظات حقلية حول كارثة: الإنسان والطبيعة وتغير المناخ» (نيويورك: دار نشر بلومزباري 2006)؛ إيوجين ليندن، «رياح التغيير: المناخ والطقس وتحطيم الحضارة» (نيويورك: سايمون وشوستر 2006)؛ آل غور، «حقيقة غير مريحة» (نيويورك: كتب روديل 2006)؛ جورج مونبيوت، «الحرارة: كيف نوقف احتراق الكوكب» (نيويورك: دوبل داي 2006).

(7) بيتر شفارز ودوغ راندال، «تقرير حول تغير مناخي مفاجئ، وتأثيراته على الأمن القومي للولايات المتحدة» (تقرير أعد لمكتب البنتاغون حول التقدير الإجمالي، شبكة غلوبال بيزنس، فبراير 2003) 2.

(8) شركة CNA، «الأمن القومي وتهديد تغير المناخ» (ألكساندريا، شركة VA:CNA 2007) 44.

(9) شركة CNA، «الأمن القومي وتهديد تغير المناخ»، 16.

(10) شركة CNA، «الأمن القومي وتهديد تغير المناخ»، 60.

(11) كيرت كامبل وآخرون، «عصر العواقب: تأثيرات تغير المناخ العالمي على السياسة الخارجية للأمن القومي» (واشنطن دي سي: مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية، ومركز الأمن الأمريكي الجديد 2007) 35.

(12) كيرت كامبل وآخرون، «عصر العواقب: تأثيرات تغير المناخ العالمي على السياسة الخارجية للأمن القومي»، 9.

(13) كيرت كامبل وآخرون، «عصر العواقب: تأثيرات تغير المناخ العالمي على السياسة الخارجية للأمن القومي»، 85 - 86.

(14) جوناثان بيرلمان وبين كوبي، «الدفاع يحذر من صراع المناخ»، سيدني مورنينغ هيرالد، 7 يناير 2009؛ تحليل قوات الدفاع الأسترالية بعنوان «تغير المناخ: البيئة والموارد والصراع»، أتم في نوفمبر 2007.

(15) «تغير المناخ والأمن العالمي» (ورقة من المفوض السامي والمفوضية الأوروبية إلى اللجنة الأوروبية، 08/S113 14 مارس 2008) 1-2. هذا التقرير متاح على الموقع:
www.consiliumeuropa.eu/ue.docs/cms_data/docs/pressData/en/reports/99387.pdf

(16) «تغير المناخ والأمن العالمي» 3 - 5.

(17) توماس بارنيت، «خارطة البنتاغون الجديدة»، اسكواير، مارس 2003. من المغري إسباغ تناسق ذكي على السياسة الخارجية الأمريكية لا تمتلكه بالضرورة. على الرغم من الاتفاق المسبق على الأهداف العريضة، وهي عرض القوة الأمريكية بهدف حماية المصالح الاقتصادية الأمريكية، إلا أن دوائر صانعي السياسات منقسمة إلى مدارس مختلفة من حيث الفكر والرمز والشبكات المتنافسة على التأثير في الرؤى المتعارضة.

(18) إيمانويل وولرشتاين، «النظام العالمي الحديث 1: الزراعة الرأسمالية ومصادر الاقتصاد العالمي الأوروبي في القرن السادس عشر» (نيويورك: أكاديميك برس 1974).

(19) جون ستيوارت ميل، «مبادئ الاقتصاد السياسي» (نيويورك: لونغمان غرين وشركاؤهم 1909) 685.

(20) لاري إليوت ومارك تران، «تقرير من الأمم المتحدة يحذر من تهديد تغير المناخ على التقدم البشري»، «الغارديان»، 4 نوفمبر 2010.

الفصل الثالث

(1) مقابلة مع الكولونيل غاري أندرسون، USMC مارس 1999 وفرانك جونز، «القضايا المدنية للقوات البحرية وحرب الثلاث كتل»، مجلة القوات البحرية 86 عدد 3 (1 مارس 2002). ديريك سامارفيلد، «التأثيرات النفسية للصراع في العالم الثالث»، التنمية في العمل 1، عدد 3 (خريف 1991): 150-173:2.

(2) مؤسسة CNA، «الأمن القومي وخطر تغير المناخ» (ألكساندريا، مؤسسة VA:CNA، 2007) 44. أضيف تأكيد. كان ذلك الجنرال أنتوني زيني وهو يفكر في التأثيرات العسكرية لتغير المناخ، لكن ووسلي بانيرتا وآخرين جميعهم يدلون بتصريحات مماثلة.

(3) «تكتيكات مكافحة التمرد» (24.2-FM-3)، الكتيب الحقلي العسكري الأمريكي لمكافحة التمرد (واشنطن دي سي: وزارة الدفاع 2009) صفحة viii.

(4) جون نيغل، «تعلم أكل الحساء بالشوكة: دروس مكافحة التمرد من ماليزيا وفيتنام» (شيكاغو: نشر جامعة شيكاغو 2005)؛ ديفيد كيلغولين، «حرب العصابات الطارئة: خوض حروب صغيرة وسط حرب كبيرة» (أكسفورد: نشر جامعة أكسفورد 2009)، توماس ريكس، «المقامرة: الجنرال ديفيد باتريوس والمغامرة العسكرية الأمريكية في العراق 2006 - 2008» (نيويورك: بنغوين برس، 2009). لتاريخ رائع ونقدي لمكافحة التمرد في كولومبيا، انظر فورست هيلتون «الخطة كولومبيا: مقياس النجاح». مجلة «براون للقضايا العالمية»، الجزء XVII عدد 1 (خريف/ شتاء 2010): 99115.

(5) من أجل مناقشة كلاسيكية للشذوذ انظر روبرت ميرتون، «البنية الاجتماعية والشذوذ»، المجلة الأمريكية الاجتماعية 3 عدد 5 (أكتوبر 1938): 672-682.

(6) جوزيــه هاريس، «الحرب والتاريخ الاجتماعي: بريطانيــا والجبهة الداخلية خلال الحرب العالمية الثانية» التاريخ الأوروبي المعاصر 1، عدد 1 (مارس 1992) 17-18:35.

(7) بالفعل هذا ما يصفه «زوار» غير محظوظين لدى طالبان مثل جيري فان دايك. حسب وصفه، تعطــي طالبان الانطباع بأن هجمات الدرون تعزز التضامن على الأرض، على الرغم من أنها تجهد شــبكات قيادة طالبان. جيري فان دايك، «سجين: أيامي كسجين لدى طالبان» (نيويورك: كتب تايمز 2010).

(8) سامرفيلد، «التأثيرات النفسية للصراع»، 159-173: 2.

(9) أفكر هنا بشــكل أكثر تحديدا بالإســلام الســياسي. انظر أوليفر روي، «فشــل الإسلام الســياسي» (كامبردج MA: نشر جامعة هارفارد 1994)، حيث يناقش العالم الفرنسي روي أن الإســلام الســياسي حين يصبح في الســلطة يقلل بالضرورة من تطرفه، لأنه لا توجــد طريقة «إســلامية» لإدارة اقتصاد حديث، أو دولة حديثة، لأن الإســلام ليس نظرية اجتماعية، بل هو نظرية أخلاقية.

(10) روبرت بانكر، «تغير تاريخي: الحرب على التنظيم الاجتماعي والســياسي»، باراميتيرز 27 (صيف 1997) 15-25.

(11) كما يحدث غالبا أثناء الاستعمار، حصلت مقاومة وتكيف خلاق من قبل الشعوب المســتعمرة. وكما وصف ثيدا بيردو ومايكل غرين في كتابهما الرائع «أمة التشيروكي ودرب الدموع»، اســتخدم التشــيروكي العملية «المتحــضرة» وحولوها لمصلحتهم الوطنية. تبنوا طرق الزراعة الحديثة ومعداتها، كما خلقوا كتابة وصحافة ودستورا ودولــة حديثة ذات ســيادة تشــيروكية. عملوا بالتجــارة بعيدة المــدى وتعاملوا بالاقتصاد النقدي، حتى أنهم اشــتروا العبيــد وامتلكوهم، وجلبوا أجراء من البيض لإدارة مزارعهــم. لكنهــم قاوموا محــاولات خصخصة أراضيهم، وتمســكوا بلغتهم وعاداتهــم، وبالتــالي هزموا الاحتلال من خــلال تحضرهم الجزئي. مــن المفيد أن الكيكيو في كينيا والتشــاكا في تنزانيا قاوموا الاســتعمار أيضا، وتكيفوا معه بطريقة مشابهة للتشيروكي. عن التشــيروكي انظر ثيدا بيردو ومايكل غرين، «أمة التشيروكي ودرب الدموع» (نيويورك: فايكنغ 2007).

(12) إرفينــغ غوفمان، «مناطق اللجوء: مقالات عن الوضــع الاجتماعي للمرضى العقليين والســجناء الآخرين» (نيويــورك: أنكور 1961). اقتبس من الجــنرال جورج كروك في كتاب جــون ناغل «دروس مكافحة التمــرد من ماليزيا وفيتنام: تعلم أكل الحســاء بالسكين» (شيكاغو: نشر جامعة شيكاغو، 2005).

(13) لو بدا هذا على أنه إيمان بالآخرة على الطريقة اليهودية - المســيحية فإنه يعود إلى التأثــير المهم للكنيســة المورمونية، وللغرابة، للشــيكرز Shakers من الزعماء المؤسســين لمذهب رقصة الشــبح، مثل نبــي بيوت Paiute فوفــوكا. انظر فرانك ماكان، «رقصة الشبح، الأمل الأخير لقبائل الغرب، إطلاق المأساة النهائية»، مونتانا: مجلة «التاريخ الغربي 16» عدد 1 (شــتاء 1966): 25-34. لمسح تاريخي للمراجع حول رقصة شبح لاكوتا انظر مايكل سيفرز، «تاريخ الحقل الدموي... الذي احتفظ بــسر الكلمة الأبدية: ركبــة مجروحة»، تاريخ جنوب داكوتــا 6، عدد 1 (1975): 33 - 54، ريموند ديمالي «رقصة شــبح لاكوتا: وصف تاريخي عرقي»، ذا باســيفيك هيستوريكال ريفيو 51، عدد 4 (نوفمبر 1982): 385-405.

(14) الكابتين إي دي ســوينتون، «الدفاع عن انجراف دافر» (واشــنطن دي سي: مؤسسة مشاة الولايات المتحدة، 1916) 9.

(15) سوينتون، «الدفاع عن انجراف دافر»، 36.

(16) هانز شــميدت، «البحَار المستقل: الجنرال سميدلي بتلر وتناقضات التاريخ العسكري الأمريكي» (ليكسنغتون: نشر جامعة كنتاكي، 1998).

(17) للمزيــد عن هــذا الموضوع انظر دونبار أورتز، «الحقوق الأصلية والاســتقلال الذاتي في نيكاراغــوا الثورية»، مشــهد أمريــكا اللاتينية 14، عدد 1 (شــتاء 1987) 43-66، وجين فريلاند «الثورة الوطنية والحقوق العرقية: هنود المســكيتو لســاحل نيكارغوا الأطلــسي»، ربعية العالم الثالث 11 عدد 4 (أكتوبر 1989): 166-190. مخترع شــهير لتكتيكات الحروب الصغيرة وعقيدتها هو الجنرال ميريت إدسون (USMC) الذي قاد حملة 1928 لتهدئة ريو كوكو في نيكارغوا، وكتب عنها بعد ذلك.

(18) في المثال الأخير انظر المقال الرائع لشين باور «فرق الموت الجديدة في العراق» الأمة، 22 يونيو 2009.

(19) قــوات البحريــة الأمريكية، «كتيب الحــروب الصغيرة» (واشــنطن دي سي: مكتب الطباعة الحكومية، 1940) 2.

(20) هذا من تقرير من قائد فرقة برادي يعود إلى أكتوبر 1919، اقتبســه هانز شــميدت في، «احتــلال الولايات المتحدة لهاييتــي 1915 - 1934» (نيو برونزويك، نشر جامعة روتجرز نيوجرسي 1995) 105.

(21) مثــل فــرق الخيالة، ركَزت القــوات البحرية على وحــدات متحركة صغيرة تبنت طرقــا محلية للانتقال – على أنهار ودروب جبلية أو طرقات برية. خفضت إعادة التموين، وعاشــت القــوات البحرية من نتاج الأرض – وهذا يعني من الســكان المحليين. بمناقشــة مكافحة القوات البحرية للعصيــان في هاييتي خلال الاحتلال الأمريــكي المتقطع الذي دام 14 عاما، يقــدم ليسر لانغلي هذا الوصف لتكتيكاته. «على قائدي القوات البحرية التكيف مع تكتيكات رجال العصابات. يمكن لدورية أن تســافر لمســافة 20 إلى 30 ميلا في اليوم، متحركين على نســق رجل واحد على طول دروب محاطة بنباتات كثيفة، متوقفين عادة للاستراحة في فترة ما بعد الظهر. بمــا أن البغــال المحمَلة تتحرك عادة أبطأ من الرجــال، خفض عدد الحيوانات إلى الحــد الأدنى اللازم لحمل الأغطية والطعــام والذخيرة... ضحى بكل شيء من أجل السرعة على الطرق، والحفاظ على الرجال في حالة اســتعداد للمعركة... وما لم يتم أخذه برا أحضر بواســطة الطائرات». ليستر لانغلي «حروب الموز: تدخل الولايات المتحدة في الكاريبي 1898-1934» (واشنطن: DE SR 2002) 207. كان هذا زمن ديبلوماســية السفن الحربية، ويشير الكتيب بصورة خاصة إلى الطبيعة الإمبريالية لمثل هذه التدخلات. «تنفذ الحروب الصغيرة عادة، كجزء من مسؤوليات الرئيس لحماية مصالح الأمريكيين وحياتهــم وممتلكاتهم في الخارج، وتتم بطرق مختلفة عــن الحروب الكبيرة. في الحــروب الصغيرة لم تتوقف الديبلوماســية عن العمل، ومارســت وزارة الخارجيــة تأثيرا مســتمرا ومتحكما على العمليات العســكرية. الدخول في الحروب الصغيرة كقاعدة هو عمل رســمي لرئيس السلطة التنفيذية، الذي يعطي شخصيا التعليمات من دون تدخل من الكونغرس».

(22) لويس غانيت، «في هاييتي»، الأمة، 28 سبتمبر 1927.

(23) شميدت، «البحّار المستقل»، 2.

(24) أرنستو دي غيفارا، «حرب العصابات» (لينكولن: كتب بيسون، 1998) 19.

(25) أرنستو دي غيفارا، «حرب العصابات»، 10.

(26) أرنستو دي غيفارا، «حرب العصابات»، 10-11.

(27) دانيلو فالاداريس، «عصابات الشباب - جيش احتياطي للجريمة المنظمة»، خدمة إنتر برس، 21 سبتمبر 2010.

(28) دينيس رودجرز، «العيش في ظل الموت: عصابات وعنف ونظام اجتماعي في مدن نيكاراغوا 1996-2002»، مجلة دراسات أمريكا اللاتينية 38، عدد 2 (2006): 267 - 292.

(29) هنا عينات عشوائية لقصص عن العنف في فترة ما بعد الحرب: «المسلحون يقتلون 14 لاعب كرة قدم»، الإندبيندنت (UK) 1 نوفمبر 2010؛ فالاداريس «عصابات الشباب»؛ نيك ميروف ووليام بوث، «العنف يرافق عصابات تهريب المخدرات المكسيكية مع انتقالها إلى الجنوب» واشنطن بوست، 27 يوليو 2010. وهنا مقالات أكاديمية تحلل الأزمة: سونجا وولف، «قمع الديموقراطية: حكم النخبة والقيود على المشاركة السياسية في سلفادور ما بعد الحرب»، مجلة دراسات أمريكا اللاتينية 41، عدد 3 (2009): 425-465، رودجرز، «العيش في ظل الموت».

(30) تيم روجرز، «دوامة العنف في أمريكا الوسطى»، مجلة Z، سبتمبر 2000.

(31) مارك باودين، سقوط بلاك هاوك: قصة الحرب الحديثة (بيركلي كاليفورنيا: أتلانتيك برس الشهرية، 1999).

(32) مايك ديفيس، «البنتاغون كرب بيوت عشوائية عالمي»، TomDispatch.com 19 أبريل 2004،

www.alternet.org/story/18457

(33) انظر في كتاب غريغ غراندين الرائع، «حلقة عمل: أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة وصعود الإمبريالية الجديدة» (نيويورك، ميتروبوليتان، 2005) 87 – 88.

(34) بيتر ماس، «تحويل العراق إلى السلفادور؟»، مجلة نيويورك تايمز، 1 مايو 2005.

الفصل الرابع

(1) حول أفريقيا تكتب الـ IPCC، «من المحتمل جدا أن يكون الاحترار خلال معظم القارة وفي الفصول جميعها أكبر من معدل الاحترار العالمي، بحيث تكون المناطق تحت المدارية الأجف أكثر احترارا من المناطق الاستوائية الأرطب. ومن المحتمل أن يتناقص الهطول السنوي في معظم أفريقيا على البحر الأبيض المتوسط وشمال الصحراء الكبرى، ويتزايد احتمال هذا التناقص مع الاقتراب من ساحل البحر. من المحتمل أن يتناقص الهطول في أفريقيا الجنوبية في معظم مناطق هطول الأمطار الشتوية والمناطق الهامشية الغربية. ومن المحتمل أن تكون هناك زيادة في متوسط الهطول السنوي في أفريقيا الشرقية. من غير الواضح كيف سيكون الهطول في منطقة الساحل، وشاطئ غينيا وجنوب الصحراء». سوزان سولومون وداهي كين ومارتن مانينغ واللجنة الدولية

للتغيرات المناخية IPCC مجموعة العمل الأولى، «تغير المناخ 2007: الأساس العلمي الفيزيائي: مساهمة مجموعة العمل الأولى إلى التقرير التقويمي الرابع للجنة الدولية للتغيرات المناخية» (كامبريدج: دار نشر جامعة كامبريدج، 2007) 850.

(2) موانغي نديرانغو، «الثلج المتلاشي على جبل كينيا» ديلي نيشن، (نيروبي) 17 ديسمبر 2009.

(3) م. بوكو وآخرون، «أفريقيا»، في «تغير المناخ 2007: تأثيرات وتكيف وتعرض. مساهمة مجموعة العمل 2 في التقرير التقويمي الرابع للـ IPCC»، تحرير أم. أل. باري وآخرين (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 2007) 440.

(4) جون فيدال، «تغير المناخ قائم. إنه حقيقة»، «الغارديان»، 3 سبتمبر 2009.

(5) تتألف قبيلة الكالينجين من الكيبسيغيس والناندي والتوغن والكايو والماراكويت والبوكوت (دعيت في الماضي سوك) والسابوت والتيريك. يعيش العديد من هذه القبائل في منطقة جبل الجون حيث تتقاطع الحدود الأوغندية الكينية. شكلت هذه القاعدة السياسية لدانيل آراب موا. بدأت هوية كالنجين السياسية بالتشكل في الأربعينيات بين قبائل مستقلة لكنها متشابهة في اللغة والثقافة. تترجم كالنجين تقريبا إلى «أخبرك»، ويبدو أنها نشأت بين أناس وظفوا للقتال مع البريطانيين في الحرب العالمية الثانية. خاطب هؤلاء الناس بعضهم بعضا بـ كالي (والتي تشير إلى شخص قتل عدوا له في معركة). أثنت الإذاعات اثناء الحرب عليهم بمناداتهم بالجمع كالينجوك. بعد الحرب تشكل ناديا كالينجينيا سياسيا في مدرسة أليانس العليا، وفي كلية ماكيريري. من البداية اتحد الكالينجيون لموازنة قوة الكيكيو، الذين فقدوا معظم أراضيهم للبريطانيين، ثم قادوا تمرد حركة الماو ماو، وسيطروا على الحياة الاقتصادية والسياسية بعد الاستقلال. بحلول العام 1948 كان هناك اتحاد كالنجين في إيلدورت، ومجلة شهرية دعيت كالينجين في الخمسينيات. انظر بنجامين كيبلورير، «ماراكويت كينيا» (نيروبي: ناشرو أفريقيا الشرقية التربويون 1982).

(6) «مناوشات حول غارات على قطيع في شمال كينيا تقتل 26 شخصا»، أسوشيتد برس ورلدستريم، 1 أغسطس 2008.

(7) بالنسبة إلى سكان هذه الثقافة وجغرافيتها انظر اليوت فراتكين، «الرعي في أفريقيا الشرقية في حالة تحول: حالات ماسي وبوران ورينديل»، مجلة دراسات أفريقية 44، عدد 3 (ديسمبر 2001): 1 - 25. يكتب فراتكين «يحتل الرعاة 70 في المائة من أراضي كينيا و50 في المائة من تنزانيا و40 في المائة من أوغندا جميعها. لكن عددهم قليل (أقل من 1.5 مليون من 30 مليون كيني و35 مليون تنزاني و23 مليون أوغندي) ويجدون أنفسهم مهمَشين اقتصاديا وضعفاء سياسيا في السياسة الداخلية التي تهيمن عليها المجتمعات الزراعية. تشمل مجموعات الرعاة في أفريقيا الشرقية الماسي التي تحتفظ بالقطيع (300 ألف في جنوب كينيا و150 ألفا في شمال تنزانيا) والسامبورو (75 ألفا) والتوركانا (200 ألف) والبوران والأورما (75 ألفا) والكاريموجونغ والدودث والتيسو والجي في أوغندا (مجموعهم 200 ألف). يحتل رعاة الجمال المناطق الأجف في شمال شرق كينيا وجنوب إثيوبيا والصومال، ويشملون الغابرا الذين يتكلمون الآسيوية - الأفريقية (25 ألفا) والريندل (25 ألفا) والرعاة الصوماليين (نحو 1 مليون من سكان الصومال الـ 6.5 مليون). إضافة إلى ذلك تربي عدة مجموعات زراعية في أفريقيا الشرقية قطعانا كبيرة من الماشية بمن فيهم المتكلمون بالكالينجينية (ناندي،

كيبســيغي، بوكوت) في غــرب كينيا، والمتكلمــين بالبانتو با انكــولي في غرب أوغندا والتوتسي في رواندا وبوروندي» (3-4).

(8) فرانكلين، «الرعي في أفريقيا الشرقية»، 8.

(9) إلينور بيرك وســايمون براون ونيكولاس كريستيدس، «نمذجة التطور الحديث للجفاف العالمــي والتنبؤات للقــرن الحادي والعشرين بنموذج مركــز هايدلي للمناخ»، مجلة الهايدروميتيورولوجي 7، عدد 5 (أكتوبر 2006): 1113 – 1125.

(10) ديفيــد كيمينــي، «الحياة على حافة التغير المناخي: مصيبة الرعاة في شــمال كينيا»، كريستيان ايد، 13 نوفمبر 2006، ص 2.

(11) موانيــكي واهومي، «من أجل الزراعة يجــب تخصيص ميزانية أكبر»، الأمة، 12 يونيو 2008. انظــر أيضا مقدمة فيكتور أورينيدي وأنتــوني نيونغ وماريو هيريرو، «تكيف حيــاة الرعي مع الجفاف وتدخلات المؤسســات في كينيــا»، في «مكافحة تغير المناخ: التضامن البشري في عالم مقسم» (ورقة طارئة، مكتب تقرير التنمية البشرية، برنامج الأمم المتحدة للتنمية، 2007 / 2008).

(12) USAID FEWS NET، تقديــر تأثــيرات مخاطر الطقس في أفريقيا، ديســمبر، 13-20، 2007.

(13) جيفــري غيتلــمان، «موجات من الــصراع تحيط بجزيرة صغــيرة في شرق أفريقيا»، نيويورك تايمز، 17 أغسطس 2009.

(14) بارنباس بيل وكينيدي ماســيبو، «ارتفاع قتلى اللصوص إلى 74 الآن»، الأمة، (كينيا) 5 أغســطس 2008؛ «ستنزع كينيا السلاح بالقوة من رعاة وادي ريفت»، وصلة الأخبار العالمية، 3 أغســطس 2008؛ «قتل 11 شــخصا أثناء مطاردة المغيرين»، الأمة، (كينيا) 20 أغسطس 2008؛ بيتر نيغيتش «موت 10 رعاة في غارة بالقنابل»، الأمة، (كينيا) 22 أغسطس 2008؛ «المغيرون السودانيون يقتلون 8 أشخاص في شمال غرب كينيا» (نص من تقرير من محطة تلفاز KTN الكينية الخاصة في 30 أغسطس)، تقارير الـ BBC الدولية 30 أغسطس 2008؛ بيتر نيغيتش وأوليفر ميثينجي، «قتل جنديين احتياطيين في غارة»، الأمة، (كينيا) 2 سبتمبر 2008؛ بيتر نيغيتش، «قتل اثنين أثناء سرقة مغيرين لقطيع»، الأمة، (كينيا) 4 سبتمبر 2008.

(15) كلــير ماكيفــوي ورايان موري، «قياس الخوف وانعــدام الأمن: نظرة على العنف المســلح شرق خط الاســتواء وتوركانا في الشــمال»، مختصرات نشرة السودان 14 (يوليو 2008): 10:14.

الفصل الخامس

(1) موهيندي وآخرون، «أطلس الهطول في كينيا» (نيروبي: مركز مراقبة الجفاف، 2001)، 5.

(2) حيــث تتصادم الرياح التجاريــة ويرتفع الهواء نجد منطقة من الهدوء الغريب تعرف للبحارة بالمنطقة الراكدة.

(3) موهينــدي وآخــرون، «أطلس الهطول في كينيــا»، 7؛ جون أوليفر، «موســوعة المناخ العالمي» (نيويورك: سبرينغر) ص 430.

(4) تذكر الأساسيات: مع دوران الأرض المائلة على محورها حول الشمس خلال العام، تركز الشمس بقوة أكبر على أحد نصفي الكرة الأرضية ثم على الآخر. وأثناء هذه العملية تنتقل ببطء شمالا وجنوبا عبر خط الاستواء. خلال الصيف يميل نصف الكرة الشمالي نحو الشمس، وبذا ينسحب نطاق التقارب بين المدارين شمالا نحو مدار الجدي. مع تغير الفصل يتلقى نصف الكرة الجنوبي كمية أكبر من أشعة الشمس، ويسحب نطاق التقارب بين المدارين جنوبا عبر خط الاستواء نحو مدار السرطان.

(5) حـول أفريقيـا تكتب الـ IPCC: «من المحتمل جدا أن يكـون الاحترار خلال معظم القـارة وفي الفصـول جميعها أكبر من معدل الاحترار العالمـي، بحيث تكون المناطق تحـت المدارية الأجف أكثر احترارا من المناطق الاسـتوائية الأرطـب. ومن المحتمل أن يتناقص الهطول السـنوي في معظم أفريقيا على البحر الأبيض المتوسـط وشـمال الصحـراء الكبرى، ويتزايـد احتمال هذا التناقص مع الاقتراب من سـاحل البحر. من المحتمـل أن يتناقـص الهطول في أفريقيا الجنوبية في معظـم مناطق هطول الأمطار الشـتوية والمناطق الهامشية الغربية. ومن المحتمل أن تكون هناك زيادة في متوسط الهطول السنوي في أفريقيا الشرقية. من غير الواضح كيف سيكون الهطول في منطقة السـاحل، وشـاطئ غينيا وجنوب الصحراء». سوزان سـولومون وداهي كين ومارتن مانينـغ واللجنـة الدولية للتغيرات المناخيـة IPCC مجموعة العمـل الأولى، «تغير المناخ 2007: الأسـاس العلمي الفيزيائي: مساهمة مجموعة العمل الأولى إلى التقرير التقويمـي الرابـع للهيئة ما بين الحكومـات حول تغير المنـاخ» (كامبريدج: دار نشر جامعة كامبريدج، 2007) 850.

(6) كاثرين هورالد، «كينيا: 10 ملايين تحت خطر المجاعة بعد فشـل الحصاد»، أسوشيتد برس، 9 يناير 2009.

(7) «أمطار عنيفة ستؤثر على مئات الآلاف من الناس»، IRIN، 14 نوفمبر 2008.

(8) الفقرة السـابقة مؤسسـة على كتاب جيمس هانسـن «عواصف أحفادي: الحقيقة حول كارثة تغير المناخ القادمة، وفرصتنا الأخيرة لإنقاذ البشرية» (نيويورك: دار نشر بلومباري 2009)؛ بيـل ماكيبين، «الأرض: صنـع حياة على كوكب جديد قـاس». (نيويورك: هنري هولت وشركاؤه 2010)؛ تيم فلانيري، «صانعو الطقس: كيف يغير الإنسـان المناخ، وماذا يعنـي ذلك بالنسـبة إلى الحياة على الأرض» (نيويـورك هاربر: هاربـر كولينز 2006)؛ إليزابيث كولبرت، «ملاحظات حقلية من كارثة: الإنسان والطبيعة وتغير المناخ» (نيويورك: بلومزباري برس 2006)؛ أيوجين ليندن، «رياح التغيير: المناخ والطقس وتحطيم الحضارة» (نيويورك: سايمون وشوستر 2006)؛ آل غور، «حقيقة غير مريحة» (نيويورك: كتي روديل 2006)؛ جـورج مونبيوت، «الحرارة: كيف نوقف احتراق الكوكب» (نيويورك: دوبل داي 2006)؛ تغير المناخ 2007: «مجموعة العمل 1: أسـس العلم الفيزيائي: دوافع تغير المناخ الطبيعية والبشرية». التقرير التقويمي الرابع للـ IPCC:

www.ipcc.ch/publications_and_data/ar4/wg1/en/spmsspm-human-and.html

من أجل أحدث تركيز لـ CO_2 انظر:

www.esrl.noaa.gov/gmd/ccgg/trends

(9) «نحـو هـدف إحداث اسـتقرار في تغـير المناخ»، فصـل 13 في مراجعة سـترن حول اقتصاديات تغير المناخ (خزانة حكومة بريطانيا، 2006).

(10) كليف هاميلتون وتشـارلس سـتيوارت أسـتاذ الأخلاقيات العامة، مركز الفلسفة التطبيقية والأخلاق العامة في الجامعة الوطنية الأسـترالية، «هل أصبح من المتأخر جدا منع تغير مناخ كارثي؟» (محاضرة لاجتماع الجمعية الملكية للفنون، سـيدني، أسـتراليا 21 أكتوبر 2009) 11. متوافر عـلى www.clivehamilton.net.au (تم الاطلاع عليه في 19 يناير 2011).

(11) كيفن أندرسـون وآخرون، «من أهداف بعيدة المدى إلى أساليب إصدار تراكمية: إعادة صياغة سياسـة المناخ البريطانية»، سياسـة الطاقـة 36، عدد 10 (2008): 3714 - 3722.

(12) حول تفاصيل عن هذا النشاط، انظر الموقع org.350. يمكن العثور على ورقة حسن عند هانسـن وآخرين، «الهـدف هو تركيز CO2 في الجـو: إلى أين يجب أن تهدف البشرية؟»، مكتبة جامعة كورنل، 15 أكتوبر 2008

www.aerxiv.org/abs/0804.1126

(13) مـن أجل مراجعة المراجع وأسـاليبها في البحث انظر نيلز بيتر غليدتش، «الصراع المسـلح والبيئـة: نقد المراجع»، مجلة بحوث السـلام 35، عـدد 3 (مايو 1998): 381-400.

(14) «الآلاف يهربون وسـط مخـاوف من القتال على طول الحـدود»، IRIN، 29 نوفمبر، 2008.

(15) هـذا النقاش مغطى جيدا في أدانو وأريو روبا وكارين ويتسـنبرغ، «التغلب على انحـدار الرعي: توطـين الرعاة وإدارة الموارد الطبيعيـة وتنويع مصادر العيش في مقاطعة مارزابيت في شمال كينيا» (لامبيتر: أدوين ميللر برس 2008) 735.

(16) فال بيرسـيفال وثوماس هومر - ديكسون، «الندرة البيئية والصراع العنيف: حالة جنوب أفريقيا»، مجلة بحوث السلام 35، عدد 3 (مايو 1998): 279-298: 281.

(17) كينيـدي أغادي مكوتو، «بنادق وحكم في الوادي المتصدع: صراع رعاة وأسـلحة صغيرة» (بلومينغتون: نشر جامعة إنديانا، 2008) 7.

(18) ديفيد أندرسون «سرقة القطيع والاقتصاد الأخلاقي في كينيا الاستعمارية»، أفريقيا: مجلة المعهد الدولي الأفريقي 56، عدد 4 (1986): 399-416: 406.

(19) أندرسـون، «سرقة القطيع» 408، لمناقشـة عملية مشـابهة في تنزانيـا انظر مايكل فلايـشر، «إغارة على قطيع: تحول رأسـمالي ومادي وتشـكل الجريمة بـين الرعاة - المزارعين في شرق أفريقيا، «دراسات مقارنة في التاريخ والمجتمع» 42، عدد 4 (أكتوبر 2000): 745-769.

الفصل السادس

(1) فوربس مونرو، «شـحن المسـاعدات وضمانات السكك الحديدية: وليام ماكينون، أفريقيا الشرقية والمحيط الهنـدي، 1860-93»، مجلة التاريخ الأفريقي 28، عدد 2 (1987): 209-230: 210. يناقـش مونـرو بقـوة ضد الاعتـذارات النموذجية العرجـاء التي فسر بها ماكينين الذهاب إلى أفريقيا من مصالح اقتصادية جديدة. في الحقيقة أديرت الشركة من قبل مالكي سفن وتجار استفادوا من توسيع التجارة بسبب فتح أفريقيا الشرقية، حتى لو أن الشركة نفسها أفلست.

(2) مقتبس من مونغيم، «رد فعل قبائل ماسي وكيكويو على تأسيس الإدارة البريطانية في محميــة أفريقيــا الشرقية»، مجلــة «التاريخ الأفريقي» 11، عــدد 1 (1970): 127-143: 136.

(3) باكلي، «استيطان محمية أفريقيا الشرقية وريها». المجلة الجغرافية 21، عدد 4 (أبريل 1903): 349-371: 350، 355-356.

(4) جون لونســديل وبروس بيرمان، «التعامل مع المتناقضات: تطور الدولة المستعمرة في كينيا 1895-1914»، مجلة التاريخ الأفريقي 20 عدد 4 (1979): 487-505.

(5) لونســديل، «سياســة الاحتلال: البريطانيــون في غرب كينيــا، 1894 - 1908»، المجلة التاريخية 20، عدد 4 (ديسمبر 1977): 841 - 870: 851.

(6) كــما عبر لونســديل وبيرمان عنهــا في «التعامل مع المتناقضات»، «كان اســتعمار أواخر القرن التاســع عشر لأفريقيا آخر حملة التقط بواســطتها النظام الرأسمالي العالمــي آخر قارة بقيــت جزئيا خارج قبضته. كان النظــام مؤلفا في ذلك الوقت كــما هو الآن من ترتيب هرمي لنماذج عديــدة مختلفة من الإنتاج مرتبطة عند مســتوى التبادل وتخضع كلها لسيطرة أكثر أشــكال الرأسمالية تقدما، سواء كان ذلك مؤسســا في سلطة اســتعمارية مسؤولة رســميا، أو في إحدى منافساتها من الدول الصناعية» (486).

(7) لونسديل، «سياسة الاحتلال».

(8) جون لونسديل وبروس بيرمان، «التعامل مع المتناقضات».

(9) كولــن ليز، «التخلف في كينيا: الاقتصاد الســياسي للاســتعمار الجديــد» (بيركلي: نشر جامعة كاليفورنيا 1975).

(10) فرانــك كورفيلــد، «أصول حركة الماو ماو ونموها: مســح تاريخي» (نيروبي: الحكومة الكينية 1960).

(11) كارولين الكينز، «فاتورة حســاب الاســتعمار: القصة غير المحكيــة للحصار في كينيا» (نيويورك: كتب أولز 2005).

(12) ديفيد أندرســون، «سرقة القطيع والاقتصاد الأخلاقي في كينيا المســتعمرة»، أفريقيا: مجلة المعهد الدولي الأفريقي 56، عدد 4 (1986) 399-416: 405.

(13) حول الجهود في الفترة الاستعمارية وبعد الاستقلال لخلق القانون والنظام في التنمية بــين الرعاة انظر فراتكين، «الرعي في أفريقيا الشرقية»، لإثبات أن الغارات زادت منذ العام 1980 انظر الدكتور باول غولدســميث، «تصور كلفة صراعات الرعاة في شــمال كينيا» (سيميريد، كينيا: مركز تنمية حقوق الأقليات مارس 2005). محاولات لتحويل الرعــاة الرحل إلى مزارعين ومربي أبقار أكثر اســتقرارا مرتبطة لســوء الحظ بتدهور سريع للتربة.

(14) «الإطاحــة بأوبوتي في انقلاب عســكري للجيش الأوغنــدي»، نيويورك تايمز، 26 يناير 1971.

(15) «حاكم أوغندا العسكري الجديد»، نيويورك تايمز 28 يناير 1971.

(16) «أمــين، زعيم أوغندا الجديد يتهم تنزانيا بأنهــا تخطط للهجوم»، نيويورك تايمز، 28 يناير 1971.

(17) باتريك تشابال وجين باسكال دالوز، «أعمال أفريقيا: الفوضى كأداة سياسية» (أكسفورد: نشر جامعة إنديانا/ معهد أفريقيا الدولي 1999) 15.

(18) «سقوط عيدي أمين»، الأسبوعية السياسية والاقتصادية، 14، عدد 21 (26 مايو 1979) 907-910: 907.

(19) «تصويت مجلس الشيوخ على رفع العقوبات الاقتصادية التي طبقت على أوغندا خلال فترة حكم الرئيس السابق عيدي أمين»، نيويورك تايمز، 8 مايو 1979؛ «نزاع بين رئيس أوغندا عيدي أمين والولايات المتحدة بشأن منع الأمريكيين من المغادرة»، نيويورك تايمز، 6 مارس 1977.

(20) «عندما تفقد دولة عقلها»، نيويورك تايمز 2 مايو 1979، «سقوط عيدي أمين»، جون دارتون، «الغزاة في أوغندا يطبقون على العاصمة»، نيويورك تايمز، 5 أغسطس 1979.

(21) غريغوري جين «النبوءة الأفريقية»، نيويورك تايمز، 16 نوفمبر 1980.

(22) مصطفى ميرزيلر وكروفورد يونغ، «سياسة الرعي في منطقة الحدود الشمالية الشرقية من أوغندا: AK-47 كوسيط للتغيير»، مجلة الدراسات الأفريقية الحديثة 38، عدد 3 (سبتمبر 2000): 407-429: 416.

(23) باري شيلاختار، «محاربون أوغنديون يصبحون مزارعي أوساخ في مخطط للتوطين»، أسوشيتد برس، 4 أغسطس 1985.

(24) جين، «النبوءة الأفريقية».

(25) ديفيد كاري، «مغيرو قطيع مسلحون جيدا يرهبون قرى أفريقيا الشرقية»، AP online ، 17 نوفمبر 1986.

(26) كونان بوسينغ، «400 ألف بندقية غير شرعية في التداول»، رؤى جديدة (أوغندا) 19 ديسمبر 2008.

(27) «حيث تمضي الكارثة الطبيعية والمدفوعة بشريا بعضها مع بعض»، الإيكونوميست، 14 يونيو 1980.

(28) بالنسبة إلى البنادق، انظر ميزيلر ويونغ، «سياسة الرعي في منطقة الحدود الشمالية الشرقية»، بالنسبة إلى الجفاف انظر اليوت فراتكين، «الرعي في أفريقيا الشرقية في تحول: حالات ماسي، بوران ورينديل»، مجلة الدراسات الأفريقية 44، عدد 3 (ديسمبر 2001): 1-25: 8.

(29) جين، «النبوءة الأفريقية».

(30) جين، «النبوءة الأفريقية» 417.

(31) الإيكونوميست، «حيث تمضي الكارثة الطبيعية والمدفوعة بشريا بعضها مع بعض».

الفصل السابع

(1) آي. أم. لويس، «دم وعظام: دعوة القرابة في المجتمع الصومالي» (ترينتون نيو جرسي: نشر البحر الأحمر 1994) 150؛ لويس، «القومية الصومالية تحولت من الداخل للخارج»، تقارير MERIP عدد 106 (يونيو 1982)؛ لويس، «ديموقراطية رعوية: دراسة الرعي والسياسة بين الصوماليين الشماليين في القرن الأفريقي» (لندن: نشر

جامعة أكسفورد 1962)؛ لويس، «التاريخ الحديث لبلاد الصومال: من أمة إلى دولة». (نيويورك: بريغر 1965)، ديفيد ليتين وسيد ساماتار، «الصومال: أمة تبحث عن دولة». (بولدر كولومبيا: فيستفيو برس 1987)؛ أبدي إسماعيل ساماتار، «تدمير الدولة والمجتمع في الصومال: ما بعد المؤتمر القبلي»، مجلة الدراسات الأفريقية الحديثة 30، عدد 4 (ديسمبر 1992) 625-641.

(2) جون ماركاكيس، «الاشتراكية العسكرية: حالة إثيوبيا»، تقرير MERIP عدد 79 (يونيو 1979):5.

(3) روبرت باتمان، «الاتحاد السوفييتي في القرن الأفريقي: ديبلوماسية التدخل والانعزال» (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 1990) 49.

(4) جيان كارلو باجيتا، «مقابلة حول إثيوبيا والصومال»، مجلة اليسار الجديد 1، عدد 107 (يناير - فبراير 1978):43-45؛ إيميليو سارزي أمادي، «درب إثيوبيا المتعب»، مجلة اليسار الجديد 1، عدد 107 (يناير - فبراير 1978):40-43.

(5) «الخروج السوفييتي من مصر»، التايم، 31 يوليو 1972.

(6) «الدولة الاشتراكية النموذجية التي تصلي خمس مرات في اليوم»، الإيكونوميست، 14 مايو 1977.

(7) بيرو غلايجيسيس، «مهمات متعارضة: هافانا وواشنطن وأفريقيا 1959-1976» (تشابل هيل: نشر جامعة نورث كارولينا 2002)، هذا الكتاب إنجاز مهم مبني على عشر سنوات من البحث باستخدام معلومات أمريكية سرية ومقابلات مع لاعبين رئيسين، والأكثر أهمية وثائق كوبية لم تعلن قبلا من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والقوات المسلحة ووزارة الخارجية.

(8) «الكوبيون في أفريقيا»، نيوزويك، 13 مارس 1978.

(9) ديفيد أوتواي، «يقال إن السوفييت يضغطون على الصومال لوقف إطلاق النار في إثيوبيا»، واشنطن بوست، 4 أغسطس 1977؛ غبرو تاريقي، «إعادة زيارة الحرب بين إثيوبيا والصومال لعام 1977»، المجلة الدولية للدراسات الأفريقية التاريخية 33، عدد 3 (2000) 635-642:667.

(10) باميلا فولك، «كوبا في أفريقيا»، شؤون خارجية 65، عدد 5 (صيف 1987) 1077-1096.

(11) ديفيد أوتوواي، «تأييد السوفييت لإثيوبيا قد يدفع الصومال باتجاه الولايات المتحدة»، واشنطن بوست، 28 فبراير 1977؛ موراي ماردر، «السوفييت: كارتر شوه الدور في الصومال»، واشنطن بوست 14 يناير 1978؛ «كوبا والصومال تعيدان العلاقات الديبلوماسية»، خدمة الأخبار العامة، وكالة أنباء شينخوا، 1 أغسطس 1989.

(12) هاري أوبودا، «سياسات الصومال المحلية وعلاقاتها الخارجية منذ حرب أوغادين 1977-1978»، دراسات شرق أوسطية 21، عدد 3 (يوليو 1985): 285-297: 285.

(13) لتفاصيل عن الحرب انظر إلى تاريقي «مراجعة الحرب بين إثيوبيا والصومال للعام 1977»، وديفيد ليتين «الحرب في أوغادين: التأثيرات على دور سياد بري في التاريخ الصومالي»، مجلة الدراسات الأفريقية الحديثة 17، عدد 1 (مارس 1979): 95-115؛

محمد خليف، «سياسة المجاعة في أوغادين»، مجلة الاقتصاد السياسي الأفريقي 27، عدد 84 (يونيو 2000): 333-337؛ لويس، «أوغادين وهشاشة الوطنية الصومالية المجزأة»، شؤون أفريقية 88، عدد 353 (أكتوبر 1989): 573-579؛ جيفري كلارك، «تعرقل في الصومال»، شؤون خارجية 72، عدد 1 (1992-1993): 109-123؛ أوبودا، «سياسات الصومال المحلية وعلاقاتها الخارجية».

(14) «الصومال تقول إن بلدتين قصفتا بالطائرات الإثيوبية»، واشنطن بوست، 29 ديسمبر 1977.

(15) ديفيد أوتاواي، «ينظر إلى كاسترو كوسيط في المحادثات الأفريقية»، واشنطن بوست، 18 مارس 1977، «أياد حمراء مقابل البحر الأحمر»، الإيكونوميست، 26 مارس 1977؛ أرنود دي بورشغريف، «مشاكل في القرن الأفريقي»، نيوزويك 27 يونيو 1977.

(16) كلارك «تعرقل في الصومال».

(17) أبدي إسماعيل ساماتار، «التعديل البنيوي كإستراتيجية تنموية - الموز والازدهار والفقر في الصومال»، الجغرافيا الاقتصادية 69، عدد 1 (يناير 1993) 25-27:43.

(18) تشارلز ميتشيل، «إثيوبيا تقصف البلدات الصومالية»، يونايتد برس إنترناشونال، 25 مايو 1984.

(19) كلارك، «تعرقل في الصومال»، 111.

(20) أرقام البنك الدولي مقتبسة في ساماتار، «تعديل بنيوي كإستراتيجية تنموية».

(21) إسماعيل أحمد وريغينالد غرين، «أثر الحرب وانهيار الدولة في الصومال وأراضي الصومال: تأثيرات على المستوى المحلي وتدخلات خارجية وإعادة بناء»، ربعية العالم الثالث 20، عدد 1 (فبراير 1999): 113-127:115-116.

(22) تيرانس ليونز وأحمد إسماعيل ساماتار، «انهيار الدولة وتدخلات متعددة الأطراف وإستراتيجيات لإعادة البناء السياسي» (واشنطن: معهد بروكينغز 1995)، 1. من أجل مناقشة الدولة وموظفي الدولة وسياسة الحوار، انظر ستيفان هارني «عمل الدولة: الإدارة العامة والوعي الجماهيري» (درهام: نشر جامعة ديوك 2002).

الفصل الثامن

(1) مارتين دوغارد، «إلى أفريقيا: المغامرة الأسطورية لستانلي وليفنغستون» (نيويورك: برودواي 2004).

(2) دول فاشلة: تبدو هذه العبارة كأنها ملك مثقفين مؤيدي الحرب والأمن القومي ومخططي البنتاغون الذين يرون مستقبلا لعمليات مكافحة تمرد مفتوحة. بما أنها يمكن أن تحمل مسحة عنصرية وإشارة للوم الضحية، ويعارض البعض من اليسار الفكرة. انظر نعوم تشومسكي، «دول فاشلة: إساءة استخدام القوة والهجوم على الديموقراطية» (نيويورك: كتب متروبوليتان 2006).

(3) ماكس فيبر، «نظرية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي» (نيويورك: فري برس 1964) 154.

(4) ستيفان هارني، «عمل الدولة: الإدارة العامة والوعي الجماهيري» (نيويورك: مراجعة شهرية 2002). يبين هارني أن الدولة فكرة تنتج على شكل مؤسسة كنتيجة فقط لعمل موظفيها.

(5) ماكس فيبر، «السياسة كمهنة» في «من ماكس فيبر: مقالات في علم الاجتماع»، حرر من قبل غيرث ورايت ميلز (نيويورك: نشر جامعة أكسفورد 1959) 77 - 128.

(6) نورمـان كانتور، «عـلى أثر الوباء» (نيويورك: هاربر بيرينيـال 2002)؛ باربارا توكمان، «مـرآة بعيدة: القرن الرابع عشر الكارثي» (نيويـورك: كتب بالانتاين 1987). الجدير بالذكر أن روما سقطت ببطء، حيث أضعفت بالفساد والهرمية والتفاعل الإمبراطوري القوي وتوسعت كثيرا قبل نهبها. عبر القوط الغربيون الدانوب لأول مرة ليس كجيش غاز لكن كلاجئين مسلحين هاربين من الهون الذين كانوا يضغطون عليهم من الشرق. دخلوا إلى روما وخرقوا شروط الأمان واحتفظوا بأسلحتهم ثم بدأوا بشن الحرب مرة أخرى. انظر على سـبيل المثال الفصل 2 من فريدريك أوسـتن، «أوغ. كتاب مرجعي حـول تاريخ العصور الوسـطى: توضيحات موثقة عن الحياة الأوروبية ومؤسسـاتها من الاجتياح الجرماني حتى عصر النهضة» (نيويورك: شركة الكتاب الأمريكي 1908).

(7) والت روسـتو، «مراحـل النمو الاقتصادي: بيان غير شـيوعي» (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 1990).

(8) تشـارلز تيلـلي، «صنع الحرب وصنع الدولة على شـكل جريمة منظمـة»، في «إرجاع الدولة» من تحرير بيتر إيفانز وديتريش روشـيماير وثيدا سـكوكبول (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 1985) 169-191.

(9) تيللي، «صنع الحرب وصنع الدولة على شكل جريمة منظمة»، 170.

(10) تيللي، «صنع الحرب وصنع الدولة على شكل جريمة منظمة»، 183.

(11) أنتـوني غيدين، «دولة الأمة والعنف»، جزء 2 مـن «نقد معاصر للمادية التاريخية» (بيركلي: دار نشر جامعة كاليفورنيا 1987).

الفصل التاسع

(1) كنـا في قريـة توتو الصغيرة في مقاطعة شـيرزاد. شـكلت خوغياني مـن تجمع أحياء: بيهسـد، خوغياني، شيرزاد، باتي كوت، بشير وأغام، وفقا لمن يشرح المنطقة، أجزاء من تشاباربار وسورخ رد.

(2) ماثيو سافاج وآخرون، «التأثيرات الاقتصادية - الاجتماعية لتغير المناخ في أفغانستان»، قسـم التنمية الدولية ومعهد البيئة في أستوكهولم DFID CNTR 08 8507، ملخص تنفيذي 2.

(3) «فيضانات في باكسـتـان» (طباعـة مجموعة الاتصالات الإنسـانية، الأمم المتحدة، 4 أكتوبر 2010).

(4) تاغـي سـيفال، «دراسـة مناخية إجماليـة للأمطار الموسـمية الصيفية الآسـيوية في أفغانسـتان»، الحوليـات الجغرافية: سلسـلة A، الجغرافيا الفيزيائيـة 59، عدد ½ (1977) 67-87؛ الخريطة على الصفحة 76.

(5) سافاج وآخرون، «التأثيرات الاقتصادية - الاجتماعية لتغير المناخ في أفغانستان»، 5.

(6) راجا أنور، «مأساة أفغانستان» (لندن: فيرسو 1988)، 69.

(7) لويس دوبري، «أفغانستان» (نيويورك: نشر جامعة أكسفورد، 2002).

(8) جيمس ستيربا، «الأطفال الجوعى الأفغان ينتظرون الموت على قارعة الطريق»، نيويورك تايمز، 16 يونيو 1972، 1. بريد من ستيربا للمؤلف في 9 أبريل 2009.

(9) هنري كام، «الأفغان يحاولون مساعدة مناطق المجاعة»، نيويورك تايمز 19 نوفمبر 1972، 28.

(10) «ثورة في كابول»، نيويورك تايمز، 20 يوليو 1973، 30.

(11) «البرلمان الأفغاني في حالة انعقاد لمدة عام ولم يصوت على أي تشريع»، نيويورك تايمز، 22 نوفمبر 1970.

(12) جيمس ستيربا، «الأفغان يبدأون التحقيق في توزيع الأغذية للتخفيف من المجاعة»، نيويورك تايمز 11 يوليو 1972، 6.

(13) «احتجاج يساري يؤثر في وصول أغذية إلى كابول: الطلاب في العاصمة الأفغانية يفشلون في إيقاف موكب الترحيب بالضيف الزائر»، نيويورك تايمز 7 يناير 1970.

(14) «قرية أفغانية» أنتج من قبل نورمان ميللر بالمشاركة مع أفلام توريالي شفق أفغان وحكومة أفغانستان، 1974.

(15) «الإطاحة بملك أفغانستان: إعلان جمهورية»، نيويورك تايمز 18 يوليو 1973.

(16) كام، «الأفغان يحاولون مساعدة مناطق المجاعة».

(17) «انقلاب في أفغانستان يطيح بالملكية»، تقارير MERIP عدد 19 (أغسطس 1973): 18.

(18) «الأفغان يبدون سعداء بذهاب الملك»، نيويورك تايمز 24 يوليو 1973.

(19) أموري دي راينكورت، «الهند وباكستان في ظل أفغانستان»، شؤون خارجية 61، عدد 2 (شتاء 1982): 416-437.

(20) أنور، «مأساة أفغانستان»، 78-81.

(21) قصة مرتضى بوتو مشروحة بتفصيل تاريخي وشخصي في كتاب راجا أنور، «الأمير الإرهابي: حياة مرتضى بوتو وموته» (لندن: فيرسو 1997)، وأيضا في كتاب فاطمة بوتو «أغاني الدم والسيف» (نيويورك: كتب نيشن 2010).

(22) سونيل، «أنفر باشا وحركة باسماجي في آسيا الوسطى»، دراسات شرق أوسطية 26، عدد 1 (يناير 1990): 52-64؛ مارثا أولكوت، «الباسماجي أو ثورة الأحرار في تركمانستان 1918-1924»، دراسات سوفييتية 33، عدد 3 (يوليو 1981) 352-369؛ وليام ريتير، «المرحلة الأخيرة في القضاء على المقاومة ضد السوفييت في طاجيكستان: - إبراهيم بيك والباسماجي 1924-1931»، دراسات سوفييتية 37، عدد 4 (أكتوبر 1985) 484-493.

(23) للمزيد حول هذا التاريخ انظر ستيف كول، «حروب شبحية: التاريخ السري للـ CIA في أفغانستان وبن لادن من الغزو السوفييتي حتى 10 سبتمبر 2001» (نيويورك: بنغوين 2004).

(24) سافاج وآخرون، «التأثيرات الاجتماعية - الاقتصادية لتغير المناخ في أفغانستان»، 5.

(25) ماثيو كنغ وبنجامين شتيرتفاغين، «الاستخدام الأمثل لأحواض الأنهار في أفغانستان: فرص لتعاون على مستوى المنطقة» (نيويورك: معهد الغرب والشرق 2010) 17.

(26) سافاج وآخرون «التأثيرات الاجتماعية - الاقتصادية لتغير المناخ في أفغانستان» 21.

(27) إيما غراهام هاريســون وســو بليمينغ «مشــهد الجفاف الأفغاني يجلب مخاوف من المجاعة وزراعة المخدرات»، رويترز، 14 يناير 2010.

(28) «الفيضانــات تدمــر 3 آلاف بيت في تاخــار عبد الماطن ســارفاراز»، أخبار باجهاوك الأفغانية، 9 مايو 2010.

(29) ستيف غولتار، «فيضان البؤس: علاقة باكستان الصعبة»، شبكة الجزيرة 9 أغسطس 2010.

(30) غراهــام هاريســون وبليمينغ، «مشــهد الجفــاف الأفغاني»؛ صديــق الله بدر، «الجفاف في أفغانســتــان أربــاح الخشخــاش تسبب نقصا في القمح»، خدمة إنتر برس، 7 أغسطس 2006.

(31) غراهام هاريسون وبليمينغ، «مشهد الجفاف الأفغاني».

(32) مقتبس في يوهان هاري، «شرعها: لماذا تحطم الخشــخاش والمزارعين الأفغان إذا كان العالم في حاجة إلى مخدرات قانونية؟»، لوس أنجلوس تايمز، 6 نوفمبر 2006.

(33) أحمد رشــيد، «انحدار نحو الفوضى: الولايات المتحدة وفشل بناء الدولة في باكستان وأفغانستان وآسيا الوسطى» (نيويورك: فايكنغ 2008) 401.

(34) مايك رينير، «تحديات المياه في جنوب وســط آسيا»، مختصر سياسة نوريف، عدد 4 (أوسلو: مركز بناء السلام النرويجي، ديسمبر 2009).

الفصل العاشر

(1) مقتبــس في تيمور توكتوناليف وعظم الدين أحمديانوف، «لماذا هاج الغضب أخيرا في قرغيزستان»، برادينتون هيرالد (فلوريدا)، 20 أبريل 2010.

(2) لــوك هاردينــغ، «المعارضــة القرغيزســتانية تســتولي عــلى الســلطة بعــد يوم من الاحتجاجــات»، الغارديان، 9 أبريل 2010، لاحظت عدة تقاريــر الارتفاعات الحادة في أســعار الخدمات، لكن عددا قليلا تتبع تاريخها وأســبابها. انظر مايكل شــفاريتز، «قرغيزســتان تطلب مســاعدة روسيا لمواجهة العنف المســتمر»، نيويورك تايمز، 13 يونيو 2010؛ انظر أيضا «قرغيزســتان: نظام أجوف ينهار»، مختصر آســيا، عدد 102، مجموعة الأزمات الدولية، 27 أبريل 2010،

www.crisisgroup.org/en/regions/asia/kyrgyzstan/B102-kyrgyzstan-a-hollow-regime-collapse.aspx

(3) مايكل شــفاريتز، «قتال عنيف في قرغيزستان يشكل تحديا للحكومة»، نيويورك تايمز، 12 يونيو 2010.

(4) «الحكومة القرغيزية تدعو إلى زيادة أسعار الخدمات»، يومية روسيا وCIS الاقتصادية والمالية، (برقية إخبارية) 2 أبريل 2008.

(5) أندرو كريمر، «إعادة الاســتيلاء على بناء حكومي في قرغيزســتان»، نيويورك تايمز، 14 مايو 2010؛ «أوزبكســتان: القلق من المشــاكل العرقية في قرغيزستان»، تقرير معهد الحرب والسلام، 25 مايو 2010؛ جونيبك كادامجايوف، «وادي فرغانة: برود العلاقات والحدود بين القرغيز والأوزبك تصبح أكثر عنفا، 9 مارس 2010

www.eurasianet.org/departments/civilsociety/articles/eav030910a.shtml

(6) لوك هاردينغ، «قرغيزستان تدعو لمساعدة روسيا في إنهاء الاضطرابات العرقية»، الغارديان (UK)، 12 يونيو 2010.

(7) «أين العدالة؟ العنف بين الأعراق في جنوب قرغيزستان وما وراءه»، مراقبة حقوق الإنسان، 16 أغسطس 2010.

www.hrw.org/en/reports/2010/08/16/where-justice-0

(8) كريمر، «إعادة الاستيلاء على بناء حكومي في قرغيزستان»؛ «أوزبكستان: القلق من المشاكل العرقية في قرغيزستان».

(9) «قطع الكهرباء ليلا في قرغيزستان لستة أشهر: تصريح وزير»، وكالة فرنسا للأخبار، 14 أبريل 2008؛ «بقايف يدعو لنهاية قطع كهرباء متنقل في قرغيزستان»، أخبار وسط آسيا العامة/ انترفاكس 12 يناير 2010.

(10) بيتر ليونارد، «الأوزبك يرفضون انتقاد انسحابهم من شبكة الكهرباء»، أسوشييتيد برس، 3 ديسمبر 2009.

(11) غلنارا مامبيتاليفا، «خوف من انقطاع الكهرباء مع قدوم الشتاء في قرغيزستان: تهديد بانقطاعات أكبر للكهرباء على الرغم من الجهود لتجميع الماء لتوليد الطاقة قبل فصل الشتاء»، نشرة RCA 557، معهد تقارير السلم والحرب، 3 ديسمبر 2008،

http://iwpr.net/report_news/energy_fears_kyrgyz_winter_approaches

(12) مامبيتاليفا، «خوف من انقطاع الكهرباء».

(13) مقتبس من مامبيتاليفا، «خوف من انقطاع الكهرباء».

(14) مقتبس من مامبيتاليفا، «خوف من انقطاع الكهرباء».

(15) «القرغيز يحتجون على ارتفاع أسعار الكهرباء»، إذاعة أوروبا الحرة/ إذاعة الحرية 25 فبراير 2010.

www.rferl.org/content/Kyrgyz_Protest_Electricity_Price_Hike_/1968192.html

(16) «محافظ بيشكك يعتقد أن رفع أسعار الكهرباء والتدفئة يدفع الفقراء إلى حافة العدم»، وكالة AKI للأخبار، 13 نوفمبر 2009.

(17) أحمد رشيد، «نيران العقيدة في آسيا الوسطى»، مجلة السياسة العالمية 18، عدد 1 (ربيع 2001):45-55.

(18) مارتن سبيكلر، «اقتصاديات آسيا الوسطى: مسح»، دراسات اقتصادية مقارنة 50، عدد 1 (1 مارس 2008): 30-50.

(19) أحمد رشيد «الصراع الجديد في آسيا الوسطى: دليل للمحتارين»، مجلة السياسة العالمية 17، عدد 4 (شتاء 2000-2001):33-45،42.

(20) «الملايين في آسيا الوسطى يعيشون تحت خط الفقر»، تايمز آسيا الوسطى (قرغيزستان)، 10 أغسطس 2010.

(21) سبيكلر، «اقتصاديات آسيا الوسطى».

(22) غاريث إيفانز، «القوة ليســت الوسيلة لمجابهة التهديد الإسلامي في آسيا الوسطى»، هيرالد تريبيون العالمية، 10 مارس 2001.

(23) ســونيل، «إنفر باشــا وحركة الباسماجي في آسيا الوســطى»، دراسات شرق أوسطية 26، عــدد 1 (ينايــر 1990): 52-64؛ مارثــا أولكوت «الباســماجي أو ثورة الأحرار في تركمانســتان 1918-1924»، دراسات سوفييتية 33، عدد 3 (يوليو 1981) 352-369؛ وليام ريتير، «المرحلة الأخيرة في القضاء على المقاومة ضد السوفييت في طاجيكستان: ابراهيم بيك والباســماجي 1924-1931»، دراســات ســوفييتية 37، عدد 4 (أكتوبر 1985) 484-493؛ لويس دوبري، أفغانستان (نيويورك: أكسفورد 2002).

(24) أحمد رشــيد، «جهاد: صعود الإســلام المسلح في آسيا الوســطى» (نيويورك: بنغوين 2002) 44.

(25) رشيد، «جهاد» 96.

(26) «رئيــس الـ KGB يزور مناطق الحدود الســوفييتية التي هاجمهــا الثوار الأفغان»، أسوشييتيد برس، 30 أبريل 1987.

(27) «متطرفو الأوزبك» المتعصبون «في باكستان»، أخبار BBC، 29 أكتوبر 2009.

www.news.bbc.co.uk/2/hi/south_asia/8331860.stm

(28) «حجــم المياه في خزان توكتوغل يتجاوز 19.472 مليار متر مكعب»، zprtssrg.com 2 أغسطس 2010.

الفصل الحادي عشر

(1) ستيفان فاريس، «القشة الأخيرة»، سياسة خارجية (1 يوليو 2009).

(2) فيليبس تالبوت، «كشــمير وحيدر آباد»، سياســة العالم 1، عــدد 3 (أبريل 1949) 321-332: 323.

(3) تالبــوت، «كشــمير وحيدر آباد» 327. قيــل إن كلا الطرفين قبل أخــيرا اتفاقا لتثبيت الحــدود بــين الهند وباكســتان على طــول خط التحكــم العام 1971. لكــن عندما نجحت الباكســتان أخيرا في إطلاق سراح سجنائها الـ 90000 في الحرب شرق باكستان وبنغلاديش تراجعت عن الاتفاق.

(4) أليس ثورنر، «النزاع في كشــمير»، مجلة الشرق الأوســط 3، عدد 1 (يناير 1949): 17-30: 18.

(5) ثورنر، «النزاع في كشمير»، 19.

(6) ثورنر، «النزاع في كشمير»، 25.

(7) ثورنر، «النزاع في كشمير»، 25.

(8) روبــرت ترامبلــول، «اســتخــدام النظاميــن المعدين لباكســتان»، نيويورك تايمز 18 يوليو 1948.

(9) مقتبــس في أوندولا ألام، «تحري منطق حروب المياه: دراســة حالــة اتفاقية مياه نهر السند»، المجلة الجغرافية 168 عدد 4 (ديسمبر 2002): 341-353.

(10) سوميت غانغولي، «نزاع لا ينتهي: التوتر بين الهند وباكستان منذ العام 1947» (نيويورك: دار نشر جامعة كولومبيا 2002)؛ ديشباندي، «الحديث مع باكستان»، الاقتصاد والسياسة الأسبوعية 36، عدد 16 (21-27 أبريل 2001): 1303 - 1306.

(11) ألام، «تحري منطق حروب المياه».

(12) ألام، «تحري منطق حروب المياه».

(13) ألام، «تحري منطق حروب المياه».

(14) ألام، «تحري منطق حروب المياه».

(15) من يونيو إلى منتصف أغسطس 2010، قتل 57 متظاهرا. إيجاز حسين، «مدح ضابط في كشمير الهندية لرميه حذاء»، أسوشيتيد برس، 16 أغسطس 2010؛ طارق علي، «لم تهزم، فقط أهملت»، مراجعة كتب لندن 32، عدد 14 (22 يوليو 2010).

(16) جيسيكا ستيرن، «ثقافة الجهاد في باكستان»، شؤون خارجية 79 عدد 6 (نوفمبر - ديسمبر 2000): 115-117:126.

(17) ستيرن، «ثقافة الجهاد في باكستان».

(18) بن أمولدي، «مشكلة كشمير الأخرى: نزاع الهند وباكستان حول المياه»، كريستيان ساينس مونيتر، 11 أغسطس 2010.

(19) شريباد دارماديكاري، «جبال من الاسمنت المسلح: بناء سد في الهمالايا» جدول 3، شبكة الأنهار العالمية، ديسمبر 2008،

www.internationalrivers.org

(20) «الهند تبني 52 سدا على مياه باكستانية»، الأمة، 9 أبريل 2010.

(21) أندرو بانكومبي وعمر واريش، «الهند تسرق مياه الحياة ـ تقول باكستان»، الإندبندنت (UK) 26 مارس 2009.

(22) أثار بارفيز، «اتفاقية مياه السند تؤجج الكشميريين»، إنتر برس سيرفيس، 15 أكتوبر 2008.

(23) أفراح كازمي وماريا فاطمة، «الماء - وفر آخر قطرة»، بيزنس ريدر، 29 مايو 2010.

(24) مانيبادما جينا، «لا قطرة وحيدة للشرب»، التلغراف (كلكتا، الهند) 6 مايو 2010.

(25) كارين بروليارد، «الخطاب يسخن حول نزاع المياه بين الهند وباكستان»، واشنطن بوست، 28 مايو 2010.

(26) أم. ذو القرنين، «على باكستان أن تحتفظ بخيار القوة في نزاعها حول المياه مع الهند»، برس ترست الهند، 10 مايو 2010.

(27) «المتطرفون في باكستان يحذرون الهند حول نزاع المياه»، برس ترست الهند 30 مايو 2010.

(28) أحمد رشيد، «انحدار نحو الفوضى: الولايات المتحدة وفشل بناء الدولة في باكستان وأفغانستان وآسيا الوسطى»، (نيويورك: فايكنغ 2008)221.

(29) كريستيان بارينتي، «أفغانستان: حرب الآخرين»، الأمة، 27 مارس 2006.

(30) بارينتي، «أفغانستان»، انظر أيضا الفيلم الوثائقي «المثبت: أخذ أجمال نقشبندي»، أخرج من قبل إيان أولدز (HBO، 2009).

(31) مارت والدمان، «الشمس في السماء: العلاقة بين ISI باكستان والثوار الأفغان»، (ورقة نقاش 18، مركز كار لسياسة حقوق الانسان ومدرسة كينيدي حول الحكومة، جامعة هارفـارد، يونيو 2010) 1؛ انظر أيضا ديكلان ولش، «المسـاعدة العسـكرية لطالبان تحمل بصمات باكستانية»، الغارديان، 5 يوليو 2010.

(32) دينيس بلير، «التقويم السنوي للتهديد لمجتمع الاستخبارات الأمريكية»، شهادة أمام لجنة مختارة من مجلس الشيوخ حول الاستخبارات، 2 فبراير 2010.

(33) «الولايات المتحدة تبحث عن موازنة مصلحة الهند في أفغانسـتان»، رويترز 31 مايو 2010؛ عبدالواحد وفا وألان كويل، «مسلح يضرب العاصمة الأفغانية بالقنابل: موت 41 على الأقل»، نيويورك تايمز، 8 يوليو 2008؛ أناند غوبال، «ضرب السـفارة الهندية في كابـول بالقنابل»، مجلة وول سـتريت، 9 أكتوبر 2009؛ أمان شرما، «الهنود هدف سهل في كابول»، ميل توداي (الهند) 28 فبراير 2010.

الفصل الثاني عشر

(1) أولدهـام، «تطـور الجغرافيا الهنديـة»، المجلة الجغرافية 3، عـدد 3 (مارس 1894): 169-192: 180.

(2) أعلنت الصحافة الغربية انحدار حركة الماويين منذ ولادتها. على سـبيل المثال انظر كاسـتوري رانغان، «انحـدار الحركة الماوية في الهند»، نيويورك تايمز، 5 أغسـطس 1972. ثم بعد ثلاث سـنوات يخبر المؤلف نفسـه في الصحيفة نفسـها «الماويون المتطرفون في الهند بعد أن كانوا هادئين لمدة 3 سنوات تقريبا اصبحوا نشيطين مرة أخرى». كاسـتوري رانغان، «الماويون يسـتأنفون العنف في الهند»، نيويورك تايمز، 9 يونيو 1975.

(3) انظـر الشـكل 2.5 في التقريـر الرئيـس الجـزء 1 من «الجفـاف في انـدرا براديش: إسـتراتيجيات تأثير وتكيف على المدى الطويل. تقرير أخير» (واشنطن دي سي: قسم البيئة والتنمية الاجتماعية لجنوب آسيا، البنك الدولي، سبتمبر 2005)، 28.

(4) «حيدر آبـاد: اليوبيل الفضي لدوربار»، تايم، 22 فبراير 1937 www.time.com. على الرغم من فساد نظام، إلا أنه أظهر أحيانا اهتماما بالشأن العام. عندما ثار الأديفاسيس في الثلاثينيات أرسـل عالم إنسـانيات ألماني كريسـتوفر فون فورير هايمندورف لفهم مشـاكل السكان المحليين بشكل أفضل، عاد هايمندورف بتوصية للاستثمار في التعليم والرعاية الصحية كطريقـة لمعالجة عزلة القبليين الاجتماعية والاقتصادية. ولمصلحته فقد اتبع نظام هذه التوصية، وشـهد شـعب الغوند في مقاطعة عادل آباد تحسـن ظروفهم بشـكل كبير. حتى هذا اليوم يتذكر الغوند هايمندورف بشغف، كما لو كان واحدا منهم.

(5) جودهـا، «دور القروض في مسـاعدة المزارعين ضد المخاطـر في المناطق الجافة وشـبه الجافة من الهند»، الأسـبوعية الاقتصادية والسياسـية 16، عدد 43/42 (17-24 أكتوبـر 1981): 1696-1709؛ ريان وآخـرون، «النواحي الاجتماعية - الاقتصادية للتنمية الزراعية في المناطق المدارية شـبه الجافة»، ورقة مقدمة في حلقـة العمل الدولية حـول الأنظمة الزراعيـة، ICRISAT، حيدر آباد، الهند، 18-21 نوفمبر 1974.

(6) إدوارد دويكـر، «عصابات قبلية: السـانتال في البنغال الغربية وحركة الناكسـالايت» (نيويورك: نشر جامعة أكسفورد 1987).

(7) «فـوضى في البنغـال الغربيـة»، نيويـورك تايمـز، 18 مارس 1970. حـول تردد الحزب الشـيوعي في الهند (الماركسي اللينيني) في الحكم بالفعل، انظر «الحكام المترددون»، الأسـبوعية الاقتصادية والسياسـية 2، عـدد 10 (11 مارس 1967) 510-511، وليامز بوردرز، «ولاية هندية كانت مضطربة وأصبحت هادئة تحت حكـم الحمر»، نيويـورك تايمز، 28 يناير 1978؛ كاسـتوري رانغان، «ائتلاف من خمسة أحزاب ماركسية يسـيطر على الحكم في بنغال الغربية»، نيويورك تايمز، 22 يونيو 1977.

(8) جـوزف ليليفيلد، «الشـيوعيون اليسـاريون في بنغـال الغربية منقسـمون بعمق»، نيويورك تايمز، 5 يوليو 1967، كانت أساليب الناكسالايت مزيجا من حماس عقائدي حديـث وذرائعية تفكر في القتل لعصابـات البنغال الغربية الاجتماعية: بولان ديفي زائد «الكتاب الأحمر الصغير». لمصلحتهم، نظم الناكسـالايت أيضا حركات جماهيرية سـلمية استخدمت طرقا مباشرة لاحتلال الأراضي ومواجهة الاقطاعيين وإقامة حواجز عـلى الطرقات مـن أجل المطالبـة بالعدالة وإنهـاء القمع والحصول عـلى تنازلات اقتصادية من الدولة.

لعبت الأحزاب الماركسـية عبر الهنـد أدوارا مهمة في الحكومـات الائتلافية أو إنها سـيطرت عليهـا. في كثير من الأحيان أدت إصلاحاتهـم التقدمية إلى تنمية حقيقية. لم تكن هذه الإصلاحات تقدمية في المضمون فقط، لكنها غالبا ما كانت جذرية في الشكل: لم تقدم السياسات فقط من الأعلى للأسفل، لكن استخدمت الحشود الجماهيرية على مسـتوى القاعدة. تحت أول حكومة للجبهة المتحدة في بنغال الغربية أوائل السـبعينيات، أمسـكت أربعة أحزاب ماركسية بتوازن القوى، ثم انتخب الائتلاف نفسـه تقريبا على شـكل الجبهة اليسارية. في تلك الأيام المثيرة أعطي جيوتي باسـو من الحزب الشـيوعي (الماركسي) حقيبة وزارة الداخلية، لذا كان يتحكم بشرطة الولاية. استخدم هذه القوى لمساعدة الفلاحين في تسـهيل الاسـتيلاء على الأراضي ولعب دور الحكم خلال المواجهات العنيفة أحيانا مع طبقة أرباب العمل، لكن الاندفاع التنموي لمعظم الشـيوعيين الهنود لم يكـن كافيا بالنسـبة إلى المتطرفين الناكسـالايت. من وجهـة نظرهم، كانت الأحزاب الشـيوعية الرئيسة مستسلمة للإمبريالية على النمط السوفييتي. فضل الناكساليون الطريق الصحيح للزعيم ماو. في تلك الأيام، كانت بنغال الغربية في حالة غضب حمراء مجنونة لوسط اليسار ضد اليسار وهذا ضد اليسار المتطرف وذاك ضد اليسار السري.

(9) هاربال سـينغ، «الغوند على طريق التقدم»، هندو، 20 أبريل 2009؛ «ساكسينا الهند نحو الفوضى 1967-1992» (نيودلهي: منشورات ابهيناف 1993) 76.

(10) «الماركسيون يستهدفون جوانا مرة أخرى»، هندوستان تايمز، 5 أبريل 2010.

(11) «أنـدرا براديـش تتلقى كمية من الأمطـار أعلى بـ 27 في المائة خـلال فترة الأمطار الموسمية»، خط الأعمال الهندوسي، 27 يوليو 2010.

(12) أورفل شيل، «الرسالة من الجليديات»، نيويورك ريفيو للكتب، 27 مايو 2010.

(13) كوندزيفيكس وآخرون، «مصادر المياه العذبة وإدارتها»، «تغير المناخ 2007: تأثيرات وتكيف وتعرض، مساهمة مجموعة العمل 2 في التقرير التقويمي الرابع للـ IPCC»، تحرير باري وآخرين (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 2007) 187، متوافر على

www.ipcc.ch/pdf/assessment-report/ar4/wg2/ar4_chapter3.pdf

التقديرات هي أن 120 مليونا من 1.2 مليار إنســان في آسيا سيواجهون عوزا مائيا متزايدا بحلول منتصف العام 2020.

(14) جيمس لامونت وآخرون، «الهند توسع الخلاف المناخي مع الغرب»، فايننشال تايمز، 23 يوليو 2009.

(15) يتنبــأ بعض العلماء أنه بنهاية القرن، ستشــهد الهند ارتفاعا في درجة الحرارة بمعدل 3-5°م، ومعه زيادة بمعدل 20 في المائة في هطولات أمطار المونسون الصيفية.

(16) دينيس بلير، «التقويم السنوي للتهديد لمجتمع الاستخبارات الأمريكية»، شهادة أمام لجنة مختارة من مجلس الشيوخ حول الاستخبارات، 2 فبراير 2010.

(17) شيل، «الرسالة من الجليديات».

(18) كوندزيفيكس وآخرون، «مصادر المياه العذبة وإدارتها»، 493.

(19) إيميلي واكس، «الاحترار العالمي يهدد بتجفيف الغانج»، واشنطن بوست، 24 يونيو 2007.

(20) جاء التوصيف من تشــارلز كينيل، الإســتراتيجي الرئيس في جامعة كاليفورنيا، ســان دييغو، معهد الحلول المســتدامة ومدير ســابق لمعهد ســكريبس لعلــم المحيطات. اقتبســه ســتيفان ليبي، «تغير المناخ: الغطاء الثلجي يتحــول إلى بحيرة في الهمالايا»، خدمة إنتر برس، 7 مايو 2009.

(21) إيغو داي، تاوتاو غيان وكيفن ترنبيرث، «تغيرات في تصريف المياه القارية من 1948-2004»، المركــز الوطني لبحوث الغلاف الجوي، بولــدر، كولورادو، 18 نوفمبر 2008، أيضا مراسلات شخصية من دكتور إيغو داي من المركز الوطني لبحوث الغلاف الجوي.

(22) «مستويات المياه تنخفض في بعض الأنهار الرئيسة مع تغير المناخ»، مؤسسة الجامعة لبحوث الغلاف الجوي، 21 أبريل 2009،

www.ucar.edu/news/release/2009/flow.jsp

فحــص علماء من المركز الوطني لبحوث الغلاف الجــوي تدفق الأنهار من العام 1948 حتــى العام 2004، ووجدوا تغيرات مهمة في نحو ثلث أنهار العالم الرئيســة. من هــذه، فاق عدد الأنهار بتدفقات متناقصة تلك بتدفقات متزايدة بنســبة 2.5 إلى 1. يخدم عددا من الأنهار التي تتناقص مياهها مجموعات كبيرة من الســكان، بما في ذلــك النهر الأصفر شــمال الصين والغانج في الهند والنيجــر في أفريقيا الغربية وكولــورادو في الجنوب الغربي من الولايات المتحــدة. في المقابل، أخبر العلماء عن تدفقات أكبر في مناطق متفرقة السكان بالقرب من محيط القطب الشمالي، حيث يذوب الجليد والثلج بسرعة.

(23) «مستويات المياه تنخفض في بعض الأنهار الرئيسة مع تغير المناخ»، مؤسسة الجامعة لبحوث الغلاف الجوي، 21 أبريل 2009،

www.ucar.edu/news/release/2009/flow.jsp

فحـص علماء من المركز الوطني لبحوث الغلاف الجوي تدفق الأنهار من العام 1948 حتى العام 2004 ووجدوا تغيرات مهمة في نحو ثلث أنهار العالم الرئيسية. من هذه، فاقت الأنهار بتدفقات متناقصة تلك بتدفقات متزايدة بنسبة 2.5 إلى 1. يخدم عدد من الأنهار التي تتناقص مياهها مجموعات كبيرة من السكان بما في ذلك النهر الأصفر شـمال الصين والغانج في الهنـد والنيجر في أفريقيا الغربيـة والكولورادو في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة. بالمقابل أخبر العلماء عن تدفقات أكبر في مناطق متفرقة السكان بالقرب من محيط القطب الشمالي، حيث يذوب الجليد والثلج بسرعة.

(24) ديفيد موس، «حكم وتمثيل: تحول في ادارة المياه المشتركة في جنوب الهند البريطانية»، مجلة الدراسات الآسيوية 65، عدد 1 (2006): -61 90: 63.

(25) كارل ويتفوغل، «الاستبداد الشرقي: دراسة مقارنة للسلطة الشاملة» (نيوهافن: نشر جامعة ييل يونيفر 1957) 15، الاسـتبداد الهيدروليـكي لويتفوغل هو امتداد لفكرة ماركس عن «النمط الآسيوي في الإنتاج».

(26) موراي ليف، «الري والسـلطة في راجيسـتان»، أثنولوجي 32، عدد 2 (أبريل 1992): 115 - 132.

(27) كاثلين كوغ، «أنماط الإنتاج في جنوب الهند»، الأسـبوعية الاقتصادية والسياسـية 15 عدد 7/5 (فبراير 1980):337-364؛ ثافاراج، «مبدأ النمط الآسيوي في الإنتاج: أهميته بالنسبة للتاريخ الهندي»، العالم الاجتماعي 12، عدد 7 (يوليو 1984): 26-34.

(28) موس، «حكم وتمثيل» 65.

(29) آمـي والدمان، «الديون والجفـاف يدفعان المزارعين الهنود نحـو اليأس»، نيويورك تايمز، 6 يونيو 2004.

(30) أنورادا ميتال، «حصاد الانتحارات: كيف تدفع قواعد التجارة العالمية المزارعين الهنود نحو اليأس»، مجلة جزيرة الأرض (22 مارس 2008)، انظر أيضا سـوميني سـينغوبتا، «حول مزارع الهند اليائسة، موجة من الانتحارات»، نيويورك تايمز، 19 سبتمبر 2006.

(31) سينغوبتا، «حول مزارع الهند اليائسة».

(32) ريفاثي، «انتحارات المزارعين»، الأسبوعية السياسية والاقتصادية، 23 عدد 20 (16-22 مايو 1998):1207. حسـبت هذه الكميات عند 36 روبية للدولار، والذي كان معدل الصرف عندما كتب المقال المقتبس منه.

(33) «تأثيرات تغير المناخ على مناطق متأثرة بالجفاف والفيضانات: دراسات حالة منطقة جنوب آسـيا في الهند» (وحدة إدارة الريف الهندي، قسـم التنمية المستدامة، وحدة الإدارة الاجتماعيـة والبيئية والمائية، وثيقة البنـك الدولي، التقرير رقم IN 1 43946 يونيو 2008) 40.

(34) روسـتو، «مراحـل النمو الاقتصادي: بيان غير شـيوعي» الطبعـة 3 (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 2008).

(35) برنارد غلاسر، «إعادة زيارة الثورة الخضراء: نقد وبدائل» (لندن: الان وأنوين 1987).

(36) نينان وتشاندراشـيكار، «الثورة الخضراء وزراعة الأراضي الجافة والتنمية المستدامة: أفكار من الهند»، الأسـبوعية السياسـية والاقتصادية 28، عدد 13/12 (20-27 مارس 1993): A7 -A2.

(37) أرنســت فيدار، «ثورة ماكنمارا الخـضراء الصغيرة: مخطط البنك الدولي للتصفية الذاتية لفلاحي العالم الثالث»، الأسبوعية السياسيـة والاقتصاديــة 11 عـدد 14 (3 أبريل 1976).

(38) تشـاكرافارتي، «الثورة الخـضراء في الهند»، حوليات جمعيــة الجغرافيين الأمريكيين 63، عدد 3 (سـبتمبر 1973) 319-330. لنقد الثورة الخضراء، انظر فرانس مور لابي، «المساعدات كعائق» (اكسفورد CA: كتب الغذاء أولا 1980).

(39) فامــزي فاكولابهارانام، «افقار النمــو: العولمة والتغيير الزراعي في تيلينغانا بين 1985 و2000» (أطروحة دكتوراه جامعة ماساتشوستس أمهيرست قسم الاقتصاد 2004).

(40) فاكولابهارانام، «إفقار النمو».

(41) فاكولابهارانام، «إفقار النمو»، iv-vii أو لاقتباس فاكولابهارانام: «أولا حتى مع انحدار أســعار المحاصيل بحســب الســوق بين 1991 و2000 (خلال مرحلة العولمة) كانت المســاحة المزروعــة المخصصة لإنتاج هــذه المحاصيل تزداد بسرعــة. ثانيا بين 1985 و2000 كان معدل النمو الســنوي الأسي للمردود الزراعي الفعلي في منطقة التيليثون من جنوب الهند، أعلى بأكثر من 4 في المائة من معظم دول العالم الثالث خلال الفترة ذاتها حتى لو كانت أغلبية من السكان الزراعيين قد منيت بخسارات كبيرة في الدخل/ الاستهلاك، عبر عنه مأساويا في انتحار أكثر من ألف مزارع».

(42) فاكولابهارانام، «إفقار النمو» 107.

(43) لاكشــمان يابا، «ما هي البذور المحســنة؟ دراسة معرفية للثورة الخضراء»، الجغرافيا الاقتصادية 69، عدد 3، البيئة والتنمية، الجزء 1 (يوليو 1993): 254-273.

(44) راماشــاندرا غوبــا، «حــرب في قلب الهند»، الأمــة، 27 يونيو 2007؛ «الناكســالايت يتخلــون عن قطــار ركاب من دون يلحقوا بــه أي أذى»، هنــدو، 15 مارس 2006؛ ســوناِلي داس، «الناكســال يفرجون عن ركاب القطار»، تايمــز الهند 22 أبريل 2009؛ ميهول سريفاســتفا، «الماويون في الهند يفجــرون خطوط الأنابيب، واضعين 78 مليار دولار في خطر»، بلومبرغ، 29 يوليو 2010.

(45) على ســبيل المثال، انظر قائد سلاح الجو آرجون سابرامانيام، «قوة جوية للقتال في حرب عصابات»، أخبار ســيفي 13 فبراير 2009. هذه القطعة نشرتها الصحف الهندية ويمكن العثور عليها في

maoists-in-india-blow-up-/29-07-www.bloomberg.com/news/2010
pipelines-as-75-billion-in-resources-threatened.html

(46) بالنسبة إلى الأيام الأولى من فرقة المطاردين غرايهاوند، انظر بالاغوبال، «نذر كلاب الصيد ذات اللون الرمادي»، الأســبوعية الاقتصادية والسياســية 23، عدد 28 (9 يوليو 1988)؛ شاتروغنا، «NTR والناكسالايت»، الأسبوعية الاقتصادية والسياسية 24، عدد 28 (15 يوليو 1989).

(47) جيسون موتلاغ، «تحول الماويين في الهند لمهاجمة الشرطة»، واشنطن تايمز 22 نوفمبر 2007؛ جيســون موتلاغ، «الماويون في الغابة: تقفي ثــوار الهند الانفصاليين»، ربعية ريفيو فرجينيا 84، عدد 3 (1 يوليو 2008): 102-129.

(48) «البنادق تزدهر مرة أخرى في أندرا براديش»، خدمة أخبار اندو آسيان، 3 أبريل 2005.

(49) ســومانتا بانيرجي، «الناكســالايت: وقت لإعــادة التفحص»، الأســبوعية الاقتصادية والسياسية 38، عدد 44 (1-7 نوفمبر 2003): 4635-4635:4636.

(50) عمـر فـاروق، «ولاية اندرا براديش في الهند تعلن عـن وقف إطلاق النار ضد الثوار الشيوعيين»، أسوشييتد برس، 16 يونيو 2004.

(51) راكيش سـينغ «مركز جديد يخطط لحل قضية ناكسـال»، وصلة الأخبار العالمية، 6 أغسـطس 2006؛ «عـلى جبهة التنمية قرر المركز تخصيـص 116 مليون دولار خلال الخطـة الخمسـية الحادية عـشرة لتطوير البنيـة التحتية في المناطـق التي ضربها الناكسـال. سـيتم التأكيد على تحسـين الطرقات والدروب القائمة في مناطق يصعب الوصـول إليها وتأمـين مناطق تخييم في مواقع إسـتراتيجية». ديفياني سريفاسـتافا، «الإرهـاب في الهند» (يناير - مـارس 2008). IPCS (الحكومة الهندية) تقرير خاص رقم 54، يونيو 2008.

(52) «البنادق تزدهر مرة أخرى في اندرا براديش»، «اتهام شاعرين آخرين، غادار وكاليان راو، بالقتل السياسي».

(53) «رجال سالفا - جودوم يطاردون المتعاطفين مع الماويين»، هندو، 13 مارس 2006.

(54) أنشـومان دوتا، «الاحتفاظ بالدولة كرهينة»، الهند: انتشار «التطرف اليساري يشجع الولايات على رفع وحدات الكوماندوس»، وصلة الأخبار العالمية، 21 مايو 2006.

(55) «سالفا جودوم، مذبحة قبائل تشاتيسغارث: لجنة»، هندو، 28 يناير 2009.

(56) «سالفا جودوم، مذبحة قبائل تشاتيسغارث».

(57) فرحان بخاري وجيمس لامونت، «حقيقة مغيرة»، فاينانشال تايمز، 12 مايو 2009.

(58) مـن المعـترف به أن هذه الطبقـة أو النخبة من الأثرياء جـدا أصيبت بضربة قوية العـام 2009 مع التقاط الاقتصاد الهندي أخـيرا عدوى الانحدار الاقتصادي الذي بدأ في الغرب، نازين كارمالي، «انخفاض مليارديري الهند» Forbs.com. 11 مارس 2009 www.forbes.com/2009/03/11/india-financial-loss-billionaires-india.html

الفصل الثالث عشر

(1) للاطـلاع عـلى هذه المراجع انظر جـون نيف غيرني وكاثلين تيرني، «الحرمان النسـبي والحركات الاجتماعية: نظرة نقدية على مدى 20 سـنة من النظرية والبحث»، ربعية نفسـانية 23، عـدد 1 (شـتاء 1982): 33-47. حول العنف في المدن، انظر ساسـكيا ساسـن «عندما تصبح المدينة نفسها تقنية حربية»، نظرية، ثقافة ومجتمع 27، عدد 6 (17 ديسمبر 2010).

(2) سيليا لاندمان شفاركفالد وآخرون، «عدم المساواة في الدخل ومعدلات القتل في ريو دي جانيرو في البرازيل»، المجلة الأمريكية للصحة العامة 89، عدد 6 (يونيو 1999): 849.

(3) «عصابات المخدرات في ريو تقاتل الشرطة، قتل 13 شخصا»، رويترز، 24 نوفمبر 2010.

(4) «الأمطار والفيضانات في سان باولو تقتل 64 شخصا»، وكالة فرنسا للأخبار، 29 يناير 2009.

(5) «لولا يلغي مشـاركته في قمة العشرين بسـبب الفيضانات المميتـة في البرازيل»، تايمز عمـان (رويترز)، 27 يونيو 2010؛ فيليب دانا، «البرازيل: سـكان قرية صغيرة يبقون أحياء برغم الفيضانات الضخمة بالتشبث بأشجار فاكهة»، الأخبار الكندية، 24 يونيو 2010.

(6) ماغرين وآخرون، «أمريكا اللاتينية»، في «تغير المناخ 2007: تأثيرات وتكيف وتعرض، مساهمة مجموعة العمل 2 في التقرير التقويمي الرابع للـ IPCC». تحرير بيري وآخرين، (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 2007) القسم 13.2.2، «أزمات الطقس والمناخ».

(7) أنتوني بيريرا، «الإصلاح الزراعي في البرازيل: ابتكار ديموقراطي أم استرجاع لحكم أقلية مستبعدة؟»، سياسة أمريكا اللاتينية ومجتمعها 45، عدد 2 (صيف 2003): 41 - 65: 42.

(8) غاري دافي، «أوقات متغيرة بالنسبة لمن لا يملكون الأراضي في البرازيل»، أخبار الـ BBC، 23 يناير 2009،

www.news.bbc.co.uk/2/hi/7845611.stm

(9) فاغنر وجون وورد، «التمدين والهجرة في البرازيل»، المجلة الأمريكية في الاقتصاد والاجتماع 39، عدد 3 (يوليو 1980): 249-259: 256.

(10) فاغنر وجون وورد، «التمدين والهجرة في البرازيل»، 249.

(11) أنتوني بيريرا، «المساجلات في المحاكمات السياسية للنظام العسكري البرازيلي»، ريفيو لوسو برازيليان 41، عدد 2 (2005): 162 – 183.

(12) بالإنجليزية، انظر الأردوشيقية البرازيلية في سان باولو، «تقرير صادم حول الاستخدام البشع للتعذيب من قبل الحكومات العسكرية البرازيلية 1964-1979» أعدت سرا من قبل أردشوق سان باولو»، حررت من قبل جون داسين، ترجمت من قبل جيمي رايت (أوستن: نشر جامعة تكساس 1998).

(13) بين بنغلاسي، «الابن غير الشرعي للديكتاتورية: كوماندو فيرميلهو ومولد ثقافة المخدرات في ريو دي جانيرو»، ريفيو لوسو برازيليان 45، عدد 1 (2008): 118-145: 125.

(14) بنغلاسي، «الابن غير الشرعي».

(15) بنغلاسي، «الابن غير الشرعي»؛ لوك داودني «أطفال تجارة المخدرات: دراسة حالة لأطفال في عنف منظم مسلح في ريو دي جانيرو» (ريو دي جانيرو: 7 ليتراس 2003)؛ لويس كونتوس وديفيد برازرتون، تحرير، «موسوعة العصابات» (سانتا باربرا كاليفورنيا: غرينوود 2007): 16 - 18.

(16) إنريكي «ديسموند» أرياس، «المخدرات والديموقراطية في ريو دي جانيرو: التوزيع والشبكات الاجتماعية والأمن العام» (تشابل هيل: نشر جامعة نورث كارولينا 2006)؛ انظر أيضا كارلوس أموريم، «كوماندو فيرميلهو، التاريخ السري للجريمة المنظمة»، (ريو دي جانيرو، فوزيس 1991) ؛ وليام دا سيلفا «كوانتروسينتوس كونترا أوم» (ريو دي جانيرو، فوزيس 1991)، داودني، «أطفال تجارة المخدرات»؛ عزيز فيلهو وفرانسيسكو ألفس فيلهو، «الجريمة والعنف في البرازيل المعاصرة»، (ريو دي جانيرو، لومين جوريس، 2006).

(17) جيمس بروك «البرازيل ترزح تحت وطأة الديون»، ميامي هيرالد 7 فبراير 1983. نقد جيد لليبرالية الجديدة في البرازيل قدمه جيمس بيتراس وهنري فيلتمير كاردوسو، «برازيل: بلد للبيع» (لانهام: رومان وليتلفيلد 2003)، «مظاهرة للعاطلين عن العمل في سان باولو تتحول إلى عملية نهب، موت شخص»، ميامي هيرالد 6 أبريل 1983.

(18) ريناتو كوليســتيتي، «إعادة زيــارة التصنيع بقصد إحلال الــواردات في البرازيل: نمو الإنتاجيــة والتعلم التقني في ســنوات ما بعد الحرب» (مــشروع ورقة أعدت لمؤتمر «أمريكا اللاتينية، العولمة والتاريخ الاقتصادي»، جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس 24 و25 أبريل 2009) 7، متوافر على

www.international.ucla.edu/economichistory/summerhill/colistete.pdf

(19) كوليستيتي، «إعادة زيادة التصنيع بقصد إحلال الواردات في البرازيل»، 32.

(20) ديفيد هارفي، «الليبرالية الجديدة كأداة للتخريب الخلاق»، الحوليات الجغرافية 88، عدد 52 (1 يونيو 2006) 145:148:145.

(21) فيليب آرمسترونغ وأندرو غلين وجون هاريسون، «الراسمالية منذ 1945» (أكسفورد: بيســل بلاكويل 1991) 155. من أجل قصة نجاح التنمية التي تقودها الدولة، انظر أليس أمسدن، «عملاق آسيا التالي: كوريا الجنوبية والتصنيع المتأخر» (أكسفورد: نشر جامعة أكسفورد 1992).

(22) جوليت شــور، «أمريكا المثقلة بالعمــل: تدهور الراحة غير المتوقع» (نيويورك: كتب بيسيك 1992)، 111.

(23) تشــارلز سيبل مقتبس في بينيت هاريسون وباري بلوستون، «دورة U الكبيرة: إعادة تشكيل المؤسسات واستقطاب أمريكا» (بولدر كولورادو: كتب بيسيك 1990) 10.

(24) حــول الاســتطاعة الفائضــة أو التراكم الزائد انظر آرمســترونغ، غلين وهاريســون، «الرأسمالية منذ 1945»، خاصة الفصل 11.

(25) بروك، «البرازيل ترزح تحت وطأة الديون».

(26) هاريســون وباري بلوســتون، «دورة U الكبــيرة»؛ 7؛ انظر أيضــا نورمان غليكمان، «المدن والتقسيم العالمي للعمل»، في «المدينة الرأسمالية»، تحرير بيتر مايكل سميث (أكسفورد: بلاكويل 1987) 71.

(27) صامويــل باولز وديفيد غــوردن وثوماس فايزكوبف، «بعــد الأرض اليباب: اقتصاد ديموقراطــي للعام 2000» (آرمونك نيويورك: شــارب 1990) 45. انظر الشــكل 4.4 «انحــدار الربح بعــد منتصف الســتينيات»؛ أندرو غلين وآخــرون، «صعود العصر الذهبــي وســقوطه» في «العصر الذهبي للرأســمالية: إعادة تفســير فــترة ما بعد الحرب»، تحرير ســتيفان مارغلين وجولييت شور (أكسفورد: نشر كلاريندون 1990) 77، الشكل 2.10.

(28) جون موريس، «الأسواق تتعافى من الخسائر، لكن المستقبل مظلم»، المصرفي الأمريكي، 6 ديسمبر 1982.

(29) بول فولكر مقتبس من قبل ســتيفن راتنر، «فولكر يؤكد أن على الولايات المتحدة أن تخفض مستويات المعيشة»، نيويورك تايمز، 18 أكتوبر 1979، A1.

(30) جــورج هانك، «تفحص الأزمــة المصرفية في الثمانينيات وأوائل التســعينيات، الجزء 1 من تاريخ الثمانينيات» (آرلينغتون: FDIC مركز المعلومات العام 1999) 199.

(31) أندريس أوبنهايمر، «ركود، الديون تضرب أمريكا»، ميامي هيرالد 18 أبريل 1983.

(32) «الغلاء في البرازيل يسجل رقما قياسيا»، نيويورك تايمز 29 ديسمبر 1989.

(33) جيمس بروك، «نمو العمالقة الجنوبيين يبطأ بخطط تقشف»، ميامي هيرالد، 18 أبريل 1983.

(34) أوبنهايمر، «ركود، الديون تضرب أمريكا».

(35) جوان دي أونيس، «البرازيل تطلب قروضا جديدة، ليست خارج الضغوط»، لوس أنجلوس تايمز، 23 يونيو 1986.

(36) مارك فايزبروت، «من الذي سيقود البلاد إلى الأمام؟»، ورقة من سان باولو (البرازيل، 27 أغسطس 2010.

(37) إنريكي «ديسموند» أرياس، «ديناميكية الحكم بالجريمة: شبكات وأنظمة اجتماعية في ريو دي جانيرو»، مجلة دراسات أمريكا اللاتينية 38، عدد 2 (مايو 2006) 293-325.

(38) للتفاصيل انظر مايك ديفيس، «أهوال العصر الفيكتوري المتأخر: مجاعات النينو وخلق العالم الثالث» (لندن: فيرسو 2002).

(39) تيموثي فينان، «الجفاف والديماغوجية : بيئة سياسية للتغير المناخي في شمال شرق البرازيل»، (ورقة قدمت في ورشة عمل «الفلسفة العامة والبيئة والعدالة الاجتماعية»، لجنة كارنيغي حول الأخلاق والشؤون الدولية، 21-22 أكتوبر 1999) 3.

(40) ليكيانغ سون وآخرون، «تغير المناخ ومحصول القمح في منطقة سيرا شبه الجافة في البرازيل»، مجلة المناخ التطبيقي 46، عدد 2 (1 فبراير 2007) 226-239.

(41) سون وآخرون، «تغير المناخ» 227.

(42) روب ويلبي، «مراجعة سيناريوهات تغير المناخ في شمال شرق البرازيل»، (مختصر تقني لتيرفاند، تيدينغتون، بريطانيا، يونيو 2008) 2، ساولو أروجو، «دروس من شمال شرق البرازيل: لا يمكنك محاربة البيئة»، القواعد عالميا، 2 مارس 2009،

www.grassrootsonline.org/news/blog/lessons-northeast-brazil-you-can't-fight-environment

(43) جوزيف بيج، «البرازيليون» (نيويورك: نشر دا كابو 1996) 186.

(44) القسم 13.5.1.1، «الأنظمة البيئية الطبيعية»، في ماغرين وآخرين، «تغير المناخ 2007».

(45) إدموند كونواي، «الاقتصاد، صندوق النقد الدولي يحذر أنه قد يفلس قريبا»، الديلي تلغراف، 5 مايو 2006. العنوان لهذا المقطع يأتي من الكتاب الرائع لثيدا سكوكبول وبيتر إيفانز وديتريتش روشيماير «إعادة إدخال الدولة» (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 1985).

(46) كريستيان بارينتي، «إعادة أخذ ريو»، الأمة، 11 مايو 2010.

(47) دونالد نيلسون وتيموثي فينان في منطقة سيرا شمال شرق البرازيل، «الأنثروبولوجست الأمريكي» 111، عدد 3 (سبتمبر 2009) 302-316: 305.

الفصل الرابع

(1) دارلين سوبرفيل، «ميشيل أوباما تطلق خطة عمل وحيدة في زيارتها للمكسيك»، أسوشييتد برس، 14 أبريل 2010.

(2) تشارلز باودن حول الديموقراطية الآن، 14 أبريل 2010.

(3) كيفين جونســون «العنف ينخفض في مدن الولايات المتحدة القريبة من المكســيك»، USA اليوم، 28 ديسمبر 2009.

(4) «مذبحة جواريز: أين سيكون هجوم الاحتكارات التالي؟»، الباسو تايمز، 2 فبراير 2010.

(5) اليزابيث مالكين، «مسلحون في المكسيك يقتلون 13 في حفلة»، نيويورك تايمز، 31 يناير 2010.

(6) وليام بوث، «عصابات المخدرات في المكسيك تتحول للهجوم ضد السلطات»، واشنطن بوست، 2 مايو 2010.

(7) شــوازيهانغ فينــغ، ألان كروغار ومايــكل أوبنهايمر، «صلات بين تغــير المناخ ومردود المحاصيل والهجرة عبر الحدود المكســيكية - الأمريكية»، مداولات الأكاديمية الوطنية للعلوم 107، عدد 32 (10 أغسطس 2010) 14257-14262.

(8) ناشا كاتان، «تغير المناخ سيزيد من هجرة المكسيكيين إلى الولايات المتحدة، كما تقول إحدى الدراسات»، كريستيان سايانس مونيتر، 27 يوليو 2010.

(9) أولي براون، «الهجرة وتغير المناخ» (جينيف: المنظمة الدولية حول الهجرة 2008) 10.

(10) سام نايت، «التسونامي البشري»، فاينانشال تايمز، 19 يونيو 2009.

(11) مقتبــس في آمــي كازمين، «ارتفاع في مســتوى ســطح البحر يؤثر على المعيشــة في بنغلاديش»، فاينانشال تايمز، 22 سبتمبر 2009.

(12) وليام لاسي ســوينغ، «دعنا نســتثمر الآن في هجرة الغد»، «الهجرة» (مجلة المنظمة الدولية حول الهجرة) شتاء 2011.

(13) كازمين، «ارتفاع في مستوى سطح البحر يؤثر على المعيشة في بنغلاديش».

(14) يمكن قول قصة مشابهة وإن كانت مختلفة عن انتقال الأفريقيين والشرق الأوسطيين إلى أوروبــا. مازال أفضل كتاب حول هذه التحركات هو لساســكيا ساســين، «انتقال العمالة ورأس المال» (نيويورك: نشر جامعة كامبردج 1990).

(15) مخطط طولي في العام 2007 يرســم ضياع المانغروف في المكسيك بعنوان «مانغروف أمريكا الوسطى والشمالية 1980-2005: تقارير البلد»، يمكن العثور عليه على موقع منظمة الأغذية والزراعة

ftp://ftp.fao.org/docrep/fao/010/ai446t/ai446t00.pdf

للمزيــد عن الأزمة انظر «الرئيــس فيليبي كالديرون يوقّــع تشريعا لحماية الأراضي الرطبة الســاحلية وحكام الولايــات يهددون بتحديد قانون جديــد»، أخبار وتحليل الاقتصاد المكسيكي، 14 فبراير 2007.

(16) تحتفــظ منظمة الأغذية والزراعة في الأمم المتحدة ببيانات حول المصائد الســمكية. يلاحظ تقريرها حول المكســيك مــا يلي: «الوضع الحالي للإنتــاج المتناقص في مردود المصائــد هو نتيجة الاســتغلال الزائــد والإدارة الســيئة، وزيادة في مجهــود الصيد، والافتقار إلى المراقبة، وتغيرات تحدث بشكل طبيعي في كل مستودع سمكي والنوعية الســيئة لبذور الأســماك التي تنتج في مراكز تربية البذور السمكية الحكومية والتي نجم عنها تناقص حجم الأسماك وتهجينها»، يمكن العثور على هذا من «نماذج الصيد والتربية السمكية للدول: المكسيك» FAO قسم مصائد وتربية الأسماك،

www.fao.org/fishery/countrysector/FI_CP_MX/en

ولرسم بياني يوضح مجمل الصيد على مر الزمن انظر:

www.fao.org/fishery/countrysector/FI_CP_MX/3/en

(17) الونسـو أغويلار إيبارا وكريس ريد وآندي ثورب، «الاقتصاد السـياسي لتطور الصيد البحري في البيرو وتشـيلي والمكسـيك»، مجلة دراسـات أمريكا اللاتينية 32، عدد 2 (مايو 2000): 503-527: 521.

(18) من أجل مناقشـة كاملة للمؤسسـات المكسـيكية وسياسـة الصيد انظر إيميلي يونغ، «تدخل الدولة وإسـاءة استخدام الموارد المشـتركة: تطوير المصائد في باجا كاليفورنيا والمكسـيك»، حوليات هيئة الجغرافيـين الأمريكيين 91، عدد 2 (يناير 2001): 283-306: 242.

(19) إيبارا، ريد وثورب، «الاقتصاد السياسي لتطور الصيد البحري» 526.

(20) جـون رايت، «المكسـيك تعلن تحرير قواعد الاسـتثمار الخارجي» AP online 15 مايو 1989.

(21) يونغ، «تدخل الدولة وإساءة استخدام الموارد المشتركة» 288.

(22) يونغ، «تدخل الدولة وإساءة استخدام الموارد المشتركة» 300.

(23) تيـم وينر، «في المكسـيك، الجشـع يقتل الأسـماك في البحر المملوء»، نيويورك تايمز 10 أبريل 2002.

(24) تيم ميريل ورامون ميرو، «تحرير المكسـيك: دراسـة البلد» (واشنطن دي سي مكتب الطباعة الحكومي، 1996).

(25) ريتشـارد غرانـت، «إصبـع الإله الوسـطى: في القلب من دون قوانين لمنطقة سـيرا مادري»، (نيويورك: سايمون وشوستر 2008) 242.

(26) فقدت المكسـيك 6.9 في المائـة من تقديرات الـ FAO لعام 2005، «سـؤال متعلق بالجغرافيا الاقتصادية هو درجة الارتباط بين السياسات الليبرالية الجديدة والتدهور البيئـي. هناك حاجـة لبحث علمـي لربط مثل هذه السياسـات بشـكل تجريبي مـع صناعة القـرار المحلي من أجل تقويـم الآثار، وللمسـاهمة في فهم كيف تدفع ديناميكيات مختلفة عمليات تغيير اسـتخدام الأرض؟»، مارتن ريكار، «دور الغابات المكسـيكية في تخزيـن الكربون للتخفيف من تغير المنـاخ». صناعة الغابات وموارد الغابات في سيرا مادري. مركز تكساس لدراسة السياسات، ديسمبر 1999،

www.texascenter.org/publications/forestal.pdf

(27) رينيـه دومونـت، «المكسـيك: تخريب الإصلاح الزراعي»، مراجعة اليسـار الجديد 17/1 (شتاء 1962) 46-63.

(28) اليزابيث مالكين، «المكسـيك تعاني الآن أسوا جفاف منذ سنوات»، نيويورك تايمز 12 سبتمبر 2009.

(29) «المكسيك تقول إن موارد الحبوب لن تهدد بالجفاف»، EFE خدمة الأخبار العالمية، 5 يناير 2010.

(30) كوكــو وارنر وآخــرون، «البحث عن مأوى: مســح تأثيرات تغير المنــاخ على الهجرة البشرية»، (تقرير من CARE الدولية وجامعة الأمم المتحدة 2009)
http://ciesin.columbia.edu/documents/ClimMigr-rpt-june09.pdf

(31) هيربــرت أنغرام بريســتلي، «البرنامج المعاصر للتأميم في المكســيك»، مراجعة تاريخ الباســيفيك 8، عدد 1 (مارس 1939) 59-74: 60. مع ذلك لم تكن المكســيك برئاسة ديــاز جمهورية مــوز، في الحقيقة بدأ ديــاز كليبرالي تقدمي من نمط القرن التاســع عشر، وقام ببعض التطويرات المفيدة - شــجع السكك الحديدية والتلغراف والمصانع الأساسية - لكنه انحدر بعد ذلك نحو الفساد.

(32) كارلتون بيلز، «صورة دياز: ديكتاتور المكسيك» (فيلادلفيا: ليبينغوت 1932) 307.

(33) بول غارنر، «صورة دياز» (لندن: لونغمان 2001).

(34) بيلز، «صورة دياز» 334.

(35) أدولفو جيلي، «الثورة المكسيكية» (نيويورك: نيو برس 2005)؛ جون وماك، «زاباتا والثورة المكســيكية» (نيويــورك: فينتيج 1970) كان هنــاك في الحقيقة شيء من الدفع خلف الســتار والتنافس بين الرأســماليين الأجانب لتأييــد حكومة دياز أو الثورة. حتى بين الشركات الأمريكية التي أيدت عموما الرئيس فرانسيسكو ماديرا كان هناك انقســام وذرائع. جون سيكيرياس، «السكك الحديدية والنفط والمصالح الأجنبية الأخرى في الجمهورية المكســيكية 1911-1914»، مجلة دراسات أمريكا اللاتينية 35، عدد 1 (فبراير 2003): 25:51.

(36) فرانك تانينباوم، «السلام عن طريق الثورة: تفسير للمكسيك» (نيويورك: نشر جامعة كولومبيا 1933) 115.

(37) COSYDDAC، «صناعة الغابات وموارد الغابات».

(38) يمكن العثور على ترجمة لدستور المكسيك للعام 1917 على
www.latinamericanstudies.org/mexico/1917-constitution.htm

(39) جيلي، «الثورة المكسيكية»، 338.

(40) دومونت، «المكسيك».

(41) ريمونــدا بينســابات كلاينبرج، «التحالف الإســتراتيجي: العلاقات بــين الدولة ورجال الأعمال في المكســيك تحت نظــام الليبرالية الجديدة والأزمــة»، نشرة بحوث أمريكا اللاتينية 18، عدد 1 (يناير 1999) 71-87 : 72.

(42) كلاينبرج، «التحالف الإستراتيجي».

(43) تــيري ماكنــلي وديانا ألاركون، «تأميم بنك المكســيك»، رؤية أمريكا اللاتينية 20، عدد 3 (صيف 1993): 80-82: 80.

(44) بريستلي، «البرنامج المعاصر للتأميم في المكسيك»، 66.

(45) يريستلي، «البرنامج المعاصر للتأميم في المكسيك»، 62.

(46) بالطبع كما يذكرنا أحد الأكاديميين «لم تعمل مكســيك ما بعد الثورة على مســارات تشــاركية صرفة. كانت بعض القطاعات في المجتمع مرتبطة بهذه الترتيبات بشــكل أكبر من قطاعات أخرى». جيمس سامســتاد، «التشــاركية والانتقال الديموقراطي:

الدولــة والعمالة خــلال إدارتي ســاليناس وزيديللو»، سياســات أمريــكا اللاتينية ومجتمعهــا 44، عدد 4 (شــتاء 2002): 1-28: 3، انظر التاريخ الجذري الكلاســيكي لجيلي، «الثورة المكسيكية».

(47) للاطلاع بشــكل أفضل على العلاقة المتغيرة بين الدولة ورأس المال في المكســيك انظر كلاينبرغ، «تحالف إستراتيجي»، 72.

(48) كــما وصفهــا ليو بانيتش في مقالة كلاســيكية فإن التشــاركية «بنية سياســية ضمن رأســمالية متطورة تكمل مجموعات الإنتاج الاجتماعية الاقتصادية المنظمة من خلال نظام من التمثيل والتفاعل التعاوني المتبادل على مســتوى القيادة والحشد والتحكم الاجتماعي على مســتوى القاعدة»، ليو بانيتش «تنظير حديث للتشــاركية: آراء حول صناعة النمو»، المجلة البريطانية لعلم الاجتماع 31 (1980): 159-187: 173. للمزيد حول الموضوع وارتباطاته بالدول الســلطوية، انظر ديفيد كولير (تحرير)، «السلطوية الجديدة في أمريكا اللاتينية» (برنستون نيوجرسي: نشر جامعة برنستون، 1980).

(49) جــورج فيليــب، «النفط والسياســة في امريكا اللاتينية: الحــركات الوطنية وشركات الدولة» (كامبردج: نشر جامعة كامبردج 1982)؛ جورج غريســون، «النفط وسياســة المكســيك الخارجية». (بيتسبرغ بنســلفانيا: نشر جامعة بيتسبرغ 1988). خلال هذه الأزمة من التأميم تشكل الحزب الحاكم الحالي حزب العمل الوطني PAN من تحالف مجموعــات يمينية بما في ذلك المصرفيون والرأســماليون الصناعيــون وملاك الأراضي والعناصر الدينية وحتى أعضاء من حزب كاثوليكي على نمط الكتائب الفاشية. مايكل ديون، «الأصول السياســية للضمان الاجتماعي في المكســيك خــلال إدارتي كارديناس وأفيلا كاماشو»، دراسات مكسيكية 21، عدد 1 (شتاء 2005): 59-95.

(50) كلاينبرج، «تحالف إستراتيجي» 72.

(51) جورج غريسون، «النفط والعلاقات الأمريكية – المكسيكية»، مجلة دراسات العلاقات بــين الأمريكيــين والقضايا العالمية 21 عدد 4 (نوفمــبر 1979): 427-456: 428؛ آرثر هاو، «قبضة أوبك على صانعي النفط تنحسر»، فيلادلفيا إنكوايرر، 7 ديسمبر 1983.

(52) حــول حــركات حرب العصابات في المكســيك، انظر أو نيل بــلاكار، «حرب باردة في الريف: نزاع في غويرو في المكســيك»، الأمريكيتان 66، عدد 2 (أكتوبر 2009): 181-210؛ حــول العمالة، انظر ديل هاثاواي، «حلفاء عبر الحدود: جبهة عمالة المكســيك الأصلية والتضامن العالمي» (بوسطن: منشورات الطرف الجنوبي 2000).

(53) آدم ديفيــد مورتن «التغــير البنيوي والليبرالية الجديدة في المكســيك: ثورة محايدة في الاقتصــاد الســياسي العالمي»، ربعية العالم الثالث 24، عدد 4 (أغســطس 2003): 631 - 653.

(54) وليام تشيزلت، «الذهب الأسود يغذي التحول الاقتصادي»، غلوب آند ميل، 26 مايو 1980. في العام 1978 بدا كأن نظام شــاه إيران ينهار ولو انحدرت إيران إلى الفوضى فســترتفع أســعار النفط. وبينما كانت أســعار النفط ترتفع، وجدت شركة بيميكس المكســيك مخزونا نفطيا ضخما آخر. بنهاية العام 1976، كانت المكســيك تنتج 800 ألف برميل من النفط يوميا وتصدر 94 ألف برميل كل يوم. بحلول العام 1980 اقترب الإنتاج من 2.2 مليون برميل في اليوم، وازدادت الصادرات بـ 10 أضعاف إلى 850 ألف برميل في اليوم. كانت هذه أسرع زيادة في إنتاج النفط في تاريخ العالم.

(55) جون كرويدســـون وفينسينت شودولوســـكي، «ثمن الإصلاح يشل المكسيك»، شيكاغو تريبيون، 23 نوفمبر 1986.

(56) تشيزليت، «الذهب الأسود يغذي التحول الاقتصادي».

(57) مان ريدينغ، «تطويع حماس المكسيك للمزيد»، نيويورك تايمز 12 سبتمبر 1982.

(58) مايـــكل كيفين، «المـــواد الأولية في أزمة: أزمة المواد الأوليـــة في الثمانينيات والاقتصاد الســـياسي لسياسات المواد الأولية العالمية من قبل ألفريد ميزيل»، التطور الاقتصادي والتغير الثقافي 45، عدد 1 (أكتوبر 1996) 205:208.

(59) جيمس ثومبســـون وشـــين أو غريدي، «أزمة المـــواد الأولية تثير المخـــاوف من غلاء الأغذية في ســـوق الأســـهم»، الإنديبندت (UK) 10 أغسطس 2010، لمخطط تاريخي حول أسعار المواد الأولية انظر مؤشرموندي www.indexmondi.com يمكن العثور على مؤشر أسعار المواد الأولية للـ IMF على الموقع نفسه.

(60) والـــدن بيلـــو، «انتصار مظلـــم: الولايات المتحدة والفقر في العـــالم» (أوكلاند: كتب الغذاء أولا 1999).

(61) أوكلاند روس، «انخفاض أســـعار النفط تترك المكســـيك في متاعب اقتصادية»، غلوب آند ميل، 6 أغسطس 1982.

(62) مايكل فابلي، «كارثة اليوم» غلوب آند ميل، 20 أغسطس 1982.

(63) مارليز ســـايمونز، «تخفيض قيمة البيزو المكســـيكي للمرة الثانية في 6 أشهر»، نيويورك تايمز، 7 أغسطس 1982.

(64) ألان رايدنـــغ، «المكســـيك تخفـض البيـــزو بـ 30 في المائـــة»، نيويـــورك تايمـز، 19 فبراير 1982.

(65) روبـرت بينيت، «المكسيك تحاول تأجيل جزء من الدين»، نيويورك تايمز، 20 أغسطس 1982.

(66) ريتشـــارد ميزلـين، «المكســـيك تبيع أســـهما تمتلكها بنوك مصادرة»، نيويورك تايمز 22 مايو 1984.

(67) «البيـــزو المكســـيـــكي ينخفـض بشـــدة»، غلوب آند ميل، 20 أغســـطس 1982؛ روبرت بينيـت، «الضغـــط علـــى المصرفيـين لمســـاعـــدة المكســـيـك»، نيويـورك تايمـز 21 أغسطس 1982.

(68) «المكســـيك تخطـــط لـ 160 إغلاقا»، نيويـــورك تايمز 17 نوفمبر 1982؛ حول إســـاءة اســـتغلال منتجات نباتات المحيطات انظر يونغ، «تدخل الدولة وإســـاءة اســـتغلال الموارد المشتركة»، 288.

(69) كاثـــرين اليســـون، «المكســـيك تصرف اعتماداتها»، أخبار سان جوزيه ميركوري، 22 أكتوبر 1989.

(70) ألان رايدنغ، «المصرفيون يشـــيدون بخطط التقشـــف في المكسيك»، نيويورك تايمز 3 ديسمبر 1982.

(71) جون كرويدسون وفينسينت شودولوسكي، «ثمن الإصلاح يشل المكسيك».

(72) بينـــي ليرنوكـــس، «إنقـاذ مهمـــة مســـتحيلـــة: دروس مـــن إنقاذ المكســـيك»، الأمة 6 أكتوبر 1984.

(73) ستيفان زاهنيسر وزاكاري كراغو، «NAFTA عند 15: بناء حول التجارة الحرة»، تقرير رقم 09-03-WRS مارس 2009.

(74) نعوم تشومسكي، «الربح فوق الناس» (نيويورك، نشر القصص السبعة 1999).

(75) اليزابيث مولكين، «وعد النافتا لم يتحقق»، نيويورك تايمز، 23 مارس 2009.

(76) تيموثي وايز، «حقول التجارة الحرة: المزارعون الصغار في المكسيك داخل الاقتصاد العالمي»، دولارز آند سنس، ديسمبر 2003.

(77) مولكين، «وعد النافتا».

(78) مولكين، «وعد النافتا».

(79) وايز، «حقول التجارة الحرة».

(80) جورج دايار ليل وانطونيو يونز نودي، «النافتا والحفاظ على تنوع الذرة في المكسيك»، لجنة التعاون البيئي في أمريكا الشمالية 2003،

www.cec.org/page.asp?PageID=11808Contentid=&SiteNodelID=472

(81) ماتيلد بيريز، «مسألة المكسيك الغذائية»، اليوم، 2 يناير 2010،

www.jornada.unam.mx/2010/01/02/index.php?section=politico&article=008n2pol

(82) تشومسكي، «الربح فوق الناس».

(83) دايار ليل ويونز نودي، «النافتا والحفاظ على تنوع الذرة في المكسيك».

(84) أوليفيه بافون، «البرتو كارديناس ينصح بالتعامل بقلب مفتوح»، لا كرونيكا دي هوي، 20 ديسمبر 2007،

www.cronica.com.mx/nota.php?id_nota=338675

(85) جيلي، «الثورة المكسيكية»، 337.

(86) «الفقر الريفي في المكسيك»، جزء 4، من «المكسيك: توليد الدخل والحماية الاجتماعية للفقراء»، تقرير رقم 32867، (البنك الدولي، واشنطن 2005) 170. يسجل كتاب الحقائق حول العالم للـ CIA معدلات الفقر عند «18.2 في المائة باستخدام تعريف للفقر مبني على الغذاء، أما الفقر المبني على الممتلكات فيبلغ أكثر من 47 في المائة (2006)».

(87) مارك سميث، «القتل المتسلسل مصدر للخوف والغموض/ موجة جديدة من القتل تحير الشرطة الذين يحتفظون بمشتبه»، هيوستن كرونيكال 31 مارس 1996؛ سام ديلون، «الاغتصاب والقتل يطارد النساء في شمال المكسيك»، نيويورك تايمز، 18 أغسطس 1998؛ جودي بيزار، «القبض على 9 في جواريز بتهمة ذبح 6 مراهقين بين المشتبهين بالقتل المتسلسل»، أخبار سان أنطونيو السريعة، 7 مايو 1998.

(88) تشارلز بودن، «مدينة القتل: سيوداد جوريز وحقول القتل الجديدة في الاقتصاد العالمي» (نيويورك: كتب الأمة 2010).

(89) «بودن مدينة القتل»، 104-105.

(90) جين فيليبس، «الاحتكارات على الطرف المجاور»، مجلات الأم جونز، يوليو/ أغسطس 2009.

(91) وارن ريتـشي، «مهربـو المخدرات يغـيرون الطرقات مع زيـادة الضغط في الولايات المتحدة»، سـان سـينتينال جنوب فلوريدا، 24 نوفمبر 1989؛ جـولي وليامز، «حرب حدود الولايات المتحدة على المخدرات تنتقل إلى تكساس»، أخبار جبال روكي دينيفر، 15 أكتوبـر 1989؛ وليـام أوفيرينـد، «مغامـرات في تجارة المخـدرات»، مجلة لوس أنجلوس تايمز، 7 مايو 1989.

(92) «مهربو المخدرات الكولومبيون يسـتخدمون خطوط الأنابيب المكسـيكية»، سـان فرنسيسكو كرونيكال، 1 يناير 1988.

(93) آستيان روتيل، «بارونات حرب عصابات دموية»، لوس أنجلوس تايمز، 4 يونيو 1993.

(94) جيمـس بروك، «دفـن تاجر مخدرات كبطل شـعبي»، نيويورك تايمز، 4 ديسـمبر 1993؛ «زعماء احتكار كالي كوكائين يعرضون صفقة استسـلام»، نشر وكالة فرنسـا، 17 ديسمبر 1993.

(95) كين ديرموتا، «اقتصاد الثلج: المخدرات وروح الرأسمالية»، مجلة السياسة العالمية 16، عدد 4 (شتاء 1999-2000): 15-24: 15.

(96) أنيتا سـنو، «مهربو المخدرات المكسـيكيون يصبحون أكثر ذكاء»، تايمز كونترا كوستا، 17 سبتمبر 1995.

(97) مكتـب شـؤون المخدرات العالميـة وتطبيق القانـون، «تقرير اسـتراتيجية التحكم بالمخدرات العالمية 1996»، وزراة الخارجية الأمريكية

www.state.gov/www/global/narotics_law/1996_narc_report/index.html

(98) هورهـي تشـابـات، «حـرب المكسـيـك على المخدرات: لا هامش للمناورة»، حوليـات الأكاديمية الأمريكية للعلوم الاجتماعية والسياسـية 582 (يوليو 2002): 134-148: 136.

(99) تريـسي إيتـون، «النافتـا ترتبـط بتهريـب المخدرات: قـوة المهام الأمريكية تقـول إن المهربـين يسـتغلـون الزيـادة في التجـارة عبر الحـدود»، دالاس مورننـغ نيـوز، 11 مايو 1998.

(100) ديرموتا، «اقتصاد الثلج»، 16.

(101) روبـرت كوليـر، «إمبراطور المخدرات الجديد في المكسـيك»، سـان فرانسيسـكو كرونيكال، 26 فبراير 1996.

(102) نيـك ريدينـغ، «ميثلاند: موت وحيـاة بلدة أمريكية صغـيرة» (نيويورك: دار نشر بلومزباري 2009).

(103) مارك فاينمان، «إمبراطورية مخدرات مكسيكية ضخمة للأخذ»، لوس أنجلوس تايمز، 29 يوليو 1997.

(104) هورهي كاستانيدا، «ما الاسم الإسباني للمستنقع؟»، سياسة خارجية 177 (1 يناير 2010).

(105) مقتبس في «المكسـيكيون يجفلون من ضربة الولايات المتحدة على الفساد، لكنهم يعترفون بأنها دقيقة»، EFE خدمة الأخبار العالمية، 15 يونيو 2005.

(106) ديفيد لوهناو وجوسـيه دو كوردوبا، «المكسيك تحتجز نائب رئيس شرطة مكافحة مخدرات سابق»، مجلة وول ستريت، 22 نوفمبر 2008.

(107) سلسلة تصريحات موضوعة من قبل هورهي كاستانيدا، «الخطر عبر الحدود» نيوزويك (نسخة عالمية)، 2 فبراير 2009، قيادة عامة للقوات الأمريكية، «بيئة العمليات المشتركة العام 2008: تحديات وعواقب لمستقبل القوة المشتركة» (سافولك: قيادة القوات المشتركة، مركز المستقبل المشترك، ديسمبر 2008) 36.

(108) جينز ايريك غولد، «كالديرون» يرفض تقارير «سخيفة» عن حرب مخدرات في المكسيك»، 12 مارس 2009

www.bloomberg.com/apps/news?pid=newsarchive&sid=axUJKcbAt82w

(109) كاستانيدا، «الخطر عبر الحدود».

(110) «ما الذي يريدونه منا؟»، إل دياريو، 19 سبتمبر 2010.

الفصل الخامس عشر

(1) أولي براون، «الهجرة وتغير المناخ» (جنيف: المنظمة الدولية للهجرة 2008) 10.

(2) سام نايت، «التسونامي البشري»، فاينانشال تايمز، 19 يونيو 2009.

(3) أندرو روس، «غسيل أخضر للمحلية»، الأمة 29 يوليو 2010.

(4) ميليسا ديل بوسك، «الانغماس في الدولارات»، تكساس أوبزرفر، 20 أغسطس 2010.

(5) بيتر أندرياس، «إعادة رسم الخط: الحدود والأمن في القرن الحادي والعشرين»، الأمن الدولي 28، عدد 2 (خريف 2003): 78 - 111: 88.

(6) جيورجيو أغامبن، «حالة استثناء»، (شيكاغو: نشر جامعة شيكاغو 2005) 2؛ غوبال بلاكريشنان، «العدو: صورة عقلية لكارل شميدت» (فيرسو: لندن 2000).

(7) «طوارئ على الحدود»، واشنطن بوست، 26 أغسطس 2005.

(8) «CBP الوحدة الجوية والبحرية تحصل على مروحيات جديدة من أجل تأمين الحدود»، الفضاء يوميا وتقرير الدفاع 223، عدد 23 (2 أغسطس 2007).

(9) «تأمين الحدود الأمريكية، السنة المالية لـ 2009 CBP في صفحة مراجعة الحقائق»، CBPgov، 24 نوفمبر 2009

www.cbp.gov/xp/cgov/newsroom/news_releases/archives/2009_news_xml.5_11242009/releases/nov_09

(10) «جنود سترايكر يتدربون في جنوب نيو مكسيكو»، الأخبار الأمريكية الاتحادية، 15 نوفمبر 2006.

(11) «تظهر مذكرات وبيانات سرية في السابق أن غارات الهجرة في حقبة بوش فشلت في تطبيق القانون»، (تقرير من عيادة عدالة الهجرة، مدرسة كاردوزو للحقوق، نيويورك 4 فبراير 2009).

(12) «الغارات على العمال تنسف حقوقنا»، اتحاد عمال الغذاء والتجارة العالمي 2009

www.ufcw.org/docUploads/UFCWICErptFinal150b_061809_130632.pdf?CFID=10424600&CFTOKEN=46213002

(13) «الغارات على العمال تنسف حقوقنا»، 5.

(14) مارغريت راميرز، «قانون الهجرة لعام 1996 يسـبب ارتفاع الترحيل»، لوس أنجلوس تايمز، 22 سبتمبر 1998.

(15) «محتجز ومطرود: صراع نساء للحصول على رعاية صحية في مراكز احتجاز المهاجرين في الولايات المتحدة»، منظمة مراقبة حقوق الإنسان، 17 مارس 2009

www.hrw.org/en/reports/2009/03/16/detained-and-dismissed

(16) دورا شريرو، «احتجاز المهاجرين: نظرة عامة وتوصيات»، وزارة الأمن القومي، تطبيق الهجرة والجمارك، 6 أكتوبر 2009

www.ice.gov/doclib/about/offices/odpp/pdf/ice-detention-rpt.pdf

«تقرير ينتقد التوسع في احتجاز المهاجرين»، نيويورك تايمز، 6 أكتوبر 2009.

(17) «المهاجـرون يواجهون احتجـازات طويلة لكنهم يملكون حقوقـا قليلة لتغيير هذه السياسة»، هيرالد ديلي، 22 مارس 2009.

(18) انظـر «يعالجـون كمجرمـين: طالبـو اللجوء في الولايـات المتحـدة»، الفصل 5 من «الولايات المتحدة: حقوق للجميع»، منظمة العفو الدولية، أكتوبر 1998

www.amnesty.org/en/library/asset/AMR511998/035//en/fd3dc1e9-sa9811-dd-80bc-797022E51902/amr510351998en.htmlg

(19) وليام فيشر، «الولايات المتحدة: اسـتمرار الإسـاءات في احتجـاز المهاجرين»، خدمة إنتربرس، 31 مارس 2010.

(20) فاليريا فرنانديز، «الولايات المتحدة: تقييد امرأة مهاجرة محتجزة أثناء وضعها ولدا»، خدمة إنتر برس، 4 مارس 2010.

(21) آدم نوسـيتر، «امرأة أركنسـاس تترك في الحجز وتمضي 4 أيام من دون غذاء ولا ماء»، نيويورك تايمز 12 مارس 2008.

(22) آمي غولدشتاين ودانا بريسـت، «تخدير بعض المحتجزين قبل ترحيلهم»، واشنطن بوست 14 مايو 2008.

(23) تـوم بـاري، «مـوت في تكسـاس: أربـاح وفقر وتغطية هجرة»، بوسـطن ريفيو (نوفمبر - ديسمبر 2009).

(24) باري، «موت في تكساس».

(25) «محتجـز بعيدا: نقـل المهاجرين إلى مراكـز احتجاز بعيدة في الولايـات المتحدة»، منظمة حقوق الإنسان 2 ديسمبر 2009

www.hrw.org/en/node/86789

(26) ألكسس دي توكوفيل، «الديموقراطية في أمريكا» (1835 نيويورك: هاربر بيرينيال 1966) 237.

(27) كيرت كامبل وآخرون، «عصر العواقب: تأثير تغير المناخ العالمي في السياسة الخارجية والأمن القومي» (واشـنطن: مركز الدراسـات الإسـتراتيجية والدوليـة ومركز الأمن القومي الجديد 2007) 85 و86.

(28) كامبل وآخرون، «عصر العواقب: 85-86؛ «دعت برندا ووكر ضيفة بويلز المكسـيك» إحدى أسـوأ الدول في العالم»؛ وقالت إن «المكسـيكيين جيدون في... تأسيس تهريب البنى التحتية ويمكنهم النفاذ... بأسلحة الدمار الشامل»، قضايا إعلامية في كولورادو»، 20 أكتوبر 2006،

www.colorado.medismatters.org/item200610200003

وللمزيد عن برندا ووكر انظر:

www.adl.org/immigration/blogosphere/brenda_walker.asp

(29) دعت غيين ضيفة بويلز المكسيكيين الذين يقولون إن العنصرية وراء مناقشة الهجرة في الولايات المتحدة بالـ «نازيين ذوي القمصان البنية»، قضايا إعلامية في كولورادو، 9 أكتوبر 2007.

(30) ديفيد أيبل، «إيقاف سيفرين بسبب تعليقاته على المهاجرين المكسيكيين»، بوسطن، 1 مايو 2009

www.boston.com/news/local/massachusetts/articles/2009/05/01/severin_suspended_for_comments_about_mexican_immigrants

(31) أيبل «سيفرين» سافيج «احرقوا العلم المكسيكي!»، قضايا إعلامية لأمريكا، 31 مارس 2006

http://mediamatters.org/research/200603310008

(32) ماديسون غرانت، «مرور العرق العظيم أو الأساس العنصري للتاريخ الأوروبي» (نيويورك: تشارلز سكريبنر سانز، 1916). هذا الكتاب شكل آراء أناس مثل ثيودور روزفلت ووليام راندولف هيرست حول العالم وساعد في تبرير التوسع الإمبريالي للولايات المتحدة، وحصص الهجرة المبنية على أساس عنصري في العام 1924.

(33) «اقترح بورتز القبة العظيمة كمكان لاحتجاز 11 مليون هسباني ينتظرون شحنهم للعودة إلى نيكاراغوا وكولومبيا وكوستا ريكا والمكسيك»، 29 مارس 2006 قضايا إعلامية لأمريكا،

http://mediamatters.org/research/200603290004

(34) «بورتز حول المهاجرين غير الشرعيين: أعطهم كلهم بعض الفضلات النووية ودعهم يأخذونها معهم إلى المكسيك»، قضايا إعلامية لأمريكا،22 يونيو 2007،

http://mediamatters.org/mmtv/200706220005

(35) «منظّر المؤامرة في CNN لو دوبس يشوه سمعة شبكته - ادعاء كبير كل مرة»، 23 يوليو 2009.

http://mediamatters.org/mobile/research/200907230035

(36) لو دوبس، «عدم الأمان على الحدود: أجانب مجرمون غير شرعيين ومستوردات مميتة وعفو عن الأجانب غير الشرعيين»، CNN 14 أبريل 2005،

http://edition.cnn.com/TRANSCRIPTS/05041/14/1dt/01.html

(37) نص من بيك متوافر عند «حذّر بيك مرة أخرى من أن المسلمين إذا لم يتصرفوا الآن بالدخول في حقل التنديد بالإرهاب فإنهم سينظرون من خلال سياج من الأسلاك الشائكة نحو الغرب»، قضايا إعلامية لأمريكا، 7 سبتمبر 2006

http://mediamatters.org/mmtv/200609070002

(38) من 1 مايو 2006 إذاعة ويســتوود وان «عامل الراديو، مع بيل أو رايلي»، متوافر في: «ادعى أو رايلي بأن منظمي الاحتجاجات حول الهجرة يخفون خطة عســكرية سرية لاسترداد الجنوب الغربي من الولايات المتحدة»، قضايا إعلامية لأمريكا، 3 مايو 2006

http://mediamatters.org/mmtv/200605030009

(39) اقتبــس أو رايلي في «هاجمت أرقام الإعلام المكســيكيين الملوحين بالأعلام، لكن ليس أولئك الملوحين بالأعلام الإيرلندية أو الإيطالية أو الإسرائيلية»، قضايا إعلامية لأمريكا، 3 أبريل 2006،

www.mediamatters.org/research/200604030012

(40) الديموقراطية الآن، عناوين رئيســية، 11 مايو 2010، كين سيلفرشتاين، «حزب الشاي في سونورا»، هاربر (يوليو 2010).

(41) جوناثان كوبر، «أريزونا الحاكم يوقع قانونا يمنع الدراسات العرقية»، أسوشيتد برس، 12 مايو 2010.

(42) بيــل أو رايــلي، «الحقيقة حول أريزونــا والأجانب غير الشرعيــين»، أخبار فوكس، 4 مايو 2010

www.foxnews.com/story/0,2933,592129,00.html

(43) بــول روبن، «زمن واحــد على واحد مع نائب رئيس شرطــة مقاطعة – ادعاؤه بأنه أصيب بالرصاص من مهرب مخدرات مملوء بالثغرات – ينتج نتائج غريبة»، نيوتايمز (فينيكس) 25 نوفمبر 2010.

(44) قال ماثيو إن «للجمهوريين الحق بالخوف من رؤية أغلبية من الســكان اللاتينيين»، وتحدى غودمان «هل عشت في حي مكسيكي؟»، 31 مارس 2006.

(45) في دعايــة عــلى الـ NBC لكتاب بوكانان ضد الهجــرة، صرح ماثيو بأنه «بفضل هذا العرض، يمكن لهذا الكتاب أن يبقى رقم 1 في أمريكا»، 25 أغسطس 2006.

(46) باتريــك بوكانان، «حالة طوارئ: اجتياح العالم الثالث وغزو أمريكا» (نيويورك: كتب توماس دون 2006) 1-2.

(47) بوكانان، «حالة طوارئ»، 6، 12، 28.

(48) ريتشــارد هوفشــتادتر، «أنماط الرهاب في السياسة الأمريكية»، مجلة هاربر، نوفمبر 1964، 77 - 86.

(49) «موافقة واســعة على قانون الهجرة الجديد في أريزونا: الديموقراطيون منقســمون، لكنهم يؤيدون النقاط الرئيسية»، مركز بحوث بو للناس والصحافة، 12 مايو 2010.

(50) جين ماير، «عاملون سريون»، نيويوركر 30 أغسطس 2010؛ جورج مونبيوت، «حركة حزب الشاي: مخدوعة وملهمة من مليارديرات»، الغارديان، 25 أكتوبر 2010.

(51) إيان ترينار، «الســويد تشــارك في الحملة الأوروبية الواسعة ضد الهجرة»، الغارديان 24 سبتمبر 2010.

(52) أنتوني فيـولا، «المشــاعــر ضــد المســلمين تدفع الجناح اليميني»، واشــنطن بوست 26 أكتوبر 2010.

(53) كيت كونيللي، «غجر محصورون خلف جدار أوروبي مشين»، غارديـان، 24 أكتوبر 1999.

(54) بيــل ماكيبين، «الأرض: صنع حياة على كوكــب جديد قاس» (نيويورك: هنري هولت وشركته، 2010)، 145 - 146.

الفصل السادس عشر

(1) «محطــة نووية من جيل قــادم: تقرير في الكونغرس» (أُعد من مكتب الطاقة النووية في وزارة الطاقة الأمريكية أبريل 2010) 23، متوافر على

http://nuclearenergy.gov/geniv/negeniv.html

(2) مارك هيرتسغارد، «إعادة الخضار إلى أفريقيا»، الأمة 19 نوفمبر 2009.

(3) يمكن للمرء أن يجد مراجع حول هذا على موقع خدمة البيئة العالمية في برنامج الأمم المتحدة للتنمية،

www.pnud-energia.org.bo

(4) من أجل الحصول على المزيد انظر روبرت سكيلديســكي، «كينز: عودة السيد» (لندن: ألين لــين 2009)؛ مارك فايزبروت، «الانتخابات البرازيلية مهمة بالنســبة إلى العالم»، فولكا دو ســان باولــو (البرازيل) 8 أكتوبــر 2010؛ مارك فايزبروت، «من سيســمح للبرازيــل أن تحقــق إمكانياتهــا الاقتصادية؟»، فولكا دو ســان باولــو (البرازيل) 27 أغسطس 2010.

(5) جيــا لين يانغ، «الشركات تراكــم النقد لكنها تتردد في زيادة فرص العمل»، واشــنطن بوست 15 يوليو 2010.

(6) وليام الدن، «وول ســتريت يحقق أفضل ســنتين على الإطــلاق بفضل عملية الإنقاذ»، هافنغتون بوست، 13 ديسمبر 2010.

(7) آرون لاكيتي وســتيفان غروسار، «في الشارع: خزائن الدفع تسجل أعلى مستوى لها»، مجلة وول ستريت، 2 فبراير 2011.

(8) مات تايبي، «آلة الفقاعات الأمريكية العظيمة»، رولنغ ستون، 5 أبريل 2010.

(9) انظر مؤشر موندي

www.indexmundi.com/commodities/?commodity=food-price-index&months=60

(10) المخططات متوافرة في مؤشر موندي:

www.indexmundi.com/commodities/?commodity=wheat

(11) روكســانا تــيرون، «مجلس الشــيوخ يوافق على قانون الدفــاع، 68-29»، الهيل، 22 أكتوبر 2009؛ روبــرت هيغز، «ميزانية الدفاع بتريليون الــدولارات أصبحت جاهزة مسبقا»، معهد إنديبندت، 15 مارس 2007،

www.independent.org/newsroom/article.asp?id=1941

ليسي أولســن «الزيادة في الإنفاق على الدفاع منذ العام ؛ 2001»، مركز التحكم بالتســليح وعدم انتشار الأسلحة، 11 مارس 2010،

http://armscontrolcenter.org/policy/securityspending/articles/fy11_groeth_since_2001

(12) «ضريبـة الدخل الأمريكية على الأفراد: إعفاءات شـخصية وأعلى المعدلات الضريبية واخفضها والأساس الضريبي للضريبة العادية»، سنوات ضريبة 1913-2008، الجدول 23. لبيانـات أحدث انظـر «عوائد ومصاريف وعجز وفوائـض ودين على الجمهور، 1971 حتـى 2010 بمليارات الدولارات»، الموازنة ومسـتقبل الاقتصاد: بيانات لتاريخ الموازنات. مكتب الموازنة في الكونغرس، يناير 2011 الجدول E-1,1.

(13) «التعامل مع الشـك: صناعـة إنكار تغير المناخ وعلم المناخ»، (تقرير حركة السـلام الأخـضر العالميـة أمسـتردام 24 مـارس 2010) 4. أيضا انظر كريس مـوني، «حرب الجمهوريين على العلم» (نيويورك: كتب بيسك 2005).

(14) «إكسون لا تزال تساعد المتشككين في المناخ»، الأسترالي 20 يوليو 2010.

(15) جـين ماير، «عمليات تحويل: الأخوان المليارديرات اللذان يشـنان حربا على أوباما»، نيويوركر 30 أغسطس 2010؛ «صناعات كوخ تمول سرا آلة إنكار تغير المناخ» (تقرير من حركة السـلام الأخـضر في الولايات المتحدة واشـنطن في 30 مارس 2010) «100 مادة سامة ملوثة للهواء»، معهد بحوث الاقتصاد السياسي، مارس 2010

www.peri.umass.edu/toxix_index

(16) كريتسـان بارينتـي، «ربح حرب الأفـكار»، «في هذه الأوقـات»، أكتوبر 2003؛ كيم فيليبس - فين، «أيـاد خفية: صنع الحركة المحافظة منذ زمن الصفقة الجديدة حتى ريغان» (نيويورك: نورتن 2009).

(17) «عـدد أقـل مــن الأمريكيـين يجـدون دليـلا قويا للاحـترار العالمي، وتأييد متواضع لموضوع سياسـة التغطية والتجارة»، مركـز بحوث بيو للناس والصحافة، 22 أكتوبر 2009

http://people-press.org/report/669

(18) أندرو مالوني، «حياتي أثناء الهروب: جاسـوس من الشرطة يكشـف عن 8 سنوات كمحـارب مـن أجل البيئة»، ديلي ميـل (UK) 17 ينايـر 2011؛ ماثيو تيلر وبول لويـس، «ضابط الشرطة السري مـارك كينيدي في قلب ضجة عالميـة»، الغارديان (UK) 13 يناير 2011. تم هذا الانتهاك الفاضح لسـلطات الشرطة تحت سـلطة حكومـة عماليـة يفـترض أنها ملتزمـة بمعالجة تغـير المناخ، وقـد ذهبت بعض المعلومات التي جمعت حول الناشطين المتطرفين على مستوى القاعدة مباشرة إلى مكتب رئيس الوزراء طوني بلير.

(19) بريـان توكـر، «نحو عدالـة مناخيـة: آراء حول أزمـة المناخ والتغـير الاجتماعي» (غرينمارسفيغن، النرويج: دار نشر كوميانااليزم 2010) 13.

(20) سـوزان غولدينبرغ، «قانون باراك أوباما حول المناخ يضرب بحملة كلفت 45 مليون دولار»، الغارديان (UK) 12 مايو 2009.

(21) روبرت وايشيلمان، «تحطيم الفحم الحجري الكبير»، الأمة، 3 مايو 2010.

(22) هنري ميللر، «مدار الجدي» 293.

(23) «بوليفيا: الحكومة ستعلن حزمة تشجيع لـ SMEs»، الدير، 2 سبتمبر 2009.

(24) جون فيـدال وجوناثان واتس، «مؤتمر كوبنهاغن يغلق بصفقة ضعيفة يهدد الفقراء برفضهـا - اتفاقيـة غير ملزمة تقيد ارتفـاع درجة الحرارة، لكنهـا لا تتضمن أهدافا للإصدارات»، الغارديان (UK) 19 ديسمبر 2009.

(25) بابلو سـولون «لماذا وقفـت بوليفيا وحدها في معارضة اتفاقيـة كانكون حول تغير المناخ»، الغارديان (UK) 21 ديسمبر 2009.

(26) داميـان كارينغتـون، «برقيـات ويكيليكس تظهر كيف تحكمـت الولايات المتحدة باتفاقية المناخ»، الغارديان (UK) 3 ديسـمبر 2010، انظر أيضا البرقية التي أرسـلت في 26 فبراير 2010.

(27) «الميثان»، وكالة حماية البيئة www.epa.gov/methane.

(28) جينيفر خو، «أكبر تقنية نظيفة VC: الصين»، 26 فبراير 2010؛ انظر أيضا «نحو تعافي الأخـضر العالمي: توصيات لإجراء فـوري من قبل مؤتمر قمة العشرين G20» (تقرير عرض على قمة G20، في لندن 2 أبريل 2009).

(29) «رئيس الاتحاد الأوروبي يطلب 1 تريليون يورو لإعادة تأهيل الشـبكة»، رويترز، 10 نوفمبر 2010.

(30) مقتبس في كريستيان بارينتي، «قضية الـ EPA»، الأمة، 15 أبريل 2010.

(31) حول IBM انظر ليندا فايس واليزأغسطسيث ثوربون، «مسألة شراء بضائع أمريكية: شراء الدولـة كاسـتراتيجية تجارية في الولايـات المتحدة»، ريفيو الاقتصاد السـياسي العالمي 13، عدد 5 (ديسمبر 2006)701-724. لأخذ فكرة عن دور الحكومة الهندية في بناء قطاع تقني بواسـطة قدرتها الشرائية، انظر راجيفا سـينبا، «الشراء الحكومي والقدرة التقنية: حالة صناعة التجهيزات الكهربائية الهندية»، الأسـبوعية الاقتصادية والسياسية 29، عدد 48 (26 نوفمبر 1994) 142-147.

(32) مـن أجل مناقشـة نظريات حركات الخضر اليسـارية حول الراسـمالية انظر روبين إيكيرسـلي، «البيئة والنظرية السياسـية: نحو اتجاه متركز بيئيا» (الباني: نشر جامعة الولاية في نيويـورك 1992)؛ وتيد بنتون، «علاقة طبيعيـة: البيئة وحقوق الحيوانات والعدالة الاجتماعية» (لندن: فيرسو 1993).

(33) جون بيلليمي فوسـتر، «بيئة ماركـس: المادية والطبيعة» (نيويـورك: نشر المراجعة الشهرية 2000).

(34) كارل ماركس، «رأس المال» (نيويورك: كلاسيكيات بنغوين 1976) 1: 637.

(35) مـاري دوغلاس، «النقاء والخطـر: تحليل مبـادئ التلوث والمحظـور» (نيويورك: روتليدج 1966) 41.

(36) هيذر روجرز، «ذهب غدا: الحياة المخفية للفضلات» (نيويورك: نيو برس 2006).

المؤلف في سطور

كريستيان بارينتي

- صحافي ومؤلف أمريكي.
- ولد في الولايات المتحدة، وتخرج في مدرسة لندن للعلوم السياسية والاقتصادية.
- حاز جائزة «إيمي» للصحافة الوثائقية، وأرسل تقارير من أفغانستان والعراق وفنزويلا وبوليفيا وساحل العاج والصين.
- لـه عدد مـن المؤلفات منها: «أمريـكا المغلقة: الشرطة والسـجون في عصر الأزمة» (2000)، و«القفص الناعم: مسـح لأمريكا من عصر الـرق إلى الحرب على الإرهاب» (2003)، و«كتاب الحرية: ظلال الأوهام في العراق المحتل» (2004).

المترجم في سطور

د. سعد الدين خرفان

- من مواليد مدينة حمص/ سورية 1946.
- حصـل على البكالوريوس في الهندسـة الكيميائية من جامعة ليـدز - بريطانيا في العام 1969.
- حصل على شـهادة الماجسـتير في كيمياء الهايدروكربونات من جامعة مانشستر في العام 1970.
- حصل على شـهادة الدكتوراه في هندسـة المفاعلات من جامعة نيوكاستل في بريطانيا العام 1976.
- أستاذ في كلية الهندسة الكيميائية والبترولية بجامعة البعث.
- مدير بحوث في هيئة الطاقة الذرية من العام 1986 إلى العام 2001.
- عضو مكتب المهام التابع للجنة الأمم المتحدة لتغير المناخ IPCC في جنيف بسويسرا منذ العام 2002.
- عضو اتحاد الكتاب العرب منذ العام 2005.

- له أكثر من 25 كتابا مؤلفا ومترجما في الهندسة الكيميائية والطاقة والبيئة والمياه.
- من كتبه المنشورة «رؤى مستقبلية»، «الله والعقل والكون»، «من أجل البقاء أحياء»، «تغير المناخ ومستقبل الطاقة»، «الجائزة الكونية»، «وجه غايا المتلاشي»، «فيزياء المستحيل».
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والفكرية في العالم.
- له عدد كبير من البحوث العلمية والمقالات المنشورة في المجلات العلمية والأدبية العالمية.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978 .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة :

1 - الدراسات الإنسانية : تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار .

2 - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات .

3 - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة .

4 - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

5 - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) ، والدراسات التكنولوجية .

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية ، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي .

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر .

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين ، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط ، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته . وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة

هذا الكتاب...

يأتي كتاب «مدار الفوضى: الجغرافيا السياسية لتغير المناخ» ليربط موضوع تغير المناخ بالصراع الاجتماعي والعنف السياسي اللذين يميزان بعض مناطق العالم اليوم. يقصد الكاتب بـ «مدار الفوضى» جغرافيا ذلك الحزام على طرفي خط الاستواء بين مدار السرطان ومدار الجدي، والذي تشهد دوله صراعات عنيفة وحروبا أهلية وجريمة منظمة. وهو المنطقة نفسها التي يضرب فيها تغير المناخ بقوة أشد من خلال دورات الجفاف، وتكرار الفيضانات، وحوادث الطقس العنيف.

يأخذنا الكتاب إلى الدول التي تقع في هذا الحزام عبر القارات الثلاث. يبدأ من كينيا ومنطقة الساحل في شرق أفريقيا حيث يتفاعل الجفاف مع إرث الحرب الباردة، والسياسات الليبرالية الجديدة في تأجيج العنف هناك. ثم يتوجه إلى آسيا الوسطى حيث يبين تأثير الجفاف وأزمة المياه على الحرب في أفغانستان والصراع بين الهند وباكستان والحرب الأهلية في قرغيزستان. وأخيرا يأتي إلى أمريكا اللاتينية ليبرز دور تغير المناخ في نشوء الجريمة المنظمة في مدن البرازيل الكبرى، وازدهار تجارة المخدرات والهجرة في المكسيك.

لا يعزو الكاتب هذه المشاكل إلى تغير المناخ وحده، لكنه يرى أنه أصبح عاملا رئيسا، إضافة إلى العوامل الأخرى الموجودة في هذه الدول مسبقا مثل إرث الحرب الباردة، وتبني الاقتصاد الليبرالي الجديد، فيما دعاه بثلاثية التجمع الكارثي للفقر والعنف وتغير المناخ.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 418 - 4
رقم الإيداع(2014/7135)